

■ دراسات في السياسة والاقتصاد

7 النهضة الأمريكية: نموذج التطوير الواحد د. محمد أبو حبيب أحمد

18 الأطماع الصهيونية في بلاد العرب د. محمد أحمد صالح حسين

65 التحولات السياسية والاقتصادية في الكويت والوطن العربي د. علي أحمد عطية

109 المبادئ العربية ودراسة الإنشائي أ. عبد الطيف يوسف أحمد

125 الفكر الاشتراكي: منطلق النهضة العربية د. أحمد منير نجار

143 مصر كدولة - الاقتصاد السياسي لها د. عباس القوي

■ أطراف القضية

157 تكوين أقطار القارات العربية المتحدة د. عادل حوش

187 دور بورجوازيين الكادية الماركسية والاشتراكية العربية أ. عبد الكريم درويش

219 حسن الأحمدي والشمس بين القديم والحديث أ. عبد الله عبد الأمير

233 أسرار الفرحل والهجرة ومروحياتها د. محمد إدريس

283 تحليل معاصر في بلاد الشام د. سمير شريف استيلا

تقديم

هنا

عاشق كان ضمن خطة محاور مجلة عالم الفكر محور «الاقتصاد والاقتصاد السياسي». واعتقدنا ان الكتابة في هذين الموضوعين لن تكون مشككة لأهميتهما في الواقع، حيث العولمة والخصخصة المعاصرة، ولأنهما مجالان مهمان في حياة الشعوب وخاصة في العالم العربي. والتفاهة كانت لنا لم نجد من يكتب في بعض الموضوعات الاقتصادية والسياسية من الشخصيين، على الرغم من محاولاتنا حيث عدد منهم على المساهمة في هذا المحور من الجامعات العربية وخارجها أو اعتماد الكتابين ونمضهم في مآثور العدد بفترة وجيزة، كما ان بعض المحررين قد أوصل إلى المادة كتاباً طرأ، وكان لابد من صدور العدد أو استبدال محور آخر به. فكل الرأي ان الموضوعات التي أسهم بها أصحابها في هذا المحور جهداً ومهمة، وتناول أمورا أساسية في مجال الاقتصاد والعلوم السياسية. نقدمها للقارئ على أمل أن تستكمل الجوانب الأخرى في هذين المجالين، خصوصاً المجال الاقتصادي، هي أعداد القادمة.

يتناول هذا المحور في المجال السياسي دراسات متنوعة تبدأ بدراسة عن «الهيمنة الأميركية. نموذج الخطب الواحد وسيناريوهات النظام العالمي الجديد»، وركز الباحث فيها على واقع النظام العالمي الجديد ومستقبله، من خلال هيمنة الخطب الواحد المتصل في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي البحث الثاني دراسة حول «الأطماع الصهيونية على مصادر المياه العربية»، وهو موضوع الحاضر والمستقبل في النزاع العربي - الإسرائيلي، كما أنه أخطر قضية في هذا النزاع. ويتناول البحث الثالث محاولة لدراسة «التحديات السياسية والاجتماعية لدى طلبة جامعة الكويت»، لمعرفة مدى ثقافة هؤلاء الشباب حول القضايا والتحديات الأساسية التي تواجه

مجتمعهم والعالم العربي، ثم ذاتي بحوث المجال الاقتصادي، التي كنا نطمح إلى أن تغطي أهم الموضوعات في مجال أساسي ومهم، وخاصة في العالم العربي الذي يمر بمرحلة محاض في عصر التحولات التي يشهدها العالم. وطرحنا دراسة أهمية «العناديق العربية للتنمية ودورها» تصوراً ركز على خمس مبادئ دعم المشروعات من طريق هذه العناديق وحجم ذلك الدعم، وعلى النموذج الذي يمثله في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العالم العربي. إضافة إلى ما مثلته هذه العناديق من تعزيز للشعاع الاقتصادي العربي.

ثم هناك دراسة أخرى حول منظمة التجارة المالية وتأثير اتفاقياتها في مجال الصناعة في الكويت، ملخصها أن القطاع الصناعي في دولة الكويت سيتأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالاتفاقيات المالية المتعلقة بمنظمة التجارة العالمية، وأن الالتزامات تجاه المنظمة تشكل تحديات كبيرة، وأن العنصر حول كيفية تحقيق الفوائد من تلك الاتفاقيات وتقليل المخاطر والتحديات.

كما أن لدينا في هذا العدد، وفي المجال الاقتصادي، مراجعة جيدة لكتاب جيد سبق أن صدر عن سلسلة «عالم المعرفة» بالكويت بعنوان «الاقتصاد السياسي للبطالة» يستعرض لجنة البطالة، وتطبيقاتها في الفكر الاقتصادي، وكيفية الخروج من مازق البطالة في البلدان النامية.

هذه دراسات المحور بشقيه السياسي والاقتصادي، ولأهميتهما لا بد من تناول قضايا أخرى تتعلق بهما في أعداد قادمة، خصوصاً المجال الاقتصادي، فالاقتصاد قضية أساسية في حياة المجتمعات، التي يقاس تقدمها بمدى التطور الاقتصادي فيها.

رئيس التحرير

الهيئة الأمريكية : نموذج القطب الواحد وسيناريوهات النظام العالمي الجديد

د. سعيد أبو ضيف أحمد^(*)

ملخص

شاع استخدام مصطلح النظام العالمي الجديد كإطار صلاحي فترة ما بعد الحرب الباردة واستخدمه بكثافة الرئيس الأمريكي السابق George Bush، في محاولة منه لتجديد الخطاب الدولي الواسع النطاق في حرب الخليج.

وشهدت بدايات العقد الأخير من القرن العشرين، انحداراً مبرحاً، تمثل في ميل الكتابات الأكاديمية والصحافية التي تناولت النهوم، على حين شهد النصف الأخير من هذا العقد خدرة نسبية، في الكتابات الأكاديمية والسياسية التي تناولته. ربما كان عامل رد الفعل، وما يمكن استشرافه من أن حجم الدعاية والتوظيف للنهوم في فترة حرب الخليج كان أكبر مما حوى النهوم من إمكانات حقيقية لبدايات عصر جديد، يشتر به الذين لبثوه وعملوا على شيوخه.

فالنظام الدولي اليوم يعيش مرحلة تاريخية مهمة من التحولات والمستجدات السريعة والمتلاحقة ذات أبعاد عميقة تترك آثارها الواضحة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفنائها الحروب والسلام، وهي العلاقات الدولية عامة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل «وضع والتجاهات» الهيئة الأمريكية في ظل السيناريوهات المستقبلية للنظام العالمي الجديد، من خلال استعراض الأدبيات الحديثة، التي تناولت النهوم منذ منتصف التسعينيات، وهي على غلتها التسمية تمثل وصفاً جيداً لأهم الاتجاهات الفكرية في دراسة الموضوع.

(*) قسم العلوم السياسية - جامعة بلاد البزيس - مصر.

ونستخدم الدراسة مفهوم الاتجاهات الفكرية بمعنى «مجموعة الأفكار والرؤى والتصورات والاتجاهات التي طرحها المفكرون والباحثون حول موضوع - النظام العالمي الجديد -، وذلك من خلال عرض رؤية باتورامية أولية للاتجاهات الفكرية الرئيسية، التي سادت منذ ولادة النظام العالمي الجديد في النصف الأول من التسعينيات، وتشخيص واقع اتجاهات النظام العالمي الجديد في صورته الراهنة، واستعراض وتحليل السيناريوهات المستقبلية لاتجاهات النظام العالمي الجديد على النحو التالي:

أولاً: اتجاهات النظام العالمي الجديد في أواخر التسعينيات

مقدمة

أدت ولادة النظام العالمي الجديد مع بداية التسعينيات من القرن العشرين إلى ردود أفعال متباينة. وبالمراجعة المسحية لأدبيات النظام العالمي اتضح لنا أن هناك ثلاثة اتجاهات فكرية رئيسية - أولها يقول بوجود نظام عالمي جديد، وثانيها ينفي وجود هذا النظام، والثالثة يرى أن هذا النظام لا يزال قيد التشكيل والتطور، وسوف نعرض لهذه الاتجاهات بصورة موجزة على النحو التالي:

يذهب أصحاب الاتحاد الأول إلى التأكيد على وجود هذا النظام بصورة قاطعة⁽¹⁾، وإلى أن هناك من التغيرات التي تدل على وجود النظام العالمي الجديد، والتي يبدو مختلفاً عن النظام الدولي القديم، ويتشكّل فيه التميز في التقسيم الجغرافي للبلد، وزوال الاتحاد السوفييتي، وبرز دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة، وتدعيم دور الأمم المتحدة باعتبارها تجسد الشرعية الدولية، وتنامي مجموعة من المشكلات والتحديات الدولية الجديدة التي تتطلب تعاوناً دولياً من أجل مواجهتها مثل: مشكلات تلوث البيئة والإرهاب والمخدرات، وتراجع مكانة القوة العسكرية، وتزايد مكانة القضايا الاقتصادية على أجندة الاهتمامات الدولية، واتساع نطاق التحول الديمقراطي، وتزايد حدة الاستقطاب بين الشمال والجنوب⁽²⁾.

ولمّا اتجهت أمريكا داخل هذا الاتجاه، فهناك من يركز على الجوانب الإيجابية للنظام العالمي الجديد⁽³⁾، وهناك من يقر بوجود النظام العالمي الجديد، إلا أنه ينتقد الأسس التي يستند إليها هذا النظام باعتباره يسمي لتحقيق مصالح قوى معينة⁽⁴⁾.

ويخلص أخصار هذا الاتحاد إلى أن وجود النظام العالمي الجديد لا يعمل بالضرورة وعموماً بعالم أكثر أمناً وعدلاً، أو كونه أفضل من القديم، وأن كل ما يوحى النظام العالمي الجديد به هو وجود فروق عميقة وجوهرية في اسمه وطوره وفضائيه عن النظام العالمي السابق عليه.

وأصحاب الاتجاه الثاني ينكرون ويشككون بوجود نظام عالمي جديد ويؤكدون أن هذا النظام، وعلى رغم كل ما جرى في الساحة الدولية من تحولات ملحوظة خلال السنوات

الأخيرة، ثم يتكرر بعد. وأن الحديث عن مثل هذا النظام هو مجرد وهم وخدعة^{١١}، ولما اتجهان فرعيان داخل هذا الاتجاه، أولهما ينكر وجود نظام دولي جديد، استناداً إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي انتابت العالم في أعقاب الحرب الباردة. وهي تقديره أن ما يحدث الآن هو اقتراب إلى حالة من «الفوضى الدولية الجديدة» والتي سوف تستمر. حتى يتم التوصل إلى ترتيبات دولية جديدة وترسيخها في صيغة نظام عالمي جديد^{١٢}.

وثانيهما يرى أنه على الرغم من وجود منظمات دولية جديدة، إلا أن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد ليس جديداً في مضمونه أو أهدافه. وإنما هو اقتراب إلى الترتيبات الجديدة التي يستحدثها النظام العالمي القديم ليمد بها تأكيد دوره في ظروف متغيرة^{١٣}.

على حين يذهب أنصار الاتجاه الثالث إلى القول إنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام عالمي جديد بالعنى العلمي الدقيق، فهو لا يزال قيد التشكيل والتطور. ولم تستطع معالته بصورة واضحة بعد. وإن المرحلة الراهنة من مراحل تطور النظام الدولي تمثل مرحلة انتقالية. تشهد التنازع بين أسس وقواعد النظام الدولي القديم، الذي تطور في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية من ناحية، ومن ناحية ثانية بروز أسس وقواعد «النظام الدولي الجديد» وإنها سوف تستغرق بعض الوقت. وتتم بحالة من **الفوضى الدولية**، وما يكتسبها من فوضى واضطراب ومظاهر لعدم الاستقرار في مناطق عديدة من العالم^{١٤}.

وبما على ماسبق يمكن ملء هذه من الفجوات المهمة الأولى، أن هناك رؤى واتجاهات متعددة بشأن صياغة أزمات النظام العالمي الجديد منذ أوائل التسعينيات - والتي ما زالت تساغ - حتى الآن - سواء من حيث التعريف أو السمات أو المنطلقات الفكرية للبحث عن هيكل، أو لتحديد القوى الفاعلة في النظام العالمي الجديد.

وينطلق الاتجاه الراض للنظام العالمي الجديد من منطلقات فكرية مختلفة. فالبعض يرى أن هذا النظام العالمي الجديد يعادي العرب والمسلمين ودول الجنوب عامة، والبعض الآخر يرى أن هذا النظام الجديد ما هو إلا استمرار للنظام القديم. ولكن في ظروف دولية جديدة. ولعل ذلك يرجع في تقديرنا إلى عمق التحولات الدولية وسرعة حدوثها ولداخلها.

الثانية، أنه على الرغم من تعدد الاتجاهات الفكرية بخصوص النظام العالمي الجديد - إلا أن هناك اتفاقاً عاماً بين الباحثين والفكرين في مجال العلاقات الدولية على وجود منظمات وتحولات جديدة، جعلت العالم يعتمد تدريجياً عن النظام الدولي السابق الذي تباير في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والذي استند إلى نظام القطبية الثنائية الذي انهار مع انهيار الاتحاد السوفييتي. ودخل العالم مرحلة جديدة. وهو ما يمثل الاتجاه الدائب في الفكر.

ومن ثم ينطلق أنصار هذا الاتجاه من نظرية والجمعية إلى عمق التحولات والمشاهدات السريعة والتلاحقة. والتي تترك آثارها الواضحة في الحياة السياسية والاقتصادية

الهيئة العربية

والاجتماعية، وقضايا الحرب والسلام، وعلى العلاقات الدولية بصفة عامة في ظل الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة في وسائل الاتصال والمعلومات.

الناقد، تشير المراجعة النظرية لدراسات والبحوث، التي ركزت على هيكل النظام المالي الجديد - إلى أن الاعتماد انصب على دراسة مفهوم القوة، وعناصرها، ومدى قدرتها على التأثير في سلوك الدول، ومدور القيادة والعوامل الداخلية في توجيه السياسة الخارجية للدول⁽¹⁾. ويفقد هيكل النظام، توزيع القدرات في هذا النظام، وبالتالي ترتيب الوحدات المكونة له بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر، وانعكاسات مثل هذا التوزيع على سلوك الوحدات الدولية، وقدرتها إحداهما أو البعض منها على السيطرة على توجهات الفاعلين الآخرين⁽²⁾.

قد استخدم، Rowson، اصطلاح القدرة Capability ليشير إلى عناصر القوة (عسكرية - اقتصادية)، واصطلاح التأثير Influence ليشير إلى القدرة على تغيير سلوك الآخرين. كما أوضح Krauthammer أن عالم ما بعد الحرب الباردة ليس عالمًا «متعدد الأقطاب»، بل هو عالم «القطب الواحد»⁽³⁾.

على حين يدّعي انصار تعدد مراكز القوى في هيكل النظام الدولي الجديد إلى القول بأنه لا توجد دولة واحدة تتمتع بتفوق في جميع عناصر القوة، كما أشار Beitz إلى أن اصطلاح القوى العظمى أصبح اصطلاحاً غير ملائم في ظل نظام تعدد مراكز القوى⁽⁴⁾. وفي تقديرنا أن أي هيكل أو نظام دولي لا بد أن يمتلك قوى فاعلة إزامية لتحقيق وظائف هذا الهيكل أو هذا النظام، كما أن عدم القدرة على الإلزام يؤدي إلى ضعف القوى الفاعلة في النظام، مما يؤثر في بنيانه وهيكله. وهذا يعني أن هناك ارتباطاً بين هيكل وبنیان النظام الدولي ومدى قدرة النظام على أداء الوظائف الموقعة به.

وبالرغم من انقسام الآراء أو تناقض المواقف حول هيكل النظام المالي الجديد في أوائل تسعينيات القرن العشرين - إلا أنه استقطب - بوصفه ظاهرة في طور التكوين، اهتمام الباحثين في مجال العلاقات الدولية - وربط بينهم اهتمامهم بمسألة التغييرات التوسعية المتلاحقة التي شهدتها ويشهدها النظام الدولي - والتي تعدت نطاق التوسعات ونسبورت - حدود الدول والأقاليم - وإن هذا الانقسام والتناقض يمودان في تقديرنا - بالدرجة الأولى - إلى عدم وجود هيكل مؤسس معن النظام الجديد حتى هذه اللحظة، كما أنه لتعرف على مدى استقرار أي هيكل أو بنيان للنظام ينبغي تحليل - عوامل الاستقرار أو عدم الاستقرار - في النظام، ومتغيرات التوازن داخله، ومدى القدرة على تعبئة وتوظيف الموارد واستخدام التكنولوجيا، وقدرته النظام المالي على حلواء عوامل الاضطراب فيه.

نظريا : اتجاهان النظام العالمي الجديد في ضوءه المراهنة فيما يخص العالم : اتجاه العتمة الأمريكية

The Unipolar Moment and American Hegemony

شهد العالم ظهيرة هريمة وبلفرد تاملت في تلكه دولة عطس واحتفاتها من التاريخ. في الوقت الذي تابع فيه ظاهرة تاريخية أخرى بالقدر نفسه من التدرج وهي لعاطف نفوذ دولة عطس أخذت في التفرج بالشأن العالمي. فمع انحصار وتلكه الاتحاد السوفيتي والتشغاله بيمومه الداخلية. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحتل الكبر قدر من الانتشار العالمي. وتحتل الكبر قدر من التفاعلات والانتصارات السياسية والعسكرية. وتستغل التحولات الدولية للزبد من حضورها وصمودها الدولي كدولة وحيدة تلمتج بمواصفات ومعلومات الدولة العطس كلها Super State.

الواقع أن الظروف والمستحداث العالمية هي التي سلطت مساهمة مباشرة في البروز التجديد للولايات المتحدة كدولة عطس وحيدة في العالم المعاصر. وعملت الدولة الأمريكية على ترسيخ الانطباع بأنها قد كسبت لمراحة السياسية والمقائدية مع الاتحاد السوفيتي السابق لمصلحتها. كما أخذت تروج عبر وسائلها الإعلامية والدعائية الضخمة أن هزيمة الاشتراكية تعني انتصارا مباشرا لتراسيمالية والفكر الليبرالي الذي اعتبر في هذه المرحلة المراهنة الفكر الذي يلمتج بكل مواصفاته المعقدة. Chomsky : بما يتضمنه ذلك من بروز أطروحات مثل نهاية التاريخ والأيديولوجيات. Pu Kapranov : لذلك أخذت الولايات المتحدة تتصرف من موقع إدارة العالم وتقرير شؤونه السياسية والستراتيجية. خاصة أن أيديولوجيتها هي الآن من دون مناهض. وأكثر شائعا من أي وقت آخر. وحظتها العسكري والسياسي هو أكثر تماسكا واحتفاظا بقوته. كما أن مولدها وإمكاناتها ما زالت للتصدير موارد وإمكانات كل الدول الأخرى في العالم.

فالاقتصاد الأمريكي ما زال هو الأضحج غالبا من حيث الحجم. فاجمالي الناتج القومي للولايات المتحدة يتجاوز ٩ تريليونات دولار. وهو ما يوازي حوالي ٢٦% من اجمالي الناتج العالمي (وفقا لتقديرات البنك الدولي في عام ١٩٩٩). وهو يزيد على ضعف الاقتصاد الياباني الذي يعد ثاني أكبر اقتصاد في العالم. كما أن ضخامة الاقتصاد الأمريكي تتجسد في كافة المجالات الاقتصادية. بما في ذلك المجالات الزراعية. حيث تلج الولايات المتحدة محاصيل زراعية تكفي لإطعام نصف سكان العالم.

بالإضافة إلى ذلك. فإن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد المباديرات. وعدد رجال الأعمال. وعدد المدراء الذين يتقاضون أعلى الرواتب في العالم. وهي الدولة الأعلى في العالم من حيث الاستهلاك للفرد الذي يشكل حوالي ٢٧% من

إجمالي الناتج المحلي الأمريكي، كما أنها الأولى في العالم من حيث عدد الشركات التابعة
الجنبية، حيث تمتلك 173 شركة من أصل 400 شركة في العالم.

تطور بولج الشركات في مختلف الولايات المتحدة الأمريكية			
مؤشرات مختلفة	الولايات المتحدة	العالم	نسبة الولايات المتحدة للعالم
عدد السكان	280 مليون نسمة	6000 مليون نسمة	4.6 ٪
المساحة	9.8 ملايين كم ²	51 مليون كم ²	19.4 ٪
إجمالي الناتج القومي	6 تريليونات دولار	27 تريليونات دولار	22 ٪
معدل النمو الاقتصادي	3.7	3.8	-
إجمالي الدين	1 تريليونات دولار	-	-
المصدر في الزراعة	90 مليار دولار	-	-
إجمالي الإنفاق العسكري	275 مليار دولار	450 مليار دولار	61 ٪
نسبة الإنفاق العسكري	3.8 ٪	1.6 ٪	-
عدد القوات المسلحة	1.2 مليون جندي	2.4 مليون جندي	50.4 ٪
عدد الأطباء	500 ألف طبيب	9 ملايين طبيب	5.6 ٪
عدد المدرسين	2.7 مليون مدرس	2.8 مليون مدرس	97 ٪
مؤشر عمر الفرد	76 سنة	71 سنة	-
مؤشر دخل الفرد	24,000 دولار	4,000 دولار	-

المصدر: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 2001

Ruth Leger Sivard, World Military and Social Expenditures (1992)

الواقع أن هذا التفوق الأمريكي الحالي لا يستند فقط إلى القدرات الاقتصادية الضخمة بل يستمد قوتها من زبعا مشروعيتها من القوة العسكرية والنووية التي تمتلكها الولايات المتحدة، وهي قوة مطلقة وجيالة وبعد - بكل تأكيد - أضخم من القوة العسكرية لأي دولة أخرى في العالم. فعدد القوات المسلحة الأمريكية يتجاوز مليوني جندي مجهزين بأحدث الأسلحة، كما أن الجيش الأمريكي هو الجيش الوحيد في العالم القادر على حوض معركتين حربيين في الوقت نفسه، وهي موقعين مختلفين من العالم والخروج منتصرا في كليهما.

ويرجع ذلك في تقديرنا إلى الإنفاق العسكري الأمريكي الضخم، والذي لا يضاهيه إنفاق أي دولة أخرى في العالم. فالتكاليف المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم القادرة على تخصيص ما يزيد على ٢٧٠ مليار دولار سنويا للأغراض العسكرية، (بحسب تقديرات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ١٩٩٥). ولا تقتصر القدرات العسكرية الأمريكية على الأسلحة التقليدية، بل إن الولايات المتحدة هي أساسا قوة نووية، ولا توجد دولة أخرى في العالم تملك قدرات نووية تماثل أو تقارب ما يحوونها، فهي الأولى في العالم من حيث عدد الرؤوس النووية التي تقدر بحوالي ١٥ ألف رأس نووي، وهي الأولى من حيث عدد الصواريخ الاستراتيجية العابرة للقارات، والتي تصل إلى ١٠٠٠ صاروخ، وهي أيضا الأولى من حيث عدد القواصات النووية، التي يندر بحوالي ٧٠٠ غواصة نووية، وهي الأولى من حيث عدد القاذفات الاستراتيجية البعيدة المدى التي يزيد على ٥٠٠ طائرة إستراتيجية، كما أنها الدولة الوحيدة في العالم التي تملك برنامجا لحربية النووية الفعل بوضع الولايات المتحدة من دون غيرها من دول العالم، حماية ضد أي هجوم نووي من الخارج.

هذه القدرات النووية والعسكرية والاقتصادية الأمريكية الضخمة مدعومة بقدرات تكنولوجية وشرية متقدمة، ومدعومة من مؤسسات سياسية راسخة ومثبتة، بالإضافة إلى قدرتها الإعلامية والدعائية الواسعة والمؤثرة التي لا تجاريها أو تتنافسها أي دولة أخرى في العالم اليوم.

وهي تقديروا أن كل هذه المعطيات الكلية والموضوعية تجعل من التفوق الأمريكي حقيقة عالمية ممتدة، ولجعل من الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي تتمتع بمعظم، إن لم يكن بكل، مواصفات القوة العظمى Super Power التي أصبحت تعرف بالسلطان العالمي في الوقت الحاضر. ولكن إلى متى ستمثل الولايات المتحدة الدولة العظمى الوحيدة والهيمنة على العالم؟ وإلى متى سيستمر النظام العالمي الجديد على أبعاده الرفعت؟

على الرغم من تأكيد الباحثين والمفكرين على أنه بانتهاء الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة تركت الولايات المتحدة على قمة النظام الدولي وحيدة منفردين للخطوة العالم بلا منازع أو منازع، ومع إفسار البعض من أنصار هذا الاتجاه أمثال Barry Posen and

Andrew Ross لتراجع الوضع الاقتصادي للولايات المتحدة أمام القوة الاقتصادية لكل من اليابان وأوروبا، إلا أنهم يؤكدون على إمكان تغيير هذا الوضع وتحسينه لتكريم هيمنة الولايات المتحدة على العالم^(١٠٠). على حين يرى بعض الباحثين أنه إذا كان التطور والنمو الاقتصادي داعماً للهيمنة، فإن مؤشرات النمو الاقتصادي ليست هي مصلحة الهيمنة الأمريكية هي لدى المنظور، فمسرعة إنتاجيتها الصناعية في حقبة التسعينيات تقل ٢ مرات عن اليابان، ومربعين عن أوروبا الغربية، فضلاً عن أن ميزانها التجاري يزداد عجزاً يوماً بعد يوم^(١٠١).

ويؤكد بعض الباحثين على تراجع الناتج الإجمالي الأمريكي من (٢٥٠) من إجمالي الناتج العالمي عام ١٩٥٥ إلى حوالي (٢٢٥) فقط عام ١٩٩٦، كما تراجعت نسبة ما قيمته الولايات المتحدة من معارف وتكنولوجيا جديدة في العالم عام ١٩٧٧ من (٢٧٥) إلى حوالي (٢٢٩) فقط في عام ١٩٩٦، وهي ضوء ذلك يتبعاً العديد من المحللين والباحثين بالولايات المتحدة، عاجلاً أم آجلاً، إلى الصف الثاني من الأمم الكبرى، أو تحولها إلى دولة متوسطة القوة^(١٠٢).

وعلى الرغم من ذلك، فإن الباحثين والمحللين الأمريكيين يؤكدون على أن العامل الأساسي الداعم لاستمرار هيمنة الولايات المتحدة على العالم هو قوتها العسكرية، التي يجب أن تخطط وتزداد لتضمن لها الهيمنة والسيطرة العالمية. ونظراً على مشكلاتهم هذه بما حدث في حرب الخليج وقهرتها في السيطرة على مقائد الأمور في العمليات العسكرية.

وهي اعتقادنا أن الرؤية المتكافئة لأصحاب الاتحاد الفكري الداعم لاتجاه الهيمنة الأمريكية تؤكد على أن الولايات المتحدة لا تستطيع التوصل على عامل عسكري كثيراً لفرص هيمنتها المالية، لتكونها تواجه مجموعة كبيرة من التحديات على مستويين^(١٠٣).

أولهما، المستوى الداخلي، ويتمثل في المشاكل الداخلية التي ربما عطلتها عن الاستثمار في المنافسة كالمشكلات الاقتصادية والتعليمية، وعلى رغم اعتراف الباحثين والمحللين الأمريكيين بوجود تلك المشكلات، إلا أنهم لم يقدموا مقترحات لحلها، وإنما شرعوا في تقديم الحلول البديلة والكيفية بتحويل الهيمنة الأمريكية على العالم، وذلك من دون التخلي عن دورها العسكري، فضلاً عن الدعوة للاستمرار في نشر الثقافة الأمريكية ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان، بالإضافة إلى ضرورة الاستثمار في جذب الدول إلى تلك الثقافة لتتضم إلى المعسكر الأمريكي. وهذا في نظر كل من Snow and Brown هي دراسة حديثة لها كافييل باستثمار الهيمنة الأمريكية على العالم حتى في المدى البعيد^(١٠٤).

ونعتقد أن رؤية أخصار هذا الاتجاه تتوافق مع رؤية الإدارة الأمريكية لوضع الولايات المتحدة في ظل النظام العالمي الجديد، حيث عمدت إلى توظيف ما اسماء الرئيس الأمريكي الأسبق Richard Nixon بـ «الفرصة الملائمة» التي أقروها الاتحاديون السوفييتي البدد، في تنفيذ مشروعاتها الكونية في أمريكا العالم.

ويعد هذا المشروع بمثابة المحور الأساسي لمحوكة رؤساء الإدارات الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. يقول الرئيس الأسبق «George Bush» الأب في أوائل التسعينيات «إن القرن القادم ينتمي له أن يكون أمريكياً»⁽¹⁾. هو امتداد لقول الرئيس «Bush» في الأربعينيات إن قوتنا هو أمريكا العالم⁽²⁾. ولا يختلف عنها الرئيس «Nixon» الذي يقول يجب على أمريكا أن تقود العالم⁽³⁾. وعلى الرغم من أن إدارة الرئيس السابق «Nixon» لم تستطع بصورة مكثفة مثلما كانت الحال مع إدارة الرئيس الأسبق «George Bush» إلا أن هذا لا يعني أنها تخلت عنه. كما أن الإدارة الحالية الجمهورية الرئيس «George W. Bush» سوف تشهد احتمالاً مكثفاً لهذا الوضع العالمي للولايات المتحدة الأمريكية على الساحة الدولية.

ثانيهما: على المستوى الخارجي، وتتمثل في شعوب أمثلة الدمار الشامل، ليس على مستوى أعضاء النادي الذي يحسبه بل على مستوى دول كانت في عداد الدول النامية. فهي دراسة حديثة «Therese Delors» عن انتشار الأسلحة النووية والنظام العالمي الجديد، يثير العلاقة ما بين التنمية الاقتصادية وامتلاك القوة النووية. ويرى أن العصر الحالي شهد خروجاً على التوقع، فهي الداخلي كانت القوى النووية مضمورة على النادي الذي من الدول الفنية المتقدمة. ولكن كيف استطاعت دول متقدمة اقتصادياً كاليك وباكستان ترتيب أولوياتها الاقتصادية بحيث تفرغ على الجميع دخولها النادي الذي كاسر واقع⁽⁴⁾. ويرى بعض الباحثين أن التطور النووي الذي نل من الصين، ثم الهند وباكستان أخيراً، يمثل تعديراً قوياً للنظام العالمي الجديد الذي تنويع الولايات المتحدة وأوروبا العالمي لتعديلات لا يزال يعاني أيام الحرب الباردة⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من ذلك فقد أوجع أحد الباحثين أن انهيار الاتحاد السوفييتي جعل الولايات المتحدة الأمريكية التي يؤيدها حلفاؤها الغربيون هي القوة المظلمة في العالم. وأن دور القوى القوية لا يتعدى قيامها بتنفيذ التوجيهات الأمريكية. ومن ثم فهي الدولة الوحيدة التي تتمتع بالقوة التي تمكنها من القيام بدور حاسم في أي صراع تخشى أن تشرك فيه، وهي أي مكان في العالم⁽⁶⁾.

ورفضاً لهذا الاتجاه فإن الولايات المتحدة عليها مسؤولية المحافظة على الاستقرار الدولي، وقيادة تحركات عالمي نحو تحقيق الديمقراطية. إلا أن هناك العديد من الباحثين يرون من الصعوبة بمكان استمرارية الطليعة الواحدة، قائمة مشكلات موضوعية تحتاج إلى فترة من الزمن كي تتطور محركاتها، تحول دون ذلك منها⁽⁷⁾.

(1) حالة عدم الاستقرار الدولي: لقد أدى التباين الطليعية الثنائية إلى اختلال الفوائد والمضار التي تحكم في السلوك الدولي. وبالتالي في طبيعة القوالب الدولية والإقليمية واتجاهاتها. وقد أظهرت هذه الاختلالات بروز قائمة مشاكل عالمية جديدة من دون حل. كما أن

الهبة الأمريكية

إعادة هيكلية الخريطة الجغرافية والسياسية لعالم الجنوب، خدمة لمصالح غربية أو أمريكية. أدى إلى حالة من عدم الاستقرار الدولي.

ومن هنا يمكن القول إن النظام العالمي الجديد، بمفهومه الأمريكي، لم يستطع إقامة عالم مستقر آمن، إنما تميز بسياسات القوة والمناخنة القومية. والتوترات الإثنية والعرقية.

(ب) التصاع دائرة الرقش الدولي للقطبية الواحدة: فالتطلعات الأمريكية نحو الهيمنة العالمية تواجه رفض قد يكون سريعاً أو ضعيفاً، فغياب قوة دولية عظمى قادرة وراغبة هي التصدي صراحة للسياسات الأمريكية على غرار الملوك السوهيبي، لا سيما خلال مرحلة الحروب الباردة، جعل العديد من الدول يعاني خطرسة القوة الأمريكية، فعلى سبيل المثال، فرضت الحكومة الكندية في اتفاقية التبادل التجاري الحر بينها وبين الولايات المتحدة على الإدارة الأمريكية استبعاد كل الصناعات الثقافية والإعلامية. وفي فرنسا هناك إجماع على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكي، كما أن مقاومة فرنسا ودفاعها عن الحقوق الثقافية هي مقاومة حقيقية وشرسة للأمركة. ولذلك يدرك بعض المفكرين والباحثين أنه لا الحساء الأفريون للولايات المتحدة، ولا الأمم المتحدة وأجهزتها مهقبون في المستقبل فترات وتدابير الولايات المتحدة، على غرار ما حصل إبان الاستعداد لحرب الخليج الثانية. وقد التصح ذلك بجداء في عملية سحب المستقر، وعلى ذلك يمكننا القول إن حالة التحكم الأمريكي في معصلة التفاعلات الدولية لم تحل نون أن يكون لطلاق الرقش للقطبية الواحدة في التصاع مستقر. وإن كان يؤثر ببطئة.

(ج) الاحتلالات الهيكلية الأمريكية: تشير بعض الدراسات إلى أن الدولة الأمريكية التي لتربح حالها على قمة الهرم الدولي. أضحت بحاجة إلى إعادة بناء، بيد أن احتلالاتها الهيكلية تطوي على أكثر لا تجعلها تمتلك القدرة على فرض نظامها الدولي على العالم، كما يؤكد ذلك عدد من المفكرين والسياسة والباحثين الأمريكيين وعلى رأسهم Paul Kennedy¹⁷. وكذلك Zhiguan Brazovsk¹⁸.

وفي اعتقادنا أنه على الرغم من وجود هذه الصعوبات والتحديات، إلا أن هناك العديد من النطويات التي تؤكد على أن الهيمنة الأمريكية ستبقى مائدة خلال القرن الحادي والعشرين، وإن القيادة الأمريكية للعالم ستظل مرتبطة بالقدرات والإمكانات الأمريكية المتنامية. وثاني هي مقدمة هذه التغيرات الثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة التي تمثل أهم الأسلحة المستقبلية التي ستبني على الزعامة الأمريكية العلمية والعسكرية والمعلوماتية للعالم خلال العقود القادمة.

ثالثاً: المبتدأوهذه الاستقبلية للنظام العالمي الجديد

هناك إجماع بين الباحثين والفكرين في مجال العلاقات الدولية منذ منتصف التسعينيات على الفهم العام للنظام العالمي الجديد، بمعنى تداعي النظام الدولي القديم، وتفسير هرم السلطة والقوة والقواعد التي تحكم العلاقات بين الدول، في ظل نظام توجد فيه العديد من الوحدات الدولية إلى جانب الدول. لكن هناك بعض الإشكاليات والتعقيدات المطروحة على صعوبة التنبؤ بمستقبل واتجاهات تطور النظام العالمي الجديد. تعمل من سيناريوهات المستقبل مهمة عملية شاقة، خاصة أن الظاهرة لا تزال في طور التشكيل والتكوين.

وإذا كانت معظم الدراسات والتكاليات التي تناولت النظام العالمي الجديد قد أشارت إلى جملة التناقضات التي تجعلها الصورة الراهنة للنظام، كالتهميش على المؤسسات الاقتصادية الدولية، وعلى الأمم المتحدة من قبل قوة عظمى وحيدة، والآثار السلبية المباشرة وغير المباشرة لسيطرة الشركات المتعددة الجنسية والتجمعات الاقتصادية العملاقة على نسبة كبيرة من الاقتصاد العالمي. إلى جانب التسمي إلى تفويض ونشر القيم والمفاهيم الثقافية والسياسية الغربية.

وهي تقديرونا، فإن هذه التناقضات والملاحظات تدعو إلى التنوع في نمط فترات وتحليل التحولات الجارية من ناحية ومن ناحية أخرى إلى التمييز بين التسميات الجديدة بين السيناريوهات المستقبلية التي يحاول بعض العلماء والفكرين في مجال العلاقات الدولية صياغتها واستشراف تطوراتها.

هناك اتجاه بعض الباحثين إلى الاهتمام بوضع الجغرافيا الاقتصادية في النظام العالمي الجديد، اتجاه فريق ثان إلى دراسة مدى إمكان بحث نموذج توازن القوى. واتهم فريق ثالث بالشركيز على نموذج صدام الحضارات، واتجه فريق رابع إلى دراسة نظرية الفوضى في النظام العالمي الجديد. واتهم فريق خامس بدراسة مدى تحقيق نموذج القرية العالمية، وأخيراً اتجاه فريق سادس إلى التركيز على تطور النظام العالمي الجديد لتحقيق الاندماج المتنامية.

وسوف نراجع هذه التصورات المستقبلية للنظام العالمي الجديد في نقاط ست، نتناول كل منها وجهات النظر المختلفة حول التوازن والاتجاهات السابقة على النحو التالي:

١- نموذج الثلاث الجغرافيا الاقتصادية الثلاثة

The Three Bloc Geo-Economics Model.

ويرى أخصار هذا النموذج أنه تطور مع بداية حكم الرئيس الأمريكي (Bill Clinton) ليترجم رؤية لنظام عالمي جديد. تحل فيه الجغرافيا الاقتصادية محل الجغرافيا السياسية. ومن أهم

بما أنه يقلل من أهمية القوة العسكرية لتحل محلها القوة الاقتصادية لتحكم مجال التفاضل العالي بين الدول⁽³⁶⁾.

الواقع أنه على الرغم من تصاري الدول في السعي إلى الحفاظ على أمنها القومي، سواء كانت دولة عظمى أو دولة صاعدة، فإن Odedory Kemp يؤكد على أهمية الجغرافيا الاقتصادية كجهاز مركزي Central Game هي فترة الحرب الباردة في السياسة والعلاقات الدولية⁽³⁷⁾.

وعلى الرغم من سيطرة بعض المقولات مثل نهاية التاريخ ل. Fukuyama⁽³⁸⁾، ونهاية الأيديولوجية على دارجي نوجهات النظام الدولي، إلا أن بعض الآراء والدراسات الحديثة ترجح استمرار هذه المقولات أو على الأقل - تأجيلها - لتحل محلها الرؤية الاقتصادية للأحداث والوقائع، لقادي في النهاية إلى انتشار الدول الديمقراطية ذات الدخل المرتفعة، وانتقل مقولة Karl Deutsch عن المجتمع الأمني المتعدد Pluristonic Security Community، أي أن هذه المراكز المتعددة ذات التوجه الرأسمالي تمثل مجموعة من الدول ينتمي فيها توقع أو استمرار أي منها لاستخدام القوة العسكرية في علاقات بعضها ببعض.

ويذهب التصار هذا النموذج إلى أن تطور النظام العالمي الجديد سيؤدي إلى انقسام العالم إلى ثلاث كتل اقتصادية صلاقة متنافسة تشمل:

اليابان، كتود منطقة الباسيفيكي لها فيها كوريا وجنود شرق آسيا والصين، وبعد كل من اليابان والصين أبرزها والشرق الأوسط، وتتميز العلاقات بين تواتها الأساسية بالانسجام وتليها فيما ثقافية ودينية واحدة، إضافة إلى ارتباطها بشبكة مصالح اقتصادية متبادلة، ساعد على نموها السريع عرض الصين منذ التسعينيات على إدخال اقتصادها ضمن الاقتصاد العالمي، وكذلك اقتصاديات حافة المحيط الباسيفيكي، على الرغم من وجود بعض الاختلاف في المصالح والتوجه السياسي الخارجي لبعض دولها، إلا أن اليابان تعد من الدول القليلة التي دخلت الثورة الصناعية الثالثة، ويتفاعل قدرتها الاقتصادية مع القدرة العسكرية الصينية لتصبح اليابان مؤهلة لقيادة كتل اقتصادي آسيوي - ما زال في طور التشكيل - فريد في تأثيره وإمكاناته.

الولايات المتحدة، كتود المعسكر الغربي والأمريكتين بشكل أكثر تعديدا، خاصة بعد اتفاق التجارة الحرة (NAFTA) وإعادة هيكلة اقتصاديات دول أمريكا اللاتينية.

أفريقيا، كتود المعسكر الأوروبي الذي يفترض أن يضم روسيا وبعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، وربما بعض دول شمال أفريقيا.

وهي هذا الإطار يذهب Herkavy إلى القول بأن الدول النامية هي أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط تمثل في إطار الاستعمار الجديد تلك المحاور الثلاثة السابقة⁽³⁹⁾.

ويرى أنصار هذا النموذج المتعارضة على أنها تهازل لا يسير ما بين الأمم والدول بقدر ما هو تهازل يسير ما بين المؤسسات والشركات الدولية³².

وفي اعتقادنا أن هذا النموذج يعطي للاقتصاد والجغرافيا والثقافة والديمقراطية أهمية خاصة في احتمالات توزيع القوى في ظل النظام العالمي الجديد. ومن ثم - وفقاً لهذا النموذج - يتوقع أغلب الباحثين أن يكون المحور الذي تقوم عليه الولايات المتحدة هو الأضعف على الإطلاق. وأن يكون المحور الأوروبي الذي تقوم عليها هو الأقوى على الإطلاق.

فالمحور الأوروبي، كما يتوقع *Lawrence Thurston*، تتوافر له مقومات زراعية وصناعية عالية، وينجبه بسرعة نحو تطوير صناعاته التكنولوجية. وسوف يتمتع الأوروبيون مع الوقت بأعلى المستويات التعليمية في العالم، مما يؤهلهم له حول القرن الحادي والعشرين بمستوى تعليمي أعلى من الولايات المتحدة. كما يلاحظ استمرار الهبات في الارتقاء بمستواها التعليمي والتكنولوجي. وعلى الرغم من صغر حجم السوق المحلي الهباتي، إلا أن بعض الباحثين يؤكدون على إمكان نجاحها في القلب على تلك المشكلة بالتوسع في الأسواق الآسيوية³³.

وينتقد نموذج انقلاب الجغرافيا الاقتصادية الثلاثة، ليس فقط التركز على العوامل الجغرافية، وإنما كذلك لتجاهله إمكان بروز محاور اقتصادية أخرى غير تلك التي أشار إليها، فهناك الهند والبرازيل وغيرها من الدول الصناعية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أوروبا ما زالت تواجه العديد من التحديات، فهي تهازلك تخشى التمسك بالألماني والرومي، والانقلاب الألماني - الفرنسي - الأمريكي فضلاً عن تزايد مشكلة الأقليات ونموها، وتعتبر الصناعات القومية، في بوسلافها المنطقة حامية، وكل هذه التناقضات تشكل في إمكان أن تصبح أوروبا هي القطب الأخرى في المرحلة القادمة.

٢ - إحياء نموذج توازن القوى

The Reinvigorated Balance Of Power Model

ينطلق أنصار هذا النموذج مما ذهب إليه *Paul Kennedy*، من أن الدول تتحرك صعوداً أو هبوطاً في ضوء نوعية قدراتها، مقارنة مع قدرات غيرها، فضلاً عن مدى استعدادها الذاتي لتوظيف هذه القدرات ضمن إطار بيئة دولية محددة³⁴. فوفقاً لمؤلفهم فإن عامل الأمن هو السعي الأول لكل دول العالم، كما جعلت نهاية الحرب الباردة من عودة تعدد الأقطاب وتوازن القوى شيئاً ممكناً.

وهذا النموذج يؤكد على وجود قوى رئيسية أربع هي الولايات المتحدة وروسيا الاتحادية، والصين، وأوروبا³⁵.

وينتقد كل من *Lawrence Barber* إلى ترشيح الصين كقوة دولية في القرن الحادي والعشرين، وينتقدان عما يمكن أن يسميهما «بالهزيمة الصينية» *Hegemony of China*

التيمة العالمية

باعتبارها أقل الدول الأربع في مفاوضات الوصول إلى القمة مع اقتصاد سريع النمو، الذي يمكن أن يتجه بسهولة إلى قوة عسكرية فعالة³¹.

ويذهب البعض هذا النموذج إلى أن التحالف الأمريكي - الصيني سيتطلب بل ويطلب على جميع التحالفات الكبرى، كتتحالف الأوروبي - الأمريكي، والتحالف الأمريكي - الروسي.

في اعتقادنا أن هذا النموذج يتجاهل دولة مثل الهند كشوة مساعدة في مواجهة الصين، كذلك فإنه يتجاهل دور الأمم المتحدة التي على رغم تراجع دورها في التسمينات، خاصة في المسائل الأمنية، إلا أنه لا توجد مؤسسة دولية أخرى، كما ذهب Barnett، لها القدرة نفسها على التشريع وإرساء المبادئ والشرعية الدولية. ومن هنا فإنه يتجه لإبراز دور الأمم المتحدة كلاعب في العلاقات الدولية في ظل النظام العالمي الجديد - هذا النظام الذي يحتاج في الوقت نفسه إلى قوة تشريعية ترسي قواعده، ومن ثم نجد هذه القوة مضمرة في الأمم المتحدة³².

إلا أننا نعتقد أن دور الأمم المتحدة كمؤسسة دولية قادرة على إرساء مبدأ «الثواب والعقاب» قد ابتلاه بعض الضغط أو الثلاثي في بعض الأحيان مع الممارسات العملية، فقد ينظر إليها على أنها تقوم على مبدأ الميزان المزدوج Double Standard لأن القوى الكبرى المسيطرة في النظام العالمي ستكون كتلة متفردة تلك القواعد وهذا لا يخدم القوة ومصلحتها، فعلى سبيل المثال لم تفعل دور حلف (NATO)، خارج الأمم المتحدة خاصة في أحداث كوسوفو³³.

كما يعتقد هذا النموذج على أن القوى العالمية المتبقية في النظام العالمي الجديد قد تكون أكثر من ذلك بإضافة اليابان وروسيا البرازيل، غير أن أهمية هذا النموذج تكمن في توضيح عدم أفراد أي قوة أو دولة منها باستثناء ناعية هذه القوة بمفردها في النظام العالمي الجديد.

٣ - نموذج الصراع الحضاري

The Clash Of Civilization Model

يتوقع البعض هذا النموذج أن الصراع القادم في النظام العالمي الجديد ليس صراعاً بين دول بشر ما هو صراع بين حضارات. وقد ظهرت بواكر هذا النموذج أو الاتجاه الفكري في مقالة كتبها المفكر الإسرائيلي الأمريكي Samuel Huntington، في المجلة الأمريكية Foreign Affairs بعنوان «صدام الحضارات» عام 1993، وأثارت جدلاً كبيراً في أوساط الباحثين والفكرين على مستوى العالم³⁴.

وحدد Huntington مجموعة من الحضارات التي حدث - ويحدث أن يحدث - بينها صراع وهي الحضارة الغربية، والحضارة اليابانية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية، وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة الأفريقية³⁵.

وفي اعتقاد Huntington أن هذه النظرية - أو النموذج - تقوم على أن الصراع في العالم «الجديد» لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون، وببغلي أن يكون، قائما على الثقافة والإيمان والأسرة والعقيدة. ومثلته مثل الكثيرين من المكيين الغربيين رأى في المسيحية والإسلام عداء ثقافيا ومنافيا. غير أن بعض الكتابات العربية والإسلامية لا ذهب إلى رأي Huntington. بله صراع بين الأديان وخاصة بين المسيحية والإسلامية، وإنما هو حوار حضاري عميق دار بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية في عصر الحروب الصليبية وما أعقبها. وقد أحدث محاولات بدرجة أو بأخرى - لدى كل طرف بعد ما حدث التفاعل الحضاري بين العرب والغرب^(٣).

وهكذا يرى أنصار هذا النموذج أن المصدر الأساسي للفرقات في النظام العالمي الجديد لن يكون مصنفات أيديولوجيا أو اقتصاديا في المقام الأول، بل ستكون الانتماءات الثقافية والحضارية هي المصدر الأساسي للفرقات في العالم.

وتعتقد أن هذا التوصيف المستقبلي للصراع الحضاري بين الأمم والشعوب كما ذهب إليه Huntington يجعل المحور البارز للسياسة العالمية قائما على وجود أو خلق علاقات غير متكافئة بين الغرب وشعوب العالم الأخرى. لذا فإن السعي لاستقبال حضارة الغرب أو الانضمام إلى توسعاتها قد يصطدم في النهاية - في رأي بعض الباحثين - بمعطيات ثقافية وحضارية لا يمكن لها أن يدعى البعض من أخصار هذا الاتجاه وعلى رأسهم Harrow Michael على أن صراع الحضارات المستقبل هو صراع حضاري وثقافي. وأنه صراع بين حضارات سائدة - فالصلاف - من وجهة نظره - بين الحضارات الحديثة قائمة وأن الصراع قائم لا محالة، وأن هذا الصراع قد يكون أكثر شدة وعنفًا بين الحضارات المختلفة قياسا على ما هو حاصل بين المجموعات في الحضارة الواحدة ذاتها^(٤).

وبغض النظر عن محنويات هذه النظرية التي لاقت رواجا بين الباحثين، إلا أننا نعتقد أن Huntington أراد تقديم خريطة جديدة لإدارة الأزمات في العالم «الجديد» تسعى لتحقيق سيادة الحضارة الغربية على الحضارات الأخرى بمحاولة لتحقيق التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري، والحيولة دون استغلال الحضارات الأخرى للاختلافات القائمة بين بلدان الحضارة الغربية، ودمج دول أوروبا الغربية والوسطى في الاتحاد الأوروبي وحلف (NATO)، وتشجيع تفريق أمريكا اللاتينية والجزائرها للغرب، وتقعيد القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدول الحضارة الإسلامية والمسيحية، وقبول روسيا لأن تكون مركزا للأرثوذكسية وقوة إقليمية ذات مصالح مشروعة في أمن حدودها الجنوبية.

2 - مناطق السلام ومناطق الجنوب : نظرية الجنوب

Zones Of Peace Turmoil Chaos Theory

يذهب كل من Sanger و Wildensky إلى أن العالم في نظامه الدولي الجديد ينقسم إلى مناطق مختلفة الملامح، فهناك مناطق تسودها الحروب والتزاعات والعنف، وأخرى يسودها السلام والديموقراطية والرخاء⁽¹⁾، وأن مناطق السلام والأمن والديموقراطية كما يذهب Sorensen Hans هي في الأساس الولايات المتحدة وضرب أوروبا وكندا واليابان وهي تمثل حوالي 21% من سكان العالم، وأن مناطق العنف والتزاعات والحروب هي دول الاتحاد السوفييتي السابق واليابان دول آسيا وأفريقيا وروسيا أيضا أمريكا اللاتينية⁽²⁾.

وهي اعتادت أن هذا الوضع لا يتغير أو يتغير بسهولة، ومن ثم فإننا نتوقع استمرار الأمن والسلام والديموقراطية في هذه الدول ذات الرخاء، واستمرار الحروب والعنف والتزاعات في المناطق الأخرى. كما أننا لا نشاطر الرأي لدى أنصار هذا الاتجاه منهم Joseph Leppold القول بأن الديمقراطيات لا يضارب بعضها بعضا، أما مناطق الحروب والصراعات فهي المناطق الأكثر ظمرا في العالم. وهي المناطق ذات الأوبئة والأمراض الفتية⁽³⁾.

ففي الحقيقة أن الصراعات التي يشهدها الجنوب قد تساعد نظرا إلى ما أشار إليه Harkavy وكذلك Hoffman من انتهاء قيام القوى العظمى بدور في تهدئة الصراعات الإقليمية، فعلى الرغم من أن تدخل الوطن المضيف خلال الحرب الباردة، ترتب عليه في بعض الأحيان تصاعد هذه الصراعات، فإنه ترتب على سلوكها أيضا ضبط سلوك الدول التابعة لكلا القوتين في أحيان أخرى. بالإضافة إلى ذلك هناك عدد آخر من التهديدات التي يقرنها الجنوب على النظام العالمي الجديد. عند أشار Clapham إلى الفطر بسفته المصدر الرئيسي للفرس العالمية، فضلا عن ظاهرة وزيادة الهجرة من الجنوب إلى الشمال، وما يرتبط بها من ثورات سياسية واجتماعية هي الشمال، فضلا عن أن هناك العديد من المشكلات، مثل المخدرات وثلاث البيئة، التي قد تؤدي إلى صراعات بين الدول المتقدمة وبعض دول الجنوب، كذلك هناك ظاهرة الصعود الإسلامية، والتي على الرغم من أنها قد تمثل قوة دفع نحو اندماج بعض دول الجنوب، إلا أنه يمكن اعتبارها أيضا بمنزلة قوى الفتنة في النظام العالمي الجديد⁽⁴⁾.

ومن هنا لا يستطيع الباحث الاتفاق مع الآراء التي قواسها أن النظام العالمي الجديد، استطاع أن يؤسس عالمًا مستقرا وأمنًا، فالاستقرار والأمن استمر في الأسم الأقلب من تسبب معظم دول الشمال، وإن كان الوضع يختلف في دول الاتحاد السوفييتي السابق وروسيا كما يرى Kean Mageroth⁽⁵⁾ ربما كان إيراكا لحالة اللانظام الرائعة والاضطرابات استمرارها في عالم الجنوب.

9 - نموذج القرية العالمية

The Global Village

والنصار هذا النموذج يرون أن النظام العالمي الجديد سوق يجعل المجتمع الدولي بقرية قرية إعلامية صغيرة تتكلم فيها الحدود القومية، ويرمز على السطح المجتمع العالمي (Global Society) كتشبيه مباشرة لذلك من خلال انتشار أدوات ووسائل الاتصال المتقدمة، التي تجعل من القيم ونمط الحياة الغربي أسلوب الحياة العالمي⁽¹¹⁾.

في الواقع يرى كثير من الباحثين أن هناك عددا من الاعتبارات تجعل على تأكيد هذا الاتجاه وتمثل في ظهور التحديات الدولية التي تواجه المجتمع الدولي والتي تتعدى حدود الدولة كتمسكها الفقر والمخدرات وتلوث البيئة والانفجار السكاني. وقد يدفع ذلك كله إلى ظهور ما يمكن أن يسمى «Global Government» التي يتراوح فيها دور الدولة القومية⁽¹²⁾.

كما يرى بعض المراسلات أن سعي النظام الدولي «الجديد» لتحقيق المجتمع العالمي يتطلب سلطة مركزية مؤسسية لإطلاق القرار وعضوية دولية، إلا أن الجهود المبذولة لإنشاء مثل هذا الكيان فشلت حتى الآن. فالأمم المتحدة لا تستطيع التصرف باستقلالية عن الدول الكبرى التي تحركها. كما يرى أصحاب هذا التوجه ضرورة قواعد دولية عامة، وكذلك مؤسسات دولية ومعالجة طوعية لحل محل الدولة القومية (Kelson State). وأن التحرك الأساسي لهذه التغيرات هو الثورة التكنولوجية والمعلوماتية التي تمكن الأفراد من الحد من سلطة الدولة وتدخلاتها⁽¹³⁾.

وهي اعتقادنا أن الإطار الفكري لنموذج القرية العالمية Global village والمجتمع العالمي Global society يستلزم عاملين أساسيين لم يوصفهما في الحسبان؛ الأول، أن السلطة الخاصة لا تزال جزءا من سلطة الدولة، إذ إن الأولى لا تتحرك إلا في الجزء الذي تسمح به الدولة، ذلك أن الدولة تملك أدواتها التشريعية التي تحدد بها - إن شئت - من حدود السلطة الخاصة.

الثاني، أن انتقال السلطة ليس (معادلة صفرية Non-Zero-Sum game) بمعنى أن زيادة حدود وسلطة الأفراد داخل الدولة لا تعني بالضرورة فقدان الحكومة للسيطرة على الأمور والأفراد داخل الدولة. فالحقيقة غير ما يدعيه أنصار ذلك النموذج. فالدولة لا تختفي، لكن فقط يقلص دورها ومقدار تدخلها في الهيئات التابعة لها كالقضاء والنشروع.

ولا يتوقع أن يختفي دور الدولة في ظل النظام العالمي الجديد. ولكن سوف يطرأ تغيير جوهري وملحوس في الوظائف الأساسية والتقليدية للدولة، باعتباره أن بعضها من وظائفها ومهامها بدأت تسلم للشركات متعددة الجنسية والمؤسسات والمنظمات الدولية.

البحث الأمريكي

كما أن أبرز ملامح النظام العالمي الجديد أنه يقوم أساساً على إنتاج المعلومات وتداولها من خلال البنية غير مسموكة هي الحاسبات الإلكترونية ومجتمع تكنولوجيا المعلومات¹³. هذا فضلاً عن أن الكونية أو العولمة Globalization متصحب هي الأساس في مجتمع المعلومات القادم. لمعالجة الأزمات الكونية المتعلقة بالنقص في الموارد الطبيعية، وتدمير البيئة، والانحجار السكاني، والفجوات العميقة الثقافية والاقتصادية بين الشمال والجنوب، ومن ثم فإن تنمية شبكات المعلومات الكونية باستخدام الحواسيب الإلكترونية والأقمار الصناعية ستؤدي إلى تحسين وسائل تبادل المعلومات، وتعمق الفهم العالمي للقرد. الأمر الذي من شأنه أن يتجاوز الصالح الطوعية والثقافية والصالح الأخرى المتباينة في مجتمع القرية العالمية، وهي قد برزت أن لمفكرين والباحثين في كل مكان يعون اليوم وهما تأمناً أن الحياة البشرية في طريقها إلى تهجير جذري نوعي. ومع تقدم التعليم والاتصال بتزايد تقارب وهي المفكرين ووعي الناس، وربما كان ذلك ما سيميز الوعي الإنساني في القرن القادم، وبالتالي سيزداد الوعي الإنساني والتغير الاجتماعي تطابقاً في المستقبل.

٦ - نموذج الأقطاب المتناحرة

Incipient Bipolarity Model

ويرى انصار هذا النموذج أنه من الخطأ الاعتقاد بأن التفكير في إمكان عودة نظام الثنائية القطبية مرة أخرى في ظل الهيمنة الأمريكية على العالم، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة تجاهل القوى أو الأقطاب الأخرى الواحدة هي النظام العالمي الجديد كاليابان والصين والاتحاد الأوروبي. لذا فإن الاحتمال الغالب لمستقبل النظام الدولي - وفقاً لهذا النموذج - هو شكل من أشكال التضامن والتعاضد بين تلك القوى العالمية المختلفة، بحيث يكون العالم محصوراً ما بين أقطاب أو معسكرات. كل معسكر مكون من مجموعة من الدول واحدة الأهداف والصالح والتوجهات تجاه المعسكرات الأخرى. منها على سبيل المثال¹⁴:

- ظهور التحدي الصيني لإدارة الولايات المتحدة والتقارب الأمريكي الياباني.
- ظهور التضامن الصيني الروسي في مواجهة التضامن الأوروبي الأمريكي.
- مواجهة ظاهرة ما بين الأسيا والمحور الأمريكي الأوروبي والروسي.
- التقارب الصيني الأمريكي في الفترة الواقعة.

ولا شك في أن اهتمام الباحثين بالأقطاب المتضامنة، وظاهرة الاعتماد المتبادل كسمة من سمات النظام الدولي، يبرزان مدى إمكان مساهمة مثل هذه التفاعلات في تحقيق السلام والأمن في النظام العالمي الجديد في المستقبل، على أساس الصالح الإنسانية العادلة لشعوب العالم كافة، التي يمكنها أن ترفع الخلاف بين نزعة الهيمنة والسيطرة والتفاوت والاتجاه نحو التضامن والتعاون.

إن العالم يشهد اليوم بشكل متزايد، ليس فقط بفضل تطور الرأسمالية والتجارة التجارية^١، بل أيضاً من خلال الجماعات غير الاقتصادية وغير الحكومية، ومؤسسات المجتمع المدني العالمية (جماعات السلام، جماعات حماية البيئة، جماعات حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل... إلخ) التي بنموها التطور والفاعل تصبح لديها القدرة على المساعدة في صنع المستقبل البشري، والفاعلية التي تضمن احتمالاً بنهاية عالم وولادة محتملة لعالم جديد، حقاً^٢.

نتائج البحث

١ - على رغم انقسام الآراء، وشاغل الوقت، حول النظام العالمي الجديد، إلا أنه استقطب بوصفه ظاهرة - في طور التكوين والتشكيل - اهتمام الباحثين والفكرين في مجال العلاقات الدولية.

وربط بينهم اهتمامهم بعملية التغيرات النوعية للتلاحقة التي يشهدها النظام الدولي منذ بداية التسعينيات، والتي تعدت نطاق القوميات وتجاوزت حدود الدول، حيث لم تعد القضية مسألة رفض أو قبول النظام العالمي الجديد بقدر ما هي مسألة كيفية التعاون أو الانخراط فيه، والعمل على تطوير نماذج واتجاهات فكرية وعملية يمكن من خلالها التناظر والفعل في حركة النظام العالمي الجديد.

٢ - إن الجديد، كما نسميه التغيرات العالمية والتكنولوجية الهائلة من إمكان الانشغال إلى مجتمع المعلومات، وما يترتب عليه من آثار على أساليب العمل وتنظيم الحياة وعامل الزمن، قد يؤدي إلى الأخذ في الاعتبار نموذج «الفرة العالمية» وما يذهب إليه من الجديد عن «صورة عالمية» وعن «قوة وسطى عالمية» تشابه أنماط حياتها، واستهلاكها، ونوعياتها من خلال أنظمة الاتصال الحديثة (الشبكات - الإنترنت)، وعن «المواطنين العالميين» الذين يشكلون الأشرطة والموسيقى والأحذية وال في شبروت نفسها كل ذلك يتنامى ويتسع باتجاه تكوين نمط اجتماعي وثقافي واحد، ومنظومة قيم وثقافة عالمية واحدة هي اتجاه أن يكونوا «مواطنين عالميين» أقل ارتباطاً بديارهم الوطنية.

غير أنه على الجانب الآخر فإن الحديث عن انتهاء أو تلاشي مفاهيم من قبيل الحدود، والسيادة، وحرز الدولة في ظل «النظام العالمي الجديد» نتيجة اعتماد الشركات متعددة الجنسية على نظم أمن وشركات برود ونقود (بطاقات التمان) خاصة، واستهلاكها على المرافق والخدمات العامة من خلال «التخصيصية» ليس صحيحاً تماماً، حيث لا يتوقع أن يختفي دور الدولة تماماً، في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن سوف يطرأ عليها تغير جوهري وسلموس في بعض الوظائف التقليدية. فالنظام العالمي «الجديد» لم يخلق حتى هذه اللحظة إطاراً أو هيكلًا عالمياً بديلاً، يكافئ ما كانت له الدولة في تسير ومنهج الحياة

الاقتصادية والاجتماعية. بل الواقع يؤكد أن دور الدولة ما زال قائماً ويضمح بعزود من التخصصات القليلة في دول العالم كلها. حتى في اعلى النظم الرأسمالية. فعلى سبيل المثال اعتمد الكونغرس الأمريكي مبلغ ٢٩١ مليار دولار كميزانية للحكومة الفيدرالية في عام ٢٠٠٠ في أواخر نوفمبر ١٩٩٩.

٢ - تملك الإنشكابات والتعقيدات المطروحة على صعوبة التنبؤ بمستقبل واتجاهات تطور النظام العالمي الجديد. وتجعل من سيناريوهات المستقبل مهمة علمية شاقة. نظرا للتداخل بين السيناريوهات والنماذج في بعض الأحيان. والتنافس فيما بينها في أحيان أخرى. لكن ذلك لم يمنع الدراسة من تحديد الاحتمالات الأكثر ترجيحاً انطلاقاً من تحليل المعطيات المتوافرة. وبصفة عامة يمكن القول إن هناك حركة فكرية موضوعية باتجاه تجسيد النظام العالمي الجديد ذات اتجاهين أساسيين:

أولاً: اتجاه معني. يقترحه التطور الكبير والضخم للاقتصاد والتجارة الدولية (نموذج القطب الجغرافيا الاقتصادية)، والتطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات (نموذج القرية العالمية). وتتم الحركات الإنسانية العالمية مثل حركات السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان. وحماية البيئة وسلامة الكوكب (نموذج الاضطراب التضامنية). ومكافحة الفقر والعروب (نموذج مناطق السلام والرخاء ومناطق العروب والفقر). وحوار الحضارات واحترام التنوع الثقافي (نموذج سلام الحضارات). وحقوق المرأة والمثلي. وهي حركات قائمة بزيادة ترسبها وانتشارها والاعتراك بها في أنحاء العالم كلها. وهذا الاتجاه يكون لمرجعيات شكلها من الشكل والمجتمع المعني العالمي.

الثاني: اتجاه سياسي ايدولوجي. يحاول استغلال هذه الظروف التاريخية والتغيرات النوعية التي يشهدها النظام الدولي الفرض هيمنة (نموذج القطب الواحد: اتجاه الهيمنة الأمريكية). أو كتلة معينة (نموذج توازن القوى). أو ثقافة ما على العالم بأسره (الثقافة الغربية: الأمريكية).

وهي تقديرنا أن الاتجاه العام الذي سيحكم حركة تطور النظام العالمي الجديد مرهون بدخول لاعبين جدد غير التحالفات المحتملة. فالمرحلة الراهنة توصف بأنها «مرحلة الهيمنة الأمريكية» وبالتالي احتمالات استمرارية القطبية الواحدة. فالولايات المتحدة لم تتروء عن توظيف الهيكل الاتحاد السوفييتي من أجل تأمين تبعية شبه عالمية لسياساتها. فتأثير الدور الأمريكي حالياً - حقيقة لا تنكر - فهي أضحت تتربع على قمة الهرم الدولي من دون منازع أو منازع حقيقي.

كما أننا نعتقد - أن دورها العالمي - الهيمن سيبقى صلباً على حاله الفترة القادمة. على الرغم من وجود ضالة عدم الاستقرار الدولي. وبعض الترفش للقطبية الواحدة. وبعض المشكلات التي يعاها الاقتصاد الأمريكي. فثمة متغيرات موضوعية تدفع من استمرار نظام القطبية الواحدة والهيمنة الأمريكية على العالم في المستقبل القريب.

فالولايات المتحدة ما زالت تعمل كقوة عسكرية واقتصادية في العالم بالإضافة إلى احتكاكها بنظم وبنكولوجيا الدفاع والحروب والفضاء الأكثر تقدما وتطورا في العالم. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فعلى الرغم من قوة اليابان الاقتصادية إلا أنها لم تطرح رؤية أو تصورا معيدا لقيادتها للعالم. فضلا عن شعوب بعض القوى في شرق آسيا من شعوب اليابان حتى لو حدث تحالف استراتيجي بين اليابان والصين كطلب أسوي اقتصادي وعسكري. فمن المحتمل ألا تقلل الصين بقيادة يابانية منفردة للعالم. كذلك أيضا حين أوروبا الغربية لم تطرح تصورا معيدا لحدارها في قيادة العالم. فما زال هناك بعض التعارض في المصالح الأوروبية. فضلا عن المخاوف الأوروبية من إحياء الهيمنة الألمانية. ومن ثم فإننا نعتقد احتمال استمرار نظام التنظية الواحد لفترة قادمة. كما أن احتمالات تطور الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد قد يتصل في استمرار الولايات المتحدة في لعب دور المهيمن بالقوة أو الضعفي العالمي اعتمادا على قوتها العسكرية. أو أن تتحول الولايات المتحدة إلى الهيمنة الثقافية والاقتصادية. أو أن تلعب دور المهيمن (الوازن) في نظام متعدد الأقطاب ومتشاكس.



الأطعم المهيوتة مع العباء العربة مع قوء أرمع عباء الشرع الأوسط

د. محمد أحمد صالح حسن^(*)

ملخص

الماء عنصر العباء الأول، والمادة التي الومع فيها الله سر هذه العباء واستمرار العباء والوجود والعمران. وقد برزت هذه العباءة التي لا هراء عليها في قول الخالق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم جومعنا من الماء كل شيء حىء (سورة الأنبياء الآية ٣٠). فبالر ما نفع عليه حواس الإنسان، وما يطفى عليها في الأرض من بهجة وعباء ونماء وإنتاج، أثر من آثار الماء. وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على أن الماء أصبحت ومزا الحياء. ومزاهها لاستمرارها. وبالتالي يصعب توفيرها مطلبها استراتيجيا غير قابل للتأجيل.

وقد ساء الاعتقاد في فترة من الفترات أن القواء المائية منعددة بطبيعتها، وغير قابلة للاستزاف والتمسود، إلا أنه يمكن القول أن القواء المائية محدودة وتتألف من شأنها في ذلك شأن القواء الطبيعية الأخرى. على الأقل في منطقة الشرق الأوسط. وإن كان هذا لا يعني تعميم الأمر؛ لأن نقصان الماء في هذه المنطقة الحيوية لا يعني بطبيعة الحال نقصها على مستوى العالم. فربما تتألف أو تجف في مكان ما، ولكنها تتزايد في مكان آخر. كما

(*) قسم القواء الشرطية - كلية الأوب - جامعة القاهرة - مصر

الأزمات الميضية في أنحاء العربية

إن الأمر لم يعد يقتصر على نقصان ومحدودية هذه الموارد المائية، بل امتد ليشمل تدهور نوعيتها من خلال التلوث لأسباب عديدة. يلعب فيها الإنسان الدور الفاعل، من هنا تزايد الإحساس بأن الاقتصاد في استخدام المياه في شتى الأغراض أصبح ضرورة قصوى، ليس فقط بسبب شح الموارد المائية وتساؤلها، بل أيضا نتيجة الزيادة السكانية الكبيرة التي أصبحت أشبه بالانفجار، الأمر الذي أدى إلى تزايد الاهتمام والتفكير الجدي بمستقبل المياه في المعمور، خاصة أن مشكلات نقص المياه يمكن أن تهدد الصحة العامة والتنمية الاقتصادية، الصناعية منها والزراعية، والتنمية الاجتماعية¹.

لرب على الأسباب السابقة وغيرها أن أصبحت المياه من أهم الموارد الطبيعية التي يتصارع عليها العالم، فهي تشكل، مع النفط، باعتباره أحد المصادر الرئيسية للطاقة، للحدود الأساسية لأسباب التوتر في العالم، وقد وصل الأمر إلى أن أصبحت المياه محور جميع الخطط والمشاريع التي تعدها الأطراف الفاعلة إقليميا ودوليا لتعزيز أمنها واقتصادياتها². فالإحصائيات تشير إلى أنه مع النمو السكاني المتزايد، بالإضافة إلى الاحتياجات المائية المتزايدة للاستخدامات الترفيهية، والطلب المتزايد على المياه لتوليد الطاقة، وتكثيف الرواسخ والإنتاج الصناعي الذي ما يقرب من ١٠% من سكان العالم، معظمهم من البلدان النامية. يواجهون بالفعل نقصا حادا في المياه، ومن المتوقع أنه بحلول القرن القادم فإن ما يقرب من ٥٠% من سكان العالم ربما يواجهون حالات من الندرة المائية³.

أزمة المياه في الشرق الأوسط

المياه في الشرق الأوسط مشكلة معقدة ومزمنة، لا تجدي معها التصورات البسيطة في محاولة تحليل أبعادها أو التعامل معها. فهناك أمور مؤكدة بشأنها، وأخرى تخضع للنقاش، وأول الأمور المؤكدة أن هناك مشكلة مياه في المنطقة تمثل في عدم التناصب بين العروص والمطلوب. ووجود خلافات حول إدارتها، ولكن ليس من المؤكد، حتى الآن على الأقل، أنها يمكن أن تؤدي، بشكل مباشر، إلى صدامات مسلحة. هناك أطر للتعامل مع المشكلة مثل الاتفاقيات الثنائية أو الإقليمية أو الدولية، والتي تعمل وقت الحاجة، ويجب أن تحاول معظم الدول إدارتها بأساليب تعاونية أكثر مما تديرها بمنطلق الواجهة. ولكن بفضل عوامل عديدة متنوعة تستغل المشكلة مثارة دائما، فكما أنه من المتصور حدوث حرب محتملة بسببها، فإنه من الصعب أيضا تصور حل نهائي لها⁴، فقلد عقدت عشرات المؤتمرات والدورات واللقاءات بهدف محاولة حل قضية المياه، ولم يؤد سوى القليل جدا منها إلى شيء يذكر⁵.

والحقيقة هي أن احتمالات نشوب صراعات ونزاعات حول المياه في الشرق الأوسط تتزايد: لأن حدود موارد المياه الطبيعية، السطحية منها والجوفية، لا تتطابق مع الحدود السياسية في المنطقة. الأمر الذي يعني أن استنزاف المياه على جانب الحدود من قبل دولة من دول النهر أو الخزان الجوفي، قد يؤثر تأثيراً خطيراً على إمدادات المياه على الجانب الآخر^{٢٢}. وهي شدة ذلك باتت ضمان استمرار تدفق المياه بشكل أحد الأهداف القومية الأساسية لدول منطقة الشرق الأوسط. فقد احتلت مسألة الأمن المائي خلال السنوات الماضية قمة سلم الأولويات، وأصبح الحديث عن المياه لا يقل أهمية عن الأمن العسكري.

وتتجمع جل الدراسات المعاصرة، إن لم تكن كلها، على أن المياه هي مصدر الحروب الثقافية في الشرق الأوسط. فمناخ المياه الرئيسية في الوطن العربي، الذي يشكل قلب منطقة الشرق الأوسط، تقع خارج حدوده، وبالتالي فإن مصادر المياه بعيدة عن سيطرة دول الوطن العربي^{٢٣}. انضمت إلى هذا أن الموارد المائية المتجددة في الوطن العربي تقدر بحوالي ٢٤، ٨ % من الموارد المتاحة في العالم، علماً بأن الوطن العربي يشغل مساحة تقدر بنحو ٨، ٤ مليون كيلو متر مربع، أي حوالي ٢٩ من مساحة اليابسة، وأن معظم الأنهار العربية تقطرب من حافة عدم التوازن بين حجم الموارد المتاحة والطلب عليها، وأن هناك بوادر أزمة قوية تهدد بتفشي المياه.

من هنا تبرز أهمية معالجة هذا التطور الذي اعتدناه الحضارة الأمريكية، والذي يشير إلى أن التناقص على مصادر المياه في الشرق الأوسط يشعل حرباً جديدة فيه خلال فترة أقل من مئتي سنة^{٢٤}. إلا أن تتوصل الأطراف في هذه المنطقة إلى اتفاق سلام وتعاون بين دولها^{٢٥}.

والحقيقة هي أن موضوع النزاع على المياه في منطقة الشرق الأوسط باتت غاية في الأهمية والخطورة، حيث بدأ الاهتمام بالمياه كمسألة تزور الدول العربية ودول الحوار الأصلاء، وهي تركيا وإيران واليابان، والدخلاء، أي إسرائيل، والعالم، منذ حوالي عشرين من الزمان، ويصو أن المشكلة تحظى بالاهتمام العالمي أكثر بكثير من الاهتمام العربي، كما أنها تحظى باهتمام خاص لدى إسرائيل وتركيا. ويكفي أن نشور، حول أهمية هذا الأمر عالمياً، إن هناك عددا من الجامعات والمراكز البحثية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا تلتفت على دراسة المشكلة من جميع جوانبها^{٢٦}.

وتعد الإشارة في هذا السهل إلى أن الكلام، في إسرائيل من ناحية وتركيا من ناحية أخرى، عن أزمة المياه قليل، ولكن العمل على السيطرة على مصادرها والتحكم فيها كثير. وفي الوطن العربي بدأ بعض المختصين والخبراء متأخرين بالنتيجة إلى طمر مشكلة المياه، والتأكيد على أنها قضية مصيرية للعالم العربي، يتوافد عليها وجودهم وجوانهم، وهي تركز

الأمن المائي في المياه العربية

على خطر السيطرة الإسرائيلية والتركية على مصادر المياه. فمن دون المياه لا يعيش العرب، فهي هي الواقع أهم من النفط، وإن لم تكن ذلك في الوقت الحالي فستكون كذلك في المستقبل المنظور. وأعداء الأمة العربية يعملون ليل نهار للسيطرة على مصادر المياه العربية ليشبعوا رغبتهم الماء بالنفط، وإن نصب النفط سيصبح الماء مصدر قوة إلى أي أيديهم مصادر هذه المياه للنفط عليهم. واستنزاف ما تبقى من قوتهم وإمكاناتهم، وبغلاء الأعداء يمدون أنفسهم لهذه الرحلة.

توجد في منطقة الشرق الأوسط ثلاثة ديانا كبيرة. يمكن أن يحدث في أي منها نزاع حول المياه، فبحري النيل يقتسمه عدد من البلدان. ويمتدح وادي دجلة والفرات أقل استقراراً من تابعة العلاقات السوسية، وهو منطقة متسعة أساساً بين تركيا وسوريا والعراق. ويتم ذلك البلدان بتطورات متلاحقة حول المياه. والمجرى الثالث هو نهر الأردن. وهو أصغرهما لكنه الأكثر تعجراً. ولقد على ضفافه ثلاث دول هي الأردن وسوريا وإسرائيل. وتعد مياه حوض نهر الأردن أكثر تعقيداً من أي مشكلة تتعلق بالمياه في المنطقة العربية؛ لأنها تشمل بحياة شعوب عدد من الدول في المنطقة، والتصور الأساسي من وضعه الحالي هم الفلسطينيون والأردنيون^{١٢١}.

وقد استثمر بعض القادة والرؤساء في منطقة الشرق الأوسط المياه أزمة المياه وما يمكن أن تسببه من حروب ونزاعات وصراعات. فطد عبر الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات (١٩١٨م - ١٩٩٨م) عن فكرة بحضور هذه القضية مؤكداً أن أزمة المياه قد أعياها يمكن أن تدفع مصر إلى الدخول في حرب مع اليهود. وذلك في ضوء محاولة اليهود التعاون مع إسرائيل لبناء سدود منابع نهر النيل، كما ألح الملك حسين بن طلال (١٩٢٥م - ١٩٩٩م) إلى الأمر ذاته في ضوء تحكم إسرائيل في مصادر مياه نهر الأردن^{١٢٢}.

لكل ما سبق تشهد العلاقات بين دول المنطقة لتحالفات وصراعات ونزاعات تتصوّر في حوضها حول المياه. فبالإضافة إلى العديد من النزاعات والحروب الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط، فستجد أن جانباً أساسياً من أسباب اندلاعها هو النزاع على المياه بين العرب وإسرائيل، وبين العرب وتركيا. وبين العرب وإيران. ولم تطل أزمة أو حروب في المنطقة من دخول المياه كأحد عناصر النزاع أو الضغط فيها^{١٢٣}. ويمكن أن نلمس ذلك بشكل جلي واضح في صراع إيران مع العراق الذي بدأ حول شط العرب. وفي موقف تركيا في التحالف مع إسرائيل، ذلك التحالف الذي يستهدف إضعاف موقف العرب وخاصة سوريا والعراق. للتمكن من مياه الفرات، واحتلال إسرائيل للأراضي العربية عام ١٩٦٧م الذي كان يستهدف - إلى جانب تحقيق السيطرة العسكرية - السيطرة على مصادر المياه في هذه الأراضي العربية، وهي نهر اليرموك ونهر الأردن ونهر النيل والمياه الجوفية في الضفة الغربية لنهر الأردن.

هذه بات واضحة الآن أكثر من أي وقت مضى أن المياه هي الحلقة الأهم والأخطر في العلاقات المتوترة بين سوريا وتركيا. ولهذا التوتر هي علاقات البلدين للأهليات والتمكسات على منطقة الشرق الأوسط. من جهة والتمكسات والاهليات ذات بعد دولي. من جهة ثانية وتزايد حدة التوتر في علاقات البلدين في ضوء سعي تركيا إلى تعزيز نفوذها الإقليمي بواسطة تحويل المياه من أداء القنمية والتطوير إلى أداء التنازح في بعض الأحيان. بحيث باتت توطد مياه نهر الفرات توطيها سياسيا لتتخطى في قضايا الأمن والتسوية المطروحة على جدول أعمال البلدين بشكل خاص. ومنطقة الشرق الأوسط بشكل عام.

وفي ضوء ذلك وغيره انتشرت مقولة مفادها «من يسيطر على المياه يسيطر على الشرق الأوسط» ومن يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على امدادات النفط في العالم^{١٢٢}.

وعلى خلفية ما سبق سنركز الدراسة على محورين أساسيين: المحور الأول يتناول أزمة المياه في إسرائيل. وأطامع إسرائيل في المياه العربية بشكل عام عربيا وسليما. أما المحور الثاني فيتناول الأطامع الإسرائيلية في المياه الفلسطينية بشكل خاص. والتكلفة التي تسرق بها هذه المياه وتمنعها من استعمالها وأثر ذلك عليهم من خلال مباتات وإحصائيات وردت في أحد تقارير منظمة «هيسيليم» لحقوق الإنسان في هذا الشأن.

الجزء الأول: أزمة المياه في إسرائيل وأثرها على المياه العربية حزامها

كانت إسرائيل دولة مياه مائية. حيث كانت تعتمد على المياه ذات المصدر الفلسطيني لتتغذى من إسرائيل. حيث بلغ حوالي ٢٢٦ من إجمالي تدفق المياه

السطحية لديها خارج حدودها. ويعتبر القول بشكل عام أن ٧٦٧ من المياه التي تستهلكها إسرائيل تأتي من خارج حدودها. التي اعتنت بمقتضاها كدولة عام ١٩٦٨م. وهي على النحو التالي ٧٢٥ من الضفة الغربية لنهر الأردن. و٧٢ من سموح غربية الحدود السورية. و١٠ من قطاع غزة^{١٢٣}. وتستعمل مشكلة المياه في إسرائيل إلى ذروتها مع نهاية العقد الثاني من القرن الحالي في إطار ما يبدو أن الطلب على المياه فيها سيزايد عن العرض وستتأثر مليون متر مكعب بحلول عام ٢٠٢٠م. بسبب الزيادة السكانية وتنامي المشروعات الزراعية التي تعتمد بكثافة على المياه من ناحية. وبسبب المعدل الحالي للهجرة اليهودية إلى إسرائيل من ناحية أخرى^{١٢٤}.

المواقف الإسرائيلية للتعلي على مشكلة المياه

ويمكن للدولة المياه في إسرائيل والاستهلاكات للموارد منها في الاستخدامات المنزلية والمحاللات الزراعية والصناعية أن يتسبب في العديد من المشكلات العامة. إلى جانب العديد من المشكلات الخاصة بالزراعة ومنها

الأنعام اليهودية مع المياه العربية

- التحد من التنمية الزراعية التي تعني الحاجة إلى مزيد من المياه لاستصلاح الاراض صحراوية جديدة.

- إن غياب وسائل تطوير مياه كافية لأعوام عدة يؤدي إلى الاعتماد على مياه الأمطار كمصدر للتزود بالمياه. ومن شأن هام قنطرة واحد أن يحدد كميات المياه المخصصة للزراعة وغيرها¹¹¹.

- التحد من استمرار تدفق الهجرة اليهودية الحالية الواقعة إلى إسرائيل. وعدم قدرتها على استيعابها. الأمر الذي يعني إقامة مشروعات زراعية متخصصة. ومشروعات توليد الطاقة الكهربائية¹¹².

كادت إسرائيل إلى عدة بدائل للتعلم على مشكلة المياه. بعضها بدائل عامة قصيرة المدى وبعضها بدائل إستراتيجية بعيدة المدى. ولقد بذلت إسرائيل. ولا تزال. محاولاتها في تحريه كل البدائل التي من شأنها التغلب على أزمة المياه. وتوفير المياه الكافية لاستخداماتها في الأغراض التنموية والتنمية الصناعية والزراعية.

أولاً: البدائل الخاصة بمياه النهر

يلتزم بهذه البدائل تلك التي تحاول حل مشكلة المياه في إسرائيل من داخلها. من دون الحاجة للتعلم إلى سرقة مياه الدول العربية المجاورة. ومن هذه البدائل:

- ترشيد الاستهلاك في كافة المجالات الزراعية والصناعية. مع ضرورة الاقتصاد في الاستخدامات المنزلية.

- معالجة مياه الصرف الصحي لتصبح صالحة للزراعة. وتزويجه المياه النظيفة للشرب. ومن أهم مشروعات تحويل مياه المجاري بعد معالجتها إلى الزراعة في إسرائيل المشروع الذي يعرف باسم "شكزان" الذي تغذيه رابطة "جوش دان". وهو يعتبر من المشروعات التي تعتمد على تلبية متطلبات مياه الصرف الصحي التي تغل منه إلى منطقة النقب توفر حالياً تسعين مليون متر مكعب سنوياً من المياه المعالجة لمزاوي الجنوب¹¹³.

- تحلية مياه البحر.

- إسقاط الطور الصناعي Industrial Revolution (الاستقطار): أيدي إسرائيل اهتماماً متزايداً بهذا البديل. فنجري عليه الكثير من التجارب. وبدائل على ذلك طول الفترة التي استغرقتها هذه التجارب. فقد بدأت بها منذ عام 1968 م وهي مستمرة عليها حتى الآن.

- تنمية الموارد المائية من خلال مشاريع السدود وتقليل الفاقد.

لم تؤد هذه البدائل إلى التغلب على مشكلة المياه في إسرائيل، فتشديد الاستهلاكات لا يجدي. مع تدفق الهجرة اليهودية إلى إسرائيل والزيادة السكانية. والمشروعات الصناعية والزراعية المتنامية. التي تريد إسرائيل أن يكون لها فيها اليد الطولى على

مستوى منطقة الشرق الأوسط. أما معالجة مياه الصرف الصحي وتحسينها للاستخدامات الزراعية فمن شأنها أن تخلق مشكلة خاصة في نوعية المياه المستخدمة ومدى صلاحيتها لأنواع معينة من الزراعات. وليس كل الزراعات^(٣١). أما معالجة مياه البحر فعملية باهظة التكاليف وتستمر فترات زمنية طويلة، ويقدر علماء الهندسة على سبيل المثال لا الحصر - تكاليف بونابج كبير لتوفير الاحتياجات الإسرائيلية من المياه - بأنَّ على عدة عقود زمنية، بنحو مئتين مليون دولار^(٣٢). كما أنه ليس في مقدور إسرائيل العمل على تنمية الموارد المائية من خلال مشاريع السدود، وتقليل الفاقد، من دون التعامل مع دول الجوار. ومن دون سلام حقيقي عادل، تتفاعل في إطاره المصالح المشتركة وتتطابق التلويح والتبادل، أضف إلى ذلك أن المشروعات المائية التي من هذا النوع تحتاج إلى استثمارات ضخمة وإمكانات تكنولوجية عالية^(٣٣).

وفي ضوء فشل محاولات إسرائيل في البحث عن مصادر غير تقليدية للتغلب على مشكلة المياه لم نجد أمامها سوى اللجوء إلى ما يمكن أن نسميه «البدائل الإسرائيلية» بعيدة المدى، والتي بالطبع تم السيطرة على المياه العربية المجاورة، أي مياه جنوب لبنان ومياه الجولان ومياه مصر^(٣٤). سواء بالحرب أو بالسلم، وإن كان هذا لا يعني أنها استلشت بذلك عن البدائل العامة التقليدية قصيرة المدى.

ثانياً: البدائل الإسرائيلية بعيدة المدى

١- لبنان

كانت المياه - بغض النظر عن نوعها أو استخدامها - حلقة أساسية من حلقات منظومة الحروب التي خاضتها إسرائيل ضد الدول العربية الشائعة لمسطحين، بدءاً من حروب عام ١٩٦٧م وحتى حرب لبنان عام ١٩٨٢م. وقد استهدفت هذه الحروب الاستيلاء على المزيد من الأنهار الشائعة من أراضي هذه الدول، أضف إلى هذا أن دأبت إسرائيل الاقتصادية بات تتحدد من خلال مدى السيطرة على مصادر المياه العربية^(٣٥).

ولا ينكر المحققون والمسؤولون الإسرائيليون ارتباط حروبهم بالمياه سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، معتمدين في ذلك على تشويه الحقائق وتغيير الواقع والتاريخ. فهيرشون - على سبيل المثال لا الحصر - اندلاع حرب عام ١٩٦٧م بقيادة مصر بإغلاق خليج العقبة في يزران. كما كان انتشار القوات الإسرائيلية على طول قناة السويس - في رأيهم - السبب في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م^(٣٦).

حققت حرب عام ١٩٦٧م لإسرائيل السيطرة على قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن، مماثلت لستل نحو ٧٩٥ من المياه الجوفية للضفة الغربية من خلال استغلالها لموالي ثلاثمائة بئر ارتوازية. كما أصبحت تسيطر على حوض نهر الأردن في جزئه السفلي^(٣٧).

الأمن الجوي في المياه العربية

لقد كانت الضفة الغربية لنهر الأردن حلم إسرائيل، لأنها ستوفر لها المياه الجوفية التي تصممها بين جبهاتها، فبعد أن بعد ضمها هي إمداد خزانات خاصة بالمياه، تهدف إلى تكريس السيطرة والتهب للنظم للمياه فيها، فعددت الكميات التي يعق للفلسطينيين الحصول عليها بحوالي مائة وعشرين مليون متر مكعب في الوقت الذي تصل حاجتهم الحقيقية إلى أربعمائة مليون متر مكعب. كما تحظر على الفلسطينيين حفر آبار عميق يزيد على مائة وأربعين متراً، في حين أنها تقوم بحفر آبار بعمق ثمانمائة متر، كما جعلت سلطة إمداد خزائنها استخراج المياه الجوفية في يد الحكام العسكريين^{١٠٠}. أصعب إلى هذا أن المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية لنهر الأردن تستهلك سبعة عشر مليون متر مكعب من المياه الفلسطينية في الأساس. كما تقوم إسرائيل بصنع حوالي عشرين مليون متر مكعب سنوياً من مياه الضفة الغربية إلى داخل إسرائيل^{١٠١}.

وفي ضوء ما كانت تلعبه به إسرائيل من وثنية احتلالها للضفة الغربية. لنهر الأردن وقطاع غزة، هذه أفرطت في سحب مياهها الجوفية من الطبقات الصخرية، الأمر الذي أثرب عليه لظهور نوعية هذه المياه جعلها تسربت المياه المالحة من البحر، فحطمت من مياه الطزان الجوفي في غزة عبر سلسلة للاستخدام البشري.

واستهدفت احتلال إسرائيل لبعض الأراضي الأردنية في حرب ١٩٦٧م إحكام السيطرة على مياه نهر الأردن، وأصبح موصلي الصراخ على طول السيطرة على جوف نهر الأردن وأحد من أكثر الموضوعات التي تفتتتها كقضايا حتى تاركة المياه في الشرق الأوسط. وعندما احتلت إسرائيل مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧م كان هدفها السيطرة على منابع نهر الأردن، ومساعدة أكبر من نهر اليرموك، وحيثما أغلقت صنبها إلى أراضيها وسحبها كان هدفها حماية مصادر المياه ومحطات الضخ، وحماية شبكات المياه الإسرائيلية من الجانب السوري. كما كانت تسعى بجدية إلى عرقلة أي محاولة تستهدف الاستغلال المشترك لنهر اليرموك بين سوريا ولبنان، وتطمع نفسها في هذا الاستغلال^{١٠٢}.

ويمكن القول إجمالاً إن ٦٠٪ من المياه الجوفية التي تستخدمها إسرائيل تسحبها من الضفة الغربية لنهر الأردن. كما أنها تسيطر على منابع نهر الأردن وتستخدم مياهها، ونظراً إلى الاستنزاف الكبير للمياه العربية من جانب إسرائيل فإن الخطر بات يهدد المياه الجوفية. فقد أصبحت الخزانات الحوافية في الحليل ومرتفعات الجولان طاوية في أغلبها، ومنسوب المياه في بحيرة طبرية قد انخفض إلى أدنى مستوى له في عام ١٩٩٠م، حيث وصل إلى مائتين وثلاثة عشر متراً تحت سطح البحر، مما اضطرها إلى وقف الصبح عنها لمدة شهر، علماً بأن البحيرة هي التي تمد إسرائيل بالاستخدامات الأساسية من المياه^{١٠٣}.

وعلى الرغم من أن لبنان لم يعض أيًا من الحروب العربية الإسرائيلية، إلا أن إسرائيل ليست دائما أكثر من نصف ميلار متر مكعب من مياه نهر الليطاني لتتبع في البحر، ولا تستفيد منها شعوب المنطقة. حافظت إسرائيل على حيال الجنوب على أساس جعل نهر الليطاني يمثل حدودها الشمالية، من هنا كان غزوها للبنان عام ١٩٨٦م^(٣٦)، فالتحت سيطرة على قسم من نهر الليطاني في جنوب لبنان، وشعب عزا من مياهه إلى داخل إسرائيل^(٣٧)، وقد بدأت إسرائيل محاولاتها في هذا الاتجاه قبل ذلك، حينما قامت علاقات متغيرة مع ميليشيات سعد حداد في الجنوب اللبناني عام ١٩٧٩م من أجل استخدام نهر الحاصبي ونهر الزاوي الذين يصبان في نهر الحاصبي^(٣٨).

٢ - المياه:

أدركت إسرائيل أن الحرب والسيطرة والاحتلال تشكلت الكثير من الأرواح والمال والعتاد، ولا يمكن أن تضمن لها - مع هذه التكاليف الباهظة - تدفق المياه على أراضيها باستمرار. فوجدت إلى السلام كبديل آخر لتحقيق ما تريد. فهي تريد المياه إما بالحرب وإما بالسلام. فإذا كان النصر العسكري عجز عن تحقيق النصر الحاسم الذي يضمن لها الاتصاف المحقق، وبالتالي السيطرة المطلقة، فإن النصر العسكري عجز أيضا عن تحقيق الأمن الذاتي. الأمر الذي يعني عدم ضمان تدفق المياه بشكل دائم.

وحول هذا يقول الأستاذ ديمور رئيس شعبة التخطيط في الجيش الإسرائيلي ومدير عام مكتب رئيس الوزراء: «لنالم المياه بمنطقة السلام والحرب... ومن الممكن أن تضمن إسرائيل سياسة السيطرة على مصادر المياه بما يعني الحرب أو أن تضمن سياسة توزيع المياه بين دول المنطقة وهو ما يعني السلام... ولا تعني هذه المقولة سوى أن إسرائيل تضع منطقة الشرق الأوسط أمام خيار واحد، وهو توزيع المياه بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل، التي تسعى إلى تحقيق ذلك بشقي الوسائل، حتى لو استدعى الأمر شن حرب على دول المنطقة، وإذا سعت إلى السلام لتحقيق ما تريد فهو «سلام قهري» لأنه يتفق والشروط الإسرائيلية، ورفض الطامع الإسرائيلية هي المياه العربية يعني «الحرب الحتمية»^(٣٩)، فإسرائيل تحرص في المفاوضات التنوية السلمية في الوقت الحالي على حدودها المائية التي تراعى لا تختلف عن أمنها الذاتي، الأمر الذي يات بوجه موافقتها واعتبارها في هذه المفاوضات.

ولكن دخول إسرائيل في مفاوضات عملية السلمية مشروط بتحقيق ضمانات عدة وضعتها هي نفسها في مجال المياه، واعتبرها بمثابة شرط أحمر يجب عدم التنازل عنه، ومنها:

١ - الإشراف على المنطقة الواقعة غرب خط تقسيم المياه في الضفة الغربية، وإشرافها كذلك على مصادر المياه في غزة وجنوب لبنان ومرفعات الجولان.

ب - إن ما اكتسب من المياه العربية أصبح حقا مكتسبا وملكا لها، لا يمكن المساس به أو إخضاعه للتفاوض والمساومة.

الأعمال اليهودية مع المياه العربية

ج - التأكيد على أن سعي العرب لاستعادة حقوقهم المائية من إسرائيل أو فتح مباحثهم عنها وهذان خياران. إذ لا بد من وضع مشاريع مائية جديدة تتم في إطار السلام^{٣٢}.

د - السلام مقابل المياه: إذا كان العرب قد افترضوا واقعاً على قاعدة «السلام مقابل الأرض» فبمقتضى أسسها المتوافقة بين أطراف العملية السلمية، فإن الخططين للاقتصادات المياه هي إسرائيل وصمموا قاعدة جديدة تحقق لهم ما يريدون في مجال المياه يمكن أن تسميها «السلام مقابل المساءة»^{٣٣}. بل وصل الأمر بالتفاوض إلى أن أكد على أن القضايا الأعلية التي تشغلها هي إسرائيل بابتدأ العنصر في الوقت الحالي ثبوت توفر إمدادات كافية من المياه^{٣٤}.

لم يكن ضرورياً إذن أن يقدم مؤتمر مدريد للسلام الذي عقد في يوم ٢٠ - ١٠ - ١٩٩١م على تخصيص لجنة لمواصلة ملف المياه، في إطار المفاوضات متعددة الأطراف بالشرق الأوسط. وبشروط في هذه اللجنة نحو سبع وأربعين دولة ومنظمة دولية. وقد اجتمعت هذه اللجنة منذ بداية المفاوضات أكثر من عاشر مراراً. وبلاحظ المتابع لمسار المفاوضات متعددة الأطراف الخاصة بالمياه أن اعتماد إسرائيل بهذه اللجنة يروق اعتمادها بأي لجنة منبثقة من مؤتمر مدريد^{٣٥}.

ولذا نظرياً إلى اتفاقيات السلام التي وقعتها إسرائيل مع الدول العربية نجد أنها حتى الآن قد خلقت معظم ما أرادت إسرائيل في موضوع المياه ما عدا اتفاق السلام الذي وقع مع مصر. وما زالت إسرائيل تسعى إلى طرح الموضوع الكائن معاصر من خلال فعاليات لجنة المياه المنبثقة من مؤتمر مدريد. بعدما فشلت في ذلك في إطار العملية السلام معها. فقد تقبعت بورقة أولية ضمن جدول أعمال لجنة المياه متعددة الأطراف لتتروح فيها حصولها على نصف في المائة من مياه النيل. استناداً إلى أن هذه النسبة لن تؤثر على نصيب أي من دول حوض نهر النيل، وعرضت ضمن هذه الورقة التعاون مع مصر وبطية دول حوض نهر النيل لزيادة إيرادات النهر. إلا أن مصر رفضت بإصرار إدراج مياه النيل في أعمال اللجنة المياه المنبثقة من المفاوضات متعددة الأطراف^{٣٦}.

ولقد كانت مياه نهر النيل مطمحاً دائماً لإسرائيل. يسيل لها لعانها دائماً سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد جاء في بيان لجنة الاقتصاد في الكويت أنه «يجب على غزة أن تحل مشكلة نقص المياه فيها من نهر النيل» وليس من إسرائيل. وقد اعتبر التفاوضيون المسؤولون في مصر أن هذا البيان أقرب إلى بيان إعلان حربياً^{٣٧}. ومن أقدم المشروعات الإسرائيلية الخاصة بنقل مياه نهر النيل إلى إسرائيل المشروع الذي وضعه المهندس الإسرائيلي «الشيخ كالي» عام ١٩٦٤م، ويهدف إلى نقل حوالي ١,٢ من مياه نهر النيل إلى إسرائيل، أي ما يساوي أكثر من مائة مليون متر مكعب من المياه.

وتتحقق لإسرائيل ما أرادت في موضوع المياه في اتفاقيات أوسلو التي وقعتها مع الجانب الفلسطيني. فالتفويض أوسلو لا يدخل الفلسطينيين سلطة أو صلاحية في مجال المياه، الأمر الذي أدى إلى تقاسم الأمانة بين الجانبين في الأمانة الأخيرة^(١٢١). فقد حددت إسرائيل مجموعة من المعايير الخاصة بالحفاظ على المياه كشرط للتوقيع على اتفاق سلام مع الفلسطينيين. وبحول هذا يقول أحد خبراء المياه الإسرائيليين: «إن المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة كانت جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل، لأنها تحصل على نحو ٩٠٪ من حاجتها من مياه الضفة الغربية، وأنها لن تتخلى بسهولة من هذه الأراضي من دون الحصول على ضمانات تؤمن لها الحصول على موارد مشابهة في المنطقة»^(١٢٢).

كما تحقق لإسرائيل جل ما أرادت فيما يتعلق بموضوع المياه في اتفاق السلام الذي وقع مع الجانب الأردني في شهر أكتوبر من عام ١٩٩٤م. فقد كانت حقوق اتفاقية إسرائيل في منطقة الباقورة - نهارم الخاضعة للسيطرة الأردنية. أضف إلى هذا أنه لم تتحدد في الاتفاق كمية المياه المخصصة التي يستطيع الأردنيون الحصول عليها من التنازع الناجمة المتصلة إلى نهر الأردن. وهذا يعني أن الدور المسيطر على مصادر المياه على طول الحدود المشتركة بين البلدين - ومنها نهر الأردن ونهر اليرموك وسيل وادي عربة - بات لإسرائيل^(١٢٣).

وما زالت المياه حتى الآن - وبعد التوقيع على اتفاقية سلام مع الجانب الفلسطيني والأردني - تمثل مشغراً في علاقة إسرائيل بكل من سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية والأردن^(١٢٤). فقد جاء في تصريح وزير دفاع في حكومة حزب العمل يعقوب سورا ما نصه: «بعدما تسلم الفلسطينيون بعض المناطق في الضفة الغربية خلصوا على سحب المياه الصحفية. وإذا استمر الفلسطينيون في القيام بذلك فإنهم سيأخذون مياهنا»^(١٢٥). ويؤكد هذا المسؤول الإسرائيلي نفسه على ضرورة أن تحتفظ إسرائيل بالإشراف على المياه في المناطق التي يتسحب الجيش الإسرائيلي منها. لكي تضمن في الأساس ألا يحصل الفلسطينيون على المياه الجوفية من دون موافقة. فطالب إسرائيل في هذا السياق بالحق في مراقبة نوعية المياه والتفتيش من تصرف الصحي في مناطق الحكم الذاتي^(١٢٦). كما كان فشل إسرائيل في احترام توزيع المياه مع الأردنيين معياراً للتوتر في علاقات البلدين^(١٢٧).

وهي جزء ما تحقق لإسرائيل من اعتباراته. وما قدمه الفلسطينيون والأردنيون من تنازلات في موضوع المياه. ضمن المفاوضات السلام المؤقتة بين الجانب الإسرائيلي من ناحية والجانب الفلسطيني والأردني من ناحية أخرى. ويذكر خبراء المياه العرب من سطوة القرار العربي للفرد في مجال انضمام المياه. بحيث أن يتم هذا في إطار جماعي يضمن للدول العربية حصصاً أكبر لتقل وحقوقها التاريخية ومكانتها في المنطقة. وتناسب وتعداد سكانها ومشروعات التنمية المستقلة الطموحة.

الخطوات المبرمجة مع المياه العربية

والتي هي العنصر الأهم الذي يعوق التوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا. فالنوازل الأمنية، التي تعتمد بها إسرائيل لتأخير انسحابها من الجولان، أصبحت واعية بعد نقص دور العوامل الطبيعية والجغرافية في الحروب الحديثة.

ولكن ترد إسرائيل في الحرج من الجولان يعود إلى خوفها من خسارة المياه الجوفية والسطحية التي تشترك بها منذ عام 1967م، بالإضاعة إلى امتداد الجولان الغزيرة التي تتحول إلى خزان حائل للمياه الجوفية. حتى أن توصف بأنها هضبة عائمة على خزانات من المياه¹. ويخبري الآن في إسرائيل البحث عن معادلة أو صيغة تضمن بناء مصادر مياه الجولان في حدودها وتشكل تجريد الجولان من السلاح والحفاظ على وجود المستعمرات الإسرائيلية فيها². ويتأكد هذا الأمر في تصريح إسحاق رابين (1974م- 1995م) رئيس وزراء إسرائيل الأسبق الذي جاء فيه: «إن إمداد الدولة بلا انقطاع من مصادر المياه في الجولان أكثر أهمية من السلام»³. ويبرز هذا التصريح أن الإمدادات المستمرة من المياه شيء ضروري بل مصيري فيما يتعلق بأي دعوة مستقبلية مع سوريا.

وتروج إسرائيل - بالنسبة إلى لبنان - نظرية الارتباط العرقي بين نهر الليطاني ونهر الأردن لإجبار الدولة اللبنانية على التوقيع على اتفاق ينزلها حصص من المياه في نهر الليطاني⁴.

ولقد اتفقت إسرائيل على خطة أمنية للمياه وتداعياتها ملاقات متعمدة وتقسيم بالمخصومية مع تركيا على المستوى الإقليمي. ولدت هذه العلاقات تشبه نظراً متشابهة كبيراً في مختلف المجالات بشكل عام. وسجل المياه بشكل خاص. ويمكن لهذا التعاون الإقليمي الإسرائيلي التركي في مجال المياه أن يحقق بعض المصالح الإسرائيلية مستغلاً منها التمويل إمدادات إسرائيل بالمياه بأموال النفط العربي كما هي الحال في مشروع أنابيب السلام الذي ينقل المياه التركية إلى دول الخليج⁵.

تعتقد إسرائيل أن زمن الحروب التقليدية بينها وبين الدول العربية قد ولى، وأن أمامها فرصة ذهبية لزيادة الإنتاج والتصدير وغزو الأسواق العربية. إلا أن زيادة الإنتاج مرتبطة بتوافر المصادر المائية، التي تعني في الوقت نفسه إعادة توزيعها. الأمر الذي لمسه عدد من مشروعات تطرحها إسرائيل على دول منطقة الشرق الأوسط في إطار التعاون والاستثمار السلام في المنطقة. ومن هذا الإطلاق طرعت إسرائيل عدداً من الحلول لمواجهة نقص المياه في منطقة الشرق الأوسط. قدمت مشروعات ومحطات مائية بعضها جديد، وبعضها قديم بصيغة جديدة. ومن هذه المشروعات:

- 1 - قناة البحرين: بعد هذا المشروع من المشروعات القديمة التي قدمت بصيغة جديدة. وينوم هذا المشروع على بحر قنات تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت، واستغلال ضغط المياه المتساقطة بعمل القارق في الارتفاع أو المستوى بين البحرين لتوليد الطاقة وإقامة مشاريع لتحلية مياه البحر.

٢ - مشروع القناة للخطية المتوازنة في الجولان، يرمي هذا المشروع إلى إنشاء قناة تصمم «قناة السلام» وتشكل حاجزا عسكريا يصبغ القلعة عليه هي المناطق التي ينسحب منها الإسرائيليون في الجولان. ويقوم هذا المشروع على تحويل ١,٩ مليار متر مكعب من المياه سوريا من سد القنطرة ومياه نهرى سيمعان وجيهان في تركيا، وتوزيعها بالشبكات بين سوريا والأردن، وسوريا وفلسطين.

ويحقق هذا المشروع لإسرائيل أهدافا عدة منها -

أ - الحصول على أكبر كمية ممكنة من المياه المتوفرة في الجولان.

ب - شل قدرة سوريا على استخدام هذه المرتفعات كمناطق للمعارك العسكرية ضدها.

ج - يلزم لإسرائيل حصة من مياه الجولان المتوفرة في اتجاه الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى جانب حصة من المياه الواردة من تركيا والعزرة في القناة.

د - يلزم حاجزا مائيا يمنع الاختراق، ويمنح إسرائيل حق البقاء في قسم من الجولان، وهو ينشئ رابطة من المصالح المتداخلة والمتشابكة بين إسرائيل وجيرانها. يصبغ هي المستقبل الاستبقاء منها.

٣ - مشروع نقل طائفي المياه التركية، بواسطة أكدياس مائية عائمة أو ناقلات مائية، لتتطلب من أحد الموانئ التركية إلى البحر الأبيض المتوسط. وتشجع نحو السواحل الإسرائيلية.

٤ - مشروع الأبراج الموزونة لتغطية مياه البحر في دول الخليج، الأبراج البحرية منشآت شائعة قادرة على إنتاج مياه عذبة بواسطة بالامتصاص على اختلاف مستويات الضغط والتأثيرات في الطبقات الجوية، والشروط الوحيد لإقامة هذه الأبراج هو وجودها في مواقع معاد للبحر يتميز بعتاق شديد الحرارة والجفاف.

والحقيقة هي أن هذه المشروعات وغيرها لم تستهدف مجرد اقتسام مصادر المياه المشتركة بين إسرائيل والدول الملتصقة وإنما الاستيلاء على كل المياه المتوفرة والسعي لدى الغير أو بالموال الغير الناعمين مصادر مائية يستفيد العرب منها بقدر محدود جدا، لكنها تتحكم فيها وتسيطر حسب مصالحها.

المصدر الثاني: الأنهار الإسرائيلية في المياه الفلسطينية

يشترك الفلسطينيون وإسرائيل في مصدرين من مصادر المياه الأساسية. أول هذين المصدرين هو طزان المياه الجوفي في الجليل، وهو حوض يمتد لمسافة تقدر بمائة وثلاثين كيلومترا، ويتدفق هذا الخزائن من مياه الأمطار التي تهطل على حبال الضفة الغربية وتتسرب داخله. وبعد ذلك تتدفق شرقا وغربا إلى مناطق تجمعها، ومن هناك تسحب من خلال الأنهار، ويغطي مصدر

المياه هذا ما يقرب من ثلث استهلاك إسرائيل من المياه، كما يشكل مصدراً للمياه التي يحصل عليها الفلسطينيون في الضفة الغربية.

ومصدر المياه الثاني هو حوض الأردن الذي يضم نهر اليرموك بكل طروعه، وبحيرة طبرية، ونهر الأردن، وعلى الرغم من أنه من الناحية الجغرافية يشترك بينهما فقط نهر الأردن، فإن المياه التي تسحبها إسرائيل من بحيرة طبرية تؤثر بشكل مباشر في كمية المياه التي تصل إلى الأردن، ويغطي هذان المصدران (حوض الأردن وحزان المياه الجوفية) أكثر من ثلثي كمية المياه المستهلكة في إسرائيل.

ومن الخطوات الأولى التي اتخذتها إسرائيل، عقب احتلالها للأراضي الفلسطينية عام 1967م، الإعلان عن أن كل موارد المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة بمنزلة ملكية عامة، بموجب الأمر العسكري رقم اثنين وتسعين الصادر عام 1967م. ترتب على اتخاذ هذه الخطوات وخطوات أخرى اتخذتها إسرائيل في هذا الاتجاه، أن وضعت قيود تحد من قدرة الفلسطينيين على استغلال موارد المياه التي يحوزهم بشكل يغطي استهلاكهم الأساسي، ويتناسب مع معدل الزيادة الطبيعية في السكان.

والقد أدى هذا، إلى جانب الإهمال الخليلي من جانب إسرائيل في صيانة وإصلاح مرافق المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى خلق مشكلة مياه خطيرة، كما تتميز إسرائيل بشكل صاغر بين الفلسطينيين، ومن ملاحظتها في استهلاك المياه كما وكيفا، ويكفي أن نلحظ أنه بعد ما يزيد على ثلاثين عاماً من الاحتلال هذه ما يتبقى من مائة وثمانين قرية في الضفة الغربية تعيش بلا شبكة مياه، ومن الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في هذا الشأن:

أ - حظر حفر الآبار:

من التدابير، التي ترونت على الإعلان أن كل موارد المياه ملكية عامة، تطبيق إجراء يقضي بضرورة الحصول على تصريح من سلطات الاحتلال من أجل حفر بئر جديدة، وقد استتلت إسرائيل هذا الإجراء التحد من زيادة كميات المياه التي يستعملها الفلسطينيون من حزان المياه الجوفية.

ب - تحديد حصص المياه:

طبقاً لما يقضي به القانون الأردني، فإن ملكية الموارد المائية تحت الأرض تتبع ملكية الأرض التي فيها هذه الموارد، ومن هنا تم توزيع قبل عام 1967م أي قيود على كميات المياه التي توضع من الآبار، ولكن في عام 1968م حذفت إسرائيل حصصاً تفيد المياه التي توضع من الآبار، وطبقها من خلال قيود معينة وقوانين مشددة فرضت على من يتجاوز هذه الحصص، ومنذ عام 1968م عدلت هذه الحصص مرات عدة، وكانت الزيادة التي أضفت خلالها محدودة جداً لا تتفق ومعدل الزيادة السكانية.

ج - المصادر،

ينتمي الأمر العسكري رقم ثمانية وخمسين الصادر عام ١٩٦٧م، والخاص بالملكيات للهجورة، بأن الملكيات التي خاضت امتصاصها المكان لتدخل إلى الجهة المسؤولة عن إدارة الملكيات للهجورة. طبق هذا الأمر العسكري على الملكيات التي لم تعد هوية مالكها، ورفض عبء إثبات تسمية وملكية هذه الملكيات على مالك امتصاصها وليس على صانق السلطات، فبعد فترة وجيزة من دخولها إلى الأراضي الفلسطينية صادرت إسرائيل عددا كبيرا من الآبار التي يمتلكها فلسطينيون واستخدمت لأغراض الري. من خلال الإعلان عنها بأنها «ملكيات خالصة»،^(٣٦)

د - حظر الاغتراب من مصادر المياه،

حظرت إسرائيل على الفلسطينيين الاغتراب من مصادر المياه الموجودة على سطح الأرض. فقد أعلنت منطقة مهمة على امتداد نهر الأردن. استخدمها المزارعون الفلسطينيون للري. أنها منطقة عسكرية مغلقة. كما أعلنت خمس مجموعات من منابع المياه أنها «محميات طبيعية»، وأصبح الدخول إليها يتطلب دفع رسوم أو الحصول على إذن مسبق.

هـ - عدم صيانة منشآت المياه وإصلاحها،

بدأت شركة «مكوروت»^(٣٧) عقب حرب عام ١٩٦٧م بناء شبكة مياه واسعة في الأراضي الفلسطينية المحتلة. استهدف إنشاء هذه الشبكة تلبية متطلبات الجيش والمستوطنين الإسرائيليين الذين استوطنوا في الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد ذلك. والحقبة هي أن عدم إصلاح شبكات المياه البلدية بعد جزءا من الأعمال العام الذي يقوم بهى التحتية في الأراضي الفلسطينية المحتلة من جانب إسرائيل. وعليها لما ورد في أحد الأبحاث التي أجراها البنك الدولي^(٣٨) فإن الاستثمارات في البنى الاقتصادية والاجتماعية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كجزء من إجمالي الناتج القومي خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي، كانت منخفضة جدا^(٣٩).

الغرفة الإسرائيلية والفلسطينية في استهلاك المياه

ويظهر التحق الشديد في المياه، الذي يعانيه السكان الفلسطينيون، بشكل واضح في المصروفات الكبيرة في استهلاك المياه بين الفلسطينيين والإسرائيليين. بشكل عام، والمستوطنون بشكل خاص، ويجب أن نؤكد في هذا السياق على أن كلفة المياه المستهلكة في إسرائيل بضعفان من المصادر المشتركة بين إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية. ويكشف الجدول التالي التفرقة في استهلاك المياه السنوي للفرد بالقر المكعب بين الإسرائيليين والفلسطينيين خلال عام ١٩٩٦م

إسرائيليون	فلسطينيون	
228	6٦,٥	الزراعة
١٠٥	3٦,٥	الاستخدام الزراعي
2٤	١,٦	الصناعة
3٥٢	8٤,٦	استهلاكات أخرى

المصدر: بالنسبة إلى إسرائيل: المكتب المركزي للإحصاء، الكتاب الإحصائي السنوي لإسرائيل، ١٩٩٧م. (بالعبرية)

المصدر: بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية،

T Nasserdien, Legal and Administrative Responsibility of Domestic Water Supply to the Palestinians, in Petition and Haddad (eds), Joint Management of Shared Aquifers - The Fourth Work shop (Jerusalem, The Truman Institute, The Hebrew University, Jerusalem, and the Palestine Consultancy Group, 1997) (hereafter: Legal and Administrative Responsibility, p. 12)

ويظهر الجدول التالي توزيع المياه بين إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية ومدى استفادة كل منهما في الزراعة.

إسرائيل	الفلسطينيون (في الضفة)	
228	6٦,٥	مياه الري والاستخدام الأفراد بالمزج المكسب سويها
28١,٦	3٦	الأراضي القوية من الأراضي المتصلصة
27,٢	27٠	دور الزراعة في الاقتصاد (النسبة من الناتج المحلي العام)
27,٩	2٩٥	دور الزراعة في التصدير
29,٥	2١٢,٢	عدد العاملين في الزراعة

المصدر: بالنسبة إلى إسرائيل: المكتب المركزي للإحصاءات- ١٩٩٧م. (بالعبرية)

المصدر: بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية:

Applied Research Institute Jerusalem, Water Resources and Irrigated Agriculture in the West Bank (Bethlehem, 1998), p. 50.

- Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs, 1977,p.201.

لا تشمل إحصائيات استهلاك المياه الخاصة بالسلطينيين، على مياه الأمطار التي تعزى في الأبار الخاصة بالواطنين الفلسطينيين. وتتراوح كمية المياه الواردة من هذا المصدر بين مليونين إلى خمسة ملايين متر مكعب سنوياً، وحتى حينما تشمل هذه الإحصائيات على المياه التي تختزن في هذه الأبار فإن متوسط الاستهلاك الإسرائيلي، لكافة أنواع الاستعدادات، يصل إلى أربعة أضعاف متوسط الاستهلاك الفلسطيني في الضفة الغربية. وإذا نظرنا إلى الاستهلاك الفردي فقط، أي مياه الشرب والوقاية الشخصية والنظافة، فإن استهلاك المواطن الفلسطيني أقل بنسبة الثلث من استهلاك الفرد الإسرائيلي. والحقبة هي أن 72% من سكان الضفة الغربية، الذين يفهمون في حوالي مائة وثمانين قرية لا ترتبط بأي شبكة مياه نقية على الإطلاق.

ويحتج الرأي السائد بين الخبراء الفلسطينيين في شؤون المياه بأن الحد الأدنى المطلوب فيه للاستهلاك الفردي في المدينة الحديثة يصل إلى مائة متر مكعب من المياه سنوياً للفرد، وتتجاوز إسرائيل في الوقت الحالي هذا المعدل بقليل، بينما يستهلك الفلسطينيون في الوقت الحالي أقل من ثلث هذه الكمية.

ويعد القطاع الزراعي مستهلك المياه الرئيسي في إسرائيل، ولهذا الأمر جذور تاريخية تكس في فترة الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين (بشوف)³³، وهي العقد الأول من قديم دولة إسرائيل، فقد نظر إلى الزراعة في تلك الحقبة، لأسباب سياسية واقتصادية وأيديولوجية³⁴، على أنها ذات أهمية قصوى لتتاج إسرائيل الصهيوني. وقد أدت هذه الرؤية إلى دعم أسعار مياه الري، الأمر الذي فجع على زيادة استهلاك المياه.

وتفاقم مشكلة المياه التي يعانيها السكان الفلسطينيون في ضوء الأهمية الكبيرة للزراعة في منظومة الاقتصاد الفلسطيني المحدود، وجميع الخبراء على أن أي تسوية في المستقبل خاصة بالمياه، يجب أن تشمل تحويل المياه من القطاع الزراعي في إسرائيل إلى الأراضي الفلسطينية.

ولا تقتصر الفجوة في استهلاك المياه بين الإسرائيليين والفلسطينيين على الجانب الكمي فقط، وإنما تظهر أيضاً في النظام ضخ المياه. هذا إلى جانب الفجوة في سعر المياه الذي يدفعه المستهلك، فبينما يستفيد مواطنو إسرائيل من المياه النقية من دون حدود على امتداد شهور السنة، يعاني المواطنون الفلسطينيون في الضفة الغربية من انقطاع المياه خلال معظم أيام الصيف. وينتج هذا الأمر عن الزيادة الطبيعية في استهلاك المياه في هذا الفصل الحار، هذا إلى جانب حقيقة مفادها أن شركة «مكوروت» نقلت من عمليات ضخ المياه للمواطنين الفلسطينيين بالتعدي في هذا الفصل، لكي تلبى المتطلبات المزائدة في إسرائيل والمستوطنات على المياه.

الأوضاع الإنسانية في المياه العذبة

وتبرز التفرقة في صنع المياه بين القرى والأحياء الفلسطينية وبين المستوطنات الإسرائيلية بشكل خاص في الحالات التي تقع فيها هذه المستوطنات بجوار القرى والأحياء الفلسطينية، وترابط بحران المياه الرئيسي نفسه الذي يديره شركة «مكوروت» فبمنحها تستفيد هذه المستوطنات من المياه النظية من دون حدود. وتلك الاحتياجات (أيضا في ذلك، مثل حمامات السباحة وري الحدائق الخاصة). تعاني القرى والأحياء الفلسطينية نقصا شديدا في المياه النظية، حتى للشرب والاستحمام.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما تحضر شركة «مكوروت» الأمر لتزويد المستوطنات بالماء، ويضع بعض هذه الأبار على مقربة من القرى والأحياء الفلسطينية. وقد وصلت عمليات الحفر إلى الطبقات العميقة لغزان المياه الجوفية، وهذا يعني خسارة كبيرة للأبار والينابيع التي تعتمد عليها من المنطقة العليا لغزان المياه الجوفية، والتي تزود القرى والأحياء الفلسطينية بالماء. وتراوح الخسائر بين الانخفاض في كميات المياه وبين الجفاف التام، وقد تطرق لتقرير لجنة شكلها مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة بجلاء إلى الانخفاض الحاد الذي حدث في كميات المياه المتاحة للقرى والأحياء الفلسطينية، ومنها العوجة، ورام الله، والبرية، وللأسف، نتيجة عمليات الحفر التي تجري في المستوطنات المجاورة.

أثر نقص المياه على مدينة الخليل

تعد مدينة الخليل نموذجا للمدينة الفلسطينية التي تعاني نقصا حادا في المياه. فمدينة سقفة إسكوا التي تابعة للتسليمية من ناحية، وتطوقها سياسة التمييز والتقسيم غير العادل لمصادر المياه من ناحية أخرى.

يقع في منطقة الخليل ما يقرب من مائتين وثمانين ألف نسمة، وعوارض المياه فيها محدودة جدا. ويصل صنع المياه للاستهلاك المتزاي للسكان من أربع آبار رئيسية. يقل صنع المياه للسكان الفلسطينيين في الصيف لوصول إلى أقل من نصف الكمية التي تضخ في فصل الشتاء. وتلصق مدينة الخليل ذاتها في فصل الصيف إلى خمس عشرة منطقة، تلصق البلدية لها المياه بالتلوث، حيث تصنع المياه إلى منطقة ما صرد كل خمسة عشر يوما. على مدار أربع وعشرين ساعة، وتتفاقم مشكلة المياه في مدينة الخليل نتيجة الإهمال الشديد في البنية التحتية الخاصة بالمياه خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي.

ويجبر النقص الشديد في المياه السكان الفلسطينيين في منطقة الخليل بشكل خاص على شراء المياه من شاحنات الصهاريج التي تنقل المياه لبيوتها، كما يؤخذ نقص المياه بشكل حاد من صعوبة الحفاظ على نظافة وصحة ووقائية مناسبة. من هنا، فإن لهذا النقص تداعيات على صحة المواطنين، ومن هذه التداعيات سرعة انتشار الأمراض العديدة نتيجة استخدام المياه غير النظية، وزيادة حالات الجفاف بسبب عدم وجود المياه الكافية للشرب، وعدم الاهتمام الطبي

للتغلب بالمرض في المنازل والمستشفيات. الأمر الذي مثل خطورة على حياة المواطنين.. كما وتسبب نقص المياه في انتشار الأمراض المعدية لأسباب عديدة منها: سحب المياه من آبار، مياهها غير نظيفة، واستخدام المياه الملوثة في النظافة بدلا من المياه الحارة، وري الزرع بمياه الصرف الصحي.

وشير في المستشفيات أهمية القصوى في الحفاظ على النظافة الصحية، لأنها بيئة تكثر فيها البكتيريا. ولكن نتيجة لنقص المياه فإن عملية النظافة تتأثر كثيرا بهذا الأمر. ويقل معدل العمليات الجراحية وأشكال العلاج المختلفة بشكل كبير.

ويريد خطر عدم توفر شروط وقاية وعلاج مناسبين من خطورة المرض ذاته، الذي يصاب به الداخلون إلى المستشفى. ويهدد أيضا أبناء الأسرة الذين يرافقون المريض. ومن أكثر الفئات التي تعاني، نتيجة النقص الشديد في المياه، المرضى المحجوزون في المستشفى. فاستخدام دورات المياه والحمامات يكاد يكون غير ممكن.



التديان السياسية والاقتصادية في الكويت والوطن العربي : بش في مفاهيم الوعي السياسي عند طلاب جامعة الكويت

د. علي أسعد وحطه (*)

ملخص :

تناجح في بوتقة الواقع العربي المعاصر
مستوى متزايدة من المشاركة الاجتماعية
والسياسية للأفراد والمؤسسات في دائري
الزمن والمكان، ما إنسان العربي يعيش في
مواضع الأزمات والاضطرابات التي تحيق
بوجوده وتشد في طاقه وتقتضي مضاجد.

حيث يجد نفسه في الواقع الذي تتجاذبه وتتأذى في الآن الواحد تيارات فكرية وثقافية ساخنة
منسارية وضاربة في كل زاوية وقناة من الوطن العربي الكبير . وفي مواضع هذه التيارات المتفرقة
يقع الإنسان العربي فريسة للعصايع الفكرية والثقافية وينسجج لديه إمكان التوافق بين الفاعل
والوجود . ويضمف لديه إمكان الخروج من الدوائر والثرق المغلفة إلى دائرة الوعي الإنساني بما
يتطوي عليه هذا الوعي من إمكانات امتلاك الواقع والسيطرة على التغيير .

ففي ظل التحولات التاريخية الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية التي يشهدها عالمنا
المعاصر . بدأ الوطن العربي يشكل موضوعاً لاجتياح ثقافي أدى إلى تصدع كبير في بنية الوعي
الطوعي والتقليدي . استطاع أن يجرف معلومات وركائز الهوية الوطنية والقومية . وهي مهبط هذه
التصدعات الثقافية بدأ الوعي الثقافي والسياسي عند الناشئة والشباب يشهد حالة الطرب
شائعة تطرح نفسها بعزود من الإكعاج على الباحثين والفكرين في مختلف المادين .

(*) استاذ علم الاجتماع التربوي - كلية التربية - جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

الحدود السياسية والاقتصادية مع الكويت والواقع العربي

فواقعنا هو واقع القاسي السياسية والعسكرية بما تطوي عليه من حروب وويلات ودمار ترمز إلى مظاهر وجود مستحلفات رهيب ومظلم، وواقعنا هو نتائج حروب ومأسا لا تقطع لتصدرها حربا الخليج الأولى والثانية بكل ما عيشته هاتان الحربان من الالم وجوذية فوق حدود التصور. ناهيك عن هذه الحروب للتفجيرة مع عدو ضارر خطير، مع العدو الصهيوني الذي يستلب الكرامة والأرض والإنسان، وفوق ذلك كله يأتي القهر الثقافي بمؤسساته الطائفية التي تريد اليوم أن تستلب منا خبر عروبتنا وأصلاح انتمائنا إلى الأرض والإسلام والجنود. لقد ألقى الغزو العراقي للكويت الرخم الروحي والعنوي الذي كانت توفره القومية العربية. وقد أدى هذا الغزو إلى احتضار الفكرة القومية العربية وإجهاس الإمكانات القومية العربية، بكل ما كانت تطوي عليه هذه القومية من طاقات هائلة في القدرة على تحريك الوجدان العربي والشارع العربي. وهذا ما يؤكد معمدجواد رضا بقوله «لقد ألقى الغزو العراقي للكويت ذلك الاكتفاء الروحي الذي كانت توفره فكرة القومية العربية، وخلق فراغا روحيا»^(٦).

«فالوطن العربي كيان ثقافي متعدد مركب، تتداخل فيه عناصر الولايات المحلية بالولايات الوطنية، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة»^(٧). وفي صدارة هذا الواقع، بما تطوي عليه من إشكاليات وتحديات، يجد الباحث نفسه في مواجهة واقع ثقافي واجتماعي يعاين حدود الغراب ويرى كيات التصنيف بما يطوي عليه من تعقيد وتشابك. وفي قلب هذا الواقع المركب يكثر التحديدات معرفية وسوسولوجية، تشمل في هاجس التكيف عن مجال التحقيقة الاجتماعية لوعي الإنسان العربي، بما يحيط به من مازق وتحديات، وبما يشمل في أسماقه من ظموحات، إنه هاجس الكشف العلمي عن هذا الوعي بما يشمل في أسماقه من قانونيات تحكم مسار نمائه وتطوره.

وهي هذا السياق فإن السؤال الذي يتهى أمام الوجدان هو: كيف يتجلى الواقع السياسي والاجتماعي في وهي الأفراد والجماعات؟ وما أولويات هذا الواقع وتحدياته وما الصعوبة التي نرسم فيها الظموحات في أسماق هذا الوعي في أبعاد الزمان والمكان؟

وإذا كان الطموح السوسولوجي لا يمكنه أن يأتي على مساحة التحقيقة كاملة، فإن الخيار البحثي يمكنه أن يركن في سعيه إلى دائرة قد تتميز بطابع الأهمية والخصوصية في مساحة هذه الحقيقة، ولذا فإننا هنا يتحرك في دائرة الحياة الواعية للطلبة الجامعيين في جامعة الكويت، التي تمثل موقعا ثقافيا واجتماعيا متقدما في مساحة الحقيقة الاجتماعية في الكويت، والسؤال من جديد هو: كيف يرسم الوعي الطلابي حقيقة التحديات التاريخية التي تواجه المجتمع العربي المعاصر؟ ومن ثم ما أولويات هذه التحديات؟ وأيضا ما أولوية الظموحات التي تسجل حضورها بوصفها خطوات على طريق خروج المجتمع العربي المعاصر من تحدياته ومن واقع الذي يهيش بالمشكلات والمخاض والظلم والسرعات؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة وما يفسر عنها ثوب علينا أن نوجه أنظارنا إلى هيئة من الطلاب الجامعيين هي جامعة الكويت، وأن نوجه إليهم مجموعة من الأسئلة في مقدمتها سؤال مفتوح يطلب من أفراد الهيئة أن يذكروا أهم التغيرات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمع العربي المعاصر. وفي وسطها أسئلة تستوجب وعياً بما يطوي عليه وهي الطلاب من توليدات تتعلق بإبعاد الوجود السياسي والاجتماعي للإنسان القومي بدءاً بالانتماء القومي وانتهاء بالعمدة الولاء المتجدد لثقافتها الاجتماعية متشجرة في واقع الحياة الاجتماعية اليومية للإنسان العربي في القرن الحادي والعشرين.

إشكالية الدراسة:

سجلت مأساة الاحتياج العراقي للكويت، والأحداث التي سبقته ولا سيما حرب الخليج الأولى، تحولات عميقة وشاملة في بنية التصورات السياسية والشاعر القومية والأحاسيس الوطنية في المجتمع العربي بصورة عامة و في المجتمع الكويتي على وجه الخصوص. ولتجلت اتجاهات برؤى فلسفية جديدة أسست لقيم جديدة وتمازج وهي جهود يستوجب التفتيش والدراسة العلمية.

هالوق كان بمثابة سدنة تاريخية أرواح لها الوجدان الجمعي في المجتمع الكويتي. فالإنسان العربي في الكويت، الذي سجل أروع المواقف القومية العربية، عظيم الدعم وشارك في مختلف الأحداث التاريخية المشرقة، شارك في جبهات القتال في العدو الصهيوني، والذي سجل أروع مواقف المشاركة والدعم للعراق في حرية الجزيرة مع إيران، فوجئ على حين غرة بضدعة غمر موجعة جاءت من الغرب الشريرين - أعداء الأحرار - الذين ظالموا تشددوا بشعارات العروبة والإسلام. وكانت الضدعة أكبر من القدرة على الاحتمال تأسيساً على القول بأن «ظلم ذوي القربى أشد مضاضة، وفشاك وفهراً».

وما يمكن أن يسجل هنا بشكل ضخم من فيض، فأغلب الدراسات والبحوث السيكولوجية التي أجريت في المجتمع الكويتي تشهد بمخاطر تقول إن الغزو العراقي أحدث ثورة في المفاهيم وفي التصورات وللشاعر السيكولوجية. وهذه الحقيقة تدعها رؤى وتصورات لتتمسكها في ميدان الحياة الاجتماعية في المجتمع الكويتي.

فأغلب الواقعين العرب الذين عاشوا الغزو العراقي يميزون بين شخصية الإنسان الكويتي ما قبل الغزو، وذلك ما بعد الغزو هؤلاء الواقعون يرون على العموم أن فضائل الكويتيين ما قبل الغزو كانت أكثر منها فيما بعد الغزو. ومثال هذه النتائج ليست غريبة أبداً فهي طبيعية ومشروعة. ربما لأي شعب يتعرض لهزيمة ويهاني من حالة دمار واحتياج. ومع ذلك فإن السؤال العلمي الذي يطرح نفسه في هذا السياق: هل بدأ حقاً الإنسان الكويتي يتشبع بروحي سياسي واجتماعي جديد مختلف. ولا سيما فيما يتعلق بمفاهيمه وتصورات حول القضايا القومية والاجتماعية؟

التحولات الاجتماعية والاقتصادية مع الثورة والتحول العربي

وفي كل الأحوال فإنه يجب علينا ألا ننسى التحولات السياسية في ما يتعلق بالفضيحة الفلسطينية، ولا ننسى التسويات السلمية والسياسية والتطبيع والتراجع للوقت العربي والعلاقات العربية التي أدت في حتمتها إلى تحولات في الوعي العربي برمته، ولا سيما في الموقف من الأرض المحتلة ومعاهدات السلام. وهذه مجموعة من العوامل التاريخية التي تفتي بثقلها في دائرة التحولات التي يشهدها الموقف ويسجلها الوعي في هذه المرحلة التاريخية المسافرة بكل المعاني والمضامين.

والى جانب هذه التحولات بطابعها السياسي لا يمكن لأحد أن يتجاهل تأثير التحولات الاجتماعية والتاريخية لمصر بدأت ملامحه ترسم على صورة عوالة جديدة تطلعت لها أوصال الوجود القديم، وبدأ التكون بطل برائحة جديدة وقامة جديدة وصورة جديدة. عوالة شكتها وتشكلها وتعيد تشكيلها طائفة عقل إنساني متشعر بالإنديج التكنولوجي والاتصالي الذي يحطم كل القيود. وتغير أطر العالم القديم ووضع الإنسان في مواجهة تحديات جديدة دفعت في أعماقه روحاً جديدة متعمقة بالحرية والإبادة بلا حدود. وهذه هي النظائر التي بدأت تشكل روحاً جديدة وروحاً جديداً يتشعر في كل ثلثها وجوداً اجتماعي والإنساني. وهنا يمكن التساؤل: ليس حروياً بل أن تكامل في هذه الصورة الجديدة لوعي مختلف ينمو في رحم التحولات المعاصرة؟ هذا هو السؤال المحوري الذي تشكل الأهمية وينمو بالخطورة وهو سؤال يعلق بأية تبعات أهم جديدة غير تحولات جديدة في رأي قديم.

وهي صورة هذه أن تتولد من التحولات العنيفة والطامة تاراً إشكالية متجذبة بالغة الخطورة وهي أن الساحة الاجتماعية تكاد تظل من الدراسات التي شجعتنا على طين من إمكان فيلس درجة التحولات التي تجري في دماء العقل وفي مظاهر الوجود السياسي والاجتماعي في مجتمعنا. الدراسات السابقة التي كان يمكن أن تجري في أزمان القديمة حول طبيعة الوعي والامتيازات والقيم تسجل غيابها الشامل والعميق في المجتمع الكويتي والعربي إلى حد كبير.

وهي غيبة الدراسات السوسيولوجية القديمة حول هذه القضايا يمكننا أن نستند إلى طبيعة الرؤى العامة والأحداث التاريخية و الشواهد السياسية التي عرفها المجتمع الكويتي في مرحلة الثمانينيات. ومهما يكن الأمر فإن التعرف على طبيعة الوعي السياسي لعينات من المجتمع الكويتي تبرزها الحاجة النفسية التي تلح على العقل والتي تفرقها طبيعة التطورات الاجتماعية الحارة في هذا المجتمع. أو ليس ضرورياً لجيل قادم من الباحثين في المستقبل أن يجد لديه ما يحتاج ربحاً من الوثائق حول إشكالية الوعي السياسي للشباب الجامعي في مطلع القرن الحادي والعشرين.

والسؤال هنا: لماذا طلاب الجامعة هؤلاء من بعيد اليوم أن تكون الجامعة وحدها ميداناً للبحث الاجتماعي. ونحن إذ نوافق الآخرين على رأيهم مع بعض التحفظ نقول إن الاختيار قد

وقع على الجامعة لأسباب شتى منها، أن طلاب الجامعة في الكويت يمثلون الشباب المثقف في المجتمع وطبقة المجتمع الكويتي. فجامعة الكويت هي الجامعة الوحيدة في الكويت وهي المكان الذي يشتمل على خبرة المثقفين الواعدين في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية و السياسية. ويؤسسها الجامعة الوحيدة فهي التي تشتمل على العمق الشبلي الطيفي في المستقبل. والشباب الجامعي يمثل في الوقت نفسه الشباب والأفواج والطبقة المتوسطة الأكثر وعياً في المجتمع. وهذا يعني أننا عندما نتحدث عن الشباب في الجامعة فإننا نعمل على تحليل الحاضر والمستقبل في المجتمع الكويتي. ومع ذلك كله فهذه الشريحة هي الشريحة الأكثر تنظيمًا ووعياً وتجارباً واستعداداً للتفاعل مع القضايا الاجتماعية. وما يفتري هذه الفئة يمكنه أن يقدم تصوراً مستقبلياً للروح المستقبلية في المجتمع العلمي.

ويبدو لنا أنه يلحظ علينا أن نعمل بصوت مرتفع أن غياب الأنماط الاجتماعية والتربوية ونمطها في جميع الميادين يطرح نفسه مشهوراً متقدماً من مظاهر التخلف الاجتماعي. إن الواقع الاجتماعي الذي نعيشه حالياً والبعاد ومصادمته قد يشكل مصادر الخطأ محدقة بالمجتمع وبما تكون نتائجها أكثر تدميراً من ثورة بركان مدمر. وهكذا يمكن أن نستجمع القول بأن صورة الوعي السياسي والفكري والاجتماعي تطرح نفسها بالحاج كبير كقضية إشكالية في هذه المرحلة التاريخية. وإن لم يكن في مقدورنا أن نرسم مشغرات هذا الوعي وحدود طاقته حري بنا أن نقدم في الخدمة الدنيا راحة سائلة في استشراف، لهذا الوعي بوصفها تعبيراً حيوياً عن ضرورات تاريخية في المسار العلمي والفلسفي.

أصلية الدراسة

نأسسها على ما سبق يمكن القول إن ماهية الوعي السياسي الجامعي للعاصر تنهض على هيئة إشكالية موسيولوجية تطرح نفسها بالحاج على العقل العلمي. وهي التعرف على مراحل وطبيعة هذا الوعي تتحدد إشكالية هذه الدراسة. وفي هذا العمل الإشكالي يمكن القول إن قضية التحولات في الوعي السياسي والاجتماعي للشباب قياساً على تأثير أحداث تاريخية تقع في قلب هذه الإشكالية العلمية. وفي هذا العمل تنهض قضية التحديات التاريخية التي تحيط بالوطن بالعبء التوعوية والوطنية. فما طبيعة هذه التحديات، وكيف ترسم هي الوعي الشبلي عند طلاب الجامعة وفي مضامين هذه القضية أيضاً تتجلى قضية التطورات كصيغة جديدة من صيغ الكشف عن مضامين الوعي السياسي والاجتماعي عند طلاب الجامعة في الكويت. والمسأل الذي ينهض أمام العقل ويحاكمه هو: ما نسق هذه التطورات التي ترسم في أبعاد قديمة سياسية واجتماعية هي وهي الطلاب؟

regard to the length of the standard deviation

عن هذا المستوى نوضح أبعاد العقل معطومة من الأسئلة التوجيهية الإعرافية:

- ١- كيف ترونم التحديات التاريخية التي تواجه الوجود الاجتماعي والسياسي للمجتمعات العربية في وجدان الشباب الجامعي وفي وعيهم؟
- ٢- كيف يحدد الشباب الجامعي ويرسم هذه التحديات في إطار المجتمع الكوني المعاصر؟
- ٣- كيف تأخذ الطموحات السياسية والاجتماعية شكل وجودها في وعي الشباب الجامعي وتصوراتهم؟
- ٤- ما نسل الطموحات السياسية والوطنية قياسا إلى الطموحات الاجتماعية؟
- ٥- ما مكان الاتحادات الطلابية ونسل وطنيتها في وجدان الشباب وعقولهم.
- ٦- كيف ينظر الشباب الجامعي إلى القيم الاجتماعية الإيجابية في المجتمع الكويتي وكيف يحدون نسل ترويجها والوطنية وتكاملها؟

يشير إلى الوضع بوصفه حالة ذهنية تشمل في إجمالها الإنسان والعالم

على نحو عكسي أو وحداني. وهذا يعني أن الوصي هو الشخصية التي تلج

الانسان ان يملك شسوط وجوده على نحو ذهني، والاسمى على هذا

نحو: الوهم، الأنسان، في صور شخص، تتباين، يتباين، الجمال، اللذات، أو موضوع الوهم، حيث يتعرف

الانسان اشكالا متنوعة من الفهم الديني والفهم المجتمعي والفهم العلمي والفهم

الأخلاق. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الوعي السياسي هو الحالة التي يتمثل فيها الفرد أو

أفراد المجتمع قضايا الحياة السياسية بأبعادها المختلفة ويتعلمون من هذه القضايا مواقفهم معرفياً

وعدائيا في الآن الواحد. فالرمز CONNECTION هو شبكة عاطفية وجدانية قوية تتمكن في

كثير من المظاهر السلوكية لدى الفرد، ويتم تكوينها من خلال مراحل العمل التربوي في مختلف

مراحل التلويح: وكما كان الوضع أكثر تعقيداً وثباتاً كان أكثر قابلية لعدم ونوعية السلوك، هي الاتجاه

المزخروب فيها ٢٠ ويمكن تصنيف الترمي أيضا بأنه: الأثر الكه والقبه والفهم للنفس والعالم الخارجي.

والانتماء الاجتماعي، وينتج عن التفاعل للعالم الموضوعي والمعمل والفعل الاجتماعي بكل أوجهه.

ويؤدي الوعي إلى اتخاذ مواقف فردية وجماعية فعالة، أي أن الوعي مرتبط بالسلوك، ولعب القادة

دوراً مهماً هي عملية الوعي. أما في علم النفس فليست عدم معنى الشعور، بل

أما الوعي السياسي فهو مجموعة من القيم والاتجاهات والبدائل السياسية التي تتجلى للفرد أن يشارك مشاركة فعالة في أوضاع مجتمعه ومشكلاته، يحلها ويحكم عليها ويحدد موقفه منها ويوجهه إلى التحرك من أجل تطويرها وتحسينها.^{٢٩}

أما الوعي القومي National Consciousness فهو «التحسس بالهوية القومية والانتماء إلى شعب أو أمة بفعل روابط الجنس والثقافة والتاريخ واللغة والمصالح والمصير المشترك، أي بفعل الإدراك والتفهم الكثرية الانتماء إلى قومية واحدة، وقبول هذا الانتماء».^{٣٠}

وهذا ويعبر الباحثون بين نوعين من الوعي: وعي التخليط وتخليط الوعي، وعي التخليط يصدر عن بنية فكرية اجتماعية اقتصادية متخلطة. أما الوعي التخليط فهو الوعي الذي يوجد في كل العنصرات المتشعبة والمتخلطة على السواء، فقد نجد في السود واليهان وعياً متخلطاً، فهو وعي قائم بذاته يعمل علامات المجتمع الذي انخرط ثم يطبع هذا المجتمع طباعه، لأنه وعي يهودي يتحلل كل البس في المجتمع».^{٣١}

وفي هذا الصدد يعلن محيي الدين صبيحي أن وعي التخليط هو الوعي السائد في بلادنا، وأنه لا يمكن للإنسان العربي أن يخرج من دائرة هذا الوعي إلا إذا استطاع أن يخرج من دائرة هذا الواقع المتخلط.^{٣٢} وهذا يعني أنه من أجل أن يكون للعرب دور في هذا العالم لابد من أن تكون البداية في مستوى العقل وفي مستوى الخطاب ومن خلال نسق جديد للمعرفة بمنسوبي التنشئة والتربية والادماج وإقامة لا يفرض عليه.^{٣٣} هكذا التنشئة الإنسانية المعروفة تاريخياً بدأت بنوع من التربية الأبسطولوجية التي ظهرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وإلى العالم من حوله، سواء تحدثنا عن التنشئة الإسلامية (وهي التنشئة الناجمة الوحيدة في تاريخنا) أو التنشئة الأوروبية أو التنشئة اليابانية، ابتدأت هذه التنشئات بنزوة إبستمولوجية ظهرت من العلاقة التقنية بين الكائن والمحيط الذي يعيش فيه. فكانت التنشئة والإدماج والعقل الخطابي^{٣٤} لم تتم نشئة في التاريخ إلا كانت مسبقة بنزوة الإبستمولوجية ظهرت من نسق القيم والظاهير والتصورات السائدة في هذه المرحلة أو هي ذلك المجتمع.

الادماج الاجتماعي

تشكل ثقافة الشباب حقلًا علميًا متناميًا ولا سيما في العقود الأخيرة من القرن العشرين. ويمكن القول إن للكتابة العربية بدأت لتفتي إلى حد كبير معطيات الدراسات والأبحاث

الأميركية حول الشباب العربي وهدوء بصورة عامة. ومع أهمية هذه المعطيات يمكن القول إن الدراسات التي كرست نفسها لدراسة الوعي الشامي بمصنوباته السياسية مازالت هي باكور لها الأولى ومازالت هذه القضية تحتاج إلى همم الباحثين وجهودهم.

الدراسات القيمية والوجدانية مع الكوئيت والكوئيت العرب

فالدراست التي حاولت أن تتقصى واقع الحياة اليومية للشباب تعاني من تدرتها، إذ قلما نجد مثل هذه الدراسات لأسباب لا نغفل عن المازق، فدراسة مثل هذه القضية تستوجب العذر والتفحص مرهبا من الهفوة والإحساس بالمسؤولية هي أحواء تخلق فيها الحريات العلمية والأكاديمية، ولذلك فإننا نستعرض في هذا السياق بعض الدراسات الجانبة لإشكالية بحثنا والفروية من حاجته.

ونفي هذا الشأن أن أغلب الدراسات الجارية في هذا المجال تأخذ تسميات مختلفة مثل: دراسة القيم والاتجاهات وثقافة الشباب ومشكلات الشباب، وانطلاقا من هذا الواقع يتوجب علينا أن نستعرض بعض الدراسات والأبحاث التي يمكنها أن تلقي الضوء على طبيعة المشكلة المطروحة في ميادين مختلفة.

تأسيس لبحث: الدولة العربية

الكوئيت

تعد الدراسة التي أجراها مكتب الإثراء الاجتماعي في الكويت عام 1994 تحت عنوان «الحياة القومية في المجتمع»¹⁶⁶ بإشراف الدكتور الأميري من أهم الدراسات التي شهدتها الساحة الكويتية في مسرور الدراسات الاجتماعية والقيم في العقد الأخير من من القرن العشرين. وقد أشرف على هذه الدراسة الأستاذ الدكتور سعيد اسماعيل علي ومساعدته عثمان باعلا ومبكر بن الساعدي في المؤسسة العلمية الكويتية. ومع أن الدراسة تبحث في شكل القيم إلا أنها جاءت لتشتمل على جوانب مهم جدا من جوانب الوعي السياسي والاجتماعي عند الكويتيين.

شملت هذه الدراسة هيئة واسعة من الطلاب والدرسين وأولياء الأمور قدرت بـ 864 فردا. وقد تضمنت جوانب عديدة من جوانب الحياة الواعية في المجتمع الكويتي المعاصر. لقد بينت هذه الدراسة على وجه الإطلاق أن القيم المدنية تأخذ المرتبة الأولى على الإطلاق بوصفها قيمة سائدة ومرتبة في أن واحد. ومن ثم تأتي القيم الاجتماعية تحتل المرتبة الثانية تليها القيم السياسية، أما القيم العائلية والجمالية والاقتصادية فإنها تأتي في المرتبة الأخيرة في سلم القيم السائد.¹⁶⁷

ويمكننا بعد قراء مفصلة لهذه الدراسة أن نطرح الجدول التالي الذي يتضمن ضرورة شمولية لبعض جوانب الوعي السياسي والاجتماعي لبعض القضايا الاجتماعية المهمة في المجتمع الكويتي. ونحن نقوم ببناء هذا الجدول وفقا لاعتبارات الدراسة الحالية.¹⁶⁸

اتجاه أفراد العينة المدروسة نحو القضايا التالية:

القضية	أياء نعم %	مدرسون نعم %	طلاب نعم %
مكافحة تأييد القضية الفلسطينية	77,6	64,6	87,9
توطيد العلاقات السياسية مع العرب	70,6	56,7	66,1
توطيد العلاقات السياسية مع الغرب	87,1	87,0	74,0
رفض التصبب بمختلف أشكاله	86,0	87,8	87,7
رفض التوسعة والمحصنة	87,9	71,6	66,7
الواقعة على التمييز بين المواطنين والوافدين	66,8	76,9	77,7
التعويض على ذوي الوفاة	77,7	76,1	87,7
منح المرأة الحق الانتخابي	78,6	67,0	80,0

والجداول السابق يبين أعداد من القضايا. أهمها تراجع كثير من تأييد القضية الفلسطينية. وذلك بعد غزو الكويت وما ترتب على ذلك من مواقف وأحداث سياسية، ومصادفة نظام اتجاه التمييز بين المواطنين والوافدين ولا سيما عند المدرسين. وتراجع الاهتمام بالزعي الوطني عند الشباب من طلبة المرحلة الثانوية. وضعف وثيرة الميل إلى منح المرأة حقوقها الانتخابية. وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى دراسة وليد سليم التميمي حول موقفه التطايع الجامعي في الراي العام العربي من القضية السياسية للصراع العربي الصهيوني. حيث أظهرت هذه الدراسة على عينة بلغت 1200 عربي من العاملين أو المقيمين في الكويت العام 1980 وشملت 600 من المصريين و200 من الفلسطينيين و200 من السوريين و200 من الخليج العربي. وهدفت الدراسة إلى دراسة واقع الراي العام من الشبهة للصراع العربي الصهيوني (11). وقد بينت النتائج تراجع الاهتمام بعيداً التمييز الكامل لتواب الأرض الفلسطينية المحتلة. ولا سيما عند أفراد العينة المصرية حيث بلغت نسبة الذين يؤمنون بتميزير كامل تواب الأرض المحتلة 37,2% عند المصريين مقابل 10,9% عند السوريين ونسبة 17,1% عند الخليجيين⁽¹²⁾. وينسب الباحث هذا التراجع بأمرين هما: استنزاف الهزائم العربية من جهة وغياب المحرض الأيديولوجي من جهة أخرى.

الدولة العباسية والانتعاشية في الكويت والكويت العربي

ويشهد مبدأ استخدام القوة في استرجاع الأرض المحتلة انحصاراً واضحاً بين أفراد العينة ولا سيما عند أفراد العينة المصرية. أفراد 27A من المصريون بأهمية استخدام القوة في استرجاع الأرض مقابل 1، 21A عند الفلسطينيين، و22A عند السوريين، و27A عند الخليجين.

وقد بينت هذه الدراسة أيضاً أهمية الحضور الديني كإيديولوجياً وأهمية في وهي الشباب حيث أجمع أفراد العينة على مبدأ وحدة القدس باعتبارها عربية، موحدة أبدية لفلسطين. وأكد أفراد العينة اعتراضاً كبيراً على مبدأ الاعتراف بإسرائيل؛ أعلى 27A، 21A من أفراد العينة المصرية قبول مبدأ الاعتراف بإسرائيل. ولم يجد أي من أفراد العينة السورية والفلسطينية الموافقة على هذا المبدأ. وفي المقابل أعلن 27A من أفراد العينة الخليجية قبول هذا المبدأ.

وتتعد دراسة إبراهيم كرم من الدراسات الحديثة التي شهادتها الباحثة الكويتية، وثاني هذه الدراسة تحت عنوان: «التجاهات طلاب المرحلة الثانوية في دولة الكويت نحو مفاهيم التعاون الخليجي والوحدة العربية والتضامن الإسلامي بعد تحرير دولة الكويت». وقد شملت عينة شملت بـ 100 من طلاب المرحلة الثانوية في دولة الكويت العام 1992، ومن أهم نتائج هذه الدراسة⁽¹⁴⁾:

27A	يؤيدون على قيام دولة عربية واحدة.
21A	يؤيدون على توحيد الجهود العربية تحت قيادة واحدة.
27A، 21A	يؤيدون أهمية توحيد المصالح العربية.

فيما يتعلق بالوحدة العربية

27A، 21A	يؤيدون على الوحدة العربية الشاملة.
27A، 21A	يؤيدون أهمية التضامن العربي.
27A، 21A	يؤيدون دعم العلاقات مع دول إسلامية.
27A، 21A	يؤيدون تعزيز العلاقات الإسلامية.

وكانت الكويت أيضاً مسرحاً لدراسة أحمد البغدادي وفلاح المبرورين^(١٢١) دراسة تحليلية لاتجاهات الرأي العام الكويتي حول مختلف القضايا السياسية المحلية، حيث أجريت هذه الدراسة على عينة عشوائية بلغت ٢٠٠٠ فرد من المجتمع الكويتي حيث بلغت نسبة الذكور في العينة ٦٩,٧ مقابل ٣٠,٢ من الإناث، وبلغت في الديموغرافيات وكانت نسبة الحاصلين على شهادات عليا ٦,٦ من أفراد العينة، وقد نظرت الدراسة إلى موضوعات عدة تتعلق بالقضايا السياسية نظراً منها ما يتعلق ببحثنا، حيث أثمرت الدراسة عن النتائج التالية:

- ١- هل تريد إعطاء المرأة حق الانتخاب: أجاب ٤٤,٨ من أفراد العينة بالإيجاب بينما بلغ عدد المعارضين ٥٥,٢ من أفراد العينة.
- ٢- هل تريد إعطاء المرأة حق الانتخاب والنشيط: أجاب ٤٦,٣ بالإيجاب مقابل ٥٣,٧ بالرفض^(١٢٢).

هذه الصورة السوسولوجية التي قدمها هذه الدراسة تبين بكل وضوح أن الوعي الديمقراطي يعني إشكالية كبيرة ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أغلب أفراد العينة يحصلون شهادات جامعية وعليا.

فإن إعطاء المرأة حقوقها السياسية تعطي القضايا المحورية لمسألة الديمقراطية المعاصرة في المجتمع الكويتي، ومع ذلك فإن الوعي الديمقراطي يمر بمراحل عديدة ومراحل المجتمع الكويتي تواجه عدداً من التحديات الديمقراطية التي تواجه مسار نمائه وتطوره في مستوى تشكل الوعي الديمقراطي.

تعد دراسة سعد الدين إبراهيم حول اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة العربية من الدراسات الكبرى التي أجريت في مجال الوعي السياسي الوجداني العربي عند الشباب والشباب في الوطن العربي^(١٢٣).

أجريت الدراسة في العام ١٩٧٩، وشملت عينة أقطار عربية، وبلغت العينة ٥٥٥٢ مستفيضي أظهيرهم من المنقسمين: والبلدان التي شملتها الدراسة هي: الكويت (بلغت عينة الكويت ١٦١ مستجوباً)، الأردن، فلسطين، لبنان، مصر، اليمن، السودان، تونس، ومن النتائج المهمة لهذه الدراسة يمكننا الإشارة إلى النتائج التالية (أخذنا بالحسبان الإشارة إلى نتائج العينة الكويتية مقابل العينة العربية برمتها وذلك للضرورة المنهجية لهذه الدراسة):

جدول توضيحي لأهم نتائج هذه الدراسة

الاضحايا المعالوجة	العينة العربية	العينة الكويتية
يؤمنون بأن سكان الوطن العربي يشكلون أمة واحدة	79%	70%, 7
يؤمنون بالوحدة العربية الاندماجية	77%, 7	71%, 7
يؤمنون بأهمية الاتحاد العربي القبرالي	74%, 9	77%, 7
يؤمنون بالتشبيث في إطار الجامعة العربية	77%, 8	77%, 7
يؤمنون بأن الدين الإسلامي مطلق للوحدة العربية	78%	79%
يؤمنون بأن تحرير فلسطين بالقوة العربية الشاملة	77%, 8	77%, 9
تحرير فلسطين يتطلب استخدام القوة العسكرية المنظمة	77%, 9	77%
يؤمنون بإمكان الحل السلمي مع إسرائيل	77%, 9	77%, 1
لا تلجأ من التفاوض مع إسرائيل	77%, 11	78%, 9

البحث في الوحدة القومية

في دراسة إجلال إسماعيل حليم حول -الانتماء الاجتماعي بين الشباب في مجتمع الإمارات- درس الباحثة ظاهرة الانتماء عند الشباب بوصفها حالة من حالات التوافق مع القيم الاجتماعية والقيمية السائدة في المجتمع وصحة من صيغ التكيف مع القيم الاجتماعية السائدة. في هذه الدراسة بينت الباحثة تراجع القيم الاجتماعية التقليدية من دون وجود قيم جديدة معاصرة تقوم مقامها. وانطلاقاً من هذه النتيجة بينت الباحثة إلى التغيرات التي تتعرض لها الثقافة العربية والمخاطر الكبرى التي يواجهها التراث الثقافي من حيث قدرته على توجيه الأفراد والمجتمعات وتحديد الأنماط السلوكية المناسبة¹⁰¹.

وفي هذه الدراسة بينت الباحثة أن بعض القيم القديمة اختشت وظهرت قيم جديدة. ومن القيم التقليدية التي اندمجت: الولاء، والاندماج الاجتماعي، أما القيم الجديدة التي ظهرت فهي الفردية والقيم القادية والمصلحة الشخصية والاهتمام بالذات. وقد ظل ذلك إحصائياً

بالصراع والتفوق والافتقار من معايير المجتمع وتقييمه ولكن هذا الاختلاف لم يصل إلى مستوى (الألمعية) أو اللامعية في مفهوم نور كهايم.

وهي الإمارات العربية المتحدة أيضا أشار إلى دراسة جمال علي سند السويدي وشعلان يوسف العيسى الموسومة «التفاعلات طلبة جامعة الإمارات العربية المتحدة حول أزمة الخليج»، وقد أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت 349 طالبا وطالبة من طلات جامعة الإمارات العربية في العام 1991، وهدفت الدراسة إلى تحليل مواقف الطلاب من أزمة الخليج وتحديد سمات الوعي السياسي عند الطلاب من أهم النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة⁽³³⁾.

1- أهمية الانتماء الديني متطلبا للهوية، حيث اختار 81% من أفراد عينة الانتماء الديني مقابل 19% للانتماء العربي، 81% إلى الدولة و19% إلى الخليج العربي، 81% أثر الانتماء إلى قبيلة توضح الدراسة أثر أزمة الخليج أسفرت عن تراجع وانحسار القد القومي واعتزازهم ومحاني العربية والثقافة العربية والوحدة العربية وغيرها من المفاهيم والقيم المتأسلة في الثقافة السياسية العربية⁽³⁴⁾.

وبينت الدراسة أن 9.9% يؤيدون الحركات الإسلامية في المجتمع⁽³⁵⁾.

الطبر:

يشير إلى دراسة جبهة العيسى حول: «الاضطراب بين الطلبة الجامعيين القطريين واليهوديين والبرانيين»، حيث أجريت على عينة واسعة من الطلبة المسجلين بجامعة قطر من مختلف التخصصات العربية، تبين الباعثة أن 86% من الطلبة الذكور يشعرون بأزمة الانتماء القيمي، وأنهم غير قادرين على التكيف مع القيم الاجتماعية السائدة، وأن 84% يشعرون بأنهم لا يملكون طاقة توجيه الذات، وأن قوى خارجية تستطيع على وجودهم وقواهم⁽³⁶⁾.

الطالبة العربية السعودية:

وقد شهد التعليم الجامعي في السعودية دراسة هند ماجد الخشلة: «التعليم الجامعي وأثره على اتجاهات طالبات جامعة الملك سعود حول بعض المفاهيم الأساسية»، التي أجريت العام 1988 على عينة بلغت 200 طالبة جامعية من كليات مركز الدراسات الجامعية للبنات في جامعة الملك سعود، وقد حاولت الباحثة عبر دراساتها هذه أن تدرس أثر التعليم الجامعي في بنية المفاهيم الأساسية للحيلا عند الطالبات وانتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج الهامة أبرزها:

1- أن الجامعة تؤدي دورا بارزا تربويا منهجيا مستقاهيا يشغل ببناء المفاهيم والقيم والاتجاهات السلوكية نحو مختلف جوانب الحياة.

التجارب السياسية والاجتماعية في الكويت والشرق العربي

٢- أن الجامعة تركز مبدأ الثقة بالنفس والقدرة على تصريف الأمور والتصرف على المشكلات الراهنة عند الطالبات، وأنها تؤدي إلى تنمية الطاقات الخفية عند الطالبات. وتؤكد لديهن التحليل بأساليب منطقية والقدرة على مواجهة مشكلات الحياة^{٣٧}.

وانتهت هذه الدراسة إلى أن الجامعة تلعب دوراً عظيماً في تكوين شخصية الطالب وتوسيع اهتماماتهم^{٣٨}.

الموقف العربي الفلسطيني

تجدر الإشارة إلى دراسة أحمد جمال طاهر حول: «التجاهات القسطنطينية السياسية والاجتماعية في المجتمع الأردني» وهي دراسة ميدانية أجريت على عينة واسعة من طلبة مدارس منطقة شمال الأردن. وعهدت إلى دراسة منظومة القيم الاجتماعية والسياسية التي تتركسها اتجاهات القسطنطينية الاجتماعية، بينت هذه الدراسة أن القيم السائدة هي: الولاء للعائلة أولاً، ثم الدين ثانياً، فالقومية في المرتبة الثالثة، وثاني الدولة في المرتبة الرابعة. وقد أجمع أفراد العينة على أن الأمة العربية تشكل أمة واحدة بسبب اللغة العربية. وقد أجمع أفراد العينة تقريباً على تضليل العائلة على الأرض. وأما فئدة الأرض فغير من فئدان أحد أعضاء الجسد، ولكلهم ينتمون لفئدة الوالدين من دون أن ينتموا للأرض^{٣٩}.

خاتمة:

يشار بالبيان إلى الدراسة القيمة أيضاً التي أجراها محمد جابر وديع سليمان حول: «التوجهات السياسية لدى الشباب التونسي» في العام ١٩٨٨^{٤٠}، وهي دراسة مسحية أجريت على عينة واسعة من الشباب التونسي من الجنسين الذين تتراوح أعمارهم بين ٩ سنوات و١٦ سنة. وقد تناولت الدراسة مختلف مظاهر المجتمع، وشمل البحث عينة بلغت ١٦١٨ طالباً (٢٨٣ ذكر و١٣٣٥ أنثى). ومن النتائج التي أوجتها هذه الدراسة يمكن الإشارة إلى ما يلي:

بينت الدراسة أن ٤٨,٦% من أفراد العينة أعطوا أن إسرائيل هي البلد الذي لا يحسنه قلبها الولايات المتحدة الأمريكية نسبة ٢,٣% (سليمان: ١٩٩٢). وقد أبدى ٢٧% من أفراد العينة أهمية القيمة الدينية حيث أعطوا جميع القيم السلبية والقبائل ٤٨,٦% من أفراد العينة أنهم يكرهون البشائر غير السلبية. وأعرب ٣٢,٩% منهم عن كراهيتهم لدول للعربية والمسلمين. وقد بينت هذه الدراسة أهمية القيم العائلية بين الشباب التونسي حيث أبدى ٨٢,٧% أن أسوأ خطأ يرتكب هو عصيان الوالدين. وهذا يعني أن الرابطة العائلية قوية جداً. ويؤمن الشباب التونسي بدرجة عالية بأهمية قيمة العائلة وخاصة طاعة الوالدين. وتأخذ قيمة العمل أهمية كبرى في نسل القيم في ثقافة الشباب إذ يمثل ١٧% من أفراد العينة أن المواطن الفاضل هو الذي يعمل بجد. ويليه الشخص الذي يسعى بالنظام. وبين الدراسة إضافة إلى ذلك أهمية قيمة التنظيم والأمن والنظام.

ومن الدراسات المهمة في تونس أيضاً تبرز دراسة عبداللطيف الحناشي^(٣٦) التي أجريت على هيئة بلغت ٨٠ عضواً من أصل مجتمعت قدره ٩٠٠ عامل، واستهدفت الدراسة على المقابلة الشخصية، وأجريت في الفترة الزمنية التي تمتد من شهر أكتوبر من العام ١٩٨٨ حتى مايو ١٩٨٩ في تونس، وهدفت إلى استطلاع مواقف العمال من الوحدة العربية.

وتشير نتائج هذه الدراسة إلى أن العمال ينظرون إلى الوحدة بوصفها ضرورية، ولكنهم يحتملون حول مبرراتها، حيث يرى ١٢، ٢٦ أن التحديت الخارجية المشتركة في التكيف الديمقراطي والإمبريالية هي العامل الأساسي للمطلب الوحدوي، ضروب الفاعل القومي العراقي عام ١٩٨١، والاحتلال الجنوب اللبناني ١٩٧٨، واحتلال العاصمة بيروت ١٩٨٢، وضروب مقرر قيادة التحرير الفلسطينية في تونس ١٩٨٩. وهذه العمليات كانت نتاجاً للمخالف مع القوى الإمبريالية العالمية. ويعتقد ٥٩، ٢٦ من أفراد العينة أن مبررات الوحدة تعود إلى أسباب تتعلق بالتحديات الخارجية مثل التخلف الاقتصادي والتنمية والديمقراطية، وبالإضافة إلى بروز المشاكل الطائفية والاضطرابات في بعض الأنظمة العربية. ويرى ٣، ٢٦ أن دواعي الوحدة تكون لأسباب تاريخية، هذا وقد أعلن أكثرية أفراد العينة أن الوحدة تعمل على حماية الأمن القومي ومواجهة الصهيونية والإمبريالية وتأمين الطوق الاقتصادية. وأهم القضايا التي درست كانت حول طبيعة الوحدة، حيث أصلى ٢٥، ٢٨ للوحدة طابعاً إسلامياً عربياً، بينما يرى ٢٥، ٢٦ أن الوحدة يجب أن تكون على أساس علماني في حين اعتبر ٢٦، ٢٨ أنه لا حرية للوحدة غير الإسلام، وقد أعلن ٥٥ أن حرية الوحدة تقتصر على فكرة العربية بشكلها التكاملي^(٣٧).

المراجع:

تبرز دراسة محمد إبراهيم كامل حول تطورات في فهم الطلبة لمصطلح بين العاملين ١٩٨٧ و١٩٦٢، وقد هدفت هذه الدراسة إلى تحديد القيم السائدة لدى طلاب المراحل النهائية من السلم التعليمي وتطورها خلال خمس سنوات من العام ١٩٨٧ إلى العام ١٩٦٢، وأجريت البحث على عينة تتكون من ١٠ طائفاً من طلاب السنتين الأخيرتين في الجامعة. وبيّنت الدراسة أن هناك تغيراً في الاتجاهات القيم بين الفرحتين، وذلك لمصلحة قيم الأمن، وانخفضت اتجاهات القيم الذاتية والجسمانية والزوجية^(٣٨).

ومن الدراسات العلمية هذه التي قام بها مكتب اليونسكو العام ١٩٨٤ بشأن إلى الدراسة الاستطلاعية لراي الشباب العالمي، وذلك لمعرفة فيهم وتطلعاتهم ومطوابعهم حيث أرسلت الاستطلاعات الخاصة بذلك إلى أندية اليونسكو في أنحاء مختلفة من العالم وإلى المنظمات الدولية، وبلغت إدارة البحوث ١٠٥٠ استبانة معلومة من ١١ دولة بينها ثلاث دول عربية هي مصر وليبيا وتونس. وقد بين البحث أن مسألة الحروب والسلام تستلزم اهتمام غالبية الشباب في العالم، وترتبط هذه المسألة بالمشكلات العالمية، القضاء على الجوع، وتطبيق الأسلحة النووية، والقضاء على التمييز العنصري، وتقديم المساعدات إلى الدول النامية^(٣٩).

الدراسة السياسية والاعتماد على العلوم والعلوم العربية

وفي جمهورية مصر العربية يمكن الإشارة أيضا إلى دراسة محمد عبد الحليم طقطاوي التي أجريت عام 1996 حول طبيعة الوعي السياسي عند طلاب جامعة قرطاجين. وقد هدفت الدراسة إلى التعرف على درجة الوعي السياسي للطلاب الجامعي. ومدى فهم الواقع الحياة الاجتماعية والسياسية. وقد شملت الدراسة عينة بلغت 450 طالبا وطالبة من جامعة قرطاجين. وبينت الدراسة النتائج التالية:

- انخفاض درجة وعي الطلاب بالأمور والقضايا السياسية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب بأهمية المشاركة السياسية.
- انخفاض درجة وعي الطلاب بالقضايا والأمور الاقتصادية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب بالأمور والقضايا الاجتماعية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب ببعض القضايا والأمور العربية. وعلاقة مصر بالدول العربية.
- لا توجد فروق في درجة الوعي بين الطلاب والطالبات في المجالات السابقة.

مصر:

لقد الدراسة التي أجراها الباحث⁽³⁾ في سوريا حول «الأبعاد القومية والاجتماعية للطموحات السياسية لدى عينة من طلاب جامعة دمشق» عام 1999 من الدراسات الحديثة والهدية أيضا في سياق البحث في **ملحمة الوعي الطلابي** بالخصائص السياسية والاجتماعية. فالدراسة تعالج الوعي الاجتماعي والوعي عند الطلاب. أفراد العينة. وقد أجريت الدراسة في سوريا في جامعة دمشق في بداية العام الدراسي 1999. أخذت عينة من الطلاب الجامعيين بلغت 222 طالبا وطالبة. وقد صممت استبانة لهذا الغرض خاصة على تحديد المفاهيم الأساسية لاتجاهات الطلاب نحو الخصائص السياسية القومية والاجتماعية. وقد نهجت الدراسة منهج البحث الوصفي ووظفت إمكانيات الإحصاء التحليلي لدراسة أوجه التشابه بين متغيرات الدراسة المختلفة.

ينطلق البحث للإجابة عن مجموعة من الأسئلة المنهجية التي تشمل بواقع الاتجاهات السياسية عند الطلاب. ومن أهم الجوانب التي تطرقت إليها الدراسة يمكن الإشارة إلى ما يلي: عملت الدراسة على رصد مدى حضور المشاعر القومية في وعي الشباب التعليمي. وبينت بالتالي أن الشعور القومي بأبعاده المختلفة مازال جازما في مختلف مستوياته. وقد عملت الدراسة على تحديد سلم أولويات القيم والطموحات السياسية السائدة اليوم عند الشباب المستطلين. وبينت أن تسلسل القيم يأخذ التسلسل التالي:

التضامن العربي، فالعدالة الاجتماعية، فحرمة الإيمان وحقوقه. ومن ثم الوحدة العربية. وإعادة الأرض المصيبة. وتحسين الشروط الاجتماعية لحياة المواطنين. وبالتالي تحقيق التقدم الاجتماعي وأخيرا تحقيق السلام العادل في المنطقة.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة هي: أن البعد الاجتماعي يأخذ أهمية أكبر من البعد القومي في اهتمامات الشباب والطلّعاتهم. وبينت الدراسة أن الاهتمام بالجنس سيمتد إلى الأجيال القادمة في الكويت، ما زالت تأخذ مكاناً في أسفل السلم القيمي للشباب. كما نتج أن عامل الجنس يمارس دوراً جوهرياً في تحديد نمط الطموحات والقيم عند الشباب. وتبين أيضاً أن الاهتمام بالعلمي يلبس دوراً جوهرياً في التأثير في نمط الطموحات السياسية بأبعادها القومية والاجتماعية. وتنتج أيضاً تأثير عامل الاختصاص على طموح العلوم الإنسانية أكثر ميلاً إلى تحقيق الطموحات الاجتماعية قياساً إلى الطموحات القومية. وبين التحليل شباب متأثر متغير الريف والمدينة في نمط الطموحات السياسية والاجتماعية عند طلبة الجامعة.

ومن الأفكار المهمة التي تجلبها هذه الدراسة العلاقة الجوهرية بين الظروف الاجتماعية للطلّاب وتوجهاتهم القومية. لقد بدأ واضعاً أن الوضع الاجتماعي المترافق يؤدي إلى تنمية الطموحات الاجتماعية على القومية.

يمكن الإشارة إلى الدراسة المهمة التي أجراها عبدان أبو عسمة في عام 1964م لقيم الطلبة في جامعات الجمهورية العربية السورية والتي خلّصت إلى الكشف عن الفهم الصفدي عند طلبة الجامعة في سوريا مناعياً إلى استطلاع القيم التالية: النظرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية. تناولت هذه الدراسة قيمة طلبة 200 طالباً و 43 طالبة. وبينت الدراسة أن الطلبة السوريين يميلون إلى القيم التالية حسب الترتيب التالي: القيم النظرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ثم الدينية، وأخيراً الجمالية. وبينت المقارنة التي أجراها الباحث أن الطالبات يميلن إلى القيم الجمالية والاجتماعية والدينية، بينما يميل الطلبة إلى القيم النظرية والاقتصادية والسياسية⁽³¹⁾.

وقد أجريت الدراسة ملكة أيضاً ثلاث دراسات تناولت فيها مساهمة القيم عند الشباب الجامعي. ويمكن عرض هذه الدراسات المهمة كما يلي:

الدراسة الأولى: قيم الشباب التي أجريت في العام 1967م على عينة من طلبة جامعة دمشق بلغت 365 طالباً وطالبة من مختلف السنوات الدراسية. وهدفت الدراسة إلى استطلاع الحواشي الاجتماعية التي تتعلق بالقيم. حيث جاءت قيمة المهنة في مطلع سلم القيم الذي يتعلق بمصدر الرضا في الحياة، تلتها الأسرة والقومية، فالوطنية، فالإنسانية، وأخيراً الترويح⁽³²⁾.

الدراسة الثانية: أجراها الباحثة سنوان أهداف التربية عام 1970م على عينة واسعة من الطلبة بلغت 200 من طلبة معهد إعداد المدرسين في دمشق الذين تتراوح أعمارهم بين 17 و 22 سنة. وبينت نتائج هذه الدراسة أن الشباب يميلون على تحقيق الوحدة العربية من أجل

الدراسة العلمية والاعتمادية مع الكتب والوثائق العربية

تحقيق التوضيح الحضاري في المستقبل، يلي ذلك الاشتراكية، وعلى التوالي التقدم العلمي، ثم الحرية، والتحرير، فالعلم الاقتصادي، فالقوة العسكرية، وأخيرا العمل المدني. ويثبت هذه الدراسة أن الشباب يتعمقون بالأخلاق والعداوات الأصلية في التراث العربي ثم العلوم، على التوالي، بالأدب والفنون، وأخيرا بالأصل العربي، أما الأخلاق والعداوات والتقاليد التي يتمتع بها أفراد العينة فتتمسك كالتالي: الشجاعة، الكرم، اللزوم، طلب العلم، الأمانة والإخلاص والعنف، العدل والمساواة والاشتراكية، والوفاء، والتعاون، الجهاد في سبيل الوطن، الفؤاد، الاعتناج الحضاري، الإيثار، الروابط العائلية، وأخيرا التواصل.

وعلى خلاف ذلك فإن القيم التي يرفضها الشباب تأخذ الاتجاه التالي: عبودية المرأة، الطوائف الطنسية والبدع، التعصب الديني والعطائني، العصبية القبلية (القبائل)، تعدد الزوجات، الطلاق واليهود... إلخ (أيضا ملحق، 1984).

الدراسة الثالثة، أجرتها الباحثة في العام 1987، وهدفت إلى المقارنة بين طلاب هذه المرحلة والدراسة التي أجرتها عام 1967، وهي عنوان «قيم الشباب» أيضا، وتتألف الباحثة عينة بقت 318 طالبا وطالبة من طلاب جامعة دمشق. ومن النتائج التي تبينها هذه الدراسة تراجع قيمة القدسية وذلك بالنسبة إلى دراسة 1967، فهي الدراسة الأولى كانت لفئة ثم الأسرة والقدسية هي مصادر **الدراسة الثالثة الأولى** ولكن ذلك النسق يأخذ لفئة طالبات طلبة فالأسرة في الدراسة الثانية.

ARCHIVE

لذلك:

ويطغى الموقف العلمي في هذا السياق أن يشار إلى الدراسة القيمة لتناول إبراهيم بعنوان «البشر الاعتقادية في الذهنية الشبابية العربية المتقدمة»، حيث تناول الباحثة عينة واسعة من الشباب العربي وهدفت دراسته إلى تقصي الوعي السياسي بمتطلبات تحدياته الاجتماعية والدينية والقومية. وقد بينت هذه الدراسة أولوية الانتماء الحضاري عند الشباب العربي حيث أخذت الانتماءات إلى العائلة والقبيلة أهمية وأولوية على الانتماء الوطني والقومي⁽³⁴⁾.

وهي هذا المستوى يمكن الإشارة إلى دراسة لاحقة لباحث نفسه⁽³⁵⁾ حول «الوعي السياسي لدى الشباب العربي المتقدم»، وقد أجريت الدراسة على عينة من الشباب المتكثف (الباحث لا يحدد التاريخ أو حدود الدراسة)، ويثبت الدراسة أن 77% من الشباب يمثلون الاشتراكية المرببة الأولى إليها الوحدة بنسبة 77%. أما الأمية فصلفت أخيرا وهي نهاية السلم الاجتماعي.

وقد حمل أفراد العينة الأنظمة العربية مسئولية صياغ فلسطين بنسبة 78%، وأعلن 88% أنهم يرفضون إجراء مصالحة مع إسرائيل، كما أن 90% منهم عارضوا زيارة السادات إلى الكيان الصهيوني، ورفض 79% من أفراد العينة شعار «رحمي اليهود في البحر». وأعرب 76% من أفراد العينة عن اهتمامهم فقط بأمورهم الذاتية، وأنهم لا علاقة لهم بتقنيات الأيديولوجيا

والسياسة والأحزاب، بينما عارض ذلك ٧٢١، معتبرين أنهم معنيون بكل أمور المجتمع والوطن، وإن قضاياهم الذاتية هي جزء من تلك القضايا.

تأثير التعليم بالدراسة السياسية:

- يبين القراءة النقدية للدراسات العربية السائدة مجموعة من النقاط المهمة وهي:
- تراجع خصوصية النزعة القومية في بنية الوعي السياسي العربي.
- التحسُّر المتقدم للانتماء الإسلامي والتمسُّب العميق في بنية هذا الوعي.
- ضعف ونيرة الانتماء الوطني والقيمي لا سيما في بلدان الخليج العربي.
- حضور قيم الانتماء القبلي في شغل القاهم والتصورات السياسية السائدة في بنية الوعي السياسي.
- تنامي الإحساس بأهمية الانتماء الإقليمي، ولا سيما في منطقة الخليج العربي.
- تنامي الوعي الاجتماعي وقدمه فيما يتعلق بحواش الحياة الاجتماعية، ولا سيما الحياة الديمقراطية وحقوق الإنسان.
- تزايد وتيرة الضوئ للتحول السلمي والتطويع مع المدو الميبراني عند شرائح متعددة من الشباب والمثقفين العرب.
- أن الشباب والمثقفين يمتلكون صورة منظومة للتعدديات التي تواجه مجتمع بلادهم ويعتقون أنها بأهمية التضامن العربي والإسلامي في مواجهة هذه التعدديات المعسيرة.

منهج الدراسة وأداتها

تُجرى الدراسة وفقاً لمنهج البحث الوصفي بما يشتمل عليه هذا المنهج من خطوات علمية ومنهجية، ولغني عن البيان أن هذا المنهج يستجيب لطبيعة القضية المطروحة التي تحتاج إلى خطة ميدانية يتم وفقاً لها تحديد الفرضيات ويشتغل من اختبار الفرضيات والتحاللات وفقاً لخطوات البحث وعلى أساس الاختبارات الإحصائية المتقدمة على الفصل بين مختلف الحواش الإشكالية للقضية المدروسة.

أصبحت استنباط البحث بناء على عدد من الشرائط المنهجية حول مواقف الشباب واتجاهاتهم نحو قضايا الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية المعاصرة. وتتصف أداة الدراسة الحالية بطابع شمولي فهي تتضمن قضايا متنوعة لتصل ببعضين الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشباب^(١٤).

لشملت الأداة (استنباط البحث) على صحيفة المعلومات الأساسية، وعلى عدد من الأسئلة الأساسية المتعلقة بمواقف الطلاب السياسية ومضامين وعيهم الاجتماعي. لقد طُلب من

القياسية والاعتمادية مع الكوينة والقياس العرشي

الشباب. وعبر سؤال مفتوح، تمديد أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العمري المعاصر. ومن ثم طلب منهم ترتيب بعض الطموحات السياسية والاجتماعية في نسق هرمي يتشكل من ثمانية طموحات قومية واجتماعية. ويضاف إلى ذلك أن الاستبانة قد تضمنت سؤالين مفتوحين حول العادات والقيم الإيجابية السائدة في المجتمع الكويتي من جهة، ومن ثم تحديد العادات والقيم السلبية السائدة في هذا المجتمع من جهة أخرى.

صدق الأداة وثباتها Validity and Reliability of the scale

حُصِب الصدق الخارجي وفقاً لآراء عدد من الحكماء في كلية التربية وهي كلية الآداب قسم علم الاجتماع في جامعة الكويت وبعض الزملاء في جامعات عربية أخرى. وقد أُخذت للملاحظات التي أبدتها السادة المحكمون^(١٢).

ومن ثم حُصِب صدق المضمون أو صدق المحتوى Content validity وفقاً لمصنوفة الارتباط والانساق الداخلي للفرقات التي تتعلق بنسب الطموحات السياسية. وقد بينت مصنوفة الارتباط الخاصة بالأداة أن الارتباط بين مختلف العبارات دالٌّ بصورة كاملة ١٠٠٪. واتضح أن الارتباط قد تحقق في مستوى ٠.٩١ بصورة كلية. وهذه النتيجة تدل على درجة عالية من صدق الانساق الداخلي لنموذج القياس.

وفيما يتعلق بثبات الأداة Reliability of the scale حُصِب معامل الثبات وفقاً لمعادلة جرونباخ ألفا Cronbach Alpha. حيث جازم الطريقة هي الأفضل والأكثر شيوعاً لحساب الثبات (Nunnally 1978)^(١٣).

ويعرف معامل الثبات:

$$\text{الثبات} = \frac{N}{(N-1)} \times \frac{\text{مجموع } x^2}{\sum x^2}$$

وقد بلغ معامل الثبات للأداة فيما يتعلق بنسب الطموحات ٠.9١٥. وهذه النتيجة تشير إلى معامل ثبات عالٍ مناسب.

هيئة العينة

بدأت إجراءات الدراسة في عام ١٩٩٩، واختيرت عينة البحث وفقاً لمنهجية العينة بالحصة. وتعد هذه العينة مناسبة جداً لأغراض البحث الحالي، حيث روعي في هذه العينة أن تشمل أغلب التكتلات الحاصية^(١٤). ومن أجل ضمان قدرة هذه العينة على تمثيل المجتمع الإحصائي القدرسي أُخذ على أهمية حجم العينة، حيث بلغت ٢١٤ طالباً وطالبة. وفي هذا الصدد تؤكد الأبحاث الإحصائية أنه كلما ازداد حجم العينة قل الخطأ المعياري للمعينة وازدادت قدرتها على تمثيل المجتمع القدرسي. ويضاف إلى ذلك أن العينة التي نعين بصنعها تتجاس إلى حد كبير مع خصائص المجتمع الجامعي القدرسي.

حيث بلغ متوسط أعمار أفراد العينة 31، 11، والوسيط 20 عاماً، بينما بلغ النوال 14 عاماً. وهذه هي الطريقة المستخدمة للمجتمع الأصلي للعينة (جدول رقم 1). وقد بلغ عدد الذكور 597 مطلقاً بنسبة 51، 1، وبلغ عدد الإناث 567 مطلقاً بنسبة 48، 9 (انظر الجدول رقم 2).

جدول رقم 1: التوزيعات والخصائص الإحصائية لعينة البحث			
الفئات العمرية لأفراد العينة	الذكور	نسبة مئوية	نسبة مئوية تراكمية
14	117	19، 1	19، 1
15	127	21، 1	40، 2
20	161	26، 9	67، 1
21	97	16، 1	83، 2
22	86	14، 4	97، 6
23	87	14، 4	100
المجموع	597	100	
الخصائص الإحصائية للعينة	متوسط	وسيط	نوال
	31، 11	20	14

الجدول رقم 2: توزيع أفراد العينة وفقاً للتوزيع الجنسي والتكاثري				
	ذكور	إناث	المجموع	
متنول وتكاثر	عدد	24	24	
	نسبة	24، 0	24، 0	
علوم	عدد	87	198	
	نسبة	21، 8	24، 9	
هندسة	عدد	87	158	
	نسبة	21، 8	24، 0	
طب ومهندسة	عدد	26	77	
	نسبة	6، 8	10، 1	
فنية وأدبية وشريعة	عدد	91	288	
	نسبة	23، 6	24، 9	
المجموع	عدد	297	597	
	نسبة	100	100	

ملخص الدراسة :

أولاً ، التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر.

هي معروض الإجابة عن السؤال المفتوح حول أهم التحديات السياسية والاجتماعية والتي يواجهها المجتمع العربي المعاصر يمكن للمستفتي أن يلهم أربع إجابات تمثل أربعة تحديات. وقد صنفت هذه التحديات في الجدول رقم (3).

الجدول رقم (3)

السؤال 1: التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر وفقاً للتقرير الوطني

	التحديات التي اعتراها أفراد العينة	ذكور %	إناث %	مجموع %
1	التقليد الأعمى للغرب وصنّاع الهوية العربية الإسلامية	71.7	87.7	77.9
2	تجاهل الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي	99.8	99.9	99.8
3	تجاهل الوحدة العربية الإسلامية	99.0	98.0	98.5
4	الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية	99.9	99.9	99.9
5	تجاهل السلام العادل في المنطقة	99.8	99.7	99.7
6	الفساد والتمسك الأسري	99.7	99.8	99.7
7	التخلف التكنولوجي والعلمي والاقتصادي	99.8	99.7	99.7
8	التعصب والتمييز والعنصرية	99.7	99.8	99.7
9	المخدرات والعنف العشوائي	99.9	99.9	99.9
10	التطرف والإرهاب السياسي والفكري	99.9	99.7	99.8
11	الاضطرابات الإسرائيلية على جنوب لبنان	99.7	99.7	99.7
12	قضية الأسرى والمفقودين الكويتيين	99.7	99.7	99.9
المجموع	%	99.0	99.0	99.0
	تكرارات	890	1148	1938

اختبار كاي مربع (Chi-Square Test) لدراسة الفروق الإحصائية			
دلالة	درجة الحرية	قيمة K ²	
Asymp. Sig. (2-sided)	Df	Value	
دالة في مستوى ٠.٠٥	1٩	٢٢.٩٢٠	Pearson chi-Square

لقد حدد الشباب أفراد العينة التي عثر عليها ولهمما تواجه المجتمع العربي المعاصر. وفي طليعة هذه التحديات يمثل الشباب بأن الهوية العربية الإسلامية في خطر وأن المفاهيم للغرب والتماضي فيه يضع العرب والمسلمين على شفا هاوية خطر. حيث بلغت تكرارات هذا التصدي ٩٠٪، وبلي ذلك مباشرة غياب الديمقراطية، وحقوق الإنسان في الوطن العربي ١٠٠٪ من التكرارات. ومن نتائج فترات الجدول بعد أن أفراد العينة استطاعوا تشخيص الواقع الاجتماعي بتحدياته المختلفة التي تمثل في التعصب والعنف والإرهاب وغياب الديمقراطية والتخلف العلمي والتكنولوجي. وهذا يعني أن وبني الطلاب بتصور بقدره عالية على تحديد المشكلات الحقيقية التي تواجه المجتمعات العربية المعاصرة. وفي هذا السياق يجب أن نلاحظ أيضا أن أفراد العينة لا يحاولون التحليل بين المفهوم القومي والمفهوم الإسلامي. فالطلاب يربطون بين عقيد القوميين. وفي هذا السياق نلاحظ أن المفهوم في الرؤية العلمية القومية العلاقة بين الدين والقومية. ونحن نعتقد في هذا الخصوص أن هذه المزاوجة تعود إلى تعرض الطلاب لبرجمات فكرية تحاول تجاوز اليعيد القومي العربي للتحديات العربية ذات الطابع القومي.

وبعد المقارنة بين إجابات أفراد العينة وهنا لمخبر الجنس تبين وجود فروق دالة. هناك فروق إحصائية بين الذكور والإناث. فالإناث يعطين أهمية أكبر لمسألة السلام العادل في المنطقة ٢٧.٧ مقابل ٢١.٥ عند الذكور، وهذا ينسحب أيضا على قضية التفاهك الأسري والطلاق، حيث تبدي الإناث لهذه القضية درجة أكبر من الذكور: ٢٩.١ مقابل ٢٠.٢٠.

وفي مستوى المقارنة بين إجابات الطلاب وهنا ظهرت المفاضلة وطلاقة الأبوين تبين أيضا مسألة الفروق المعنوية بين إجابات الطلاب. وهذا يعني بصورة إحصائية أن إجابات الطلاب متجانسة حول مسألة التحديات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمعات العربية كما هي معجلة في الجدول رقم (١).

ومن أجل بناء تصور آخر يتكامل مع التصور الأول حول التحديات التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر طلقنا من أفراد العينة في سؤال مفتوح آخر لتحديد أربعة من التحديات

التحديات الاجتماعية والاقتصادية مع الكويز والكويز العرب

الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي المعاصر بخاصة. وهذا السؤال يأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الاجتماعية السلبية التي يواجهها المجتمع الكويتي. وبلغت المقدرات التي ألقاها الطلاب 2209 مقدرات صنفت في الجدول رقم (1) وفقا لمعيار النسب المئوية.

السؤال 1: التحديات الاجتماعية في المجتمع الكويتي وفقا لتقرير الجنس

المجموع	إناث	ذكور		
27.9	279.1	27.7	حب الظهور والشرف والإسراف	1
218.0	218.0	219.0	التعصب الطائفي والاجتماعي والطائفي	2
259.1	259.0	259.0	الوساطة والرشوة والمصوبية	3
29.8	29.8	271.7	التقليد الأعمى	4
20.9	20.8	27.7	الزواج المبكر	5
20.1	27.9	20.0	التسامح الاجتماعي، العنصرية والجماع والجماعية وقضايا الأحياء	6
24.8	20.0	24.0	الاحتلال ببلد المسلمين	7
27.8	24.1	27.7	التربية الأجنبية والتقدم	8
27.7	24.1	27.1	الطلاق والتفكك الأسري	9
27.1	27.9	24.7	خلاء العور	10
27.8	27.7	27.7	البطالة العربية للمرأة	11
27.7	27.7	27.0	غياب الإحساس بالمسؤولية عند المواطن	12
27.1	27.7	20.7	الزواج من غير الكويتيات	13
27.7	27.0	27.8	المخدرات والمخدرات والتدخين	14
270.9	2791	298	مكررات	المجموع
100	100	100	X	

والجدول التالي وأصبح بذلك حيث أعد 12 محوراً من محاور التحديات الاجتماعية المعاصرة. ويتضح من الجدول مدى إحساس الطلاب بالمشكلات والتحديات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي والعالمي بصورة عامة، فالأدبيات الاجتماعية تؤكد، وبصورة واضحة، مدى العلاقة القائمة بين البذخ والإسراف وحب الظهور، حيث احتل هذا التحدي صدارة التحديات، ثم تلاه تحدي التعمس الذي يعد الخطيئة الحاضرة التي تهدد الوجود العربي الإسلامي، وهي المرتبة الثالثة جاء خطر الوساطة والرشوة والمحسوبية التي تضر الوجود العربي الاجتماعي، وبصورة عامة يمكن القول إن الصورة التي قدمها الطلاب للواقع الاجتماعي تشوب إلى حد كبير من الصورة التي تقدمها التصورات السوسولوجية في المنطقة العربية.

ولم يثن الشائكة بين إجابات الجنسين، فيما يتعلق بالتحديات الاجتماعية في الكويت، وجود فروق دالة إحصائية بين الطرفين، كما يستفاد من ذلك اختبار χ^2 الذي يؤكد هذه الفروق على النحو الذي رسم له في الجدول التالي ورسم (5).

جدول رقم (5) اختبار χ^2 لدلالة الفروق الإحصائية بين الجنسين			
Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة	DF ج	Value القيمة	Pearson Chi-Square
.	11	89.479	χ^2

ومن أجل تحديد جوانب هذه الفروق الإحصائية يمكن العودة إلى الجدول (3)، حيث نلاحظ هذه الفروق فيما يتعلق بالزواج المبكر، إذ لمعورت 8.6 % من إجابات الإناث حول أهمية هذه المشكلة الاجتماعية مقابل نسبة مئوية متدنية عند الذكور بلغت 2.9 %، وهذا يعني أن الإناث يتحسسن مشكلة الزواج المبكر بدرجة أكبر من الذكور، ومن جهة أخرى يشير إلى الفروق الخاصة بالفساد الاجتماعي حيث يتحسسن الذكور هذه القضية بدرجة أكبر من الإناث، 18 % للذكور مقابل 6.2 % عند الإناث.

وتأخذ هذه الفروق مداها أيضاً في مختلف القضايا التي تخص الجنسين ولا سيما فيما يتعلق بغلاء المهور، حيث يتحسسن الذكور هذه المشكلة بدرجة أكبر من الإناث، 11.4 % للذكور مقابل 9.2 % للإناث، وفيما يتعلق بالنظرة المعنوية للمرأة، حيث تتحسسن المرأة هذه المشكلة بدرجة أكبر من الذكور 12.4 % عند الإناث مقابل 9.2 % عند الذكور، وقد تبين بعد إجراء

اختيار ٦٤ الفرق بين إجابات الطلاب. ولذا تظهر المحافظات غياب الفروق الدالة إحصائياً بين إجابات الطلاب. كما هو موضح في الجدول رقم (٦):

جدول رقم ٦، اختبار ٦٤ مربع لثلاثة الفروق الاحصائية			
Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة	df ج. د	Value قيمة ٦٤	Pearson Chi-Square ٦٤
.٠١٦٦	٥٢	(٥) ٦١,٧٨٢	

الفرق الإيجابية في الحياة الاجتماعية في الكويت:

لكي لا تكون رؤيتنا الواقع العربي قائمة جداً، ولكي لا نتعمق رؤيتنا في الجانب الأسود من الواقع العربي طلبنا من الطلاب أفراد العينة أن يرسوا لنا أهم الجوانب الإيجابية في الحياة الاجتماعية العربية. ففي السؤال الثالث المطروح طلب من الطلاب تفصيل الواقع من الناحية الإيجابية وتحديد القيم والمبادئ الإيجابية في الحياة الاجتماعية الكويتية. ويرسم هذا السؤال تعديداً كما يلي: اذكر أربع مبادئ أو قيم إيجابية تدلها في المجتمع الكويتي؛ وبعد توزيع السؤال وتصويب الإجابات تم الحصول على ١٨٥٩ مقبولة تتضمن كل منها قيمة أو مبادئ اجتماعية في المجتمع الكويتي. واستنتج هذه المقاربات في الجدول رقم (٧).

الجدول رقم (٧)				
سؤال ٦، القيم والمبادئ الاجتماعية في المجتمع الكويتي وفقاً لتقرير اليونسكو				
المتغير الإيجابي في الحياة الاجتماعية في الكويت		ذكور	إناث	المجموع
١. مبادئ وقيم التمسك الاجتماعي	عدد	٣٦٨	٦١٢	٩٨٠
	%	٢١٨,١	٣٧٢,١	٢٥٢,٢
٢. قيم الكرم والصداقة والأخوة والمحبة والوفاء وقيم العز والتمسك	عدد	٣٠٥	٢١٥	٥٢٠
	%	٢٣٩,١	٢٣٢,٨	٢٢٤,٢
٣. التماسك والروابط كسيدة من صيغ التمسك الاجتماعي	عدد	١٢٨	١٢٦	٢٥٤
	%	٢١٦,٢	٢١٢,٧	٢١٤,٢
٤. التمسك بمبادئ وقيم الشرف الإنساني الخليل	عدد	٣٥	٣٩	٧٤
	%	٢٩,٥	٢٧,١	٢٨,٢
المجموع	عدد	٣٦٦	٦٠٣	٩٦٩
	%	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ويستخرج من الجدول السابق أن أغلب القيم والعلاقات التي أشار إليها الطلاب هي القيم الثقافية العربية التي تؤكد التواصل والتراحم والتمسك بقيم الدين الإسلامي الحنيف. وقد بين اختبار TKS وجود فروق دالة إحصائية بين الحسنيين، كما يبين الجدول التالي رقم (٨).

جدول رقم ٨، اختبار TKS لدلالة الفروق الإحصائية			
Asymp. Sig. (2-sided)	df	Value	Pearson Chi-Square
الدلالة	ج - د	قيمة TKS	
.٠٠٠	٢	١٥,٦٩٤	TKS

وتعود الفروق اللاحقة إلى تشديد الإثبات على أهمية عادات التمسك الاجتماعي والتراحم حيث بلغت نسبة الشدة ٤٥٩,١ عند الإثبات مقابل ٢,٦ عند الذكور، كما تعود هذه الفروق إلى تأكيد الذكور لأهمية المبررات منوعة أكثر من الإثبات، ١٦,٣٪ عند الذكور مقابل ١٧,٢٪ عند الإثبات.

ARCHIVE

هذه الفرضيات إلى اليمين: (١) الاعتمادية الاجتماعية

يميل الفرد العربي ضمن ولاء وانتماء مزدوج غير موافق في دولة قطرية حديثة، كما أنه ينتمي بشكل أو بآخر إلى أمة أوسع مدى من الدولة القطرية هي الأمة العربية الإسلامية. ويميل كلا الانتمائين في الذات العربية... ويؤدي بالتالي هذا الانتماء المزدوج إلى نوع من ازدواج الشخصية ويخلق نوعاً من انقسام الذاتية والهوية^(١١).

ومن أجل استجلاء جوهر هذا الشاغل في وهي الشباب الجامعي، ومن أجل أن تكتمل ملامح وهي الشباب لهذا التوقع نريد علينا أن نستلقر صورة الطموحات التي تأخذ مكانها في داخل هذا الوعي، وأن نحدد أولويات هذه الطموحات ومعايير نجاحاتها. ومن أجل هذه العاية وضعنا أمام الطلاب أفراد العينة جدولاً يتضمن منظومة من الطموحات، وعلينا إياهم ترتيب هذه الطموحات وفقاً لأهميتها وسرورها في الواقع العربي بتفضيلاته العربية والإسلامية، وتلخص هذه الطموحات ثمانية عبارات تشمل جوانب الواقع السياسي والاجتماعي العربي، وترتب هذه الطموحات في الجدول رقم (٩) وفقاً لتغير الجنس عند الشباب الجامعي:

جدول رقم ٩، جدول مقارن لتسليط الضوء على السياسات والخطط الاجتماعية في الدول والولايات

الدول		الخطط الاجتماعية والاقتصادية	الولايات	
نسبة الأولوية	متوسط		متوسط	نسبة الأولوية
٢	٥٠,٩٠٦	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	٦٠,٢٧٢	١
١	٦٠,٧٣٢	تحقيق التضامن الإسلامي	٥٠,٩١٤	٢
٣	٥٠,٠٢٤	تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	٥٠,٣٧٨	٣
٥	٤٠,٨٥٨	تحقيق الوحدة العربية	٤٠,٨٠٩	٤
٦	٤٠,٨٧٢	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	٤٠,٥١٢	٥
٧	٤٠,٨٧٨	تحقيق التضامن العربي	٤٠,١٧٤	٦
٢	٥٠,٠٢٤	إعادة الأراضي العربية المحتلة (فلسطين)	٤٠,٠٩٤	٧
٨	٦٠,٩٨٢	تحقيق الديمقراطية السياسية	٣٠,٩٥٢	٨

يوضح من الجدول السابق (٩) أن تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان يتصدر سلم أولويات الشهاب ويحتل المرتبة الأولى، وفي ذلك تحقيق التضامن الإسلامي (المرتبة الثانية) ومن ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية (المرتبة الثالثة)، وفي المرتبة الرابعة تأتي الوحدة العربية، وفي الخامسة يأتي التضامن العربي، ثم تأتي قضية استعادة الأرض المحتلة في المرتبة السابعة، ثم تأتي الديمقراطية السياسية في المرتبة الأخيرة.

وفي هذا التصنيف الذي تصنفه الجدول رقم (٩) يمكن ملاحظة النقاط التالية:

- ١- تعاطف أهمية العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان (المرتبة الأولى) فبالإضافة إلى قضية الديمقراطية السياسية التي احتلت المرتبة الأخيرة.
- ٢- إن التضامن الإسلامي يأخذ أهمية كبيرة جداً (المرتبة الثانية) بالقياس إلى التضامن العربي (المرتبة السادسة) أو الوحدة العربية (المرتبة الرابعة).
- ٣- تراجع الاعتماد بقضية الأرض المحتلة (فلسطين) مع ما لهذه القضية من أهمية تاريخية عند العرب والمسلمين، وهذا يمكن لنا القول بأن القضية السنية بدأت تنمو على حساب أهمية الأرض المحتلة.
- ٤- لم يأخذ التقدم العلمي والتكنولوجي الأهمية المتوقعة في عصر الثورات العلمية والمعرفية المتصاعدة.

- ٥- بين الجدول السابق أن لفظة الكهنة بين الذكور والإناث تكمن في مسألة الأرض العربية الشخصية. هذه القضية تأخذ أهمية متزايدة عند الإناث (الزنية السليمة) بينما تأخذ مكانة مهمة (الزنية الثالثة) عند الذكور.
- ٦- وبصورة عامة وبالطريقة بين المتوسطات، لاحظ أن الإناث يولن القضايا التالية أهمية أكبر من الذكور وهي: العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة، وفيما عدا ذلك فإن القضايا الأخرى تأخذ اهتماما أكبر من قبل الذكور مثل: التضامن الإسلامي، والوحدة العربية، والأرض الشخصية، والديمقراطية السياسية.
- ٧- بصورة عامة يمكن القول إن الذكور أكثر ميلا إلى الاهتمام بالقضايا السياسية، بينما نجد أن الإناث أكثر ميلا إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية.

الفروق النوعية بين الفئات وفقا لتغير الوضع:

ومن أجل اختبار متغيرات التفرقة الإحصائية لأولية التوقعات السياسية عند الطلاب وهذا لتغير الجنس أجري اختبار مستوي (T) وعرضت نتائجه في الجدول رقم (١٠):

جدول رقم (١٠) اختبار مستوي (T)، للفروق الإحصائية بين الفئات الخمس حول تصنيف

التمسكات الاجتماعية والسياسية

المعاملات	الجنس	N	متوسط	قيمة T	د. حرة	مستوى الدلالة
تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	ذكور	٢٢٢	١.٩٠٢	-١.٢٢٩	٢١٢	٠.٠٠٦
	إناث	٢١٢	١.٢٢٩			
إعادة الأرض العربية الشخصية (المسكون)	ذكور	٢٢٢	١.٠٢١	١.٢٢٩	٢١٢	٠.٠٠٦
	إناث	٢١٢	١.٠٢١			
تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	ذكور	٢٢٢	١.٨٧٢	-٢.٥١٢	٢١٢	٠.٠١٢
	إناث	٢١٢	١.٢٢٩			
تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	ذكور	٢٢٢	١.٨٥٨	١.٢٢٩	٢١٢	٠.٠٢٢
	إناث	٢١٢	١.٥١٢			
تحقيق الوحدة العربية	ذكور	٢٢٢	١.٨٥٨	٠.٢٢٩	٢١٢	٠.٨٢١
	إناث	٢١٢	١.٥١٢			
تحصيل التضامن العربي	ذكور	٢٢٢	١.٦	-٢.٢٢٩	٢١٢	٠.٠٢٢
	إناث	٢١٢	١.٢٢٩			
تحقيق الديمقراطية السياسية	ذكور	٢٢٢	٢.٩٥٢	-٢.١٢٩	٢١٢	٠.٠٢٢
	إناث	٢١٢	٢.٩٥٢			
تحصيل التضامن الإسلامي	ذكور	٢٢٢	١.١٢٢	١.٢٢٩	٢١٢	٠.٢٠٥
	إناث	٢١٢	١.٢٢٩			

٠٠ = دال في مستوى ٠.٠١ ، ٠ = دال في مستوى ٠.٠٥

الدراسة السياسية والاقتصادية في اليهود واليهود العرب

- بين الجدول السابق وجود فروق معنوية بين التجسسين في اليهود الثلاثة التالية:
- فيما يتعلق بالمعادلة الاجتماعية وحقوق الإنسان، حيث أبدت الإناء اعتماداً أكبر في هذا المستوى كما يتضح من فروق المتوسطات.
 - أبدت هذه الفروق المعنوية أيضاً في بند إعادة الأراضي العربية المحتلة، حيث يبدو المذكور اعتماداً سياسياً أكبر بهذا الجانب السياسي.
 - ظهرت هذه الفروق أيضاً في بند تحقيق السلام العادل في المنطقة، حيث أبدت الإناء اعتماداً أكبر بهذه القضية من المذكور.
 - وعلى خلاف هذه المستويات الثلاثة بين التحليل الإحصائي أن الفروق الملاحظة غير معنوية أو دالة في مستوى اليود الأخرى.

معالجة الفروق وفقاً لطيف الحالة النفسية:

من أجل تحديد طبيعة الفروق الإحصائية الملاحظة بين إجابات الشباب حول أولويات المطمحات السياسية والاجتماعية أخرى اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لقياس الفروق الإحصائية ووضعت النتائج في الجدول رقم (11).

جدول رقم (11) - نتائج اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لأولوية المطمحات السياسية والاجتماعية وفقاً لطيف الحالة النفسية المقابلة:

مستوى الدلالة	قيمة F	عبارات المقاييس
0.04	0.007	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان
0.009	0.161	تحقيق التقدم الاقتصادي والتكنولوجي
0.009	0.11	إعادة الأرض العربية المحتلة (السلطين)
0.007	0.009	تحقيق الوحدة العربية
0.008	0.011	تحقيق التماسك العربي
0.001	0.009	تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية
0.017	1.009	تحقيق التماسك الإسلامي
0.001	3.007	تحقيق الديمقراطية السياسية
* دال في مستوى 0.05		

ويوضح من الجدول رقم (١١) غياب الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقاً لاختيار الحالة المدنية، باستثناء عبارة التضامن الإسلامي، حيث سجل الاختيار الثاني وجود فروق إحصائية في مستوى ٠.٠٥. وتعود هذه الفروق إلى اعتماد أكبر للطلاب للتزوجين بالتضامن الإسلامي قياساً إلى الطلاب العزاب. حيث بلغ متوسط النقاط التي حصلت عليها هذه العبارة ٦.٤٧٢ عند الطلبة للتزوجين مقابل ٩٦ عند الطلاب العزاب، ونعشر الإشارة في هذا الصدد إلى أن عدد العزاب بلغ ٥٩٢ عازباً وعازبة مقابل ١٠٩ من التزوجين في العينة المسحوبة.

مقاربة الفروق وفقاً لاختيار الجنس:

أظهر تحليل النتائج وفقاً لاختيار الاختصاص الجامعي (الكليات العلمية والإنسانية) وجود بعض الفروق الدالة إحصائياً في مستوى إجابات الطلاب حول مسائل الطموحات السياسية والاجتماعية. ومن أجل اختبار معنوية هذه الفروق أجري اختبار ستيوننت الذي أظهر عدة فروق معنوية دالة كما هو موضح في الجدول رقم (١٢).

جدول رقم (١٢) نتائج الاختبار الثاني			
لأولوية الطموحات السياسية والاجتماعية وفقاً لاختصاص الجامعي			
نسبة	ت	دالة	
-	٠.٧٢١	٠.٠٠١	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان
++	٠.٠٠١	٠.٩٠٩	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي
+	٠.٠٢٦	٢	إعادة الأثر العربي المفقود (فلسطين)
-	٠.٧٨٤	٦.٧٧٧	تحقيق الوحدة العربية
-	٠.٨٨٤	٠.٨٩١	تحقيق التفاهم العربي
-	٠.٦٠٤	٠.٥٧٢	تحقيق السلام العادل في الثقافة العربية
-	٠.٣٩٢	٠.٠٠٥	تحقيق الديمقراطية السياسية
++	٠.٠٠١	٧.٨٨١	تحقيق التفاهم الإسلامي
- دالة في مستوى ٠.٠٥ ++ دالة في مستوى ٠.٠١			

الدراسات الجامعية وآثارها على المجتمع مع التركيز على تونس العربية

يبين الجدول رقم (12) وجود فروق دالة إحصائية في ثلاثة من بنود المقاييس وهي: تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي، وإعادة الأرض العربية المحتلة (فلسطين)، واحيداً لتحقيق التضامن الإسلامي. وبعد العودة إلى المتوسطات تبين أن طلاب العلوم التطبيقية أكثر اهتماماً بتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي بلغ متوسط إجاباتهم 4.898 مقابل 4.286 عند طلاب العلوم الإنسانية. وفيما يتعلق بإعادة الأرض الفلسطينية، ومن ثم تحقيق التضامن الإسلامي، فقد تبين أن هذه الفروق الحسنة تعود لمصلحة اتحاد الكبر عند طلاب العلوم الإنسانية نحو التضامن الإسلامي وإعادة الأرض الفلسطينية، فالطلاب العلوم التطبيقية بلغ متوسط إجابات طلاب العلوم الإنسانية، فيما يتعلق بإعادة الأرض الفلسطينية 4.688 مقابل 4.286. وهذا يسحب على قضية تحقيق التضامن الإسلامي، حيث بلغ متوسط طلاب العلوم الإنسانية 4.212 مقابل 3.974 عند طلاب العلوم التطبيقية. وبالخصيص يمكن القول بأن متغير الاختصاص العلمي يتدخل ليؤثر في التفاعلات الشباب وطموحاتهم السياسية، فيما يتعلق بالبنود الثلاثة وهي: التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح طلاب العلوم التطبيقية. ومن ثم التضامن الإسلامي وتحرير فلسطين لصالح طلاب العلوم الإنسانية.

تأثير متغير العنوان البحثية:

وفيما يتعلق بمتغير السنوات الجامعية تبين أن الفروق الشائعة ليست ظروفًا معنوية في مختلف بنود المقاييس. وذلك وفقاً لأختبار تحليل التباين البسيط. وهذا يعني أن متغير نوع الطلاب في مختلف السنوات (اجتماعية) لا يؤثر في التفاعلات وعليهذا طموحاتهم الاجتماعية والسياسية. وقد فُرضت نتائج اختبار تحليل التباين في الجدول رقم (13).

جدول رقم (13) نتائج اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لأثرية الطموحات السياسية والاجتماعية وفقاً لمتغير السنة الجامعية.

Sig.	F	عبارات المقاييس
0.000	0.907	تحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق الإنسان
0.000	2.971	تحقيق التقدم الاقتصادي والتكنولوجي
0.000	2.121	إعادة الأرض العربية المحتلة (فلسطين)
0.907	0.507	تحقيق الوحدة العربية
0.223	1.188	تحقيق التضامن العربي
0.121	0.806	تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية
0.000	2.121	تحقيق الديمقراطية السياسية
0.223	0.971	تحقيق التضامن الإسلامي

يرجع الجدول أعلاه أن إجابات الطلاب متجانسة وأنه لا تأثير لمتغير السنة الجامعية. إذ ليس هي الجدول ما يشير إلى فروق ذات دلالة إحصائية.

خلاصة الدراسة

على مدى السنة منهجية بعض العمل في هذه الدراسة يستجوب على الشباب الجامعي ومستوى وعيهم السياسي في مرحلة حرة وعسكرية في تاريخ هذه الأمة التي تواجه تحديات تغيرات سياسية واجتماعية بالغة الشمول والعمق، وكانت الأسئلة المطروحة تدور حول هذه المحاور:

- 1- كيف يرسم واقع التحديات التي تخلق بالأمة العربية في وهي الشباب الجامعي؟
- 2- وكيف ترون صورة هذه التحديات التاريخية في المستوى الوطني الكويتي؟
- 3- كيف تأخذ التطورات السياسية والاجتماعية نسق وجودها في وهي الشباب الجامعي وتصوراتهم؟

1- كيف ينظر الشباب الجامعي إلى القيم الاجتماعية الإيجابية والسلبية في المجتمع الكويتي؟ وكيف يحددون نسق تدرجها وأولويات تكاملها؟

2- وهي مستوى البحث عن الطفولة الاجتماعية والثقافية لهذا الوعي فإن أسئلة جوهرية بالغة العمق والأهمية تطرح نفسها وهي: هل هناك هوية مجزية وجودية في وهي الشباب السياسي والاجتماعي وخلا للتحديات: الجنس والعمر والمكانة والشرائط الاجتماعية والاختصاصات العلمية وفي ما يلي مقدم صورة مختصرة لأهم نتائج هذه الأسئلة:

أولاً، فيما يتعلق بنسق التحديات التاريخية التي تعيد بالأمة العربية. في هذا النسق يرى الطلاب أن التحدي الأكبر يكمن في التقليد الأعمى للغرب وضياع الهوية العربية الإسلامية ٢٠٦.٢. يليه غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي ٢١٩.٤، ومن ثم تحقيق الوحدة العربية الإسلامية ٢١٨.٤، ثم الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية ٢١٠.٩، يليه مباشرة تحقيق السلام العادل في المنطقة ٢١٠.٣، ثم التفكك الأسري، فالتخلف التكنولوجي والاقتصادي.

ثانياً، أما التحديات التي تواجه المجتمع الكويتي للماصر فقد جاءت وفق نسق الأهمية التالي: حب الظهور والشرف والإسراف ٢٢٠.٩، التعصب القبلي والاجتماعي والطفلي ٢١٨.٠، الوساطة والرشوة والمصوبية ٢١٦.١، التقليد الأعمى للغرب ٢١٩.٨، الزواج المبكر ٢٠٨.٩، الفساد الاجتماعي: القس والخطايا والتميمة وقطع الأرحام ٢٠٨.١، الاختلاط بين الجنسين ٢٠٨.٨، القربيات الأختيات والخدم ٢٠٨.٨، الطلاق والتفكك الأسري ٢٠٧.٩، غلاء المهور ٢٠٦.٤، النظرة الدولية للمرأة ٢٠٦.٨، غياب الإحساس بالمسؤولية عند المواطن ٢٠٦.٢، الزواج من غير الكويتيات ٢٠٦.٦، المخدرات والتخمر والفسخ ٢٠٦.٢.

الدور السياسي والاجتماعي في الهوية الوطنية العربية

لذلك، أما المظاهر الإيجابية للحياة الاجتماعية في الكويت فقد أخذت المساق التالي:

جاءت عادات وقيم التضامن الاجتماعي: التواضع والتراحم والترابط الأسري، والتكافل والتعبد وعمل الخير تحتل المرتبة الأولى 2. 27، ثم تلتها قيم القوة والصداقة والأخوة والحب والوفاء وقيم الخير والتسامح 3. 27، الجاهل والميوهات كمضيعة من صديق التضامن الاجتماعي 2. 27، التضامن بمبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف 2. 28.

وأما فيما يتعلق بتسوق المصالح السياسية والاجتماعية أخذت طموحات أفراد العينة التسوق التالي تحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق الإنصاف في المرتبة الأولى تلاها تحقيق التضامن الإسلامي ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية لتحقيق الوحدة العربية ثم تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي لتحقيق التضامن العربي، وإعادة الأرض العربية للفلسطين (فلسطين)، وأخيراً تحقيق الديمقراطية السياسية. خاصة، فيما يتعلق بالفروق الإحصائية لتأثير متغيرات، الجنس، والاختصاص، والحالة المدنية، والسنوات الجامعية فإن الدراسة تكشف عن الفروق التالية:

- فيما يتعلق بالجنس انحصرت هذه الفروق الإحصائية في متغير: العدالة الاجتماعية وتحقيق الإنصاف لصالحه الإثبات. في بند إعادة الأراضي العربية المحتلة حيث يبدئي الذكور اهتماماً متعامداً أكبر في هذا الجانب السياسي، ثم ظهرت هذه الفروق أيضاً في بند تحقيق السلام العادل في المنطقة حيث أبدت الإثبات اهتماماً أكبر بهذه القضية من الذكور.

- أما فيما يتعلق بالحالة المدنية فوجدت الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقاً لمعتبر الحالة المدنية باستثناء عبارة التضامن الإسلامي. وتعود إلى اهتمام أكبر للطلاب المتزوجين بالتضامن الإسلامي قياساً إلى الطلاب العزاب.

- وفيما يتعلق بتأثير الاختصاص الجامعي: كشفت الدراسة وجود فروق ذات إحصائية في عدد جوانب هي: تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي، وإعادة الأراضي العربية المحتلة (فلسطين)، وأخيراً تحقيق التضامن الإسلامي. وبعد العودة إلى المتوسطات تبين أن طلاب العلوم التطبيقية أكثر اهتماماً بتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي. وشملت هذه الفروق أيضاً إعادة الأرض للفلسطين ومن ثم تحقيق التضامن الإسلامي. فقد تبين أن هذه الفروق المنوية تعود لسلطة التعبد أكبر عند طلاب العلوم الإنسانية نحو التضامن الإسلامي وإعادة الأرض للفلسطين. بالقياس إلى طلاب العلوم التطبيقية. وباعتبار يمكن القول إن مظهر الاختصاص العلمي يتدخل ليؤثر في اتجاهات الشباب وطموحاتهم السياسية فيما يتعلق بالثروة الثلاثة وهي: التقدم العلمي والتكنولوجي لصالحه العلوم التطبيقية، ثم التضامن الإسلامي وتحرير فلسطين لصالحه طلاب العلوم الإنسانية.

- وفيما يتعلق بمعتبر السنوات الجامعية تبين أن الفروق المشاهدة ليست شروطاً مستوية في مختلف بنود القياس. وذلك وفقاً لاختبار تحليل التباين البسيط. وهذا يعني أن متغير نوع الطلاب في مختلف السنوات الجامعية لا يؤثر في اتجاهاتهم وطموحاتهم الاجتماعية والسياسية.

المجلس الأعلى للدراسات والبحوث

(١٠) أ. عبد الحفيظ يوسف الجويد

CHEMICAL

يرجع تاريخ بدء المصمعي في ظهور الصناديق الإنشائية الصخرية إلى السنوات الأولى من هائلة المستشفيات، حيث كان لقوة الكويت لعب السيل في هذا المجال، إلا تجلت اهتماماتها في العمور الإنشائي مبكرا قبل شهرها من الدول الوطنية، بإنشاء الصندوق الكويتي للتعمير الاقتصادي الصخرية في نهاية 1941 الذي كان عند إنشائه النموذج الوحيد الجاهز في دول المنطقة، حيث ساهم في صناعة لواجهات تعديلات التنمية للإسهام في الجهود الإنشائية المبكرة في دول مجلس صناعية أخرى، وقد تضمنت الأمثلة لهذا النموذج بعد ذلك إما في صورة صناديق وطنية، وإما في صورة صناديق وحلقات روية متعددة الأطراف.

وقد ساهمت كل هذه المؤسسات في ظهور ما يسمى «العمود الإنشائي العربي المؤسسي» الذي تطور طيلة العقود السليمة. ويمكن من أن يحقق عددا مرموقا من النجاح في مؤاودة العمول القائمة بشكل لا يقل أهمية عن الجهات الفاعلة للعمول بعميلار نسبة المنظمات. إذا تجاوزت نسبة منظمات العمول التي تقدمه الدول العربية الفاتحة إلى ملتحها القومي الإجمالي ٧, ٢٪. وهي نسبة المحددة من قبل الأمم المتحدة كهدف المساعدات الإنشائية المفيدة من الدول الصناعية

(*) المصدر: نظام / وأحمد، مجلس إدارة المستثمر العربي للأبحاث الاقتصادية والتجارية

البيانات العربية ودورها الإقليمي

التقدم، حيث بلغ متوسط نسبة العون القديم من المجموعة العربية الثالثة (أوبطاصة الكويت والسعودية والإمارات) خلال عهدي الثمانينيات والتسعينيات حوالي 8, 5 و 5, 5٪ من ناتجها القومي، وهو ما يلقى بدرجة ملحوظة نسبة المساعدات للتدعم من الدول المتقدمة اقتصادياً، وتستهدف هذه التورقة تقديم عرض للمصادر الإقليمية العربية (بما فيها مؤسسات دولشان تشارك فيها أغلبية عربية) التي يتم من خلالها، العون الإقليمي العربي المؤسسي، وذلك من خلال إعطاء لحة تعريفية لها، ولخصائص عملها، وجمعها، واستعراض صورة موجزة لأدائها وأنشطتها ومحصلة دورها في دعم اقتصادات الدول العربية، والتكبير من الدول النامية، بما فيه تطوير قدراتها الإنتاجية والبشرية، ومساعدتها على تحقيق بعض طموحاتها الإنشائية.

٢ - لحة تعريفية

يرتبط العون الإقليمي العربي الأقليمي بثلاث مجموعات متكاملة من المصادر الإنشائية الوطنية والإقليمية، ومؤسسات تمويلية إقليمية دولية تشارك فيها جهات عربية وعبر عربية، يبلغ مجموع رؤوس أموالها في الوقت الحاضر نحو 25 مليار دولار أمريكي، ويتم نشاطها إلى عدد كبير من الدول النامية، بما فيها الدول العربية، تقدم لها الفروض لتمويل بعض مشاريعها الإنشائية بشروط ميسرة، وتتمتع أيضاً بقدرة كبيرة على المشاركة في مشاريع استثمارية تتمس في علاقات وروابط تجمعها في إطار مجموعة العمل لمجموعة التمويل العربية^(١)، تشكلت من خلالها من تحصيل فاعلية العون الذي للتدعم، وتحقيق مساهمات كبيرة في التمويل المشترك على جبهة خريطة من النشاطات الاقتصادية في كثير من الدول المستهدفة.

وتتألف المصادر الوطنية في إطار هذه المجموعة من الصندوق الكويتي (١٩٦١)، وصندوق أبوظبي للتنمية (١٩٧١)، والصندوق السعودي للتنمية (١٩٧٤)^(٢)، وتتألف أعضائها الرئيسية بالمساهمة في تمويل مشاريع التنمية في الدول العربية، ولجربها من الدول النامية، وذلك عن طريق تقديم الفروض الميسرة والتبع اللازمة لتمويل مشاريع التنمية التي توافق مع منطلقات الأولويات المدرجة في الخطط والبرامج الإنشائية للدول المستهدفة.

(١) ألفت هذه المجموعة في عام ١٩٧٤ بهدف تعزيز التعاون الاقتصادي العربي، وتشمل في الوقت الحاضر البنك الإسلامي للتنمية، وصندوق أبوظبي للتنمية، وصندوق أمانة التنمية العربية، والصندوق السعودي للتنمية، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، والصندوق العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا، وصندوق النقد العربي، والصندوق العربي للإيداع الاقتصادي والإقليمي، الذي يلزم بالإضافة إلى عضوية في المجموعة بفتح آليات التمويل (٢٠٠١) هناك بعض المساهمات القطرية الأخرى خارج نطاق هذه المصادر تتصلحها لتقديم فاضل ومساند من فروض التنمية ميسرة من خلال إدارتها الحكومية الرسمية، بما في ذلك العراق وإيران (الصندوق العربي لاضراب) من مساهمات إقليمية ميسرة على مختلف المستويات.

وتكتسب هذه الصناديق الوظيفية الثلاثة أهمية خاصة في التعاون الاقتصادي فيما بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبينها وبين الدول النامية، وتمثل النموذج مهما التعاون بين دول الجنوب إذ إن العولم المؤسسة لهذه الصناديق دول نامية، تواجه تحديات التنمية. بما في ذلك الترويج القاعدة الإنتاجية للاقتصاداتها. وتطوير وصيانة بنائها الأساسية، وتعتمد في مواهبها أمياتها والتزاماتها المالية الداخلية والخارجية. بما فيها التزاماتها في إطار العون الإنمائي المقدمة من خلال صناديقها موضوع البحث على إيرادات بيع سلعة استراتيجيية (النفط) مائها المصوب. وتعرض أسعارها في السوق الدولية للتقلبات مستمرة.

ولشي عن البيان أنه على الرغم من تذبذب أسعار النفط منذ منتصف الثمانينات. وتراجع العوائد النفطية، ودخول الدول العربية النفطية، بما فيها الكويت، والسعودية والإمارات. مرحلة جديدة تعاني فيها عجزاً في ميزانياتها الحكومية وموازن مدفوعاتها الخارجية. فإن هذه الدول الثلاثة، قد حرصت على الاستمرارية في تقديم العون الإنمائي، من خلال صناديقها الوظيفية السابق ذكرها. للدول العربية والدول النامية. لمساعدتها في إنجاز مشاريعها الإنمائية، وتخصير طموحاتها الاقتصادية التي تتلخص أهدافها بتقديم القروض الميسرة، والمساعدات والقروض، وتعبئة الموارد العامة والخاصة في تمويل التنمية في الدول المستفيدة. ويتبع نطاق عملها جغرافياً. إذ بلغ عدد الدول المستفيدة من العون المقدم منها حتى نهاية ٢٠٠٠ حوالي ١٢٧ دولة في جميع القاطم العالم باستثناء غربي أوروبا وأمريكا الشمالية.

من ناحية أخرى. تتألف الصناديق الإقليمية من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي الذي أسس بعد عام ١٩٦٧ تمسيدا لرغبة عربية في التحرر من تداعيات حرب حزيران (يونيو). وتكثيف الجهود في دعم التنمية العربية والتعاون الاقتصادي العربي، وتخصير أهدافه في دعم والتنمية الدول العربية على السبيلين الاقتصادي والاجتماعي. وإنجاز المشاريع العربية المشتركة التي تهدف إلى تحقيق التكامل العربي، وتوثيق الصلة بين الدول العربية، وتسريع سياساتها، وتعزيز التعاون فيما بينها. وفي هذا الإطار حددت اتفاقية الصندوق وظيفته الإنمائية. فتمتس لها على تكليفه بتحويل المشاريع. وتشجيع توظيف الأموال. وتوزيع الخبرات والمعدات الفنية.

ومن الصناديق الإقليمية أيضاً صندوق النقد العربي. الذي أسس عام ١٩٧٦. بهدف تمويل محمد هو دعم موازن مدفوعات الدول الأعضاء، ويقتصر النشاط الإقراضى قائمة الوسائل المتاحة لهذا الصندوق لتحقيق أهدافه بموجب اتفاقية إنشائه.

وبعكس الصناديق العربية الوظيفية التي يمتد نشاطها جغرافياً إلى جميع العول النامية. فإن عمليات الصناديق العربية الإقليمية تتركز بالدول العربية المحتاجة إلى الدعم المالي والفني. كذلك تختلف الصناديق العربية الإقليمية عن الصناديق العربية الوظيفية من حيث العضوية. إذ

البنك العربي وبرنامج الإنعاش

تعود عضويتها إلى كل الدول العربية الأعضاء في جامعة الدول العربية⁽¹⁾. بينما تستحضر عضوية الصناديق العربية الوطنية بدولها فقط.

وعنالك أيضا في إطار مجموعة الصناديق الإقليمية، لتصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا الذي أنشئ عام ١٩٧٦ بمقتضى قرار مؤتمر القمة العربي السادس. بهدف تمويل مشاريع التنمية في الدول الأفريقية غير العربية، وتشجيع مشاركة رؤوس الأموال العربية في التنمية الأفريقية، والإسهام في توفير الممولة الفنية اللازمة للتنمية في أفريقيا. وذلك استجابة لهدف دعم التعاون الاقتصادي بين القاطنين العربية والأفريقية، وتجميعها للمخاضات العربي - الأفريقي، وترسيخها لشروع التعاون على أسس المساواة والصداقة.

أما على المستوى الدولي، فإن العون الإنمائي العربي يتجسد بمؤسساتين عالميين تشاركه فيهما مع الدول العربية جهات أخرى غير عربية، المؤسسة الأولى منهما، هي البنك الإسلامي للتنمية الذي أنشئ عام ١٩٧٥ بناء على دعوة عربية، ويضم في عضويته ٦١ دولة عربية و ٣٢ دولة غير عربية، ويستمد نحو ٦٧٠ من موارده المالية من الدول العربية، ويتكفل من أهدافه في دعم التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي لشعوب الدول الأعضاء، والمجتمعات الإسلامية في الدول غير الأعضاء، مباشرة وغيره.

والمؤسسة الثانية الدولية التابعة، هي صندوق الأوبك للتنمية الدولية، الذي أنشئ عام ١٩٧٦، ويستمد نحو ثلثي موارده المالية من سبع دول عربية عظمى، ويهدف إلى تعزيز التعاون بين الدول الأعضاء في الأوبك، وسائر البلدان النامية، لخصوصا من النخاضين فيما بين دول الجنوب، وكذلك تقديم المساعدات على وجه الخصوص، إلى السكان المشردة الناجمة الدخول في سبيلها نحو التقدم الاجتماعي والاقتصادي.

ولا يغفل في سياق هذه القصة التنموية ذكر اشتراكات أساسية مؤداها أن بعض المؤسسات الإنمائية العربية كالصندوق العربي، وصندوق الأوبك، وصندوق أبوظبي، وكذلك البنك الإسلامي للتنمية، توجه غاية خاصة لتعزيز القطاع الخاص في الدول المستهدفة خارج مسارات مداخلات التمويل التقليدية، وذلك بما يتناسب مع نهج الدور الإنمائي للقطاع الخاص في الدول العربية وغيرها من الدول النامية التي اعتمدت في الفترة السابقة بقتيد برامح إصلاحية لإزالة الاختلالات الداخلية والخارجية التي تعانيها اقتصاداتها، ويتلام أيضا مع انتهاجها سياسة الخصخصة لرفع مستوى الكفاءة في استخدام الموارد، وكذلك مع واقع تحديات المولة ولداها، وما تفرضه من ضرورة سعي الدول العربية إلى رفع قدراتها التنافسية، وزيادة حجم صادراتها من السلع والخدمات، وترسيخ القطاع العام فيها، والأعضاء على آليات السوق، وتعزيز دور القطاع الخاص في جميع الأنشطة الإنمائية.

(٥) باستثناء المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا إذ تستحضر عضويته ولاماى نظيرة دولة عربية فقط من الأعضاء بجامعة الدول العربية

٢ - خصائص صون الصناديق العربية

يتسم المون للخدمة من الصناديق الإنمائية العربية بخصائص استثنائية، تكونه يقدم من دول نامية إلى دول نامية أخرى، وإن اختلفت إمكاناتها المادية، ولهذا فإن شروطه متفرقة عن أي استقلال، وغير مرتبطة بأي شروط تجارية أو سياسية، بأي شكل كان، ولا بشكل أي تحديد للدول الملتزمة، فلا تطبق هذه الدول ضوابط سياسية لاتباع أو تبني مواقف سياسية محددة اقتصادية كانت أو مالية، إضافة إلى أن شروط الصناديق العربية تتميز بشروط مالية وقانونية مبسطة أكثر يسرا من مصادر التمويل الدولية، ويتمثل هذا اليسر في انخفاض سعر الفائدة وطول فترتي السماح والسيادة، الأمر الذي ينعكس إيجابا على نسبة عنصر الفتح، الذي يرتفع في المون القديم من الصناديق العربية لاشتماله على معدلات من الهبات والمخ التي تميزت بالاستقرار طيلة العقود الثلاثة، إذ تراوحت في المتوسط بالنسبة إلى الصندوق الكويتي والصندوق العربي، على سبيل المثال لا الحصر بين 25.7 و 71.8 على عكس المون القديم من الدول المانحة المتقدمة الاقتصادية، الذي يرتبط بشروط معقدة بحق الدول النامية، إذ تعول هذه الدول إلى فرض شروط على اعتبارات الدول المانحة هي أشكال عدة، تتضمن شكل المساعدة وطرق إتاحتها

وعموما تطلب شروط تمويل الصناديق الإنمائية العربية، باختلاف درجة نمو البلدان المستفيدة، ووضع الشروع التمويل وقطاعه الاقتصادي أي أنه لا توجد بين الاعتبار حقيقة الهيكل الاقتصادي المميز للدول المستفيدة، ومدى ما يحرق هذا الهيكل من تقدم فعلي، وذلك لد يد المساعدة للدول الأشد فقرا في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، وحمايتها في رسم سياستها الإنمائية، وبناء كوارها الفنية والإدارية.

وهكذا يتراوح سعر الفائدة بين ٠.8 و 77 حسب المؤسسة المانحة، والوضع الإنمائي للدول المستفيدة، وحسب القطاعات المعنية في تلك الدول، كما تتراوح فترات السداد بين ٢٠ سنة و ٢٠ سنة، وقد تزيد في بعض الحالات لتصل إلى ١٠ و ٥٠ سنة، حسب المشروعات المختلفة، ومستوى دخل الدول المستفيدة، كما قد تخفيض هذه المدة لتبلغ عشر سنوات في حالة المشاريع ذات الصيغة التجارية، وتتراوح فترات السماح ما بين سنة وعشر سنوات.

يضاف إلى هذا أن شروط الصناديق الإنمائية العربية توفر قدرا كبيرا من حرية الاختيار في أوجه استخدام أموال القروض التي تقدمها، حيث تتبع مبدأ المنافسة الدولية عند التعاقد مع المقاولين والموردين، والاشتراطيين، ولهذا يختلف المون القديم منها عن معظم المونيات التي تقدمها الدول المتقدمة اقتصاديا، والتي تعبر الدول المستفيدة على شراء منتجاتها وخدماتها بالأسعار والواسطات المتوافرة في أسواقها

التمويل العربي ودورها الإنمائي

من جانب آخر تتميز فروع الصندوق الإنمائية العربية بقدرتها على تعبئة موارد إضافية من مصادر غير عربية، وهذا يعني أنها تحفز على تنفيذ استثمارات تولد قيمتها على قطعة فروعها، خصوصاً في حالة المشاريع الكبرى. مما يولد من دورها الإنمائي في الدول المستفيدة.

كذلك تتميز الصندوق الإنمائية العربية بامتصاصها بالتمويل المشترك، الذي يساعد على التخفيف من المخاطر والظروف الطارئة غير المتوقعة، التي قد تعرض لها مساهماتها في حالة المشاريع الكبرى. وقد بلغ إجمالي التمويل المشترك للصناديق العربية خلال الفترة 1994 - 2000 نحو 1.8 مليار دولار أمريكي، ساهم فيها الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي بنسبة 27.6٪، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية بـ 19.2٪، والصندوق السعودي للتنمية 11.7٪، والبنك الإسلامي للتنمية 11.1٪ وصندوق أبو ظبي للتنمية 11.6٪، وصنادير عربية أخرى 2٪، كما ساهمت فيها مؤسسات تمويل دولية (البنك الدولي، صندوق إيفاد، والبنك الأفريقي للتنمية) بنسبة 12٪، وحكومات أجنبية ومؤسساتها التمويلية بنسبة 8.9٪.

4 - حجم العهد الإنمائي للصناديق العربية

بلغ المجموع التراكمي للالتزامات التمويلية للصناديق

الإنمائية العربية بأطراف العام 2000 نحو 69.7 مليار دولار أمريكي⁽⁹⁾، وقد توزعت هذه المبالغ على 122 دولة نامية عربية وغير عربية، بلغت حصة الدول النامية منها نحو 66.8 مليار دولار أمريكي، أي حوالي 96.4٪، وبلغت حصة الدول الآسيوية والدول الأفريقية ودول أمريكا اللاتينية نحو 12 مليار دولار أمريكي، و 9 مليارات دولار أمريكي، و 8. - مليار دولار أمريكي على التوالي، ودول أخرى 1. - مليار دولار أمريكي.

وقد بلغت مساهمة البنك الإسلامي للتنمية من إجمالي هذه الالتزامات التمويلية حوالي 25.9٪ والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي حوالي 11.1٪، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية 14.6٪، والصندوق السعودي للتنمية 11.9٪، وصندوق الأوبك للتنمية 11.4٪، وصندوق النقد العربي 7٪، والصندوق العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا 1.4٪، وصندوق أبوظبي للتنمية 1٪.

واستجابة للاحتياجات التمويلية في الدول المستفيدة وأولوياتها الإنمائية، وبصفة خاصة ما يتعلق باستكمال وتطوير البنى الأساسية والخدمات، والهيئة الشاعدة

(9) حالة التمويل لمؤسسات التنمية العربية، والصندوق العربي، خلاصة الممارسات التمويلية لمؤسسات التنمية العربية، عدد 3، ديسمبر 2001.

الضرورية للتنمية الاقتصادية حازت قطاعات البنى الأساسية والخدمات نحو 8, 18% من إجمالي التزاعزات العماليات التمويلية السابل ذكرها التي قدمتها المصانديق العربية حتى نهاية عام 2000، وهي المائل. بلغت حصة القطاعات الإنتاجية حوالي 1, 21%، ويستند هذا التوزيع إلى احتيازات الدول المستفيدة نفسها، وحسب أولويتها، ويعكس تحسسا واضحا من قبل المصانديق الإنمائية العربية لمشاكلها المعاجلة، واستجابة لحاجاتها الملحة إلى إقامة البنى الأساسية.

من جانب آخر لا يقتصر العون الإنمائي للمصانديق الإنمائية العربية على تقديم القروض الميسرة لتمويل المشاريع المختلفة بحسب، بل يشمل أيضا على تقديم معونات فنية تأخذ غالبا شكل منح لا تسترد. قدم منها، على سبيل المثال لا الحصر، المصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي 750 معونة فنية منذ بدء نشاطه وحتى نهاية 2000، بلغ إجمالي قيمتها نحو 8, 6 مليون دينار كويتي، وقد تضمنت 229 معونة فنية بلغت قيمتها نحو 7, 61 مليون دينار كويتي، تركزت بحصة خاصة على حل الاختناقات التمويلية في الدول المستفيدة، بما في ذلك رفع كفاءة الموارد البشرية، وتحسين الإشارات المؤسسية اللازمة في تلك الدول، وتمويل دراسات جموي وإعداد المشاريع ودراسات عامة وبحوث، ودعم الصندوق في فلسطين المحتلة، كما تضمنت أيضا 226 معونة فنية قومية بقيمة إجمالية نحو 4, 29 مليون دينار كويتي، استهدفت دعم الجهود التنكيفية للدول العربية لإعداد دراسات ومشاريع مشتركة وبرامج إقليمية لتعزيز العول والتربط على امتداد الوطن العربي، وذلك في مجالات كثيرة من أبرزها مشاريع ربط الكهرباء وشبكات النقل العربية وشبكة الاتصالات العربية، ومشاريع إنتاجية مشتركة.

كذلك، قدم المصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية 196 معونة للدول المستفيدة، خلال مسيرته، وحتى عام 2000، بلغت قيمتها نحو 85 مليون دينار كويتي، وبلغت قيمة المعونات الفنية التي قدمت كمنح خالصة لا تسترد نحو 61 مليون دينار كويتي، إلا تم دمج ما قيمته نحو 8 ملايين دينار كويتي مع القروض، وذلك تماشيا مع سياسة الصندوق الكويتي في هذا الحصوص.

وليس من شك في أن العون الفني الذي تقدمه المصانديق العربية يقوم بدور كبير في جذب مزيد من الاستثمارات الجديدة في الدول المستفيدة، من خلال تمويل دراسات الجدوى الفنية والاقتصادية للمشاريع الجديدة، وكذلك تمويل الدراسات القطاعية لتحديد المشاريع الاستثمارية ذات الأولوية، بالإضافة إلى رفع كفاءة المؤسسات التخطيطية والتنفيذية في تلك الدول وتحسين قدرتها على إعداد وتنفيذ وتشغيل المشاريع الاستثمارية.

٥ - الدور الإيجابي للصناديق العربية

لقد تواصلت تجارب الصناديق الإنمائية العربية طيلة العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، وفي مفاوضات - كبرى والصمت - بواشر قدامها، وامتد تأثيرها إلى مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وتركت بذلك ظلالاً وانعكاسات على شتى مناحي الحياة العيشية في عدد كبير من الدول المستفيدة، وشمة ثلاث حقائق لابد من توضيحها بداية قبل الدخول في إطلالة تقييمية لتجارب هذه الصناديق.

الحقيقة الأولى، وهي محدودة الوارد المالية للصناديق الإنمائية العربية، وعدم قدرتها وحدها على تلبية حاجة الدول العربية، وبغية الدول النامية من القروض الميسرة، لأن ما تعانيه هذه الدول من آثار والانعكاسات ضغوط التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وما تفرضه من إشكاليات تعديات متشابكة تواجه حلقاتها الإنمائية، تمنع، لواجبها، إلى تضاعف جهود كل مؤسسات العون الإنمائية الفاعلة على المستويين الإقليمي والدولي، وفي مفاوضات وخيارات قادرة على إجراء تغييرات هيكلية في الأوزان الاقتصادية للدول العربية والدول النامية.

إن تثبيت هذه الحقيقة ضروري في هذا السياق، لكي نؤكد على عدم الفاعلية وتعليم دور الصناديق الإنمائية العربية، إضافة أحكام تعميمها ورفع من مكانتها، ومنسوب أدائها.

ونؤكد الحقيقة الثانية على إظهار المبادرات التنموية للصناديق الإنمائية العربية، كغيرها من قروض مؤسسات التمويل الإنمائي - كأحد أهم إستراتيجيات تولد قيمتها على قيمة قروضها بصورة ميسرة، ويشير أن قروض الصناديق العربية تغطي في المتوسط 75% من إجمالي التكلفة الإجمالية للمشاريع الممولة، أي أنها ساهمت حتى نهاية 2000 في تمويل مشاريع إنمائية في الدول العربية، والدول النامية الأخرى، تبلغ تكلفتها نحو 227 مليار دولار أمريكي، وساعدت على اجتذاب قدر لا بأس به من التمويل اللازم لها من مصادر غير عربية.

ولا يخفى أن هذا المنحصر من العمليات المالية يعتبر قياساً بالنظر إلى الفترة الزمنية التي تم خلالها، وأما الحقيقة الثالثة فتؤيدها، أن مداخلات الصناديق الإنمائية العربية لا تنحصر فقط

بمحدود عملياتها التمويلية الإقراضية في تمويل العناصر الأساسية لتعميد المشاريع الإنمائية بل تشمل في كثير من الحالات، حيثما كان ذلك ضرورياً، على توفير الشروط التكميلية لتجاريها عند التنفيذ، كالإسهام في تمويل مختلف الدراسات المتعلقة بالمشاريع الممولة، إلى جانب تقديم الدعم المؤسسي، وتطوير أساليب الإدارة، وتوفير برامج تدريب وتطوير الكوادر البشرية العاملة في المؤسسات المعنية بتنفيذ وتشغيل المشاريع الممولة لرفع مستوى الأداء فيها، وكذلك تمويل الصيانة والتشغيل من أجل المحافظة على الاستثمارات المنضمة التي تنفق على المشاريع، وذلك من خلال المساعدة في توفير الإمكانيات المالية والبشرية اللازمة، والقادرة على

إدارة واستغلال هذه الممارج، مما يعني أن إنجازات الصناديق العربية الإقليمية لا تكتف عند حدود الأرقام الجيدة لعملياتها التنموية، بل تمتد أيضا إلى المساهمة في حل المشاكل الإقليمية التي تعاقبها الدول المستفيدة، إذ إن لمداخلتها آثارا إيجابية كبيرة على الجهود الإنمائية، من خلال ما تنتجها من معونات تقنية للدراسات القطاعية، ودراسات الجدوى الاقتصادية الفنية، والدعم المؤسسي والتدريب الكوادر الفنية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن بعد هذه التغطية المشتركة، هو: ما الأثر الإقليمي للمعون المقدمة من الصناديق العربية؟ إن الإجابة عن مثل هذا السؤال تكمن في حقيقة الجهود الإنمائية والاجتماعية الكبيرة والتواصلة طيلة أربعة عقود، استطاعت فيها الصناديق العربية مساعدة الجهود الإنمائية الاقتصادية والاجتماعية في عدد كبير من الدول العربية والدول النامية الأخرى، من خلال المساهمة في تمويل عدد كبير من المشاريع الإنمائية التي اعتبرتها الدول المستفيدة ذات أولوية كبرى لها.

ومما لا شك فيه أن جهود الصناديق العربية قد أسفرت عن نتائج وآثار إيجابية في مناطق كثيرة من العالم، يصعب حصرها في هذه المقالة، لكن أقل ما يمكن أن يقال أنها ساهمت في إقامة مشروعات البنى الأساسية في الدول المستفيدة، واستطاعت تحقيق إنجازات إنمائية في القطاعات الإنتاجية، وبخاصة في قطاعي الزراعة والصناعة، تتعامل باستصلاح الأراضي وتحسين مصادر المياه وتطوير الإرشاد الزراعي، والأبحاث الزراعية، وتطوير الإقراض الزراعي للمشروعات الممولة، وإضافة مائة الف تنجيم كيرة إلى عدد من المشروعات الأساسية في كثير من الدول المستفيدة.

من جانب آخر اعتمدت جهود الصناديق الإقليمية العربية (إلى تحقيق إنجازات كثيرة في مجال مياه الشرب والصرف الصحي، والخدمات التعليمية والصحية، والتدريب وغيرها من الأنشطة الاجتماعية الأخرى، وإضافة إلى كل هذا ثمة آثار إيجابية مبرزة للمعون الفنية التي تقدمها الصناديق العربية، إلى الحكومات والهيئات النشطة للمشاريع، وخاصة فيما تقدمه من دراسات للقطاعات المختلفة، والجدوى للمشاريع، وما تقدمه أيضا من دعم مؤسسي لرفع كفاءة الأجهزة التخطيطية والتنفيذية والتدريبية في الدول المستفيدة لزياة قدراتها على إعداد وتنفيذ المشروعات الإنمائية.

وسواء نتناول في هذا السياق إلغاء الضوم، على أهم معاليم إنجازات الصناديق العربية في دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإعطاء لمحة موجزة عن دورها في تعزيز التجارة العربية البينية، ودور الصندوق العربي للإئعاء الاقتصادي والاجتماعي في تعزيز التعاون الاقتصادي العربي.

1 - دعم التنمية الاقتصادية، ويمكننا للخص أهم الشواهد والأدلة في مجالاتها بما يلي:

1 - المساهمة في تطوير قطاعات البنى الأساسية في الدول العربية والدول النامية

البنية التحتية و دورها الإنمائي

الأخرى، التي تشتمل على أبرز الاختصاصات التي تعانيتها الدول النامية، وتعتبر شرطاً مسبقاً لتميز الاقتصاد الاجتماعي والاعتماد على الموارد البشرية من أهمية كبيرة في تحسين مناخ الاستثمار، وإيجاد البيئة المناسبة لزيادة الطاقة الإنتاجية للدول المستفيدة، وبالتالي زيادة الفرص لتحقيق المشروعات الإنتاجية، والخدمات الضرورية للمواطنين، وتلبية التطلعات الإنسانية للتنمية.

وهكذا أدت جميع الدول النامية، بما فيها الدول العربية، ضمن جهودها الإنمائية الطويلة، اعتماداً خاصاً، خلال العقود السابقة، بالنسبة الأساسية، لأنها كانت تعاني في مجموعها ضروراً شديداً فيها يتجسد في محدودية شبكات النقل، والطاقة الكهربائية، ووسائل الاتصال السلكي واللاسلكي، واعتبار عشرات الملايين من السكان إلى ضروريات الحياة الأساسية كالمياه النظيفة، وغيرها من الأمور الأخرى التي دفعت الدول العربية والدول النامية إلى إنشاء وتطوير البنى الأساسية، وذلك لأن التنمية بكل أبعادها ومساراتها لا يمكنها أن تأخذ مجراها الحقيقي من دون هذه البنى. فهي أهم ركائزها، إلا تساهم في زيادة الإنتاجية وتقليل تكاليف الإنتاج وتجهيزه، وتوسيع آفاق التجارة وتحسين ظروف المعيش.

وهذا هو الذي دعا المبادئ الإنمائية العربية إلى الاستجابة لتوجه الدول العربية والدول النامية الأخرى في هذا المجال، **والتي تعامل معها**، باعتبارها أولوية متقدمة في مداخلاتها التمويلية للنسبة الأساسية، مما يعزز من قدرتها على معالجة هذه الدول والاستجابة السريعة لاحتياجاتها الملحة من تمويلها الاقتصادية، وقد أثمرت مداخلاتها في كل قطاع من قطاعات البنى الأساسية بين دولة وأخرى بتفاوت طبيعي، ونوع المشاريع في كل قطاع، كما تأثر بشكل أساسي بالولاءات خطط التنمية، وحجم الاستثمارات المستهدفة في تلك الدول، والموارد المتاحة لتمويل برامجها الإنمائية.

وبإيجاز اشتملت مداخلات الصندوق الإنمائية العربية، في إطار قطاعات البنى الأساسية المختلفة، على شق وتجهيز الطرق، بما فيها الطرق الريفية المهمة للتنمية الزراعية وتطوير الإنتاج الزراعي، وكذلك تطوير الموانئ البحرية والسكك الحديدية والمطارات، وشبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية، وتوليد ونقل وتوزيع الكهرباء، ونقل وجو مياه الشرب وتوزيعها، وتجميع ومعالجة واستخدام مياه الصرف الصحي ومجتمعات المعالجة.

ب - المساهمة في تعزيز القطاعات الإنتاجية في الدول المستفيدة. وقد لقّبت مساهمات الصندوق الإنمائية العربية في هذه القطاعات (الزراعة والصناعة) من دولة مستفيدة إلى أخرى، حيث ارتبط ذلك بالولاءات تلك الدول، واحتياجاتها الملحة في إطار خططها الإنمائية وبرامجها الاستثمارية، بالإضافة إلى قدرتها على استيعاب حجم التمويل في حدود إمكانياتها المتوافرة.

وعصوما استهدفت المداخلات الإنتاجية للصناديق الإنمائية العربية، تطوير الإنتاج الزراعي هي الدول المستفيدة، وتحقيق مستويات مقبولة من الاكتفاء الذاتي الغذائي العربي، وتطوير استغلال الموارد الزراعية أفضلها، وعموما، مع التركيز بخاصة على استثمار الموارد المائية، بتشييد وصيانة السدود، وإقامة شبكات الري، وصرف المياه، واستصلاح الأراضي الزراعية، وبناء الطرق الترابية، ومنح القروض الزراعية، وإدخال الثقافة الحديثة في الإنتاج الزراعي، وتوفير الخدمات الزراعية، وتحويل نظم الإنتاج الزراعي في مصاحبات كبيرة من الأراضي المطوية إلى الزراعة القروية بهدف زيادة الإنتاج الزراعي واستقراره، بالإضافة إلى زيادة دخل الفلاحين، وتحسين مستويات معيشتهم ومكافحة التصحر، والحد من الهجرة الداخلية من القرى إلى المدن.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، استفاد من المشاريع الزراعية الممولة من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي أكثر من مليوني عائلة عربية بصورة مباشرة، وحوالي 5 ملايين عائلة بصورة غير مباشرة، أو ما يعادل نحو 35 مليون نسمة من مواطني الدول العربية.

وإلى جانب هذا تسببت مداخلات الصناديق الإنمائية العربية في قطاع الصناعة، توفير التمويل اللازم لمشاريع استخراجية في مجال المعادن، ومشاريع التصنيع الأساسي كالإسمنت والحديد والصلب، والنفط، مما عزز التكامل الاقتصادي بينها، إضافة إلى إعادة تأهيل مصانع قائمة لها أثرها الكبير في تعزيز القدرة الإنتاجية للدول المستفيدة.

٢ - دعم التنمية الاجتماعية: عكست حزمة الصناديق الإنمائية العربية، على إعطاء أهمية خاصة لعناصر التنمية الاجتماعية في الدول المستفيدة، وقد أصبحت مداخلاتها في هذا المجال في بعض من المداخلات، أحدهما غير مباشر يترتب على مداخلاتها في مجال التنمية الاقتصادية، وتشكل حزمة من النافع على التكاملها الاجتماعية، تتمثل في تحقيق زيادة في حجم ومدى العمالة الجزرية التي توفرها المشاريع التي تساهم في تمويلها الصناديق الإنمائية العربية، إضافة إلى ما تحققه مشاريع البنى الأساسية التي تمويلها هذه الصناديق من تغيرات هيكلية مادية واجتماعية في الدول المستفيدة، بتوفير الإضاءة الكهربائية، ومياه الشرب، وخدمات الاتصال الداخلي والخارجي، نسبة كبيرة من السكان، الذين يعيشون في ضواحي المدن والأرياف، وكذلك تلك عزلة المواطنين من المناطق النائية من خلال تطوير النقل وربطهم بالمدن، إضافة إلى تطوير شبكات تصريف المياه، والتضاريس التي يؤثر تسورها في إحداث أضرار صحية بالسكان نتيجة انتشار الأمراض.

وتتصل المداخلات المباشرة لبعض الصناديق الإنمائية العربية في المجال الاجتماعي بنواح كثيرة، تعود من خلالها مشاريع محددة في مجال التنمية الريفية، يمكننا إيجازها، بتمويل

التجديد العربي و دورها الاقتصادي

التدابير المتعلقة بدعم التعليم النظامي، وتربية النشء، والثقافة الترويبي، والتدريب المهني، والتعليم الفني، والتدريب القطاعي، ودعم الأمية، والتعليم عن بعد، وكذلك تطوير الخدمات الصحية بما فيها أنشطة التعليم الصحي إضافة إلى مكافحة الفقر والبطالة في الدول المستفيدة من خلال تقديم قروض التمويل الإنمائي الصناعي والزراعي والحرفي لمساعدة الشرائح الاجتماعية الأقل دخلا، وكذلك تقديم قروض مشاريع التنمية الريفية المتكاملة، وقروض السكن الاجتماعي للمواطنين من ذوي الدخل المحدود، وقروض تمويل الصناديق الاجتماعية التي ازداد الاهتمام بها في السنوات الأخيرة من هذه التسهيلات، وبخاصة في الدول العربية لعدد من الآثار المطبقة لبرامج التصحيح الاقتصادي.

٣ - دعم التجارة العربية، حيث ساعدت الصناديق الإنمائية العربية بشكل مباشر في توجية عملية التنمية نحو المزيد من استهلاك السلع والخدمات، خصوص توفير التجهيزات والمعدات اللازمة للمشاريع المنفذة، مما ساعد على تنشيط الحركة التجارية في الدول العربية المستفيدة، كما ساعدت أيضا في تسهيل نقل السلع من خلال تطوير النقل البري، والسكك الحديدية، وزيادة طاقتها لتتقل والتأولة في كثير من الدول العربية، إضافة إلى إنشاء موانئ جديدة وتطوير عدد من الموانئ القائمة، وزيادة طاقتها بإقامة أرصفة جديدة، وتحديث معداتها، وتنظيم الإدارة فيها، وبالتالي حل كثير من المشاكل المزمنة في الموانئ العربية، وزيادة طاقتها وقدرتها على إتالة أكبر من السلع والمنتجات والخدمات المستوردة والمصدرة، ولا دخل في هذا السياق أيضا أكثر مساعدة منظم للصناديق الإنمائية العربية في إعداد فتح قناة السويس وتوسيعها وتعميقها، تمكينها من استهلاك السمن الكبيرة ونقلات النفط المتعلقة، وزيادة قدرتها الفنية والإدارية الضرورية لتنظيم الحركة التجارية.

من ناحية أخرى، تكثفت جهود صندوق النقد العربي، والصندوق العربي، ومؤسسات تمويل عربية مشتركة، ومؤسسات مالية ومصرفية أخرى في إنشاء برنامج تمويل التجارة العربية برأسمال قدره ٥٠٠ مليون دولار، وذلك بهدف الإسراع في تعزيز وتنمية المبادلات التجارية بين الدول العربية، وتعزيز القدرات الإنتاجية والتنافسية للتعنت والمصدر العربي. وقد وافق هذا البرنامج، منذ بدأ نشاطه في مطلع ١٩٩١ وحتى نهاية عام ٢٠٠٠، على إعادة تمويل ٧٧٢ مليا بمبلغ ١.٩٦١ مليون دولار أمريكي، كما أبرمت ٢٢٨ اتفاقية خط التمرن، بلغت قيمتها الإجمالية ١.٧٥٤ مليون دولار أمريكي، سحب منها نحو ١.٢٩٨ مليون دولار أمريكي، وسددت الوكالات الوطنية ١.١٢٠ مليون دولار أمريكي، تمثل إجمالي المبالغ المستحقة خلال تلك الفترة.

كذلك، وفي إطار هذه الجهود وسَّع نشاط البنك الإسلامي للتنمية في مجال دعم التبادل التجاري بين دولة الأعضاء، حيث يقوم بتنفيذ برنامج خاص لتمويل التجارة الخارجية للدول

الأعضاء. يركز على تحويل الواردات من السلع ذات الصلة التمنية لأجل التنمية. ويرتفع محفظة البنوك الإسلامية الذي يقدم التمويل اللازم للعمليات التجارية للمستثمرين والمستهلكين من القطاع الخاص. كما يقوم البنك بتحويل عمليات وبرنامج التمويل الأطول أجلا للتجارة (تمويل الصادرات).

1 - تعزيز التعاون الاقتصادي العربي، وهو من الأنشطة المحورية للتمويل العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي. إذ عمل منذ إنشائه على تعزيز التفارب والتعاون العربيين. وإعطاء الأولوية للمشاريع الحيوية في البلاد العربية، التي من شأنها أن تزيد التفارب والتكامل بين أجزائه. وقد تمتد وتتنوع مداخلاته في مجال المشروعات العربية المشتركة الحيوية. هادى ذلك إلى ترديد الدول العربية تفارباً. ويمكننا تلخيص أهم إنجازاته في هذا الشأن بما يلي.

1 - المساهمة في الربط الكهربائي بين الدول العربية، الذي يساعد على زيادة روابط الصلة والتفارب القومي بين أطراف الوطن العربي، ويعمل في الوقت نفسه على تقليل النفقة الاحتياطية المركبة في كل شبكة، وبالتالي تخفيض الاستثمارات الرأسمالية اللازمة لتلبية الطلب من دون المساس بدرجة الأمن والأمنية التي تشككها التربةطة. وتؤدي في الوقت نفسه إلى التقليل من الاحتياطي الفولط، والاستفادة من إقامة محطات التوليد في المواقع المناسبة لها، الأكثر جدوى من الناحية الاقتصادية، نتيجة لتوافر الوقود رخيص فائض (صعب التصدير أو صعب التحويل) في إحدى الدول التربةطة. كما ينادى أيضاً إلى التقليل من تكوّن البنية، وكذلك توحيد المواصفات الأساسية للمعدات الكهربائية، وتوسيع السوق العربية أمام صناعة المعدات الكهربائية.

ومن المثير أن يبلغ الوفر في التخطات الرأسمالية عند اكتمال الربط الشامل للدول العربية بشبكة موحدة طولها 1 ألف كم حوالي 2.1 مليار دولار أمريكي، ولا يتخصص هذا الوفر في نفقات التشغيل، الذي يدر نصف هذا المبلغ تقريباً، طيلة عمر خطوط الربط الداخلة في هذه المشاريع، وبشكل عام تتمحور مداخلات التمويل العربي في هذا المجال حول تمويل مشاريع لإنشاء شبكتين رئيسيتين الربط الكهربائي في الوطن العربي، لتمر تكافيهما الاستثمارية بتحو مليار دولار أمريكي، هما:

- شبكة ربط دول شمال الشرق العربي، حيث ربطت شبكات الكهرباء في مصر والأردن عام 1998 والأردن وسوريا عام 2000 على التوالي 500/500 ك.ف. كما ربطت الشبكة السورية بشبكات الكهرباء في لبنان وتركيا على التوتر 100 ك.ف. ومن المقرر ربط شبكات الكهرباء في سوريا وتركيا بشبكة الكهرباء العراقية على التوتر 500 ك.ف. في وقت لاحق، وتبلغ قدرة شبكة الربط هذه حوالي 600 م.و. وفي الحالات العادية،

البنية التحتية العربية ودراسة الربط

يمكن زيادتها إلى 800 م. وفي حالات الضرورة، ويمكن في وقت لاحق زيادة قدرة الشبكة إلى 1200 م. و. عن طريق تحويل خطوط الربط من التيار المتردد إلى التيار المستمر.

- شبكة ربط دول المغرب العربي: وقد رُبطت شبكات الكهرباء في مصر وليبيا على التوتر 220 كلفه في عام 1998، وشبكات الكهرباء في تونس والجزائر والمغرب على التوتر نفسه. وقد أنجز هذا الربط في عام 2001، كما تجرى أيضا دراسة وضع خط التوتر بين مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب إلى 800 / 100 كلفه.

ب - المساعدة في ربط شبكات الاتصالات العربية، بهدف خلق شبكة اتصالات دولية على مستوى جيد، خاصة أن الاتصالات بين الدول العربية كانت تتم حتى عهد السبعينيات إما عن طريق شبكة الترددات العالية، التي كان مستواها متدنيا، وإما عن طريق الشبكة الفضائية الدولية التابعة للمنظمة الدولية (إنتلسنت)، والتي كان معظمها يتم بصورة غير مباشرة عن طريق أوروبا أو أمريكا، لعدم وجود ربط للاتصالات بين الدول العربية الشجيرة. أو كان عددا محدودا.

لهذا كله، صعد الصندوق العربي مبكرا منذ إنشائه إلى المشاركة ماليا وفيها مع الاتحاد الدولي للاتصالات في إعداد خطة متكاملة للاتصالات العربية في عام 1996، وبرنامجه عملي لتنفيذ الخطة. كما شارك في تمويل مشاريع أخرى لم تشملها الخطة. لا ظهرت أهميتها فيما بعد نتيجة لازدياد الشبكة الهاتفية والاتصالات الأخرى بين الدول العربية، نتيجة لازدياد التقارب الاقتصادي والاندماج فيها أيضا.

وإجمالا، ساهم الصندوق العربي في تمويل شبكة للاتصالات بين الدول العربية. تتكون من سبعة مشاريع اكتمل تمهيدها ودخلت الخدمة. بهدف المشروع الأول منها إلى ربط شبكة الاتصالات بين المغرب والجزائر. ويهدف الثاني إلى ربط شبكات الاتصالات بين العراق وسوريا والأردن والسعودية ومصر. ويهدف الثالث إلى ربط شبكات الاتصالات بين الصومال وجيبوتي واليمن والسعودية. ويهدف الرابع إلى ربط شبكات الاتصالات بين الجزائر وتونس وليبيا. ويهدف الخامس إلى ربط شبكات الاتصالات بين الدول العربية عن طريق الشبكة الفضائية العربية (عربسات)، ويشمل إنشاء محطات أرضية في كل من موريتانيا وتونس والمغرب والجزائر وجيبوتي والصومال واليمن والأردن وسوريا والعراق. وقد اكتمل تنفيذ هذا المشروع ودخل الخدمة عام 1997، وأدى إلى ربط الدول العربية المعنية بشبكة اتصالات فضائية مكملة لشبكة الاتصالات الأرضية. ويهدف لها حتى لمعناها. أما المشروع السادس فيهدف إلى ربط شبكات الاتصالات بين البحرين وقطر والإمارات. ويهدف المشروع السابع إلى ربط شبكات الاتصالات بين أربع عشرة دولة منها سبع دول عربية هي الجزائر وتونس ومصر والسعودية وجيبوتي واليمن وسوريا، ويشمل إنشاء كبلين بحريين بين جنوب شرق آسيا وغرب أوروبا عبر

الدول العربية، أحدهما نحاسي يعمل بالنظام التماثلي، وآخر ألبياف بصرية يعمل بالنظام الرافقي، ويومان بالدول المذكورة، وقد اكتمل تنفيذ المشروع ودخل الخدمة في عام 1998 وأدى إلى تطور كبير في حجم وبوعية الاتصالات الهاتفية الدولية بين الدول التي تمر عليها الكيبلات البحرية. وقد ساهمت هذه المشروعات في زيادة الحركة الهاتفية بين الدول العربية، وفي تحسين وسائل الاتصالات، وزيادة الطوابق الاقتصادي والاجتماعي فيها.

ج - المساعدة في ربط شبكات النقل العربية. وقد شركت مداخلات الصندوق العربي في هذا المجال بشكل خاص في دراسات قطاعية في فروع النقل المختلفة، ذات الصلة بالمشركة بين الدول العربية، وذلك بهدف التعرف على المشاريع العربية المشتركة، ودعم الاستثمارات ذات الأولوية في قطاع النقل.

ومن هذه الدراسات، دراسة الإطار العام للنقل في الوطن العربي التي قام الصندوق العربي بإقرارها بدراسة مسحية شاملة استهدفت وضع إطار عام لتحديد شبكات الطرق والسكك الحديدية العربية المشتركة وذلك بهدف التعرف على أوضاعها، وتحديد أولويات المشاريع الواجب تنفيذها، من أجل تلبية الاحتياجات الأساسية للربط بين الدول العربية، وإقليم المغاربي. وقد أمكن بفضل هذه الدراسة تحديد الوسائل الرئيسية في أجزاء الشبكات التي تربط بين الدول العربية، واقتراح أولويات المشاريع الواجبة دراستها وتنفيذها في إطار برنامج زمني تقديري، واعتناء على متطلبات النقل في الأسس المتعمد بالعلوم الإنسانية في تطوير دعم الاستثمارات المطلوبة لإنجاز هذه المشاريع على مراحل متتالية حسبما تقتضيه احتياجات حركة المرور. وقد ساهم الصندوق العربي في تمويل دراسات المشاريع التي تبلورت في إطار دراسة الإطار العام للنقل في الوطن العربي، وتُعد بعضها من قبله ومن قبل مؤسسات تمويلية أخرى.

ومن الدراسات الأخرى التي شتمت على الذكر في هذا السياق، دراسة انعطاف النقل في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، التي مولها الصندوق العربي، وأُنجزها في عام 1999، وساهمت في رسم سياسات النقل في الدول المعنية. وكذلك دراسة ما قبل الجندوى لطريق الوحدة المغاربي السريع، التي مولها الصندوق العربي في عام 1998. استناداً لطلب دول الاتحاد المغاربي، وتضمنت دراسة أولية شاملة للربط البري بين دول الاتحاد بطريق سريع يبدأ من ليبيا وينتهي في موريتانيا، مروراً بتونس والمغرب والجزائر بطول إجمالي حوالي سبعة آلاف كيلومتر، وقد أعيدت هذه الدراسة عام 1998، من قبل أحد بروت الخبرة الاستشارية العلمية المتخصصة، وبمشاركة مكتب الدراسات العربية في دول الاتحاد المغاربي الخمس. وتحت إشراف الصندوق العربي، وثلة التنسيق التي احتفلتها دول الاتحاد لهذا المشروع، وقد وُضع على أساس هذه الدراسة، برنامج زمني يتم بالبرونة لتطوير الوسائل المشمولة في الطريق في خمس مراحل، يلحز كل منها حتى تعدل إلى مستوى طريق سريع يجمع القمامة عام 2020. وقد أُنجزت.

العلاقات العربية ودورها الإقليمي

الشارع ذات الأولوية التي ظهرت في هذه الدراسة ليزيد من الدراسات التطبيقية هي كل من دول الاتحاد، وقام الصندوق العربي بالإسهام في تمويل بعضها في تونس والمغرب، وما زال البعض قيد الدراسة. ومن المتوقع أن يتابع الصندوق العربي مشاريعه لإنجاز مراحل لاحقة لهذه الدراسة في دول الاتحاد. كما يتوقع أن يواصل الإسهام في تمويل المشاريع القطرية التي تشكل أجزاء من هذا الطريق حسب الأولويات التي تحددها دول الاتحاد.

٦ - خاتمة

تهدى مما سبق أن الصناديق الإقليمية العربية قد تمكنت خلال العقود الفائتة من توسيع وجودها على الساحات العربية والأجنبية، والعمل بصورة كفؤة ومنظمة في الدول المستفيدة، مما زاد من دفع مساهماتها. وإستمرار إنجازاتها في شتى ميادين الحياة الاقتصادية، من إشباع الاحتياجات الرئيسية للمواطنين، ولصالحهم من العدل، إلى تطوير القطاعات الاقتصادية المختلفة، وتحسين حياة مواطني الإقليم، وتحسين مستوى الحياة الاجتماعية.

وترجع هذه النتائج الإيجابية في أساسها إلى الأتباط مساهمات الصناديق الإقليمية العربية ومداخلاتها باحتياجات الدول المستفيدة، وإدراكها لخطوة أهدافها التامة للخلاص من التخلف والفقر، علاوة على تعاونها الوثيق مع حكومات تلك الدول لما فيه مصلحتها.

وكما سبق ذكره فإننا لا ننزع في مؤازرة إنجازات الصناديق الإقليمية العربية إلى اللامبالاة في تعظيم دورها، لأنها على قدر من ضخامة التسهيلات الإنعاشية، التي تواجه الدول العربية والدول النامية الأخرى، تحتاج إلى مساهمات جهود كل مؤسسات العون الإنعاشية القائمة على المستويين الإقليمي والعالمي، وفق سياسات وطرائق فاعلة على إجراء تغييرات هيكلية في الأوزان الاقتصادية للدول المستفيدة.

وهذا يزيد من أهمية التنسيق مستقبلاً ما بين الصناديق الإقليمية العربية من جهة، والصناديق والمؤسسات التمويلية الدولية من ناحية أخرى، بما يساعد على حشد التمويل المشترك وتوسيع أفاقه، ليس في المدى الكمي فحسب وإنما أيضاً في نوعية وفاعلية هذا النوع من التمويل، والذي الذي يمكن تعبئته في أنساق قطعية متوازنة، تؤدي إلى سلامة استدامته للأغراض الإنعاشية في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية، وبما يعود بالنفع الكبير على الدول المستفيدة.

أثر اتفاقيات منظمة التجارة العالمية WTO على قطاع التجارة في دولة الكويت : الواقع والتحديات المستقبلية

د. أحمد منير نجار^(*)

ملخص:

يهدف الاتفاقيات الدولية في إطار منظمة التجارة العالمية W.T.O إلى تحرير التجارة الدولية وتنظيم استراتيجيات بناء على قواعد قانونية واجبرائية تضمن الأمن الاقتصادي والمالية لأمم المتعاملين في العلاقات التجارية الدولية. وتتركز الاتفاقيات الدولية مستندة الأطراف في إطار W.T.O على ثلاثة محاور أساسية:

- 1 - التجارة في السلع الصناعية والمواد الأولية والمنتجات الزراعية.
- 2 - التجارة في قطاع الخدمات المعتمدة لدى W.T.O وكذلك لدى الأمم المتحدة.
- 3 - التجارة المتكاملة بحقوق الملكية الفكرية.

كما تستند الاتفاقيات الدولية في إطار W.T.O إلى آلية لحل المنازعات التجارية بين الدول الأعضاء، بحيث تعتبر هذه الآلية محفلاً للمشاور والاحكام والقاضي حول النزاعات التي قد تحدث بسبب عدم الالتزام أو التفسير الخاطئ لأحكام الاتفاقيات التجارية الدولية. ويتوقع لهذه الاتفاقيات الاستمرار في تحرير النشاطات الاقتصادية ذات الصلة بالتجارة الدولية بشكل يصل منه إلى التحرير الشامل للاقتصاد العالمي.

(*) مشرف ومعد منظمة التجارة العالمية W.T.O، مركز التميز في الإدارة - كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت - الكويت.

أثر الاتفاقيات متعددة الأطراف العالمية

ويتم على ما سبق فإن القطاع الصناعي سيتأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف المتعلقة بـ W.T.O. ، وسيكون بالضرورة أمام القطاع تحديات كبيرة تفرضها التزامات الدول تجاه المنظمة. والسؤال الذي يحاول البحث الإجابة عليه هو: إلى أي مدى يمكن تنظيم الفوائد من الاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف في إطار W.T.O. - وتخليص المسؤوليات للمنظمة إلى أقل قدر ممكن في القطاع الصناعي عموماً والقطاع الصناعي الكويتي على وجه الخصوص؟ كيف يمكن تحويل الدعم المحظور من قبل المنظمة إلى دعم غير محظور بحيث تبقى للصناعة الكويتية حماية حكومية ولكن بشكل غير مباشر؟ كيف يمكن مواصلة التزامات الكويت وفق الصفوف الزمنية الممنوحة لها مع واقع ومستقبل القطاع الصناعي الكويتي؟

إن ما سبق من أسئلة وغيرها ستشكل التحديات أمام القطاع الصناعي الكويتي. كما سيحاول البحث إلقاء بعض الضوء على هذه القضايا (التحديات) ومناقشة بعض المقترحات حول الموضوع من خلال الفقرات التالية:

أولاً، المبادئ العامة لتنظمة التجارة العالمية والمكاسبها على القطاع الصناعي.

ثانياً، الأحكام التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في القطاع الصناعي.

ثالثاً، القطاع الصناعي الكويتي في مواجهة قواعد منظمة التجارة العالمية W.T.O. والتزامات الكويت تجاه المنظمة وأخيراً، الخلاصة والتوصيات. والتمسك بالقطاع الصناعي الكويتي.

أولاً: المبادئ العامة لتنظمة التجارة العالمية والمكاسبها على القطاع الصناعي

تعتمد منظمة التجارة العالمية W.T.O. على أربعة مبادئ أساسية على الدول الأعضاء الالتزام بها هي: صلاتها التجارية وهي (زروق، 1998):

- 1 - استخدام التعريفات الجمركية فقط لحماية الصناعة الوطنية. على أن تبقى هذه الحماية في حدودها الدنيا. والابتعاد عن استعمال القيود غير الجمركية وخاصة القيود الكمية على المستوردات من السلع (لا في الحالات الخاصة المنصوص عليها في الاتفاقيات ذات الصلة).
- 2 - تثبيت الدول الأعضاء تعريفاتها الجمركية، سواء المخفضة أو غير المخفضة. وعدم زيادة نسبها التي جاءت في جداول التزاماتها مستقبلًا. ويغير هذا مبدأ جزئياً لا يتجزأ من النظام القانوني للمنظمة.
- 3 - عدم التمييز بين السلع حسب مصدرها. أي الالتزام بمبدأ الدولة الأولى بالرعاية (MFN)، بحيث تمنح لمالكي أعضاء المنظمة أي معاملة تفضيلية تقدمها دولة ما لسلع دولة أخرى. أي لا يجوز فرض رسوم جمركية أعلى من الرسوم المفروضة على سلع دولة أخرى.

١ - تطبيق مبدأ للتعاملة الوطنية وهو مبدأ تكفيهي لمبدأ الدولة الأولى بالرعاية، إذ يعنى التمييز بين السلع الوطنية والأجنبية، سواء فيما يتعلق بالضرائب المحلية أو التشريعات والقوانين التي تؤثر على عمليات البيع والشراء داخل الأسواق المحلية.

ثانياً: الأحكام التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في القطاع الصناعي

هناك أنواع متعددة من الأحكام منها ما يتعلق بالسلع، ومنها ما يتعلق بالخدمات ومنها ما يتعلق بحماية الملكية الفكرية، وأخيراً إجراءات لتسوية النزاعات (عزال، ٢٠٠٠).

١- في هذا المجال:

وهي الأحكام المتعلقة بـ:

(١) الإجراءات الوطنية المتخذة عند المصادقة

(٢) التدابير الحكومية ذات طابع التي تنظم تجارة السلع.

١ - ففي مجال إجراءات المصادقة والحدود هناك جدول موحدة لتسمية السلع وتوقيفها وطرق حساب قيمتها للأغراض الجمركية مما يسهل تطبيق الترميمات الجمركية وشفافية لهذه لآلات التجارية. وهذا يعنى على الحكومات التخليص رسومها الجمركية وبيعها بمسلف التزاماتها المقدمة للمنظمة عند الانضمام. كما أن الدول الأعضاء لا تستطيع فرض قيود كمية على المستوردات. لأن ذلك يعتبر تعديداً للتحرير والانتفاخ التجاري الدولي... إلا أن هذه القاعدة كان لها استثناءات لبعض الدول التي تعاني صعوبات في ميراث مدفوعات، وبالتالي سمحت قواعد المنظمة بكل هذه الدول بتحديد كميات من المستوردات للمحافظة على الاحتياجات القديمة والمركز المالي الخارجي.

وقد حظ القطاع الزراعي استثناء من هذه القاعدة نظراً إلى خصوصيته وقوة جانب الاتحاد الأوروبي في عزل القطاع الزراعي عن المنافسة الدولية.

وكذلك قطاع صناعة المصوغات الذي ظل يحكمه اتفاق (تعدد الألياف) ولعدة ٤٠ عاماً، حيث يسمح بموجب هذا الاتفاق بتطبيق نظام الحصص بدلاً من منع القيود الكمية، كما هي حال القطاعات الصناعية الأخرى. ووضع برنامج تدريبي يطبق على أربع مراحل حيث ينتهي نظام الحصص نهائياً مع حلول عام ٢٠٠٥ (الوثيقة الختامية ١٩٩٤).

٢ - وفيما يتعلق بالتدابير الحكومية الداخلية (الوثيقة الختامية ١٩٩٤)، فقد التزمت الدول الأعضاء بالزامات دولية تتعلق بتطبيق (١) للتدابير والوافسات الإلزامية على السلع. (ب) تقديم الدعم الحكومي للصناعات المحلية. (ج) اتخاذ إجراءات وطنية. (د) تدابير مكافحة الإغراق. (هـ) تدابير الاستثمار المتعلقة بالتجارة.

أ - المعايير والوصفات الإلزامية: إن للنظمة وضعت قواعد دولية تتبع استعمال «المعايير الإلزامية» بشكل يضر التجارة الدولية ويضع حواجز أمامها بشكل أن تستند (المعايير الإلزامية) إلى لوائح قنية ومعايير إنتاجية دولية ومعلومات ودلائل علمية دون الإخلال بمبدأ الدولة الأولى بالرعاية (MFN)، وكذلك مبدأ المعاملة الوطنية وعدم التمييز بين السلع الوطنية (NT) والأجنبية. والأشكال هذه «المعايير الإلزامية» حواجز أمام التجارة الدولية.

وفي مجال الإجراءات الداخلية وضعت للنظمة صوابك معايير الصحة العامة والصحة النباتية بشكل لا يميل لتقييد التجارة الدولية، ومعايير وجود أخطار على الصحة والحياة عند دخول منتجات مستوردة.

ب - الدعم الحكومي: لضمان تطبيق شروط المنافسة الدولية، فقد نظمت قواعد للنظمة شروط تقديم الدعم الحكومي للصناعات المحلية. إذ يعتبر الدعم والرسوم التعويضية التي تمنح بها الحكومات من المواضيع الأساسية التي نالت اهتماما متميزا من جانب الدول الأعضاء في النظمة. ولهذا الموضوع أهمية خاصة جدا بالنسبة إلى الصناعات الوطنية التي تحصل بدعم متميز. إن المناقشات العلوية والمستتعبة حول موضوع الدعم بدأت بهيئة طوكيو عام 1973، وانتهت بهيئة الأوروبي عام 1993 بحيث جاء الاتفاق بشكل عام لتسهيل:

- حظر استعمال الدعم الحكومي الذي يترك أثرا سلبيا على التجارة الدولية.
- عدم السماح في أيدي الأقاليم بزيادة مستويات الدعم على المستوى الذي كان سائدا عام 1986، مع حصة انتقال من ثلثت المبادرات مرحلة انتقالية في الممول العامة.
- إعطاء مزايا نسبية للدول النامية، وخاصة تلك التي يقل فيها نصيب الفرد من الناتج

القمي عن 1000 دولار سنويا.

وكذلك عند قسم الدعم الحكومي إلى نوعين:

• دعم مستورد: ويشمل:

- دعم التصدير الذي يؤدي إلى زيادة الصادرات من سلعة صناعية معينة، وهنا يحق للدولة المستوردة فرض رسوم تعويضية على مستورديها من هذا المنتج المدعوم.

- الدعم الذي يزيد على 7% من قيمة السلعة، ويسبب بالتالي ضررا للمصالح التجارية للدول الأخرى، ويجب على الدولة التي تقدم هذا الدعم وقفه، أو خفض رسوم تعويضية لمواجهة الأثار لهذا الدعم من قبل الدول المستوردة.

• دعم مسموح: ويشمل:

- دعما مسموحا لكن يحوز للتناهي حوله لأنه قد يسبب اضطرابا لفروع إنتاج دول أخرى.
- دعما مسموحا غير قابل للتناهي والمتعلق بدعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة بدون تمويل، وكذلك الدعم المقدم لتطوير الصناعات في المناطق الريفية والبعيدة والتي تحتاج إلى تطوير

والتموية، كذلك الدعم المقدم لانشطات البحث والتنمية، والبنية التحتية وتكثيف مرافق الإنتاج للتطابق مع متطلبات البيئة.

إن حظر الدعم يطبق على جميع الدول الأعضاء في المنظمة، مما يحقق للتدافس العادل بين جميع دول المنظمة، ويفتح الدعم المسموح الباب أمام البحوث والدراسات للتطوير، حيث إن نشطات البحث لا تعتبر نوعاً من الدعم الممنوع. مما يتيح للقطاع الخاص، ومنه القطاع الصناعي، تنمية البحث والتطوير التقني لرفع الكفاءة الإنتاجية، كما يتيح للحكومات الفرصة لتطوير وتنمية المناطق الجديدة وتقديم الدعم والعواطف للمستثمرين في هذه المناطق، مما يشجع على زيادة الاستثمارات ورفع مستوى العمالة وزيادة الدخل، وهذا ما يدخل ضمن تشجيع برامج التخطيط الإقليمي (Regional Planning) وخاصة في الدول النامية.

ج - التدابير الوقائية: حيث تسمح قواعد المنظمة للدول المستوردة بالحد من مستورداتها لفترة مؤقتة، وذلك كتدبير طارئ لمساعدة الصناعة المحلية، إذا أثبتت استناداً إلى أسس علمية وحقائق لا تقبل الجدل أن الصناعة المحلية أو أحد مروعها ونشاطاتها قد تضررت بسبب المستوردات من السلع المنافسة. وتستطيع الدول المستوردة أن تقوم بما يلي كتدابير وقائية:

ARCHIV

- زيادة الرسوم الجمركية.
- أو وقف الوافدا الجمركية الممنوحة للسلعة المنافسة.
- أو وقف الأسطول أو التخليص.
- أو وضع حدود كمية على المستوردات من السلع المنافسة.

وتتبع الدولة المستوردة هذه الإجراءات حسب الظروف وفي كل حالة على حدة مع ضرورة الالتزام بالشروط والقيود التي نصت عليها اتفاقية التدابير الوقائية، إلا أن هذه التدابير سيكون الحد الأقصى لسريانها هو أربع سنوات إلى ثماني سنوات اعتباراً من عام 1996.

وفي المقابل يمكن للدولة التي تضررت من اتخاذ التدابير الوقائية ضد ما أن تلجأ إلى جهاز تسوية المنازعات Dispute Settlement في حال اعتبار هذه التدابير الوقائية غير مبررة ولا تتوافق مع نصوص الاتفاقية.

يلاحظ أن اتفاقية التدابير الوقائية وجدت انموذج حماية كافية للقطاع الصناعي على وجه الخصوص بالنسبة إلى اللجان المحلية. وتحول دون التعرض للمنافسة غير العادلة من سلعة مستوردة معينة تكون سبباً في الإضرار بالصناعة الوطنية.

وما يجب الإشارة إليه أن اتفاقية التدابير الوقائية استثنت الدول النامية من الإجراءات، حيث لا يحظر استخدام هذه التدابير ضد صادرات الدول النامية ما دامت لم تتجاوز نسبة 3% من مستوردات الدول المستفيدة من سلعة أو سلع معينة، وهذه بعدد دالها مبررة للقطاع الصناعي وفرصة لدراسة الصادرات الصناعية للدول المتقدمة ومعرفة النسبة لكل سلعة بالنسبة إلى مستوردات الدول المتقدمة.

أثر اتفاقية منظمة التجارة العالمية

د - تدابير مكافحة الإغراق: أباحت اتفاقيات المنظمة للممول الأعضاء اتخاذ بعض التدابير الضرورية لمنع بعض السلع التي تدخل إلى سوق الدول المستوردة بأسعار تقل عن أسعار السلع لنفسها في الدول المصدرة لها، وبأسعار تقل عن تكلفتها الحقيقية، مما يؤدي إلى إغراق السوق المحلية للمول المستوردة. وتسمح اتفاقية مكافحة الإغراق بالتدخل لتدابير مضادة لآثار الضرر عن الصناعة الوطنية بسبب الإغراق. ومن هذه التدابير:

- فرض رسوم تعويضية على المستوردة من السلع التي كانت السبب في الإغراق وزيادة الرسوم الجمركية عليها بشكل لا يزيد على الفرق بين سعر السلعة المستوردة وسعر السلعة المماثلة في السوق المحلية للمصدر.

- الامتناع عن تقديم التعويضات الجمركية التي تكون الدولة المستوردة قد التزمت بها سابقاً، إلا أن لهذه الاتفاقية نصوصاً متعددة ملزمة للدول الأعضاء، وذلك حتى لا يستعمل بشكل سيئ نية هذه حماية المنتج المحلي من دون مورد.

إن هذه الاتفاقية تهدد القطاع الصناعي بشكل خاص، حيث تكفل الحماية من المنافسة غير المشروعة، وتشرط الاتفاقية أن يقدم طلب الإغراق من منتج محلي مضطرب وليس من جهة حكومية.

والملامح هي دول مجلس التعاون أنه لا يوجد قوانين لمكافحة الإغراق أو أجهزة متخصصة لمكافحة حالات الإغراق. وقد يكون ذلك سبب عدم وجود أساليب علمية يمكن أن تقتصر من الإغراق، هذا في السابق، أما اليوم فإنه من الضروري أن تصدر دول المجلس قوانين موحدة للإغراق، وتشكيل جهاز حكومي (على مستوى دول المجلس مع فروع له في كل دولة على حدة)، وذلك لتمهيداً لسلطة دول المجلس والقطاع الصناعي، ونشعر هنا إلى أن عدم وجود قانون وجهاز حكومي مختص بمحالات الإغراق لا يمنع قيام أي دولة أخرى عضو المنظمة من اتخاذ إجراءات مكافحة الإغراق ضد دول المجلس. إذا ثبت قيام أي دولة من دول المجلس بإغراق الدولة المستوردة (التيروكسماتيات مثلاً)، وهنا يحق للدولة، التي فرضت عليها إجراءات وتدابير مكافحة الإغراق، اللجوء إلى جهاز فض المنازعات في حال إثباتها أن هذه الإجراءات المتخذة ضدها غير عادلة، وأن سلعاها المصدرة لا تدخل ضمن مفهوم الإغراق. وهنا تظهر أهمية القوة التفاوضية والإقامة التام بقواعد وقوانين المنظمة وكيفية استخدامها وتقديم وثائق إثبات الضرر مستوفاة لشروط القانونية المطلوبة.

هـ - تدابير الاستثمار المصنعة بالتجارة: بما أن أعضاء المنظمة لم يستطيعوا التوصل لاتفاقية دولية متعددة الأطراف في مجال الاستثمار بالتجارة ومنه الصناعي، فقد اكتفت المنظمة من خلال الأعضاء على جولة الأوروغواي بوضع اتفاقية تدابير الاستثمار المتصلة بالتجارة والتي لها انعكاس واضح على المبادئ العامة لقواعد الجات (GATT)، حيث تقوم الدول هذه بفرض بعض

الشروط على المستثمرين الأجانب، وذلك حسب أولوياتها الوطنية. وحسب أنواع الاستثمار الأجنبي المراد استقطابه. وجاء اتفاق منظمة التجارة العالمية المعروف باسم TRIMs ليطرح على الدول الأعضاء إلغاء تدابير الاستثمار المتعلقة بالتجارة، والتي لا تتوافق مع قواعد الجهات (GATT)، وخاصة تلك المتعلقة بمبدأ «المعاملة الوطنية (National Treatment)». ولتأمين منع وحظر القيود الكمية. استناداً لذلك فقد جرى حظر بعض التدابير منها:

- إلزام المستثمر بشراء منتجات محلية بدلاً من المواد المستوردة (شرط المكونات المحلية).
- ربط شراء أو استخدام منتجات أجنبية بمحرم أو قيمة المشتريات المحلية التي يقوم المستثمر بتصديرها (متطلبات التوازن التجاري).
- ربط المستوردات بكمية أو قيمة الصادرات (قيود على الصادرات).
- ربط الصادرات بكمية أو قيمة الإنتاج المحلي (قيود على الصادرات).
- ربط الحصول من طرف المستثمر الأجنبي على القطاع الأجنبي بمقتضى ما يحتفظه من قطاع أجنبي.

ولاحظ أن جميع التدابير أعلاه ستؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على القطاع الصناعي للدول الموقعة على اتفاقية (TRIMs).

إن ما سبق أن قلناه من إجراءات وعقوبات عند الحدود والتأثيرات. وكذلك التدابير المنظمة الحكومية الداخلية تتعلق بالأحكام المتعلقة في شكل السوق. وسنبين أن تلك الضوابط على الأحكام الواردة في مجال الخدمات.

2 - أحكام منظمة التجارة العالمية في مجال الخدمات الاقتصادية: (١٩٩٤)

تعد اتفاقية الخدمات (GATS) من المخرجات المباشرة لمفاوضات جولة الأوروغواي. حيث لم يكن قطاع الخدمات ضمن مجال الجهات (GATT). واشتملت الاتفاقية على الخدمات المتعلقة بالتجارة. وقسمت الخدمات إلى ١٢ قطاعاً رئيسياً وما يقارب ١٥٥ قطاعاً فرعياً شملت العديد من النشاطات التي لها علاقة بشكل مباشر أو غير مباشر بالقطاع الصناعي. مثل الخدمات المالية والنقل البحري والجوي والاتصالات والسياسة والخدمات الفنية... إلخ. وقد قدمت دول مجلس التعاون الأعضاء في المنظمة ومنها الكويت التزامات في هذا المجال. لقد ألزمت الدول الأعضاء هذه الأحكام الخاصة بالخدمات بقواعد عامة يجب تطبيقها على جميع الدول وجميع القطاعات الخدمية وفق أشكال التوريد الأربعة للخدمات وهي:

- التوريد عبر الحدود.
- الاستهلاك خارج الحدود.
- الوجود التجاري.
- التنقل المؤقت للأشخاص الطبيعيين.

• القواعد العامة للاتفاقية:

- مبدأ الدولة الأولى بالرعاية الذي يتطلب عدم التمييز بين موردي الخدمات المحلية والأجانب فيما يتعلق بالتدابير والإجراءات التي تنظم عملية تجارة الخدمات.
- مبدأ الشفافية الذي يتطلب إعلان اللوائح والتشريعات التي تنظم تجارة الخدمات في الدول الأعضاء، وإقامة مكاتب إعلام مفتحة تقدم للمتعاملين الأجانب استفسارات وتوضيحات عن اللوائح والتشريعات المحلية والشروط اللازمة من كفاية وتسهيل لتقديم كل نوع من أنواع الخدمات التي تلتزمها الاتفاقية، خاصة في الدول النامية التي تفتقر إلى نقاط الاتصال هذه.

- الترتيبات الثنائية أو الجماعية بهدف الاعتراف بالتبادل والتسهيلات اللازمة للحصول على تراخيص لتقديم الخدمات بما يسهل على الموردين الأجانب تقديم الخدمة.

• القواعد الخاصة للاتفاقية:

- قواعد انتقال السوق وتطبيق مبدأ المعاملة الوطنية حصراً في القطاعات الخدمية التي تختار الدولة فتحها للأجانب.

- هي حال قرر من شروط على القطاعات الخدمية المراد تحريرها (وهذا مسموح به في قواعد الاتفاقية) في هذه الشروط أو القيود يجب أن تكون نفسها بالنسبة إلى الموردين المحليين والموردين الأجانب.
- قيود على المشاركة في رأس المال وخاصة بالنسبة إلى الشكل الثالث من توريد الخدمات الذي يعتمد على الوجود التجاري في الدول الأجنبية.

- وبالنسبة إلى قطاع الخدمات في دول المجلس فإن له علاقة كبيرة غير مباشرة مع القطاع الصناعي، وخاصة أن القسم الأعظم من قطاع الخدمات يقوم به القطاع الخاص، وإن قيام الاتحاد الجمركي بين دول المجلس سيمكن من امتداد هذه الخدمات واتساعها وتبادل الزايا بين دول الاتحاد من دون امتدادها إلى الدول الأعضاء الآخرين من خارج دول المجلس، إلا أن على دول المجلس أن تقدم عدداً من التزاماتها في القطاعات المناسبة لها لتستفيد منها سواء محلياً أو الاستفادة من الالتزامات التي تقدم بها الدول الأخرى.

3 - أحكام منظمة التجارة العالمية في عهد -عالم الفكر- الفكرية للقطعة بالزيادة والتعددية بين الدول

1994، الفصل 2، المادة 4، اتفاقية التجارة العالمية (WTO)

- قد تكون الأحكام الواردة بخصوص حقوق الملكية الفكرية ذات اتصال مباشر بالتجارة وهذا ما يدل عليه مصطلح (TRIPS)، إلا أن هذه الأحكام علاقة غير مباشرة بالقطاع الصناعي وخاصة عندما تتناول إجراءات الاختراع والتماذج الصناعية ومخططات التصميم والمعلومات السرية التي تدخل من ضمنها المعلومات السرية الصناعية.

لقد جاء الاتفاق الخاص بحماية الملكية الفكرية لوضع معايير الحد الأدنى اللازم لحماية حقوق الملكية الفكرية، ووضع الإجراءات اللازمة لضمان احترام هذه المعايير وحسن تنفيذها. كما وسعت آلية المشاور والمراقبة على مستوى دولي لضمان الاحترام والتطبيق على المستوى المحلي، إلا أن قواعد الحماية وضع لها بعض الاستثناءات لجنبها للتقص في استعمال الحقوق من قبل أصحابها ويهدف إيجاد نوع من التوازن بين أصحاب الملكية الفكرية من جهة والمستفيدين منها من جهة أخرى.

وستعكس نتائج تطبيق هذه الاتفاقية على الأسعار، إذ ستتراجع السلع المقلدة وسترتفع أسعار السلع الأساسية، إلا أن تطبيق قواعد الاتفاقية سيؤدي إلى دعم حل الابتكار والتعديـد ونقل التقنية والإبداع فيها، وسيترجم ذلك بحماية المستهلكين وتطوير التجارة الدولية من سلع صناعية وغيرها، وكذلك الخدمات، لذلك فمن الضروري أن يتابع القطاع الصناعي تطورات هذه الاتفاقية وتطبيقاتها، لما لذلك من أبعاد وانعكاسات على الأسواق الوطنية والدولية في تصريف السلع الصناعية.

8- إجابة السؤال الثانية: ضرورة النزاعات :

أثر الاتفاقية الاقتصادية : مجالات النزاعات (3)

وضعت منظمة التجارة العالمية تقييماً شاملاً ونسوية النزاعات من خلال جهاز فض النزاعات (DSB)، حيث يمكن لأي دولة عضو في المنظمة التقدم بشكوى ضد أي إجراء تتخذه دولة أخرى عضو فيها، يؤدي إلى ضرر لأي من النشاطات الاقتصادية للدولة المتضررة.

إلا أنه، وإن كانت الدولة المتضررة ستتقدم بالشكوى لجهاز فض المنازعات، ستكون هذه الشكوى في الأساس مقدمة من قبل القطاع الخاص الاقتصادي للمتضرر الذي قد يكون القطاع الصناعي أو غيره.

إن آلية نسوية النزاعات وضعت لحل الخلافات التي قد تنشأ بسبب إخلال إحدى الدول بالتزاماتها أو بسبب التحويل الداخلي لأحكام الاتفاقيات الدولية الوفقة داخل إطار المنظمة، ويحل الخلاف إما بالمفاوضات بين الأطراف المعنية، أو التحكيم، أو التقاضي في إطار الأجهزة المتوافرة وحسب النواهد والإجراءات المنصوص عليها في مذكرة التفاهم الخاصة بنظام نسوية المنازعات.

ويتضح أن للقطاع الخاص الصناعي دوراً أساسياً في استعمال الدولة لآلية حل النزاعات. كما أن الطلب القضائي المطروحة أمام جهاز فض النزاعات يكون القطاع الخاص الصناعي حقيقة، حيث إنه المتضرر الرئيسي من عدم احترام الاتفاقيات الدولية أو الإخلال بها أو تأويلها بشكل خاطئ، ويكون من المتعذر جدا على أي دولة إثبات الضرر من دون أن يثبت إليه أو يتقدم به القطاع أو النشاط الاقتصادي الخاص للمتضرر.

أثر الاندماج منظم التجارة المالية

ورغم أن اتفاقيات منظمة التجارة العالمية لا تمنع من التفاوض حول النقاط باعتباره من السلع التي تدخل في التجارة الدولية (هلال، ١٩٩٩).

- ارتفاع أسعار بعض السلع والخدمات بسبب تطبيق إجراءات اتفاقية حماية الملكية الفكرية (UNDP 1999).

- الأضرار الناجمة في القطاع المالي والمصرفي بسبب المنافسة عبر الحدود التي ستعجز عن الإمكانات غير المتكافئة بين المؤسسات الوطنية والمؤسسات المالية الأجنبية.

بعد الاتفاقية:

انطلاقاً من أن الكويت كانت أول دولة عربية انضمت إلى اتفاقية الجات عام ١٩٧٢، كما انضمت كعضو في منظمة التجارة العالمية بتاريخ ١٥/١/٩٤ تاريخ التصديق على الوثيقة الختامية لجولة الأوروغواي والتي تحولت إلى منظمة التجارة العالمية W.T.O في ١/١/١٩٩٥، فإن الكويت أصبحت مطالبة بضرورة الالتزام والوفاء بمتطلبات الانضمام للمنظمة ومنها (وزارة التجارة والمساواة، من دون تاريخ).

- تقديم التزامات بتحديد الحد الأدنى للامتياز الجمركية على قائمة السلع والخدمات التي تشكل تجارتها الخارجية، وهي ما قامت الكويت بتقديمه، حيث وضعت سقفها في الحد الأدنى وهو ١٠٠٪ على الرغم من تطبيق هذه النصوص على أي من السلع المستوردة.

- إلغاء الدعم الترخيصي القديم للقطاعات الوطنية ومن الحدود الزمنية المحدد وخاصة الدعم القديم في مجال الطاقة.

- فتح الأسواق أمام السلع المستوردة.

- إجراء تغييرات جذرية في الأنظمة والتشريعات والقوانين التجارية بما يتواءم مع متطلبات الاتفاقيات الدولية.

- معالجة الخلل في هيكل التجارة الخارجية لسولة الكويت.

والأصل أن يلتزم الدول أعضاء المنظمة بالتطبيقات أعلاه وعند انضمامها إلى المنظمة، إلا أن الدول النامية أعطيت فترات انتقالية لتوحيق توصياتها، وقد كان هناك محاولات لإدراج الكويت ضمن الدول المتقدمة استناداً إلى معدلات الدخل الفردية فيها فقط بحرماتها من فترات السماح الانتقالية الممنوحة للدول النامية (الإسكوا ١٩٩٢).

ج- الدعم الصناعي والآثار الاقتصادية الدولية للصناعة:

من المعلوم أن الصناعة الكويتية تتمتع بلوجه عديدة من الدعم الحكومي متخطلاً في:

- خدمات البنية الأساسية في الدولة، وهذه الخدمات لن تتأثر حتى ويمكن التوسع فيها بما يكفل رفع كفاءة الصناعة الوطنية.

- العون الفني والمساعدة في مرحلة ما قبل الاستثمار. ويطلق (إنشعاق) في تقديم المساعدة في مجال دراسات فرض الاستثمار. وكذلك في مساعدة الحكومة في بعض نفعات دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروعات الصناعية. إن التشجيع لقانون الصناعة الكويتي لا يجد نصاً صريحاً يشير إلى مساعدة المستثمرين في تحديد فرض الاستثمار الناجمة. وإن كانت المادة (١٥) تشير إلى إمكان الاستثمار الحصول من وزارة التجارة والصناعة على معلومات وبيانات إحصائية وخارطة قلبية ودراسات متعلقة بصناعة معينة لهم صاحب المشروع بشروط توأمرها لدى الوزارة.

كما نصت المادة (١٦) بأنه يجوز للدولة أن تساهم مادياً في نفعات الدراسة والبحوث للمشروعات الصناعية الحديثة. وذلك للتأكد من الجدوى. وبناء على توصية لجنة تنمية الصناعة وموافقة الوزير. وفي حال نجاح المشروع يتكفل صاحب المشروع بكامل النفعات وفي حال الفشل تتحمل الدولة نصف التكاليف.

إن هذا النوع من العون أيضاً يعتبر من الدعم غير المحظور. ويبنى موضوع التفاسي فيه مجال نقاش فيما إذا أمنت دولة ما أن هذا العون يشكل ضرراً لها.

- إنشاء المدن الصناعية وتوفير الخدمات بأسعار مدعومة - أجاز قانون الصناعة فالفك المشروع الصناعي التقدم بطلب تخصيص قطعة من الأراضي المخصصة للصناعة. وذلك إلى وزارة التجارة والصناعة. ويطلب (أمر) إما تقديم الحكومة بأموال تشجيعية كلاً من الكهرباء والماء والغاز. ووفقاً لالتزامات الكويت تجاه المنظمة العالمية في يكون هناك اعتراض على إقامة المدن والمناطق الصناعية في حد ذاتها، بل على وسائل الدعم المتوفرة داخل هذه المناطق.

- الدعم المالي والقروض والتسهيلات المالية الميسرة:

لقد أشار قانون الصناعة إلى أن لأصحاب المشروعات الصناعية افضلية الحصول على قرض من بنك الكويت الصناعي بعد موافقة وزير المالية ووزير الصناعة ويحدد البنك شروط القرض وقيمه ويسمى الفائدة وفترة السماح وفترة السداد. وبمقتضى التفاسيات المنظمة يجب إعادة النظر في هذا النوع من الدعم مما يضطر المستثمرين الصناعيين للاقتراض بيسر السوق. وهذا سيؤدي بالضرورة إلى زيادة تكاليف الإنتاج وإضعاف القدرة التنافسية للمنتج الوطني من جهة أخرى.

- الإعفاءات الضريبية والجمركية:

حيث تتمتع بعض السلع المستوردة بإعفاء من الرسوم الجمركية كأحد حوافز التصنيع. وكذلك إعفاء الصادرات من الرسوم والضرائب معاً بقوي القدرة التنافسية. وقد وضعت الكويت ضريبة جمركية بمعدل ٥٪ على المستوردة. وإعفاء المستوردة الصناعية من المعدات والآلات والمواد الأولية من الرسوم الجمركية.

أثر اتفاقيات منظمة التجارة العالمية

وفي مجال الاتفاقيات الدولية فمن غير المنتظر أن تفلح الصناعة الكويتية هذه المرة بحكم أن شروط الكويت هي $(X_{100} + X_{10})$.

- الحماية الجمركية للمنشآت الوطنية، حيث وضعت الحكومة إجراءات حماية للصناعة المحلية بوضع نسبة معينة للتعرفة الجمركية X_{10} لبعض المواد و X_{20} لباقي المواد، ومنع أو حظر استيراد مواد ومنتجات تكون متنافسة محليا. إلا أن هذه الإجراءات ستقتطع فعاليتها مع نهاية الفترة الانتقالية الممنوحة للكويت لإنهاء إجراءات الحماية وفق متطلبات الاتفاقيات المنظمة.

- الأفضلية في المشتريات الحكومية

نصت المادة (18) من قانون الصناعة على إعطاء الأفضلية في المشتريات الحكومية لمنتجات الصناعة المحلية بشرط تماثلها مع المنتجات الأجنبية من حيث الجودة والسعر المماثل. وكذلك قرار مجلس الوزراء في ١٩٨٢/٧/٢ الذي أعطى الأفضلية للمنافسات الحكومية للمنتجات المحلية للمطابقة للمواصفات المطلوبة في حال عرض سلع مستوردة مماثلة للمحلية. وذلك دعما وحماية للإنتاج المحلي. كما يمكن في منافسات التوريد إعطاء الأولوية للمطابقات المحلية. حتى لو زادت 10% على أدنى سعر لمنتجات مستوردة مماثلة.

ولتطبيق مبدأ عدم التمييز بين السلع المحلية والأجنبية ومبدأ الدولة الأرض بالبرصاية، فإنه مسموح على الكويت وفقد العمل بهذا النوع من الدعم أو تخفيضه لترويجها حسب الحد الزمنية الممنوحة، مما يبرهنه هذا التأكيد. مع الإشارة إلى أن الكويت لم توقع بعد على اتفاقيات المشتريات الحكومية لدى منظمة التجارة العالمية، حيث إن هذه الاتفاقيات غير ملزمة للدول الأعضاء في WTO للانضمام إليها.

أخيرا، الخلاصة: التحديات والفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي

♦ التحديات أمام القطاع الصناعي، (الهوية العامة للصناعة، من

دون تاريخ)

١- من خلال ما استعرضناه سابقا، وخاصة في مجال الدعم الحكومي، فإن مطالبة المنظمة بإزالة الدعم لترويجها تشكل تحديا كبيرا للصناعة الوطنية على رغم أن الكويت غير مطالبة بإزالة الدعم الحكومي عن الصناعات المحلية بشكل فوري، بسبب أن الكويت قد صلت ضمن الدول النامية كما أسلفنا، مما يعني أن هناك مهلة تصل إلى تسع سنوات (ابتداء من عام ١٩٩٥) لإزالة الدعم نهائيا.

إلا أن مهلة السنوات الضعيف للالتزام باتفاقيات مجموعة من النصوص والالتزامات القانونية التي قد تمنح الاستفادة من كامل المدد خصوصا في الصناعات الوطنية ذات القيمة التنافسية الكبيرة كالبترولكيماويات، وكذلك صناعات مشتقات البترول التي تعتمد بشكل أساسي على الطاقة في عملياتها الإنتاجية. إن هذه الصناعات بمشروطين (نظريا) أن

لتفتح أمامها أسواق الدول المتقدمة في أوروبا واليابان، (أو الصين حالياً بعد انضمامها إلى منظمة رسمياً في نوفمبر 2001)، إلا أن هذه التسهيلات تطعج حالياً، وبشكل فعلي، لنظام الحصص والقيود حماية متعددة، ويستبقى هذه الدول مستمرة بنوع أشكال حماية غير مسموحة أو غير متوقعة من قبل دولة الكويت. فقد تلجأ إلى مبدأ مكافحة الإغراق أو غيره ما دامت لديها قوة لمواظبة كبيرة، ومعركة تامة بعمليات ودقائق بنود الاتفاقيات، ويظهر التحدي هنا مرة أخرى أمام الصناعة البتروكيمياوية الكويتية متمثلة في ضرورة رفع القدرة التنافسية والإتمام التام بنود الاتفاقيات، إن هذا التحدي لا يمكن مجادلته على المستوى الكويتي الوطني فقط، بل لا بد من أن يجابه على مستوى دول مجلس التعاون من جهة وعلى مستوى الدول النامية الأخرى ذات المصالح المشتركة والتي لها مزايا نسبية في الصناعات البتروكيمياوية من جهة أخرى. (بن عبيد، 2005).

2- تتعرض الصناعة الوطنية الكويتية بسبب اتفاقيات المنظمة لتعدد مزيج آخر يتصل من جهة في إمكان خسارة جزء كبير من السوق المحلية التي مستفح أمام المستوردات الأجنبية من دون قيد أو حماية، وذلك بعد انتهاء الفترة الانتقالية المشار إليها أعلاه، وعلى رغم أنه من جهة أخرى وفي المقابل فإن القدرة التنافسية قد لا تكون قوية بشكل كاف لاسترقاق تلك الأسواق، وخاصة على المدى القصير الذي يتطلب إعادة هيكلة القطاع الصناعي.

3- ناهية أخرى تستلزم أن تقوم الحكومة الكويتية بإعادة إزالة الدعم عن الصناعات الوطنية بأن ترفع نسبة الرسوم الجمركية المطبقة حالياً وهي 21% إلى نسب أعلى وتقع ضمن صفوف الاتفاقيات المحددة سابقاً وهي (21.0 = 21.5) كإعرايات حماية مسموحة ما دامت ضمن صفوف الاتفاقيات، إلا أن ذلك قد يحسب مستلزمات الإنتاج، مما يعني زيادة تكاليف الإنتاج وفقدان جزء من القدرة التنافسية، أي أن صفوف الاتفاقيات سلاح ذو حدين، والتحدي يكمن في كيفية استبعاد هذا السلاح بشكل يؤدي إلى خفض منافع ممكنة وأقل التكاليف (الخصائر) على الصناعة الوطنية.

4- في مجال الرسوم المالية والتضامنية، فإن توقعات الزيد من تحرير تجارة السلع الصناعية لا بد من أخذ بعين الاعتبار عند وضع استراتيجيات القطاع الصناعي الكويتي، حيث إن الرسوم الجمركية رغم تخفيضها ورميها (لتبسيطها) هي عدد من القطاعات الاقتصادية، إلا أن رسومها عالية وتضامنية ما زالت تعيق الصادرات الصناعية للدول النامية ومنها الكويت.

5- هناك تحدٍ كبير آخر يتعلق بالاتفاقيات الصناعية على مستوى دول مجلس التعاون، والاتفاقيات الإقليمية تلعب دوراً أساسياً في العلاقات التجارية الصناعية الدولية، لقد تعدت الاتفاقيات الصناعية في دول العالم، وما لم تكن أهداف هذه الاتفاقيات متعارضة مع

أثر اتفاقية منظمة التجارة العالمية

اتفاقيات المنظمة، فإن المنظمة تسمح بإنشاء وتطوير هذه التجمعات الاقتصادية. وقد سمحت قواعد المنظمة بإمكان تباين الأمثلات الجمركية والتجارية فيما بين أعضاء التكتلات أو الاتحادات الإقليمية من دون منحها على دول أخرى خارجها. وذلك استثناء من مبدأ الدولة الأولى بالرعاية MFN. إن لهذا البعد انعكاسات مهمة على القطاع الصناعي الخليجي عامة والكويتي على وجه الخصوص (البنك الإسلامي للتنمية، ٢٠٠١). إذ يتطلب الأمر أن نوضح الاستراتيجية على مستوى دول المجلس، وحتى على مستوى دول أخرى ذات مصالح مشتركة.

كما أن الاتحادات الإقليمية على مستوى دول المجلس تشكل مصمرا أساسيا في توسيع الأسواق وتخفيض القيود على الاستثمار والتصدير وتوحيد القواعد والأنظمة، وتحقيق التكامل الصناعي الخليجي بدلا من التنافس. إلا أن المشكلة تكمن في إيجاد التوافق والتسيق بين السياسات الصناعية الإقليمية من جهة والدولية من جهة أخرى وفي إطار الاتفاقيات الدولية للمنظمة WTO.

٦- أيضا لدى القطاع الصناعي الكويتي تحد آخر يتعلق بالمعايير الإلزامية والاختيارية التي تضمنتها اتفاقيات المنظمة. حيث تلعب المعايير والوائح الفنية والوصفات دورا أساسيا في نقل السلع الصناعية الكويتية إلى الأسواق العالمية. على رغم أن اتفاقيات المنظمة الخاصة بكل من نظام الجواز الفنية لتجارة TBT وكذلك اتفاقية تدابير الصحة والصحة النباتية، قد وضعت قواعد لتج تحقيق هذه المعايير والوائح الفنية لتبديد أمام التجارة الدولية، فإنها قد تستعمل لإعاقة تداول السلع الصناعية الوطنية. أي أن التحدي يكمن في تطوير وسائل الإنتاج والمعرفة التامة بتأسيس تلك المعايير في إطار قواعد المنظمة مما يساعد على وضع خطط التفاعل إلى السوق من دون فقدان القيمة النسبية للصناعات الوطنية، بمعنى أن تحسين جودة المنتج وفق المواصفات الدولية لنظم الجودة يعتبر من أبرز التحديات التي ستواجهه الصناعات الكويتية (منظمة الخليج، ٢٠٠٠).

❖ ❖ ❖ الفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي

١- يعتبر المخرج في رفع الدعم عن الصناعات الوطنية (على مدى تسع سنوات) دافعا لتحويل الصناعات لأوضاعها مع اللطيفيات المقررة الجديدة، وسما لتراجع أوضاعها ومزاياها التنافسية.

٢- فرض دخول الصناعات البشروكيمياوية والصناعات الأخرى ذات المزايا النسبية للأسواق الأجنبية، بسبب تخفيض أو إزالة القيود المفروضة عليها حاليا، وضرورة معرفة كيفية إثبات الضرر في حال بقاء هذه القيود أو بعضها أمام الصناعات الوطنية.

٣- إن الانضمام للمنظمة يعني فتح الأسواق المحلية أمام للقطاعات الأجنبية مما يؤدي إلى شدة المنافسة التي قد تدفع لرفع الكفاءة الإنتاجية للصناعة الوطنية وتحسين الجودة فيها.

- 1- تطرقنا سابقاً إلى أن العضوية داخل المنظمة تعطي الحق لاستخدام أية مكالمة الإخراق، مما يعطي فرصة لحماية الصناعة الوطنية من عمليات الإخراق، لكن هذه الفرصة مشروطة بالمعرفة التامة لشروط إثبات الضرر.
- 2- أمام القطاع الصناعي فرصة أخرى هي استغلال ميزة موقع الدولة الجغرافي وقربها من السوق الإيراني، وكذلك السوق العراقي الكائن والمترقب، وكذلك الاستقرار السياسي والقوي، وهذه عوامل تعطي ميزة تنافسية للصناعة الوطنية.
- 3- من الضروس المعقدة أيضاً، ولتفتح أسواق خارجية، فرصة استخدام منتجات الصناعة الوطنية كجزء من برامج الإعانات الخارجية، وخاصة الهيئات وهذه من المواضيع التي تعتبر كعدم فهم محظور، وحتى إن كان قسراً للتناضي - إلا أن إثبات الضرر فيه يكلفه الكثير من الصعوبات.
- 4- ضرورة التعميق بين النشاطات الصناعية على مستوى دول المجلس من جهة ومع تكتلات اقتصادية عالمية أخرى، مما يعطي قوة وميزة تفاوضية أكبر، وإذا ما كانت القوة التفاوضية موسعة مع تكتلات عالمية فهذا ما يفتح الأطراف التفاوضية صفحة الحموضة الاقتصادية ذات الطبيعة التبادلية الماحية (داخل التجميع) وليس دولية، أي تخرج عن إطار الدولة الأولى بالرعاية، (مصرف الإمارات الصناعي 2001).
- إلا أن ما سبق من فرص يعرض على دول المجلس الأبراج بالوسائل الإحرائية التالية:
 - الاتفاق على التمررة الجغرافية الطبيعية الموحدة والإخراق بالعملة منطقة تعارة حرة (التوقيع إقامتها عام 2002).
 - الانطلاق على هيئة مشترك لعضلات دول المجلس كخطوة على طريق الوحدة النقدية.
 - السماح بحرية نقل رؤوس الأموال وتلك الأسهم (يدأت بعض دول الخليج بتطبيقها).
- ختاماً نقول إن الاتفاقيات الدولية في إطار منظمة التجارة العالمية WTO ليست الحل الأمثل لمحوري مشاكل القطاع الصناعي الوطني ما دامت هذه الاتفاقيات لم تدرس معقول وبطء شديد، كما أنها في الوقت نفسه ليست الشر المستطير ما دام متخذو القرار في القطاع الصناعي (الصناعيون - واتحاد الصناعيين - وغرف التجارة والصناعة) قاموا بالدراسة التفصيلية لما يهمهم من مواد لاتفاقيات المنظمة والهيئات تطبيقها بشكل توحي متخصص حسب كل نشاط صناعي على حدة.

الاقتصاد السياسي البطالة

تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية المعاصرة

تأليف: د. وعزيز زكي (*)

عرض وتقديم: د. عباس الجرنج (**)

تقديم:

صدر كتاب الاقتصاد السياسي للبطالة
لأخيه الأستاذ الدكتور وعزيز زكي ضمن
سلسلة «عالم المعرفة» وهي سلسلة الكتب
النشائية الشهيرة التي تصدر عن المجلس
الوطني للثقافة والفنون والآداب في شهر
أكتوبر عام 1407. ويبلغ الكتاب في نحو 500
صفحة من القطع الصغير، ويتضمن ثلاثة
أبواب رئيسية هي:

الباب الأول: مشكلة البطالة في عالم اليوم.

الباب الثاني: تفسير البطالة في
الفكر الاقتصادي.

الباب الثالث: الخروج من مأزق البطالة.

ويضم كل باب من هذه الأبواب حزمة من البحوث أو المقامات تبدأ بعد البحث الأول
وعنوانه: البطالة، معناها، قياسها وأنواعها. وهذه البحوث التي تتقدم كل حزمة منها في كل
باب مقدمة تمهيدية معروضة على النحو التالي:

أولاً: مباحث الباب الأول. وهي أربعة تعرض لشكليات البطالة في البلدان الصناعية
الرأسمالية. والتمويل التي انتقلت من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي، والبلاد النامية.
ثم البلاد العربية.

(*) كان أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة وعزيزاً اقتصادياً في الكويت.

(**) دكتور الاقتصاد - كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت.

البيداغوجيا المعاصرة

ثانياً، مباحث الباب الثاني، وهي ثمانية ويتناول كل منها أحد الموضوعات النظرية التالية: تفسير البطالة في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، تفسير البطالة في الفكر الماركسي، تفسير البطالة عند التوبولوجيا، تفسير البطالة في المدرسة الكينزية، نمذجة النمو الكينزية ومشكلة البطالة، التطورات الحديثة في تفسير البطالة، سموم وهبوط منحني فيليبس، والتفسير التكنولوجي للبطالة.

ثالثاً، ضم الباب الثالث مبحثاً واحداً استعرض فيه عدد من المحاور تحت عنوان رئيسي تضمن تسليلاً مهماً، تحدي أزمة البطالة: هل يمكن العودة إلى هدف التوظيف الكامل؟ وتضمنت محاور هذا المبحث ما يأتي:

أولاً، حساس الحوار حول تجاوز أزمة البطالة، حيث استعرضت وجهات نظر كل من مدرسة شيكاغو، مدرسة اقتصاديات جانب العرض، مدرسة التوقعات الرشيدة، المدرسة المؤسسية، ووجهات نظر الكينزيين الجدد.

ثانياً، الحلول المعالجة المطروحة لعلاج البطالة، حيث استعرض المؤلف ثلاثة حلول هي: الارتياح بمعدل النمو الاقتصادي، خفض تكلفة العمل، وتعديل ظروف سوق العمل، ثم تحدثت عن الحاجة إلى هيئة دولية مواتية.

ثالثاً، معالجة أزمة البطالة في البلاد النامية، حيث جرى تصنيف المواجهة إلى نوعين من الإجراءات، الإجراءات الفورية للأجل القصير، وإجراءات الأجل الطويل. واختتم الكتاب هذه المواجهة بحلقة منفتحة مفتوحة من التساؤلات المميّلة التي مازالت تشغل الأجيال.

المؤلف:

والكتاب علم من أعلام الاقتصاد السياسي، وهو حائز على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية من ألمانيا في عام ١٩٧٤، وعلى جائزة الدولة في الاقتصاد والمالية العامة، ووسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى من جمهورية مصر العربية في عام ١٩٩٤، وكان مستشاراً في البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة UNDP، وعمل مستشاراً في وزارة التخطيط في الكويت وأستاذاً في جامعة الكويت، وله نحو ٢٦ مؤلفاً في قضايا التنمية الاقتصادية والاقتصاد الكلي... ويعالج كتابه «الاقتصاد السياسي للبطالة» واحدة من أخطر المشكلات التي تواجهها مختلف بلدان العالم المتقدمة منها والنامية، على حد سواء، وهي مشكلة البطالة التي وصل عدد المتضررين تحت ترميزها إلى ما يقرب القهار شخص.

ويحاول الكتاب فحص مسببات هذه المشكلة ويبحث الأفكار والنتائج الاجتماعية والمؤسسية الخطيرة التي لترب عليها، ويحاول البحث عن مخرج من مازق البطالة، ويحدد الشروط اللازمة لذلك.

توطئة :

ويهدد التراث لكتابه بتوطئة جميلة يشهر فيها إلى قصاصة صحافية عثر عليها هي النعسا أثناء مهمة علمية. وكانت السبب وراء انشغاله الطويل بمشكلة البطالة في العالم. تقول القصاصة:

موت طفل صغير أمام والدته وهو يرثى من قسوة البرد في أحد أيام شتاء عام ١٩٢٩، وسألها ببراءة: لماذا لا تذهبتين المنزل يا أمي؟ قالت الأم: لأنه لا يوجد لدينا فحم للتدفئة يا ولدي. فسألها الطفل: ولماذا لا يوجد فحم بالتrolley؟ أجابت الأم: لأن والدك مشغول عن العمل. وعاد الابن يسألها: ولماذا يشغل أبي عن العمل؟ قالت الأم: لأنه لا يوجد فحم كثير بالأسواق يا ولدي.

مقدمة الكتاب :

المبحث الأول : البطالة : معناها، قياسها، أنواعها

في هذا البحث يشير الكاتب إلى ما استقر عليه رأي الاقتصاديين والخبراء بشأن تعريف البطالة عن العمل وهو «كل من هو قادر على العمل» ورأى فيه، ويبحث فيه ويشبهه عند مستوى الأجر السائد

ولكن دون جدوى، ثم يعرض البحث لـ **مفهوم** معدل البطالة، ويشير إلى عدم نجاسة ضلالت البطالة عن العمل، ثم يتناول إلى **تعداد** أنواع البطالة، حيث يعرف البطالة الدورية والبطالة الاحتكاكية والبطالة الهيكلية، ثم يميز بين البطالة المباشرة والبطالة الخفية، وبين البطالة الاختيارية والبطالة الإجبارية، ويعرف بعد ذلك معنى مصطلح التوظيف الكامل، وما يضيء معدل البطالة الطبيعي، ثم يفرز جزءا لعرض مشكلة إحصاءات البطالة.

المبحث الثاني : البطالة في البلدان الصناعية الرأسمالية : تعالينا نعرض بداية مختصرة

يعرض البحث الثاني للتحفة التي انتقل فيها العالم الصناعي من مرحلة النمو التزدهر والاستقرار الذي حقق التوظيف الكامل بعد الحروب العالمية الثانية إلى مرحلة الأزمة الاقتصادية المستمرة التي بدأت في عقد السبعينات، حيث حل عصر «البطالة المستمرة» ويستعرض البحث أهم التغيرات التي أدت إلى مشكلة البطالة وهي: تحول نظام النقد المرن وما تبع ذلك من هبوط في أسواق النقد الدولية، الصدمات النفطية، الزيادة وزن أوروبا واليابان على حساب الولايات المتحدة، وما أدى إليه ذلك من ظهور عناصر الصراع والتوتر، تعاطف دور التمويل والعولمة، اضطراب حالة السيولة الدولية بسبب ابتعاث أسواق المال العالمية، تقلص علاقات المحرر والفائض بين الدول النامية والدول الصناعية، التغيرات العامة الانتكاشية، وشيوع ظاهرة الخصخصة، وخلص هذا البحث إلى القول بأن مشكلة البطالة سارالت هي المشكلة الأولى التي نههد بالمحار الوضع الاقتصادي والصناعي في البلدان الصناعية.

المبحث الثالث : البطالة في الدول التي كانت اشتراكية : هذا البحث يوضح في البداية البطالة

بأنه هذا البحث الأشخاص على واقع البطالة في الدول التي شهدت عملية انتقال من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي في فترة التمهيد. وهو واقع يشهد بالفساد وبشكل مشكلة ضخمة وخطيرة لهذه الدول. ويستنتج الكاتب أن هذه المشكلة تشكل مازة ضاعها وقعت فيه شعوب هذه الدول. حيث فشلت ديمقراطية الاشتراكية في مجالات ضمان الاجتماعي والأمن الوطني والعملية الاجتماعية ولم تحصل على ديمقراطية الرأسمالية في مجال الاستهلاك.

المبحث الرابع : البطالة في البلاد النامية : إننا نلاحظ التنمية والتقدم الاقتصادي الخارجي

يعرض هذا البحث أسباب البطالة في البلاد النامية. وهي مقدمة النمو السكاني السريع مقارنة بالنمو الاقتصادي. ثم يعرض أهم ملامح البطالة في هذه البلدان. وهي ملامح قاسية وتزداد قسوة عبر الزمن بسبب ثغري الأوضاع الاقتصادية وتراجع جهود التنمية وضعت الدور الحكومي. نظرا عن آثار وياح العولمة وضغوط برامج التثبيت والتكيف الهيكلي التي تفرضها المنظمات الدولية مثل صندوق النقد الدولي. والبنك الدولي. ويضيف الكاتب إلى كل ذلك ما تنصير له أنظمة الضمان الاجتماعي في البلاد النامية من صعوبات وتراجعات. توافقت مع تزايد موجات البطالة وسبلات تسريح الموظفين من مشروعات القطاع العام.

المبحث الخامس : البطالة في البلاد العربية : إننا نلاحظ عدم الخط

يشهد هذا البحث أن البطالة في البلاد العربية إلى مجموعة من الأسباب العربية النفطية والبلاد غير النفطية. ويعرض لشروط التوظيف والمشكلات الاقتصادية في كل من هاتين المجموعتين. ويخلص البحث إلى حقيقة مفادها تدهور أوضاع المتصلين من العمل في البلاد العربية غير النفطية. تحت تأثير هتذان الدخل وفرض التشغيل. وتأثير الاتجاه التصاعدي لأسعار السلع والخدمات. وزيادة الصراف غير المباشر وتقليص الإنفاق العام الموجه للخدمات الاجتماعية الأساسية مثل الصحة والتعليم والإسكان. ومحدودية مشروعات الضمان الاجتماعي.

المبحث السادس : تطور البطالة في الاقتصاد العربي الكلاسيكي

يشكل هذا البحث الفصل الأول في الباب الثاني من أبواب الكتاب. وهو يتناول البناء الفكري للاقتصاد الكلاسيكي. ومشكلة البطالة عند الكلاسيك. ثم يعرض لنا أسماء الاستثناء الكلاسيكي في أفكار روبرت مالتوس الذي حذر من انتشار البطالة والظفر في الأجل القصير.

المبحث السابع : تطور البطالة في الفكر الاقتصادي : المبحث الثامن إلى بحث البطالة في الدول النامية

يعرض البحث السليم من الكتاب الفلسفة الاقتصادية الكلاسيكية. كما يتناول التحليل الماركسي للبطالة. ودور الاقتصاد الرأسمالي في تفاقم مشكلة البطالة. ويعرض البحث لأفكار

روز لوكسمبورج هي كتابها الشهير «فراكتل وأين المال» والتي خلصت إلى أن استثمار نمو الرأسمالية لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التوسع والسيطرة على ميزات وأسواق جديدة (غير رأسمالية)، كما يعرض لأفكار بول سوزي وبول ماران، وصولاً إلى أفكار جيمس جوردون وميتيل ومومينكر ليشي التي تمكنت في دراسة نشرت عام 1992 تحت عنوان «اقتصادات معدل الربح»، والتي خلصت إلى تصور ثلاثة سيناريوهات محتملة للمستقبل هي:

السيناريو الأول: يفترض استمرار تدهور معدل الربح، وهو افتراض يشهد إلى وضع انكماش حيث تحاول الحكومات خفض عجز موازنتها العامة، مما يؤدي إلى التأثير سلباً على توزيع الدخل ومن ثم تعاقب مشكلة البطالة.

السيناريو الثاني: يفترض استمرار حالة الهبوط في معدل الربح، وإذا ما حدث تدهور محتمل في العمل، فإن ذلك سيكون على حساب وقف التقدم التكنولوجي، ومن ثم حدوث أزمة لا تقل خطراً من الأزمة التي نتجت من السيناريو الأول.

السيناريو الثالث: وهو أكثر السيناريوهات تفاؤلاً، ويعوم على تصور بدء اتجاه معدل الربح نحو الصعود مرة أخرى لفترة شائعة، وهو يفترض أن تحقيق ذلك سوف يتطلب استمرار الاستخدام المكثف للتكنولوجيا ونظم المعلومات، ويحدد أشكال جديدة مبرقة من العلاقات بين الشركات والمؤسسات، وبين الشركات والمؤسسات وبقي المجتمع، كما أن ذلك يتطلب التمويل الجماعي لمطبات البحث والتطوير، وإيجاد قوة إدراية جديدة باستاتها التحرك باتجاه زيادة معدلات التراكم والنمو والتنظيم والأجور.

البحث الثالث: تغيير البطالة عند النيوكلاسيكية

جاء هذا البحث في سياقته اللطفي، حيث تناول في مقدمته الآثار التي نتجت من خريطة الواقع الاجتماعي الذي أثبتت من خلاله أفكار المدرسة النيوكلاسيكية، والتي تعرف بالمدرسة الحديثة، ويخلص الكاتب من هذه الآثار إلى القول بأن مدرسة التحليل الحدي تمثل إرثاً من إرثات التنمية البرجوازية، وأن الهدف من أفكارها كان هو التصدي للهجمات والاكتشافات العلمية التي تعرض لها أسلوب الإنتاج الرأسمالي، وأن المهمة الرئيسية لهذه المدرسة كانت ابتكار أسلوب جديد للتحليل الاقتصادي ينادي بعلم الاقتصاد من نطلق تحليل العلاقات الاجتماعية إلى دائرة التحليل الميكانيكي لتصورات الناتج والمستهلك، مستندة في ذلك إلى فلسفة اللذة والألم، ولذا أهمل عنصر الزمن من التحليل وأصبح التحليل الحدي مثاليكياً إلى حد كبير، وذلك على النقيض من الفكر الاقتصادي الكلاسيكي، ويستلج المؤلف من هذا العرض الأسباب التي أدت إلى إهمال قضية البطالة في الفكر النيوكلاسيكي، الذي آمن بقانون ساي للأسواق ومن ثم افترض حالة التوظيف الكامل.

البحث الخامس : تفسير البطالة في المدرسة الكينزية

يعرض البحث التاسع أفكار المدرسة الكينزية التي ظلت المائدة على رؤوس الاقتصاديين الكلاسيك والنيوكلاسيك. وذلك بعد أن حل الكساد الكبير في الدول الصناعية. وهو الكساد المستمر الذي وضع الفكر النيوكلاسيكي في محنة شديدة. حيث لم يحضر عن توقع الكارثة فحسبه بل عجز عن تفسير مسبباتها أيضاً. ويصور الكتاب في عرض مشوق تداعيات كارثة عام 1919، والتأرجح العميقة على المجتمعات. قبل أن يعرض البناء الفكري لكينز. ويخلص الكاتب إلى نتيجة مهمة بقوله إن كينز وهو يهدم البناء الكلاسيكي والنيوكلاسيكي لم ينجح في إقامة بناء أكثر قوة منه. بسبب العيوب الكثيرة التي شابت نظريته. وهو الأمر الذي ألبته واقع النظرية العامة والنزواتها في الوقت الحاضر على الرغم من طموحاتها على مدى ثلاثة عقود زمنية متتالية.

البحث السادس : بناء النظرية الكينزية ومفارقة البطالة

يقدم هذا البحث موضوعه بالتأكيد على رؤية كينز لكيفية حل المشكلة الاقتصادية. وذلك من خلال الدعوة إلى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي. أي على تقييد ما كان يؤمن به الفكر الكلاسيكي. ثم يستعرض البحث نتائج نهج النمو هي نموذج هارود وكالغور وجوان روبنسون. التي هدفت إلى إعطاء النمو طول المدى للنظام الرأسمالي بوزن في التحليل بعد أن اقتصر تحليل كينز على ما يسمونه المدى القصير. وقد حاولت هذه النتائج تحديد معدل النمو الضروري الذي يجب أن يتحقق في الاقتصاد حتى يمكن تجنب البطالة والوصول إلى حالة التوظيف الكامل لكافة الإنتاجية والموارد البشرية.

البحث السابع عشر : النظرية النقدية في تفسير البطالة - هونزي - فيكس - هابكس - فريدمان

يعرض البحث العاشر عشر أفكار فيلر ميمز في الفكر الاقتصادي حاول تفسير البطالة الضرورية من خلال التركيز على العوامل النقدية السبعة Monetary Factors. ومن ثم يرى هذا التيار أن علاج هذه المشكلات يتحقق من خلال استخدام أدوات السياسة النقدية. وينتمي رواد هذا التيار بهذا الفكر أو ذلك إلى المدرسة الكلاسيكية هي التفكير التي ترى أن الرأسمالية نظام يتمتع بالقدرة على التصحيح التلقائي للاختلالات دونما حاجة إلى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي. ويعرض البحث لنظرية هونزي حول الدورة الاقتصادية. ثم نظرية فيكس في تفسير هذه الدورة من خلال تتبع الظروف التي بين ما أطلق عليه سيمر المائدة الطبقية. ونظرية هابكس التي تألقت بالنظرية التمسكوية في رأس المال في تفسيرها لأسباب البطالة الضرورية. ثم نظرية هيلتون فريدمان الذي صاغ يعرف مع تبارك بالمدرسة النقدية Monetary أو مدرسة شيكاغو. والذي طور معادلة كمية النقود الكلاسيكية. وأعطى للنقود أهمية رئيسية في

لتفسير التقلبات التي تحدث في مستويات الدخل والتأثير والتوظيف. ويخلص التحليل النقدي إلى اعتبار البطالة السائدة هي قيدان الرأسمالية بظالة احتيائية. لأن العمال ينشطون بحسب إرادتهم لأنهم مطالبون بأجور أعلى من الأجور السائدة. ومن ثم فإن البطالة الإجبارية ليس لها مكان في هذا التحليل. ويشير الكاتب في ختام مبحثه هذا إلى عجز المدرسة النقدية عن توفير إجابات مقنعة لأسئلة كثيرة حول أنواع البطالة الأخرى.

المبحث الثاني عشر: صعود ومزبوط فنحن فيليبس : حول المفاهيم بين البطالة والخصم

يستعرض هذا البحث ما توصل إليه فيليبس في عام 1968 من علاقة إحصائية قوية بين نسبة العاطلين إلى إجمالي السكان. ومعدل التغير في أجر الساعة للعامل خلال مدة زمنية تقارب من القرن. ومن ثم انتشار فكرة فيليبس في التحليل الاقتصادي. وهي الفكرة التي أصطلت انطباعاً بأن البطالة هي الخصم الذي يلجأ إلى البطالة على المجتمع أن يدفعه مقابل تحقيق التوظيف الكامل. وسرعان ما انتقلت هذه الفكرة إلى البرامج الاقتصادية في الدول الصناعية التي اعتمدت سياسات تهدف إلى الوصول إلى نقطة محددة على منحني فيليبس تمثل معدل معيناً من البطالة يقابله معدل معين من التضخم. وهما المعدلان الرفوفان من وجهة نظر السياسة الاقتصادية الحديثة. ثم ينقل البحث إلى بيان انهيار تحليل منحنى فيليبس بعد أن ثبت من الناحية العملية وجود أكثر من معدل للتضخم مقابل معدل معين للبطالة. مما يشير إلى عدم استقار منحنى فيليبس.

المبحث الثالث عشر: نظرية النقطة بعد البطالة الطبيعي

معدل البطالة الطبيعي يعتمد به المعدل الذي تكبر عنده القوى المؤثرة في ارتفاع أو انخفاض الأسعار (الأجور) في حالة توازن. بحيث لا يكون هناك ميل لزيادة أو انخفاض معدلات التضخم. وقد حاول تيار فكري معاصر أن يعيد النظر في التقدير هذا «المعدل الطبيعي» لتفسير مشكلة البطالة في الاقتصادات الرأسمالية المعاصرة. ويرى رواد هذا التفكير أن معدل البطالة الطبيعي قد اتجه إلى الارتفاع في العقود الأخيرة بسبب عدة عوامل. ويعبر عن البحث لهذه العوامل بمرادف من التتميل. ويخلص انصار هذا التفكير إلى القول بأن هناك معدل بطالة وحيداً. يتوافق ويتناسب مع حالة الاستقرار النقدي والسمري. وأن أي محاولة لخفض البطالة من دون هذا المعدل سوف تؤدي إلى تسريع معدل التضخم. وهو تستخدم بمرادف من خلال زيادة كمية النقود.

المبحث الرابع عشر: التغير التكنولوجي للبطالة : كينزيك وموسمين

يعرض هذا البحث لأفكار كينز ودايف بشأن الموجات (الترواج والركود) التي يشهدها النشاط الاقتصادي في الدول الرأسمالية في الأجل الطويل (50 و 60 عاماً). وانتجت هذه

الأفكار نقاشاً متصفاً بين الاقتصاديين في محاولة لتفسير مسببات هذه الموجات، وجاء شومبيتر ليحسم الجدل في هذا الموضوع في كتابه «الدورات الاقتصادية» حيث استنتج أن مثل هذه الدورات تكون متكررة حدوث تغير هيكل في البلدان الصناعية ناجم عن تغيرات ابتكارية وتكنولوجية من شأنها دفع صناعات وقطاعات معينة للأمام، وتعرض صناعات وقطاعات أخرى للتأخير، على النحو الذي من شأنه إعادة تشكيل بنية الإنتاج القومي. ويخلص الكاتب إلى القول بأن برامج إعانات البطالة والضمان الاجتماعي كانت قد أسهمت حتى عهد قريب في تعويض حدة هذه التغيرات الهيكلية، إلا أن صعود الليبرالية الجديدة وصاعده الدعوة إلى العودة إلى اليات السوق المطلقة، ومن ثم إعادة النظر في مشاريع إعانات البطالة والضمان الاجتماعي، من شأنها أن تؤدي إلى تفاقم آثار البطالة الناجمة عن التغيرات الهيكلية.

المبحث الخامس عشر: تؤدي أزمة البطالة، هل يمكن العودة إلى هذا التوقف المؤقت؟

يحاول هذا المبحث، وهو في الباب الثالث من الكتاب، التقديم للإجابة عن سؤال يتعلق بكيفية الخروج من مأزق البطالة. وبعد عرض سريع لمخاطر وأثار البطالة، يعرض الكاتب للدارس الرئيسية الأربع التي دأب فيها صراع فكري هام بشأن سبل الخروج من المشكلة (مدرسة شيكاغو، مدرسة اقتصاديات جانب العرض، مدرسة التوفيق الرشيدة، والمدرسة الفلسفية)، كما يبرز وجهة نظر التكتيزيين الجدد الذين رأوا أن اختلافات كبراجل السياسيات من القرن العشرين وما بعدها ناتجة عن الصدمات وهي متصفاً صدمة ارتفاع أسعار النفط، وارتفاع أسعار الواردات، وأسعار الفائدة، وتقلبات سعر الصرف... إلخ.

ويتناول المبحث بعد ذلك الحلول العاجلة المطلوبة لعلاج مشكلة البطالة، حيث يصنف هذه الحلول إلى ثلاثة مجموعات رئيسية هي: الارتفاع بمعدل النمو الاقتصادي، وخفض تكلفة العمل، ولتحويل ظروف سوق العمل. ثم ينتقل المبحث إلى الحديث عن مواجهة أزمة البطالة في البلاد النامية، والنصدي لها من خلال مستويين من الإجراءات: إجراءات الأجل القصير، وإجراءات الأجل المتوسط والطويل.

خاتمة ونصائح لمن يخطط للإجابة

في نهاية الكتاب خاتمة تلخص بعضاً من النقاط والتركيزات الأساسية للاستنتاجات التي خلص إليها المؤلف من شأوله لهذه القضية الخطيرة والكثمة. وينتهي الكتاب إلى التأكيد على أن وجود البطالة واستمرارها لفترة طويلة يعبر عن فشل واضح لآليات السوق في تحقيق التوظيف الكامل. وأن علاج الأزمة بحاجة إلى سياسات واعية وقاطعة. وأن الدولة التي كانت

تتولى مثل هذه الميكانزمات تتعرض إلى حالة من الإضعاف الضعيف والضعف على يد «الراسمالية المعولة» - ويظهر المؤلف حزمة من الأسئلة من الجهة التي ستقوم مثل هذه السياسات الضرورية في ظل هذا التراجع السريع لمور الدولة في النشاط الاقتصادي. وهي أسئلة ما زالت تبحث عن إجاباتها.

الخلاصة

أقدم اعتماد كتاب «الاقتصاد السياسي للطاقة: تحليل لأخطار مشكلات الرأسمالية المعاصرة» على قائمة ثرية من التراجع والإسقاطات العلمية الفتح. فضلاً عن إلحاق كل فصل من فصوله بهوامش مفصلة مما يدل على موضوعية التهجئة العلمية التي اتبعها الكاتب في تسليق أفكار الكتاب وإثباته المنطقي. ولا يقلل التوجه الفكري للكاتب وهو توجه واضح في الجوانب التحليلية والنقدية، من الأهمية العلمية والوضوحية لهذا الكتاب الذي يسلط الضوء على مختلف زوايا مشكلة الطاقة. وهي مشكلة شائكة ومالحة للتعقيد، على مدى القرنين الماضيين. ويشكل هذا الكتاب إضافة مهمة إلى المكتبة العربية في هذا الموضوع ذي الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وهو كتاب يستحق القراءة بناية واعتماد شديدين.

ARCHIVE

أفاق نقدية

• تطرح أفاق النقدية القضايا الفكرية والثقافية التي تهم المجتمع العربي

• تركز على دور النقد الأدبي في تطوير الفكر والثقافة العربية

ARCHIVE

• تسعى إلى تقديم نقد أدبي متعمق وواقعي

• استشراف التيارات والفكرية المعاصرة

• تقديم مقارنات بين الأدب العربي والأدب العالمي

نظرة أطر الملوحة الجنية النظرية على الجودة العامة

د. عادل عوض (+)

١ - المقدمة

أدت رغبة الإنسان في تحسين جودة المياه إلى تحسين مستمر في معايير مياه الشرب الزائدة من خصائصها لتأمين مياه شرب آمنة، وخصائصها من النواحي الكيميو-الفيزيائية والبيولوجية المستهدفة. وفي الوقت نفسه، باتت التشريعات مغلقة وحاليا هناك تحول في الاهتمام من النواحي الفيزيائية المرتبطة بالكوكب الجزيئي إلى مشكلات أكثر تعقيدا وجدية وخطورة على الصحة العامة، تتعلق بالإحالات المسببة للأمراض السرطانية والاضطرابات الخلوية الناتجة عن المركبات السامة الموجودة في مياه الشرب.

إن تحقيق شروط المياه الصالحة للشرب يتطلب تعقيم مياه الشرب، ومن أهم المواد الكيميائية المستخدمة بشكل واسع عالميا الأيونات والفلورايد والكلورين. ومن بين هذه المواد نلاحظ استخدام غاز الكلورين كمادة تعقيم بشكل عادي في مختلف أقطار العالم ومن بينها الأقطار العربية.

وتلزم المعايير الكيميائية العالية لمياه الشرب، ومن بينها معايير منظمة الصحة العالمية والمعايير العربية - ومنها على سبيل المثال النورية والأزونية - وجود مستوى معين من غاز الكلور الحر المتبقي في مياه الشرب^(١).

(١) ولقد تم من الهندسة البيئية ولقد تم في خدمة تطبيق الفن خاصة لشرب - كذا الهندسة المدنية - قسم الهندسة البيئية - الجمهورية العربية السورية.

نموذج انكار المركبات الجيئة الخطرة هذه الجيئة العامة

يمكن أن يتولد تعقيم المياه بالكlor ومن خلال تفاعله مع المواد العضوية إلى تشكيل مركبات جانبية خطيرة جدا على الصحة العامة، وتعد مركبات ثلاثي هالوميثان (THM) مجموعة من هذه المركبات الخطرة ذات علاقة بالتسبب بأخطار السرطانات⁽¹⁾، وهناك نتائج بحثية مهمة تدل على وجود علاقة أكيدة بين تزايد المركبات العضوية الموجودة في مياه الشرب المكلجة بالكlor، وبين تشكيل مركبات ثلاثي هالوميثان^(2,3).

في الولايات المتحدة الأمريكية تم في عام 1974 تصري أربعة من هذه المركبات في مياه الشرب: الكلوروفورم (CHCl₃)، البروم ثنائي كلور الميثان (CHBrCl₂)، ثنائي البروم ثلوميثان (CHBr₂Cl) والبروموفورم (CHBr₃)، ومن بين هذه المركبات يعد الكلوروفورم أكثرها ظهورا وبتركيز عالية^(4,5).

أما المركبات الأخرى الكلور العضوية مثل الكبريتات الزرارية المستخدمة بشكل واسع الانتشار للأغراض الزراعية، فقد أصبح وصولها إلى مصادر مياه الشرب (المسطحية والجوفية)، متوقفا إن لم يكن مؤكدا، وخاصة من خلال الهطولات المطرية وجريانها التي تسوق الكبريتات في طرفها، سواء من التربة أو الهواء، لتصب في إحدى البحيرات أو الأنهار. وفي الوقت نفسه نرشح شيئا فشيئا، لتصل إلى الطبقات الحاكمة للمياه الجوفية، ومن بين هذه المركبات المبيدات الحشرية والديفيدين وغيرها، وهي أساسا من مركبات الكلور العضوية.

كما أن هناك مركبات عضوية مستخدمة بشكل واسع في الصناعة ككبريتات أو سلفونات الزيوت والمدهون مثل رابع كلوريد الكربون وثنائي الفينيل متعدد الكلور (pvc) وثلاثي كلور إيثين أو إيتيلين (TCE)، وهذه المركبات تصل إلى المصادر القليلة بشكل أساسي من خلال شبكات الصرف الصحي، التي تصرف فيها موائج فسيل الجريانات المطرية في مناطق انتشارها أو تجمعها بحواز مواقع القمامات الصناعية. ومطاطات هذه المركبات المذكورة شبيهة بمطاطات مركبات ثلاثي هالوميثان.

ومن المركبات شديدة السمية نجد الديوكسين، ومن أشهر أنواعه مركب البنزين الثنائي والرباعي الكلور (TCDF - 2,3,7,8)، والمعروف باسم سينيسو، ويحدد انتشاره في البيئة من خلال المياه العامة (مياه الصرف الصحي)، حيث يمكن أن يتولد وجوده في حالة انصهار مع المواد العالقة أو الطافية الموجودة عادة بتركيز عالية ضئيلة، ولقد التربة من أكبر وأهم المصادر التي تساهم في نقل مركب (TCDF) إلى البيئة.

إن انتقال الديوكسين في التربة وحركته فيها، يعتمدان على درجة الهلجنة، وعلى الخواص الفيزيائية والكيميائية للمركب وخصائص التربة الموجود فيها، كما تقدر كمية الديوكسين حسب نتائج الأبحاث الأتالية الخزونة والمراكمة في التربة بحدود 10 سم في السنة⁽⁶⁾.

كما تشير الأبحاث العديدة إلى حدوث عملية التآكل كبيرة المواد السامة خلال مساحات كبيرة ومناطق شاسعة، وهذا يؤكد وصول هذه المركبات من المواقع الصناعية (مصادر نشكلها) إلى المصادر المائية. كما يلاحظ وجودها في راسب البحيرات وعند مصبات الأنهار، ويعزى وجودها إلى ما بعد عام 1960، حيث كان قد بدأ الإنتاج الصناعي لمواد تحتوي على مركبات الكلور المطورة⁽¹⁾.

وقد حدد استقبال الإنسان للديوكسين من ثلاث قنوات هي: (الثدي، الحيوان، الإنسان)، (النبات - الإنسان)، (النباتات - الحيوانات التي تعيش على الأعلاف - الإنسان).

لا توجد هناك أي فوائد عملية لمركبات الديوكسين، وهي تظهر كمستجبات ثانوية غير مرغوب فيها أصلاً، تصاحب العمليات الكيميائية والعمليات الحرارية⁽²⁾، وكمصادر ثابتة لإنتاج مركبات البنزين الشائبة والمتعددة الكلور مع الديوكسين يمكن ذكر المصادر التالية:

- ✦ النواتج التي تصاحب مركب «الكلوروفينول»، وكل المركبات التي يكون الكلور طرفاً فيها.
- ✦ نواتج العمليات الحرارية، وهي عمليات حرق النفايات الثانوية ومخلفات المعادلات الطبية وعمليات احتراق زيوت المحركات، وكذلك من أليات الاحتراق الصغيرة كذلك المستعملة في المنازل (الدخان - بوابير الغاز ...).

أما مركبات الكلوروفينولات (أو «الكلورال» الكبريتية) فهي تستعمل مادة واقية ومبيداً الفطريات في الأخشاب والحدود والمنازل، وتستعمل مادة مظهرية وأغلفة للعثرات، ويمكن القول إن استعمالها متديراً، بشكل خاص، يشير إلى إمكان مساهمتها في زيادة إنتاج مركبات البنزين الشائبة والمتعددة الكلور في مياه المجاري.

ومن بين مركبات الكلوروفينولات، يمثل مركب الكلوروفينول الطماني PCP مكانة خاصة، فيما يتعلق بمساهمته في إنتاج مركبات البنزين الشائبة والمتعددة الكلور مع الديوكسين في البيئة. فهو يستعمل بشكل واسع وعلى نطاق عالمي، مبيداً للظفر ومادة واقية للأخشاب، ومادة حافظة للمواد الحديدية والمنسوجات والمواد اللاصقة، وقد طُرح حظر على إنتاج هذا المركب (PCP) واستعماله في بعض الدول الغربية.

أيضاً يوجد مركب البنزين الشائبي والمتعدد الكلور (مع الديوكسين) شائبا في المركبات العضوية عديدة الكلورين شالي المعنيل (PCB)، وهي توجد في زيوت المحولات الكهربائية وتعرف بأسماء تجارية مختلفة.

أما الهزين ومشتقاته فقد صنف تحت مركبات مسرطنة مؤكدة، أو كطفرات بيولوجية خطيرة، ويميز الهزين ومشتقاته بأنها مركبات عضوية متطايرة (VOC) بدرجة طين أقل أو تساوي 10⁻⁶ م و/أو ضغط بخار أكبر من 1 ملم في الدرجة 20°م، ويعود الاهتمام الحديث بهذه

نموذج أضرار الملوثات البيئية النشوء في المياه العذبة

التركيزات إلى كونها هي حالة بحار، مما يجعلها أكثر حركة وانتشاراً في الوسط المحيط بها وتنتصب بذلك السيطرة عليها.

توجد هذه التركيزات في مياه الصرف الصحي المجمعة في المدن بكميات كبيرة، على سبيل المثال قدرت كميتها في مياه الصرف الصحي الداخلة إلى محطات المعالجة في كاليغوريا بحوالي ٧٢٥ طنًا سنوياً، حيث إن المحطات التقليدية للمعالجة لا تستطيع إزالة هذه التركيزات أو معالجتها^(١).

إن حوادث السكب النقط من التلوثات أو الشاحنات أو شربها تؤدي إلى وصول التركيزات المعنوية المتطورة إلى الشرب أو المياه الجوفية أو مياه البحار أو الأنهار أو البحيرات المستخدمة لأغراض الشرب، مما يؤدي إلى تلوثها بمواد خطرة. كما يمكن أن يصل النقط إلى شبكات الصرف الصحي ومخاضات ممتدة من خلال التكرات والمخازن والشوارع. إضافة إلى عدم وجود مراقبة كافية على الملوثات السائلة التي تطرحها المصانع، سواء في شبكات الصرف الصحي العامة أو في المصادر المائية العذبة أو المالحة.

وبخصوص الملوثات اللاعضوية مثل المعادن الثقيلة (الزئبق، الكروم، النيكل، الأسبستوس وغيرها) فتعد ذات سمية عالية ومسرطنة أيضاً، حيث يمكن أن تصل إلى المصادر المائية المستخدمة لأغراض الشرب من خلال الملوثات السائلة التي تطرحها المصانع دون معالجتها أو إزالتها عند مصدرها.

لقد استحدثت المعايير الإرشادية أو القياسية لمياه الشرب في المراحل السابقة إلى افتراض أن وجود الملوثات ضمن الحدود المسموح بها، أو أقل، لن يشكل خطراً أو ضرراً على الصحة، إلا أن المشكلات المرتبطة بالملوثات السامة قد أضررت واعتُرف بوجودها ومخاطرها حالياً، ونجد من الضروري هنا التحدث عن المخاطر الصحية، والتعرض بشكل محدد لهذه الملوثات المذكورة، لأن خطر السرطان أو الولادات المشوهة أو الطفرات البيولوجية الخطيرة أصبح قائماً، وبالتالي يطرح السؤال نفسه: هل يمكن أن تقلل مستويات دليلاً للخطر؟

نتأخذ الدراسة بالتفصيل منظومة تقويم الأخطار من حيث:

١- تقدير أخطار التعرض للملوثات الضارة أو السامة الموجودة في مصادر المياه وخاصة المستخدمة لأغراض الشرب.

٢- حجم الخطر الكامن نتيجة انتقال هذه الملوثات.

٣- الرتبة أو التلويح في حساب أو نمذجة التأثيرات الصحية نتيجة انتميمات التعرض. هادفين من ذلك كله إلى تحديد الأخطار الصحية بشكل منهجي لتفويتها بالتطبيق على حالات دراسة، انطلاقاً من المعايير العالمية الإرشادية أو القياسية لوصفات مياه الشرب.

٢ - منظومة تقييم الأخطار (Risk Assessment)

تقوم عملية تقييم الأخطار المتوقعة أن تلحق بالبيئة على جمع المعطيات (البيانات) المستخدمة في إيجاد العلاقة ما بين التعاوب وجودة التلوث^{١٣١}. وتلعب هذه التقديرات بشكل عام مع معطيات التمرس الإنساني للحصول على التمرس عام للخطر. وهذا يتطلب استخدام معلومات حقيقية لتحري التأثيرات الصحية التي تتربى نتيجة تعرض الإنسان والبيئة للمواد والظروف الخطرة، مثلاً قياس إلى أي مدى يمكن أن ينتقل تأثير المواد الكيميائية بدءاً من موقع التسريب أو الانسكاب لهذه المواد من خلال حادثة أو أكثر، ليشكل خطراً على مجموعات سكانية مجاورة، ثم تقييم الأضرار التي تتربى على واقعة التلوث وتعرض السكان والبيئة المجاورة للخطر^{١٣٢}. ويتداخل موضوع تقييم الأخطار مع موضوع إدارة الأخطار (Risk management) المعروف بعملية أخذ القرار المتعلقة برد الفعل الإنساني المسؤول إزاء هذه المواقف. وهذا يشمل دراسة الإجراءات الطارئة والحلول البديلة لتدارك تلك الأخطار المحتملة، وكذلك التنسيق بين نتائج عملية تقييم الأخطار والمعطيات الهندسية. وإذا ما توافرت معطيات الخطر، فإن التحكم السياسي والاجتماعي يكون لازماً للتخفيف من العدم المسموح به (مثال جزء في المليون) من الخطر وكيفية تحقيق مثل هذا التحكم.

غير أننا لكي نحصن على معلومات إحصائية ذات قيمة فيما يخص قضايا البيئة يجب أن تأخذ في اعتبارنا أن قدرنا كبيراً من الارتياح أو اللاتيقن (uncertainty) قد يحيط بعملية تقييم احتمالات الخطر. ولا تقتصر مسائل الارتياح أو اللاتيقن على عملية تقييم احتمالات الخطر، إذ إن الارتياح هو الدافع المحرك للعلوم كافة. فلو لم يكن هناك شك وارتياح، لما كان هناك بحث علمي. فالعلوم هي سلسلة من العمليات التجريبية والبحثية دائمة التغير. والبحث العلمي يقوم على التصدي لاستنتاجات قائمة للقياس والاختبار، تعتمد غالباً على حقائق جدلية^{١٣٣}.

٢ - ١: تقييم أخطار التعرض

٢ - ١ - ١: أخطار التعرض في حالات التلوث والحوادث الخطيرة للتعرض

إن هشورتنا على العديد من العناصر الكيميائية في مصادر المياه سببه الأول هو تطوير تقنيات اكتشاف أدق لتركيز تلك المركبات الكيميائية في مصادر المياه المذكورة، وليس السبب في تزايد استخدام تلك المركبات أو سوء استخدامها. وليس بالضرورة أن يكون تعرضنا للأخطار هو أكبر مما كان عليه منذ بضعة عقود مضت، بل إن غاية الأمر هي أننا نبتأ تلك تقنيات أحدث اليوم لاكتشاف المواد

تطوير أبعاد المخاطر البيئية البشرية بناءً على البينة المتاحة

الكيميائية الموجودة. هناك خطئان لا بد من أخذهما بعين الاعتبار حين استخدام الوسائل المتوافرة لتقويم الأخطار:

1 - إن هناك حدوداً معينة لشمولية عملية «إدارة الأخطار» في تقليص الأخطار التي تلحق بالبيئة والحد منها. وليس هناك من سلطة تملك القدرة على أن تضع دعماً على كل مصادر الأخطار التي تهدد مجتمعنا ... وعلى سبيل تقريب وجهات النظر حول هذه المسألة أصبحنا اليوم نعد عملية «إدارة الأخطار البيئية» قائمة في الغالب على تقليص احتمالات الخطر إلى واحد في المليون، وهو ما يعرف قانونياً باسم *de minimis non curat lex* أي الأخطار الطفيفة والمعمومة التأثير. ونحن - أفراد هذا المجتمع - نتمتع لمواجهة بعض الأخطار التي لا نملك أن نفلتها، كأن نضربنا صاعقة، وهو احتمال نسبته واحد في المليون⁽¹⁾ (الجدول 1).

لقد وصلنا الآن إلى نقطة نعد فيها الخطر لقبول مواقع نسبة واحد على مائة ألف (1:100,000) لاحتمال أن تكون نتيجة التعرض للخطر طيلة حياتنا⁽²⁾ (إن قبولنا الخطر بنسبة واحد في المليون من الذي نجهم مثلاً من عملية تطهير مرفق ملوث وإعادة تأهيله يعني محاولة تقليص الخطر الناجم عن تطهير الموقع إلى حجم الأخطار الأخرى التي تصيب بأفراد المجتمعات الحديثة).

2 - إن ما يميز مصطلحات تقويم الأخطار الحديثة عن عدم توفير المعلومات الكافية اللازمة. وهكذا فإن العلم الرئيسي بالنسبة إلى عملية تقويم الأخطار تلك هو درجة الثقة بتلك العملية.

إن هناك ارتباطاً أو لايقين فيما يتعلق بتقويم احتمال تعرض البشر للظواهر البيئية. ونحن قد نستخدم مصطلحات ناتجة من المراقبة أو الرصد للوصول إلى تمثيل للمعدلات والتراكيز. وبالتالي تقويم الأخطار اعتماداً على المقارنات مع المعايير والمقاييس التي تلحق بحماية البيئة. ويمكن تطبيق هذه الطريقة فقط في الحالات التي تتوفر فيها مصطلحات المراقبة (الرصد) في النقطة المطلوبة، كما يتضح في الشكل (1) (سبناريو A. وبالمقابل، قد نحتاج إلى استخدام المعلومات الواردة إلينا من أبار المراقبة والرصد بفرض قياس العوامل (البارامترات) اللازمة لاستخدامها في نماذج رياضية حيث نستخدم النماذج المذكورة عقب ذلك لقياس قيم التعرض ومعدلاته (انظر سبناريو B من الشكل 1).

وإذا إجراء عملية النمذجة الرياضية علينا أن نهتم بطرق انتقال العناصر للكون البشري من المصدر. بحيث إنه يخلق أخطاراً تعرض على للتفصيل. وفي حالات كثيرة نجد هناك العديد من الطرق التي تؤثر في درجة دقة حساب قيم احتمالات التعرض للخطر⁽³⁾.

الجدول (١): الأخطار التي تزيد احتمالات الموت بنسبة واحد في المليون

١. تلوث عدد ١.١ سيارة.
٢. شرب ٠.٥ لتر خمر.
٣. قضاء ليلة واحدة في متجم قنص.
٤. السفر مدة ٦ دقائق بواسطة زورق تجديف.
٥. السفر لمسافة ١٠ أميال بواسطة دراجة هوائية.
٦. السفر لمسافة ١٠٠٠ ميل بالطائرة التجارية.
٧. تناول مياه الشرب في مدينة ميامي لمدة سنة واحدة.
٨. تناول عدد ١٠ قطعة كبيرة من زبدة الفسقل.
٩. تناول عدد ١٠٠ شريحة لحم مشوية على قطع الخشب.

المصدر (Wilson 1979).

٢-١-٢: تقييم الأخطار في الأنظمة المتكاملة لتقييم المخاطر البيئية المتكاملة

إن العنصر الأساسي في تقديم احتمال الخطر هو تحديد النقطة التي يتعرض فيها الناس للأذى. وتتوافر المعلومات اللازمة لهذا الغرض اعتماداً على نتائج الدراسات المسحية والوبائية ... ومعظم الدراسات المسحية تحاول تقييم مدى تسبب التلوثات الخطيرة بالخطورة التعرضية ... فهي مثل هذه الدراسة تكون كل الشروط النهائية ثابتة إلى أقصى درجة ممكنة، بينما لا يختلف سوى شرط واحد فقط، أو عدد قليل من الشروط، مع توقع أن تؤدي عمليات تعديل احتمالات التعرض للأخطار إلى إعطاء نتائج مختلفة في المحصلة النهائية.

ولزيادة ثقتنا بالنتيجة بشكل مبدئي إلى التعرف على كل العوامل المسببة، ومن ثم التحكم بها من خلال الاختيار الجاري. وهي المقابل فإن معظم الدراسات الوبائية ذات الأهمية بالنسبة إلى عملية تقديم الأخطار تعتمد على الملاحظة والملاحظة. أي أن العملية لا تقوم على تناول الظروف والأوضاع التي يعيش فيها الناس، بل إن الدراسة تعتمد في تصميمها على الإفادة من «الاحتمالات الطبيعية» حيث تتعرض فيها مجموعات من الناس والأفراد - بصورة عارضة عادة - مستويات مختلفة من المؤثرات والمواد ذات الخطورة.

إن القوانين والأنظمة الاقتصادية تضع اليد على عدد الحيوانات التي يمكن أن تقتلها الدراسة التسممية. ومعظم التشريعات البيئية الناجمة لاستخدام المواد والتراكيبات المسرطنة وتداولها وضعت بشكل يراعي ضمان عدم زيادة احتمال التعرض لخطر الإصابة بالمعوظون على مدى عمر الإنسان من ١٠-١٠ أو ١٠-١٠ أو ١٠-١٠. وإذا تعرضت الحيوانات الاختبارية للتأكل في دراسة مؤثرات المعالجة الدوائية لمواد كيميائية مسرطنة يتراكم

تطوير أبحاث السموم البيئية الحديثة على النجاسة الحاصلة

مماثلة لتلك التي توجد في البعثات الملوثة نسبياً يكون احتمال حصول الورم الطبيعي أقل من 10⁻⁶ عادة. وهذا يتطلب أن تشمل الدراسة أكثر من 100 ألف حيوان لأجل التوصل إلى نتائج ذات أهمية إحصائية عالية. وحيث إن هذا غير مجد يتم تصميم الاختبار عادة باستخدام تراكيز مركبات كيميائية عالية نسبياً مع عدد قليل من الحيوانات لكي تحصل على نتائج تعرض أكثر خطورة. وبعد ذلك نستخدم تلك النتائج لكي نستقرئ أو نحسب التأثيرات الحاصلة في معدلات تعرض أقل بكثير. وضمن الحدود الأخلاقية، في البعثة التي يقيم فيها الإنسان أو الوسط الذي يحمي وسطه وشمه. ونشر التقديرات إلى أن قيم الاستقراء اللائق في النتائج الإحصائية عند تراكيز جرعات مؤثرة صغيرة من الملوثات قد تختلف بنسبة 10³ ضعفاً، وذلك بحسب نموذج الاستقراء⁽¹⁾. ومن ناحية أخرى، تقوم الدراسات الويلئية عادة على مجموعات مهيئة معينة. وهذا يتم لتقريب احتمال التعرض لخطر الإصابة بالمسرطان - على سبيل المثال - لدى العمال المعرضين لخطر المواد الملوثة بتراكيز عالية أكبر مما شُاهد عادة في البعثة الطبيعية. كذلك مطلوب استكمال أو استقراء النتائج والمعطيات من معدلات تعرض عالية إلى معدلات تعرض أدنى بكثير. وعلى الرغم من ذلك تمتاز النتائج الويلئية بأنها أفضل من التغطيات الاستقصائية الحيوانية، فبعض عملية تطوير الأخطار. نظراً لعدم وجود حاجة إلى الانتقال بنتائج الاختبارات الجارية على الحيوان وتضمينها على البعثة. فهناك أوجه اختلاف بين الإنسان والحيوانات الاختبارية فيما يتعلق بجملة سمات منها: الحجم أو معدل الاستقلاب، والأجهزة والأعضاء موضوع الدراسة. إضافة إلى أوجه الاختلاف البيوكيميائية.

والذلك، فإننا حصلنا على أدق فهم لحساب التأثيرات الصحية المحتملة بفعل التعرض للبعثة الملوثة. فكل هناك قدر من الأخطاء أو اللاتيقن بعيداً عن تلك القيم. وعلى أساس ذلك تبعاً إلى الافتقار والحدس في عملية استقراء أو تصميم التغطيات الناتجة. إننا نملك قدرًا كبيراً من التغطيات ذات العلاقة بالأثار المحتملة لتعرض الإنسان لبعض الأخطار.

وحالياً تجري سلسلة من الدراسات التي تهدف إلى تقليل أوجه الاستفادة من معطيات الدراسات الويلئية لحساب احتمالات الخطر. غير أن أخطاء جسيمة تحدث عند قياس عواقب التعرض لتراكيز ضئيلة في الظروف البيئية الواقعية⁽²⁾ كما أن معطيات الدراسات الاستقصائية تشير إلى وجود مؤثرات بسيطة تتصلق ببعضها (لا تتناقض بصورة خطية) حين تكون تراكيز العناصر الملوثة منخفضة⁽³⁾ تعتمد طريقة عامل الأمان (Safety factor) أولاً على قياس حجم الجرعة الاختبارية الأكبر، التي لا تختلف جذرياً عن حجم الجرعة الصغرى (non-dose-related group) لدى مجموعة مظلية (مستوى الأثار الضارة غير المنظورة أو NOAEL). وهذا المستوى يمثل الفهم الدنيا المسموحة (الحدية) لاحتمال

التعرض للخطر معين. وبعد ذلك تقوم بتعديل مستوى NOAEL لتشمل مختلف مستويات الأثر، وهو عامل أمان يصلح عادة للحصول على حجم جرعة مرجعية (RFD) (REFERENCE DOSE) أو حجم تركيز مرجعي (RFC) (REFERENCE CONCENTRATION). تشمل النتائج المترتبة على هذه الدراسات والقياسات المخبرات التالية:

١ - الجرعة المرجعية (RFD): تعني حجم التعرض الأعظمي المسموح به في اليوم لمدة ملوثة غير مسرطنة نسبة إلى وزن جسم معين، مع عدم وجود احتمال السبب في حصول أضرار وأضرار جسيمة جسيمة طيلة حياة الشخص المعرض للجرعات بواسطة تعرض أو بأخرى (وحدات مع/ كغ وزن الجسم/ يوم).

٢ - معامل ميل أو انحدار السرطان (CSF) (CANCER SLOPE FACTOR) أو قيمة الضعافية، وهو مقياس لمدى احتمال الخطورة حسب ليدل حجم الجرعة لقيمة كيميائية مسرطنة بعينها، ويمنح هنا وجود تعرض للإصابة بالسرطان نتيجة أي جرعات مسرطنة.

ومنذ عام ١٩٩٠ قامت وكالة EPA الأمريكية^(٢١) بتعيين قيم الجرعات التالية الأعظمية من ١٠^{-٦} إلى ١٠^{-١٠} كحدود القيم الأخطار المقبولة عموماً، وبدأ من حجم الجرعات ١٠^{-٦} وما فوق يجب أن نمد احتمالية الإصابة بالسرطان وحجم السكان المعرضين للخطر غير مقبولين بالنسبة إلى أي نموذج سيناريو السكان أو للتعرض.

٣-١-٢: تقدير جرعة الخطر (الآثار البيئية الباردة)

هناك دائماً مصدر موجود لا إختصاص وحسب خطره تعرض المراتل للملوثة للبيئة المحيطة. غير أنه لكي يكون هناك احتمال خطر يجب توافر ثلاثة عناصر رئيسية تساهم في ذلك وهي:

١ - وجود مصدر للمواد الملوثة. ٢ - توافر واسطة أو أكثر لا تتفصل المواد الملوثة. ٣ - وجود المتلقي الذي سيتلقه الأذى في حال تعرض للتأثر وحجم جرعات عالية، حيث تساهم هذه العوامل الثلاثة معاً في الشكل (٣). وهي حال انكفاء وجود أي عامل من العوامل الثلاثة عندها لا يكون هناك أي خطر. ولذلك فإن تقويم الخطر هو في الحقيقة عملية منهجية تهدف إلى تقويم أهمية ودرجة تأثير مصادر التلوث وطرق التعرض المحيطة للخطر وقياسها الموجودة في نطاق كامل من وشميات الفشل و/ أو سيناريوهات التعرض، قد تحدث واحدة من العمليات أو أكثر تؤدي إلى تعرض السكان والحيوان والبيئة المحيطة للخطر. وتشمل العمليات التي تؤدي إلى وجود الأخطار طرق انتشار التلوث البيئي من المصدر إلى التلوث (الشكل ٣).

وحيث تلوث البيئة بأحد المركبات الكيميائية تقوم الخواص الفيزيائية لمادة الملوثة وكذلك خواص وطبيعة البيئة المعرضة بدور مؤثر. ومن الضروري للغاية إجراء دراسات وقياسات لحجم تأثير ودور طرق انتشار المركبات الكيميائية للملوثة للبيئة من المصدر.

تقديم أنظر المخططة الجيئة الفقرة مادة البراءة العامة

مسرورا بالجيشية، ثم إلى الكائن المقتني أو التخليط. ويمكن في هذه الحالة التحويل إلى استخدام النماذج لتوضيح العوامل المؤثرة والمساعدة. إن قواعد معطيات مراقبة ورصد لأجل معايرة أو ضبط نواحي تحويل النموذج يساعد كثيرا على زيادة درجة الثقة بالنتائج عملية النمذجة.

مثلا استخدم شاموا وآخرين (٢٠٠١) عام ١٩٩٤ المعطيات الكيميائية (المراقبة) لضمان صحة ودقة توقعات النموذج الرياضي لتوقعات مركبات الهيدروكربونات المطرية متعددة التوى (Poly Aromatic Hydrocarbons (PAH) (الشكل ١). ويؤدي هذا إلى زيادة درجة الثقة بتوقعات التوزيع الناتجة اعتمادا على النموذج الذي نستخدمه في الواقع التي لا تجري فيها قياسات أو مراقبة. ففي بعض الحالات تكون إحدى طرق انتقال الملوثات هي الصيغة الأيون، وبالمقابل نشاهد وجود أشكال متعددة من طرق الانتقال ذات الأهمية. وهذا يعكس لنا درجة صعوبة القيام بعملية تقويم احتمالات الخطر الشاملة (الجدولان ٢ أ و ب).

فقد تشمل طرق الانتقال المختلفة هذه وصول المواد الملوثة عن طريق وسط معين (ويشمل الهواء والفرية والرواسب والياه السطحية والياه الجوفية) إلى متقبلين مستعجلين عن طريق الجهاز التنفسي، مثلا أو ملامسة الجلد أو الجهاز الهضمي. وإن وجود العديد من الطرق لتعرض متقبلات أجهزة وأعضاء الجسم للملوثات (طريق التنشق يعني أن الجهاز الهضمي مالمخطر هو الرئتان. أما وصول الملوثات عن طريق الدم فيؤدي إلى تعرض العامة للمخاطر). هو مؤشر إلى ضرورة اتخاذ بعض تدابير الحماية لتقليل التعرض وتقليل طرق وصول الملوثات الملوثة إلى الإنسان والحيوان.

الجدول (٢ أ): أمثلة على النيات انتقال الملوثات من منطقة المصدر

انبعاثات الفبار في الجو .

انبعاثات الفبار وترسيبه فوق التربة المجاورة.

ميلان وتدفق وشاحنة الطمر الصحي إلى مستوى المياه الجوفية.

التعرض البشري من خلال الملامسة المباشرة أو الابتلاع أو التنشق.

الجريقات السطحية المتخبة نحو الأنهار عقب تصالط الأمطار.

ميلان المياه الجوفية نحو الأنهار .

التشريب إلى المياه المالحة من خلال الملامسة.

الجدول (٢ ب): وسائل التعرض للملوثات	
المصدر	
المياه الصلبة	شرب المياه الملوثة. تنشق الغبار الملتصق بالماء. تلوث الجلد عن الاستحمام بالماء.
مياه سطحية	شرب المياه الملوثة. تنشق الغبار الملتصق بالماء. تلوث الجلد عن الاستحمام بالماء الملوثة.
الغذاء	تناول الماء الملوثة. التلوث من طريق الفم. تنشق الجزيئات (الجسيمات). تنشق الغبار الملتصق بالماء. تناول المصنوعات الملوثة. تلوث الجلد عند ملامسة المبيدات الملوثة.

ومن المهم كذلك تحديد الأهمية النسبية لخطرات التلوث سيناريوهات التعرض. ويجب عند تقييم وفهم احتمال الخطر الناجم عن التعرض للملوثات إلى إيضاح خصائص خطورة التعرض والخواص الفيزيائية، خاصة عملية انتقال المواد الملوثة من مصدر التلوث البيئي إلى مواقع التعرض. وكذلك تعيين طرق انتقال الملوثات والتعرض لها والخصائص الكيميائية والجرعات التي يتعرض لها أي متلقي.

إن النماذج الرياضية لحساب وتقييم سيناريوهات التعرض هي عناصر مهمة في هذه العمليات. هناك العديد من أنظمة تصنيف النماذج الرياضية، خاصة منها ما يلي:

- ١ - نماذج الصندوق الأسود.
- ٢ - النماذج التحليلية.
- ٣ - النماذج العددية.

وتتبع عملية اختبار النموذج لما لا يقل عن ثلاثة شروط^(١٥) وهي:

- ١ - رغبة وتقدير الباحث فيما يخص استخدام مختلف التقنيات النمذجة.
- ٢ - حجم واعتماد قاعدة البيانات المتوفرة.
- ٣ - النظام القهرياني موضوع النمذجة.

تقييم أخطار المعاملات الجيدة الخطرة على صحة البيئة العامة

هناك تقاسيم لتوضيحية عن مستويات وإشكالات مختلفات النماذج يمكن العودة إليها في المصدر⁽³⁾.

وهكذا يتم عملية حساب المعاملات الخطرة من خلال التنسيق بين طرق انتقال التأثيرات المواد الملوثة والمعاملات حدوث التعرض. وتعتبر نماذج AFI⁽⁴⁾ أو AERIS⁽⁵⁾ أمثلة على النماذج المستخدمة لإجراء المعاملات الحسابية المذكورة.

أخطار التعرض اليومي غير المبررة

بالنسبة للملوثات غير المسرطنة بحسب معادلات أو رواتج الخطر (HQ) ومؤشرات الخطر (HI) لأجل كل مادة ملوثة ذات علاقة ولأجل كل طريقة تعرضي اعتمادا على العلاقة التالية:

$$HQ = \frac{CDR}{RFD} \quad \text{حيث يكون:}$$

CDR = الأمتصاص أو التراكم اليومي المستديم لطريقة التعرض من المادة الكيميائية أ.

RFD = الجرعة المرجعية لطريقة التعرض من المادة الكيميائية أ.

HQ = محصلة أو رواتج الخطر غير المسرطن للمادة الكيميائية أ من خلال طريقة التعرض أ.

وحيث إن أخطار التعرض للمواد الكيميائية غير المسرطنة تبنى عملية إضافية بحسب مؤشر الخطر لأجل كل طريقة تعرض لجميع المواد الكيميائية الملوثة.

$$HI = \sum_{i=1}^n HQ_i \quad \text{حيث يكون:}$$

HI = مؤشر الخطر لطريقة التعرض (ويتم ذلك بتخصيص مؤشرات طريقة التعرض في جميع

الطرق مما أ - - - - - للحصول على إجمالي مؤشر خطر التعرض $HI = \sum_{i=1}^n HQ_i$ وإذا كان الدليل

الإجمالي لخطر التعرض أكبر من واحد، فتمثلت عملية إدارة الأخطار المطلوبة.

أخطار التعرض الملوثة المبررة

بحسب احتمال التعرض للخطر للتركم على مدى عمر الإنسان للمواد المسرطنة (ELCR) كما يلي:

$$ELCR_y = CDR_y \times CSF_y$$

حيث $ELCR_y$ = احتمالية إصابة شخص بالسرطان نتيجة التعرض لمركب كيميائي أ (يوم واحد)

CDR_y = الأمتصاص أو التراكم اليومي على امتداد فترة زمنية معينة (مغ/كغ/يوم) للمركب

الكيميائي أ مع طريقة تعرض أ و CSF_y معامل ميل أو اندثار السرطان (مغ/كغ/يوم)⁻¹.

وبحسب خطر التعرض للسرطان كلها طيلة حياة الإنسان بالإضافة الخطر الناجم عن عملية

التعرض. وإذا كان خطر الإصابة بالسرطان طيلة الحياة نتيجة التعرض أكبر من خطر

التعرض العابر مقيولا (مثلا 10^{-6})، يجب اللجوء حينئذ إلى إدارة الخطر.

وبذلك فإن عملية تقييم الخطر تؤدي إلى تقسيم المسألة إلى عناصرها المنطقية. غير أنه

قد تكون هناك مشاكل مهمة في النموذج المستخدم في تمثيل خواص عملية انتقال المكونات

الملوثة وتوضيحيها من المصدر إلى الملقب والمطبات المستخدمة كإدخال إلى النماذج والفهم

العلمي للجبرعات الترجيحية، وإثبات هذه المسألة نأخذ الحالة المذكورة في الشكل (5) الذي يوضح أبعادات البناء من داخل مصنع فولاد التي تسبب أخطاراً على المدى البعيد للتناقل المتكيفة الجاذبة. وتتضمن الفازات للنبضة متجهها (vector) للمكونات البينية (هيدروكربونات عطرية متعددة الحلز (PAHs) والمروضة بتأثيرها المرسطن، وتشير هنا إلى وجود جملة من الاعتبارات المهمة، وهي كما يلي:

- 1 - مدى دقة حساب الفازات النبضة.
- 2 - إلى أي درجة تؤثر الترسبات على انتقال مكون PAHs قبل وصوله موقع المستقبل.
- 3 - مدى تأثير تبدلات اتجاه الرياح وتأثير سرعات الرياح في حدوث الطوف والخطر.
- 4 - في حال طوع معدلات التعرض فيها عملية مما هو احتمال تعرض صحة المواطن للخطر؟ ما هو مقدار الثقة بحجم الجرعة الترجيحية؟

فعل النقاط 1 حتى 4 على مدى حالات عدم الثقة المرتبطة بتقويم احتمالات التعرض للخطر. وكذلك الأمر نشاهد وجود حالات إرتياب وعدم ثقة بما يتعلق بقيم التركيز في المياه الجوفية في موقع أو نقطة معينة بعيدة عن موقع الطمر الصحي حيث يكون احتمال انتقال رشاخة الطمر الصحي (leachate) مرتبطة بطوائف التربة والأحيات المحلية. ونستفيد هنا نموذج انتقال الملوثات للخطوة الأولى بين مختلف العوامل العشوائية للوصول إلى تقدير نوعية المياه في الموقع المذكور.

إن تعرض المستقبل للتأثير يؤدي إلى احتمال إصابته بالمرض، حيث سنستخدم ثلاثة نوعين من التقديرات: الصغار السن والبالغين - يتم تخصيص الأطفال والمسنين بنماذج سلوكية وظروف معيشية لأجل تعثيل قيم الاستعداد الأعظمية التراكمية للتعرض في موقع التعرض.

ونفترض أن تتراوح سن المستقبل البالغ بين 20 و 26 سنة، ووزنه 70 كغ ومعدل تنفسه اليومي 20m³. نفترض أن عمر الطفل الصغير يتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ووزن جسمه 10 كغ ومعدل تنفسه اليومي 2m³. هناك ثلاث طرق للوصول للموكلات إلى أجهزة وأعضاء الجسم في كل مستقبل وهي:

- طريقة الابتلاع وطريقة التعرض الجلدي وطريقة الجهاز التنفسي.
- وتقوم الخطوة الأخيرة في عملية تقويم الخطر على تكامل مختلف نتائج تقويم التعرض والتأثيرات الباعدة.

2 - 2 - هذا هو تقويم الأخطار

تعتمد منهجيات تقويم الأخطار على تحديد الخطوات الأربع التالية⁽³⁴⁾:

- 1 - تحديد الحدث أو الخطر (Hazard Identification): 1 - تقويم الجرعة - التعرض (Dose - Response Assessment): 2 - تقويم التعرض (Exposure Assessment): 3 - تصنيف الأخطار (Risk Characterization). وفيما يلي وصف مختصر لكل خطوة من هذه الخطوات.

2-2-1- تقييم الأخطار

وتمثل هذه الخطوة عملية موجهة لتحديد الأثر الصحية مثل السرطانات أو التشوهات الولادية المشتقة من مواد أو مركبات كيميائية ذات علاقة، مستخدمين نتائج الاختبارات على الحيوانات أو كائنات اختبارية أخرى.

في البلدان النامية، تثير المتطلبات التوبولية والتقنية من إمكانية إجراء الدراسات والبحوث العلمية للكشف عن الأخطار المرتبطة بمركبات كيميائية معينة، لذا يتبع في هذه الحالة باستخدام الطرق ونتائج البحوث المنشورة دولياً من قبل جمعيات أو منظمات أو وكالات علمية متخصصة معروفة مثل الوكالة الدولية لبحوث السرطان (IARC) ووكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA)، استناداً إلى الحوادث التراكمية من حالات دوائية عديدة والتي دراسات وبائية ومعطيات عن التعارب الحيوائية، تستخدم وكالة حماية البيئة الأمريكية التصنيفات الخمسة التالية (EPA) للمركبات الكيميائية ذات العلاقة بالتسبب بالسرطانات:

الجموعة A: مسرطنات مؤكدة للإنسان، هناك طواهر وبائية كافية تدعم العلاقة التبادلية ما بين التعرض لجرعة سامة معروفة وحدث السرطان.

الجموعة B: احتمال إصابة الإنسان بالسرطانات وتتضمن مجموعتين (B1)، B2 تشير إلى حوادث وبائية محدودة، ولكن حوادث كافية من السرطانات على الحيوانات، B2 تعني معطيات إنسانية غير كافية ولكن حوادث سرطانية كافية على الحيوانات.

الجموعة C: يمكن إصابة الإنسان بالسرطان، ويتلخص هذا التصنيف لواء محروسة معينة مرافقة بحدوث محدودة من السرطانات على الحيوانات، ولكن مع عدم توافر معطيات إنسانية.

الجموعة D: غير مصنفة سرطانياً، وتشمل المواد المحروسة ذات الأثر الضارة أو المؤذية غير المرافقة بحدوث سرطانية كافية سواء على الحيوان أو الإنسان، أو عدم توافر معطيات عنها.

الجموعة E: حوادث غير مسرطنة، وتستخدم لواء محروسة لا يظهر من جرائها أي حوادث مسرطنة على الأقل في اختبارين كافيين على الحيوانات في أنواع مختلفة منها أو في الدراسات الكافية الوراثة الإنسانية والحيوانية معاً.

فمركبات الكوروزيوم تشكل كنواتج جانبية عن كغرة مياه الشرب مصنفة ضمن المجموعة B2. وكذلك مركبات المبيدات الزراعية (د. د. ت. والميلدين) وثلاثي الفينيل المتعدد الكلور وثلاثي كلورو الأيثان (الآيثن) ورائع كلوريد الكربون والديوكسين والبيزنز (أ) -بيرين فكلاً مصنفة أيضاً ضمن المجموعة B2 (الجدول رقم 3)، ويعني ذلك أن احتمال الإصابة للإنسان بالسرطانات قائم ما دامت هناك حوادث سرطانية كافية على الحيوانات والكثما غير كافية على الإنسان.

أما مركبات البشريين والروبيخ والكروم والتيتانيوم فهي مصنفة ضمن المجموعة A (الجنود رقم 1) أي أنها مواد مؤكدة تشبهها بإصابة الإنسان بالسرطانات.

هناك تجارب القلبية أخرى أجريت على الحيوانات وبالتحديد مركب البشريين الثاني والرباعي الكلور مع الديوكسين (TCDD - 2,3,7,8) ويثبت اختلاف درجة سميته وأثره بين حيوان وآخر، فهو في الفئزر البحري يعادل 1 ميكروغرام/كج من وزن الحيوان في اليوم، وفي حيوان الهامستر يصل إلى 5000 ميكروغرام/كج من وزنه، أما العمر النصفي لمركب الديوكسين فهو 17 يوما في الجرذان و 7 سنوات في جسم الإنسان، ويكثر في الأنسجة الدهنية (3).

المعبر بذلك الفئران والجرذان وحيوانات الهامستر المحتوية أجسامها على المركب ضمن المجموعة (B2) حيوانات مصابة بالسرطان. ولكن الميكانيكية المؤدية للسرطان هنا ما زالت غامضة، حيث إن خصوصيات الجينات أو المورثات تدل على التدرج في محفزات الورم السرطاني، بينما تدل الفحوصات طويلة المدى على الحيوانات المؤثرة للسرطان، وهذا يعني أن تبدأ بعض المواد بالاتحاد مع الحامض الأميني DNA، حيث يؤدي ذلك إلى بدء عملية السرطنة. وتعمل محفزات الورم السرطاني على تحويل الخلايا الموصوفة إلى خلايا سرطانية، وتكون هذه المحفزات ذات تأثير بيولوجي فعال، عندما يتم تجاوز النظم الطبيعية المحددة (النموذج بها) مدة أطول وبالتالي فإن سرور السرطان ما عدا أن خروج الخلايا الطبيعية عن معدل النمو أو التكاثر الطبيعي.

2-2-2- تقييم الجرعة - التأثير

وتعبر هذه الخطوة صفات العلاقة ما بين جرعة المادة المتناولة (الملوث) وظهور الآثار الصحية الضارة. فهي التجارب لحالات أو مواد غير سرطانية، فإنه يفترض أن هناك عادة جرعة قياسية (تكون ذات مستوى تركيز محدد لا يجوز تجاوزه) إذا ما تم التعرض لها، لن تكون هناك آثار ضارة. أما في حالة المواد المعروضة لتجاوزات سرطانية، فإنه لأسباب الوقاية نفترض أن التعرض لأي كمية من الملوثات السرطنة سيخلق أو يسبب مرضا سرطانيا، وهذا يعني أنه لا توجد معايير قياسية لتراكم محدد من دون أي تجاوب ونظرا لعدم وجود متطلبات منهجية لتجارب على حيوانات تمت في منطقتنا العربية، فإن ذلك يضعنا دوما أمام تواج حدية في اختيار الطريقة التي بها نستطيع تلخيص الجرعات من التراكيز العالية إلى التراكيز المنخفضة. هناك العديد من النماذج الرياضية الموجودة والمنظمة للانتقال من التراكيز العالية إلى التراكيز المنخفضة، إن بعض النماذج الشائعة هي نماذج الطرز الواحد والنماذج

تطوير إطار المعلومات السمية المتكامل على الصحة العامة

المتعددة الأطوار أو المراحل (Multistage Model) وعادة ما الاختيار ليس قائما على متطلبات متواضعة حيثما انطلقتنا من طريقة امتثلها وكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA) ضمنية للصحة العامة، وهي اختيار نموذج يقدر الخطر بالشكل الأمثل، وكان ذلك محققا في فيني النموذج الاستقرائي الخطي المتعدد المراحل أو الأطوار (Linear Multistage Model) الذي هو نموذج خطي عند الجرعات الصغيرة أو المنخفضة المرافعة بشكل طردي مع منحنى الخطر المحدد خطيا بحيث يكون مجال الثقة إحصائيا أكبر من 95% (أي حدود الخطأ أقل من 5%). وهذا يعني بشكل أدق أن احتمال تعرض الإنسان لخطر الإصابة بالسرطان مرتبط خطيا مع قيمة أو تركيز جرعة الملوثة. يسمى ميل منحنى (الجرعة - استجابة). عند الجرعات المنخفضة باستخدام النموذج الاستقرائي المتعدد الأطوار، بمعامل اتحدار أو ميل السرطان أو بمعامل التفاعلية (Cancer Slope Factor Or Potency Fac.) (الشكل 6). وتُعطى المعادلة المستخدمة في حساب الخطر السرطاني المشترك على مدى عمر الإنسان على الشكل التالي:

الخطر السرطاني المشترك على مدى عمر الإنسان =

الجرعة اليومية الوسطية × معامل اتحدار أو ميل السرطان

LIFETIME RISK = AVERAGE DAILY DOSE (HONGDAY)

X POTENCY FACTOR (HONGDAY)

LIFETIME RISK = CDI X CSF

وتُعطى الجرعة كقيمة وسطية محددة على طول فترة عمر الإنسان المقترضة (٧٠ عاما)، وتدعى هذه القيمة بالمعدل اليومي المستخدم لتجبرج الملوثة (CDI). وبمعنى نظام المعلومات المطلوبة لإجراء هذه الحسابات المستند إلى قواعد المعلومات الخاصة بالمواد السامة، نظام المعلومات للخطر المشترك (RIS)، وهي بهذا تشكل الإطار التقديري للخطر الإنساني.

٢ = ٢ = ٢ تطوير المعادلة

وتتضمن هذه الخطوة تحديد حجم وطبيعة السكان الذين تعرضوا للمواد السامة العنبر، ولأجل تقدير الخطر النسيب بواسطة مياه الشرب الحاضرة لبعض المواد السامة، فإنه من الضروري تحديد المعدل اليومي المستخدم لتجبرج الملوثة (CDI) ووزن جسم الإنسان.

ويقدر المعدل اليومي لتجبرج الملوثة من خلال معرفة كمية المياه المستهلكة يوميا وتركيز المادة السامة في مياه الشرب. (الجدول ٥) يعطى القيم المعيارية (القياسية) التالية المستخدمة في تقييم التعرض.

الجدول (٤) - القيم المعيارية الموصى بها لفرض حسابات المعدل اليومي للتعرض حسب وكالة حماية البيئة الأمريكية (٤).

القيمة المعيارية	العامل
٧٠ كغ	الوزن الوسطي لجسم الإنسان (بالغ)
١٠ كغ	الوزن الوسطي لجسم الإنسان (طفل)
٢ لتر	كمية المياه المستهلكة يوميا (بالغ)
١ لتر	كمية المياه المستهلكة يوميا (مطل)
٣٠ عاما	مدة التعرض على مدى متوسط عمر الإنسان

٤ - ٢ - تصنيف الأخطار

إن عملية التكامل والربط بين الخطوات الثلاث السابقة يمكننا من استنتاج تقدير حجم المشكلة الصحية الواقعة في مصنع إنساني ما يتجرع المياه الحارة لواء مسروقة وبذلك نستطيع تحديد الخطر الإجمالي الصحي ككل على أي مدينة أو أي تجمع سكاني.

٤ - ٣ - تقييم درجة النتائج

في تحديدنا للخطر الأخطري الناتج من أمراض السرطانات، انطلقنا من المعايير الإرشادية (لنظمة الصحة العالمية أو السورية المتأخوذة منها) المسموح بها لبعض المركبات الخطرة في مياه الشرب (الجدولان ٢ و٤ المصنوع الثالث). فهي على سبيل المثال في حالة الكلوروفورم (Chloroform) محددة في المعايير السورية بتركيز أعظمي مسموح به ٢٠ ميكروغرام /لتر. بينما هي في المعايير الإرشادية لنظمة الصحة العالمية ٢٠٠ ميكروغرام / لتر.

وبالنسبة للمبيد الزراعي د. د. فإن المعيار المسموح به هو ١ ميكروغرام / لتر وبالنسبة للمبيدات الزراعية معا الفوس والديلدري فإن المعيار المسموح به هو ٠.٢ ميكروغرام /لتر. وبالنسبة لمركب عديد الكلورين ثنائي الفينيل (PCB) فهو ٠.٥ ميكروغرام /لتر. وهكذا بالنسبة لبقية المركبات الواردة في الجدولين (٢ و٤).

ولحساب الخطر المتوقع من السرطانات على طول فترة عمر الإنسان، افترضنا أن كمية تراكيز الملوثات الخطرة الموجودة في مياه الشرب هي نفسها ضمن المعايير المسموح بها. ولتبيان ذلك بالتحصيل اخذنا مركب الكلوروفورم كمثال حسابي بتركيز مسموح به حسب المعايير السورية وهو ٢٠ مكغ /ل.

المعدل اليومي المستديم للجرع الكوت =

$$CDR = (30 \mu g/l \times 200 g/l \times 1000 \mu g \times 365 \text{ days}) / 70 \text{ kg}$$

$$= 0.000077 \text{ mg/kg/day}$$

الخطر السرطاني الممتد على طول عمر الإنسان =

المعدل اليومي المستديم × معامل الانحدار أو الهول

$$FED = 0.000077 \times 0.0061$$

$$= 4.77 \times 10^{-6}$$

يمكن أن نلاحظ من هذه النتيجة أن الخطر السرطاني الممتد على فترة عمر الإنسان حسب المعايير الإشراعية السورية نتيجة استهلاك مياه الشرب المحتوية على تركيز أعظمي من الكوروفورم مماثل لما هو مسموح به سيؤدي إلى موت خمسة أشخاص لكل مليون نسمة، وإذا أجرينا الحساب على أساس التركيز المسموح به حسب المعايير الإشراعية لمنظمة الصحة العالمية وهو 200 ميكروغ/ل، فإن الخطر السرطاني الممتد على طول فترة عمر الإنسان سيكون مماثلاً حوالي 25 شخصاً لكل مليون نسمة.

وطبعاً إن الأمور ستكون أسوأ بكثير فيما لو أخذت قياسات لتركيز ثلاثي الهالوميثات في مصافير المياه العذبة المستخدمة مصفاً مياه الشرب في البلدان العربية، وكانت قيمة تركيز الكوروفورم المقاسة أكبر مما هو مسموح به (حسب معايير منظمة الصحة العالمية) ولوكن على سجل المثال أكبر - (1 -) إشتاباً بيئياً، الخطر السرطاني هو موت (250) شخصاً لكل مليون نسمة.

ليس هناك قياسات تجرى حالياً في بعض البلدان العربية إن لم يكن معظمها أو كلها، وذلك لتركيز ثلاثي الهالوميثات (THM) في مياه الشرب المعالجة أو مياه الصنوف الصحي المعالجة. هناك دراسة وحيدة في المنطقة العربية على حد علم المؤلف قد أجريت لتقدير سمكيات أو THM في مياه الصنوف الصحي الخارجة من محطة المعالجة، وذلك في الأردن⁽³¹⁾. وقد بينت نتائج هذه الدراسة أن مركبات ثلاثي الهالوميثات التي تم التحري منها كانت من مركب الكوروفورم، والتي ازداد تركيزها بشكل كبير وسريع جداً مباشرة بعد عملية التطهير لمياه الصنوف الصحي المعالجة ببولوجيا. وهذا يدل على أن هذه العملية كانت مسؤولة عن تشكل هذه المركبات. كما دلت نتائج هذه الدراسة على أن الكوروفورم شكل أكثر من 80% من تركيز ثلاثي الهالوميثات الكلية.

وبشكل مشابه لما سبق لم تحديد الخطر السرطاني الناتج عن المركبات الأخرى التي هي ضمن التصنيف B2 مثل THM حيث قدرت الوفيات بـ 10 أشخاص لكل مليون نسمة، والديلدريون حيث قدرت الوفيات بـ 21 شخصاً لكل مليون نسمة، وثاني الفينيل المتعدد الكلور

(PCB) حيث قدرت الوفيات بـ 1.09 أشخاص لكل مليون نسمة، والد TCE حيث قدرت الوفيات بحوالي شخصين لكل مليون نسمة، ورائع كلوريد الكربون حيث قدرت الوفيات بـ 7.0 أشخاص لكل مليون نسمة، والمبيدات حيث قدرت الوفيات بـ 24 شخصاً لكل مليون نسمة، والبنزين (أ) بـ 100 شخصاً لكل مليون نسمة، حيث قدرت الوفيات بشخصين لكل مليون نسمة.

أما الخطر السرطاني الناتج عن المركبات المصنفة ضمن المجموعة الأولى (A) فقد كانت نتائجها كما يلي (الجدولان 2 و 1):

في حال وجود كلوريد الفينيل في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ 228 شخصاً لكل مليون شخص، وفي حال وجود البنزين في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ 8 أشخاص لكل مليون شخص، وفي حال وجود الزئبق في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ 500 شخص لكل مليون شخص.

نلاحظ مما سبق الأعداد الكبيرة المتوقعة لحدوث وفيات من أمراض السرطانات الناتجة فقط من مياه الشرب. هذا فيما لو وجدت هذه التراكبات مجتمعة أو بعض منها في مياه الشرب. حتى عندما تحقق هذه المياه أو تلتزم بالمعايير القياسية العالمية المسموح بها. خاصة أننا نجد الخطر الكبير يأتي من المركبات العضوية عديدة الكربون ثنائي الفينيل (PCB) وكلوريد الفينيل والديوكسين. ويبدو الأمر خطيراً جداً في حال عدم التوزيع الذي نصل نتائج خطورته إلى حدوث وفيات بمعدل 500 شخص لكل مليون نسمة.

ولكن كيف ستكون النتائج فيما لو كانت هناك في مياه الشرب مخاليط مخبرية خفيفة للمركبات الخطرة المذكورة في مصفائنا المائية العربية وأعطت عملاً لتركيز أكبر مما هو مسموح به بكثير. وبالتالي سيكون عدد الوفيات المتوقع بشكل أكبر من أمراض السرطانات عالياً جداً.

8 - الخلاصة

في حالة مركبات ثلاثي الهالوسينات، صحيح أن عملية التعقيم هي خطوة مهمة في وحدات تقوية المياه وتستخدم عند مواضع معينة في هذه الوحدات إلا أنه يمكن أن تسبب نواتج جانبية شديدة الخطورة مرتبطة بحدوث أمراض السرطانات. في الحالات التي تحتوي فيها مصائد مياه الشرب على ملوثات عضوية فإنه من الأفضل هنا، تجنباً لخطر السرطانات عدم تعقيم مياه الشرب بالكور. لأن ذلك سيجري إلى تشكل مركبات هي أكثر خطراً وضراً من الهاليدات. تعقيم المياه بالكور للقضاء على التلوث الجرثومي. وقد أخذنا الحديث هنا حول هذه المركبات أكثر من أي ملوثات أخرى. نظراً لأهميتها وتوقع وجودها في مياه الشرب بشكل أكبر. لقد تم حساب المخاطر الصحية الناتجة عن أمراض السرطانات على مدى عمر الإنسان استناداً إلى المعامل الواسع بها من قبل وكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA). أي مدة تعرض

تطوير أنظمة المعلومات الصحية بطريقة علمية

الإنسان على مدى ٧٠ عاماً، واستهلاك يومي للمياه بمعدل ٢ لتر للشخص الواحد ووزن الجسم ٧٠ كغ، ولدى تغير أي قيمة من هذه العوامل، يمكن تقدير معدل العمل اليومي المستقيم لتخرج الملوث COD من خلال تقسيم الجرعة الكلية الممتدة من خلال (تركيز الملوث × معدل استهلاك المياه ×

مدة التعرض × معدل الامتصاص) على وزن جسم الإنسان وعلى متوسط عمره.

إن الحسابات أو التقديرات المثلثة هنا في الدراسة جاءت استناداً إلى التركيز الأعظمية للملوثات المدروسة المسموح بها، حسب المعايير الإرشادية أو القياسية السورية أو منظمة الصحة العالمية، ولأجل الحصول على تقديرات حقيقية، فإنه يجب إجراء قياسات ميدانية وعملية لكل الملوثات المدروسة بدءاً من الكلوروفورم إلى جميع الملوثات التي تشكل خطراً سرطانياً الكبد أو احتمالياً أو ممكناً. وإذا ما كانت القيم الفعلية المقاسة ذات تراكيز عالية فتعنيهاً ستعطي الحسابات قيمة أعلى لتوزيع الملوثات الصحي.

إن معالجة النفايات مياه الشرب المحتوية على الملوثات الخطورة المدروسة مثل الكلوروفورم والبيدات، وغيرها من المركبات العضوية الهالوجينية والتركيبات العضوية الأروماتية أو العطرية مثل البنزين يمكن أن تتحقق من خلال وحدات معالجة متقدمة مثل المرشحات الضخمة للمنطقة (CAC) ووحدات أبراج التهوية (PAILED TOWER ABRATION OR AIR STRIPPING) (٣١).

إن تحديد الخطر الإجمالي الكلي الناشئ من عينات المياه المحتوية على تراكيز ملوثات مختلفة مثل ما هو جارٍ حالياً في العراق يمكن أن يحسب من خلال تكامل مجموع الأخطار التراكمية والنتيجة عن كل ملوث يفسر عدداً وإجراءاً في التقديرات أو التقديرات هي متساوية لكل الملوثات، إلا أن لكل ملوث معامل ميل سرطاني أو معامل تحريض (CANCER SLOPE FACTOR) مختلف عن الآخر.

وفي حالات التعرض للملوثات الخطورة المسمومة بطرق أخرى غير التي تصل عن طريق الشرب، عند ذلك سيكون هناك معاملات قبول مختلفة حيث يكون معامل الميل للملوث عن طريق مياه الشرب مختلفة عن معامل الميل لنفس الملوث ولكن عن طريق الهواء من خلال الاستنشاق. أما في حالة الملوثات التفلفية غير المسمومة فإن تحديد خطورتها يكون بإجراءات أخرى واردة (في الفقرة ٢-١-٢) وهي التلويح أساساً بمقارنة تراكيزها مع المعايير الأعظمية المسموح بها.

ينبغي إجراء تقييم الأخطار (Risk assessment) التي جاء عرضها في هذه الدراسة خاضعة لنواح جديدة، ما دامت لا تتوافر معطيات عن قيم الجرعات المخصصة (Dose dose) التي تشكل خطراً أكيداً مع تراكيزها الزمنية، ولكنها ومعها يمكن فهي نفس الإجراءات الفعلية التي أوصت بها وكالة وطنية مرجعية متخصصة على المستوى القومي، مثل وكالة حماية البيئة في أمريكا التي تنطلق من المعايير الأفضل أو الوفاة للملوثات للسكان.

5- التوضيحات

- وضع برنامج مرافقية للمصادر المائية السطحية والجوفية المستخدمة لأغراض الشرب في الأقطار العربية ورصدها ضماناً لظهورها من المركبات الخطيرة الخطرة (سواء الهالوجينية أو العطرية أو الشظيرية) ومن المعادن السامة، إضافة إلى تحديد مصادرها ومخاطرها.
- وضع معايير صارمة لتصريف النفايات الصناعية الخطرة ومخلفاتها الثانوية الأكثر خطراً إلى المصادر المائية العذبة.
- تزويد محطات معالجة مياه الشرب التقليدية القائمة حالياً بوحدة معالجة متقدمة مثل عمليات الانحلال بواسطة المرشحات النسيجية النشطة أو من خلال وحدات الترذال الهوائية، وذلك من أجل تنقية مياه الشرب المحتوية على الملوثات الخطرة.
- في حال وجود ملوثات عضوية في مصادرها المائية العربية (السطحية والجوفية) المستخدمة لأغراض الشرب يلزم هنا استبدال أسلوب التعقيم بالكلور بحيث تتم عملية التعقيم أولاً للمياه العذبة بالأشعة فوق البنفسجية (UV) أو بالأوزون، لأنشطة الملوثات العضوية قدر الإمكان، ومن ثم يليها التعقيم بالكلور بحيث تضمن وجود الكلور المتبقي في المياه النقية لتكسب لمنع أي عملية لإعادة التلوث في شبكات التزويد بمياه الشرب.

ARCHIVE

بير جوردو بين العادية العام كسبية والوجودانية الفيزيقية «نحو اقتصاد مبدائي للظواهر الفيزيقية»

د. عبد الكريم درويش (*)

مقدمة

بعد بير جوردو واحدا من أهم علماء الاجتماع في فرنسا اليوم بل الله أنهم على الإطلاق. وهو ينتمي من حيث العمر الزمني إلى الجيل الذي تلا جيل سارتر ورومان رولان وألفريد ماستروني. على الرغم من اختلاف هؤلاء فيها بينهم. ولد عام 1920 في دافان في منطقة الشبيرة جنوب غرب فرنسا (جبال البيرون). وخلال شبابه الأنغريغاسيون (الشبيرة) في الفلسفة من مجموعة المعلمين العليا عام 1946.

وفي عام 1966 أصبح مديرا لأحد أقسام الدراسات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس، وعندها أصدر كتابا بعنوان «الورثة». وذلك بالتعاون مع جان كلود ياسرون، وكان المصير في شهرته. ثم تلت ذلك كتبه ومقالاته العديدة حتى أصدر عام 1970 كتابه المنهجي لهم «الحسن العملي». وفي عام 1987 أصبح أستاذا في الكوليج دو فرانس وراح يلقي دروسه منذ ذلك الوقت تحت عنوان «دروس في علم الاجتماع العام».

ينتمي جوردو إذن إلى الجيل الذي أتى لكي يحدث القطيعة مع الوجودية السارترية أو الفيزيقولوجيا الوجودية. على الطريقة السارترية، وينحدر إلى الأبيستيمولوجيا وفلسفة المصطلح والعلوم الإنسانية. وكان رائد هذا الاتجاه في فرنسا شخص غير معروف من قبل الجمهور العام هو جورج كانفيلم. استلزام فلسفة العلوم وخصوصا العلوم الطبيعية في

(*) دكتوراه في الفلسفة من جامعة

الواقع، أنه لكي نفهم «عقلية» هذا الجيل المسيطر الآن على الساحة الثقافية الفرنسية، يلزم أن نأخذ معنى الاعتبار وجود تيارين عريضين كانا قد سيطرا على الساحة طيلة الأربعين عاما الماضية هما:

١ - **التيار الوجودي**، ويمثله سارتر ومارلو بونتي. كان هذا التيار مهووسا بالبحث عن المعنى، معنى الظواهر والوجود، وكان متمسكا في البداية من أعلى رأسه إلى أقصى قدميه. كانت تلك هي الفترة التي ازدهرت فيها فلسفة الذات والحرية والالتزام والثورة.

٢ - **التيار الأبيقريولوجي**، الذي يمثل في فرنسا غاستون باشلار وأليكساندر كويري وجيلينها جروج كاتيلم. وقد ركز هؤلاء على أهمية التصطليح والنهوض والعقلانية وفلسفة العلوم، أي ما يسمى بشكل عام بالنهضة الأبيقريولوجية. كان هذا التيار يهود، ظاهريا، يمهدا عن السياسة وهمومها بالعلمي المباشر للكلمة. ولكنه في الواقع كان أكثر تأثيرا على المدى البعيد. وهو الذي انتصر في النهاية والفكر موجه العلوم الإنسانية التي نشدها اليوم.

كان بورديو، كميشيل هوكو، قد أحس بالحاجة إلى الانحراط في النهضة الأبيقريولوجية واعتلى «الروح العلمية الجديدة» بشكل كامل. وبذلك بعد أن سقط في نظره الخطاب الفلسفي العمومي والتقليدي السائد في السوربون، قد باعته الفلسفة. ولا بد من أن يحل محلها شيء آخر هو: العلوم الإنسانية. ولكن الفرق بينه وبين هوكو وبارث وغيرهما من كبار المثقفين هو أنه لم تكن له «مسيبات» لكي يستجيبها مع عائلته اليهودية، فهو قد ولد في جبال البيوتيه في بيئة زمنية تقليدية في صلب أن الأشهر الخمس شتاء إلى عائلات بورجوازية. أو على الأقل بورجوازية متوسطة. ولهذا السبب لم يتحسس بورديو كثيرا للموضوعات الأساسية التي كان يشهدها جروج باتاي، وموريس مالينو في محلة «لند». هذه الموضوعات الخاصة بنقد القيم المائتية واختراق المعايير الأخلاقية التقليدية في مجالات شتى. ويعترف بورديو بصراحة عالم الاجتماع الذي يعرف ما يقول بأن ذلك عائد فعلا إلى «أسباب سوسيولوجية».

كان بورديو مشغولا من جهة باختراق المعايير المؤسساتية وموضوعها الخاصة، وكان يشعر نحوها بالكره ويرى أنها مبنية على العنف أو احتراش العنف، كما أنها مبنية على الطماع والغش والظواهر والجماعات التي تتخذ شكل القوانين الأبدية. هكذا كانت تبدو له السوربون في سني الخمسينيات. وكان يريد أن يتحداها ويتحدى من خلالها كل النظام الاجتماعي القائم.

لقد مر بورديو بنظم الفلسفة كبنية مشاعير جملة. ولكنه أحس بالخواء والعدم هي المقام الفلسفة وأراد التحول عنها بشكل أو بآخر. كان هناك استاذ واحد يعجبه نسبيا في هذا القسم في السوربون هو «ميري غوهيه»، وقد حضر تحت إشرافه أطروحة جامعية صغيرة بعنوان «لاينتر دائما الديكارتي». ما عدا ذلك لم يكن هناك شيء يجذبه. كان تدريس الفلسفة محصورا آنذاك في تكرار النصوص الكلاسيكية القديمة ذاتها. هذه النصوص المقطوعة عن

الواقع والحياتة والاشغولة بالانتماء في مناهج البناغريفا والكلام العاملي المتد الذي يعني كل شيء ولا يعني شيئاً يذكر.

لهذا السبب راح بورديو الشاب يبحث عن دروس لها معنى في باريس، ويبحث عن الأساتذة الذين يهتمون العلم الحقيقي. ولم يكن أمراً سهلاً، لأن هؤلاء الأساتذة لم يكونوا معروفين كثيراً، كما أنهم لم يكونوا مقررّين في البرنامج العام للامتحنين.

ولهذا كان على الطالب الذي يريد أن يتألف نفسه فعلاً أن يبحث عنهم على «عنوة الضيف» في مجادل باريس وأروقة معاهد البعثة. كان هناك غاستون باشلار وجورج كانتيلم المذكوران أيضاً، وكان هناك أيضاً أشخاص في مدرسة الدراسات العليا والتكولوج دوفرانس من أمثال أريك فيل، اليكسندر كوري، فيرو، إتيان جوسون... يقول بورديو وأعضا تلك الفترة: [كنت أحاول ككل أولئك الذين تبعوا من الوجودية أن أذهب إلى أبعد من مجرد قرابة المؤلفين الكلاسيكيين وأن أحاول إعطاء معنى ما للفلسفة. وكان جورج كانتيلم وغاستون باشلار بالنسبة إلي بمنزلة «الأنبياء المثاليين أو الأنبياء القدوة» بالعلم الذي يعطيه ماكس فيبر لهذه الصيغة. ولما كانت الحركة التكنولوجية - الوجودية مسيطرة على الساحة، فلم يكن أحد تقريباً يعلم بوجود هذين المفكرين. على الرغم من أن دروسهما كانت تفتح خطاً جديداً^{١٩}.

لم تبدأ المؤسسة الجامعية التقليدية بالانفتاح بكل مناهجها البالية والإرهاب للذين في أحشائها أو العنف المطلق في شهادتها إلا بعد أحداث مايو ١٩٦٨. لكن ديفاليم التغير كانت قد ابتدأت منذ أوائل الستينيات عندما أصبح لفي ستروس كتابيه «الأنثروبولوجيا التيبوية» عام ١٩٥٨ و«الفكر المتوحش» عام ١٩٦٦. وفي ذلك الوقت كان ميشيل فوكو أيضاً يترجم كتاب كانت، «الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتية» ويضم له (عنصر عام ١٩٦٤ عن دار هرن الفلسفية). وقد ساهم لفي ستروس في إعادة الاحترام والتقدير لعلوم الإنسان عن طريق الإشارة إلى سوسور والأنثيمات وتطبيق مصطلحاتها في ساحة الأنثروبولوجيا ودراسة بني القراءة. وبمقدّر ظهرت العلوم الجديدة التي اكتسحت الساحة فيما بعد، والتي تنتمي بالأساس «لوحيا» من مثل «اركيولوجيا» (ميشيل فوكو) أو «غرافولوجيا» (جانك دريدا) ومذهب التفكيك) أو سيميولوجيا (رولان بارت وعلم الدلالة)... إلخ. ثم بلغت هذه الحركة الثقافية والاحتجاجية الواسعة ذروتها بالثورة الطلابية والعمالية عام ١٩٦٨. وقد امت هذه الحركة إلى الإطاحة بنظام التعليم السابق وبقيمه، وأعلنت محله نظاماً آخر جديداً. وكان لأفكار بورديو بعض الفضل في ذلك، بالإضافة إلى الآخرين.

لكن بورديو ليس واحداً تماماً من فلاسفة جيله الذين سيطروا على الساحة منذ الستينيات حتى أوائل الثمانينيات. وهو كثيراً ما يهاجم الفلاسفة في دروسه أو كتاباته، كما كان يفعل مثله دوركهيم. يقول عنه: [صحيح أنهم أحدثوا قطيعة مع التكنولوجيولوجيا السارترية

والنزعة الإنتمائية الهشة أو المبردة والمثالية، ولكنهم انضموا نصف الانضمام إلى المذهبية الأبستمولوجية واعتنقوها نصف اعتناقاً⁽³⁾.

عندما يقول بورديو هذا الكلام فإنه يريد أن يوحي ضمنياً أنه الوحيد الذي أحدث القطيعة الكاملة مع الفلسفة التقليدية وانخرط بشكل كامل وتم في مجالات البحث العلمي الدقيق.

في الواقع، إن بورديو يعيب على الفلاسفة (الكوسير، شاتليه، دريدا، وغيرهم) أنهم ينظرون من موقع عال يتمالئ على الواقع ويتجاوز الآخرين. بل أكثر من ذلك، أنهم يسيرون أعمال الباحثين للخطوط على أرض الواقع في دراسات ميدانية عملية، ويسبقون على نتائجهم هيئة فلسفية تعمدية من دون أن يذكروا مصدرها أو يتعمقوا في التوصل إليها. حتى قال: إن طرأسوا شاتليه قد فعل ذلك معه بالإضافة إلى الكوسير وآخرين.

أما موقفه من ميشيل فوكو، فقد كان كلامه عنه أكثر اعتدالاً وأقل سلبية. قال عنه بما معناه، لم يتم بأبحاث ميدانية محسوسة مثل بقية الفلاسفة، ولكنه كان يتميز بتكاد حد تادر الوجود. وكان يشتغل عن طريق الحتم أكثر مما يشتغل عن طريق المنهج. وغالباً ما كان حتمه يصيب نظراً لمكانته، بمعنى آخر، فإنه كان يتوصل إلى النتيجة نفسها التي يتوصل إليها الباحثون الميدانيون بجهد أقل ووقت أقصر. يضاف إلى ذلك أنه أول فيلسوف انتبه إلى أهمية علم التاريخ وعلمه.

مهما يكن الرأي في تأكيدات بورديو هذه، وحتى لو خالفناه في هجومه الحاد على الفلاسفة، فإننا لا نشك إلا المبالغة على دعواه لأن يخطئ الباحث على أرضية الواقع للعيش، وعدم اكتفائه بأخذ النصوص ليطول الكتاب وللمأخذ بها من واقع الحياة والتصورات الميدانية والتجارب المخبرية إذا أمكن.

إن المذهبية التي يستعدها بورديو حادة، ولكنها ليست حادة سطحية أو ميكانيكية. وإنما هي حادة ناشطة خائفة. وهو يلوم المفكرين «الماديين» لأنهم تركوا المساحة خالية للمثاليين يعملون فيها ويحولون، في حين راحوا هم يلغون عضولهم ويستسلمون لنظرية الانعكاس والعقلانية الضيقة. إنه يرى أن ذلك هو الذي جعد نظرية المعرفة في الماركسية وأظهرها كثيراً. وهو هنا يستشهد بماركس نفسه الذي يقول في إحدى أطروحاته الشهيرة حول فيزياء ما معناه: «تكن مسائل المادية هي أنها تغفل للمثالية عن الجانب الناشط للمعرفة، ولهذا السبب ينبغي إعادة الجانب الناشط، و«الروعي» الفعال للمعرفة إلى المادية. وهذا ما يزعج بورديو الفهم به عن طريق تأسيس نظريته المرتكزة على «مادية الأشكال الرمزية».

ولكن من أجل تزويد الذات العارفة بالتهجية المادية المحسوسة، ومن أجل تزويدها بالقدر على اكتشاف عالم الأشياء وإعادة تشكيله من جديد، فإنه ينبغي عدم الاكتفاء بالتطهير البحث، لأن ذلك يؤدي إلى التوقوع في الطرف الآخر. طرف المثالية، وإنما ينبغي «صنع» المعرفة بشكل عملي، ومن داخل الممارسة الميدانية.

لهذا السبب راح بيير بورديو يخوض بنفسه الأساطير الاجتماعية - الثقافية كافة. وقد مارس البحث الميداني في أكثر من عشرين وسطاً وبيئة: ضمن بيئة الصالحين القبايليين في الجزائر - إلى بيئته الأصلية الريفية في جبال البيرنيه، إلى الأوساط «الحضرية الراقية» في باريس (وسط الأرباب العالية والموصلة... إلخ)، مروراً بأوساط نقابات العمال وأرباب العمل والطلاب ونظام التعليم... إلخ. يكون بورديو قد تعرف المجتمع بكل حقوله وحفاته، ولعل هذا هو السبب الذي جعله ينسج العالم الاجتماعي إلى مجموعة حقول أو ساحات مغلقة ومستقلة نسبياً لكي يفهم أية كل حقل ووظيفته وطرائق استغفاله قبل أن يخاطر بإطلاق حكم ما على المجتمع ككل. لقد عثقت هذه التجربة الميدانية التأسيسية من بيير بورديو عالم الاجتماع مثلاً في الثقافة وطاعت عينه على حقيقة الإنسان الاجتماعية ومشروطية الإنسان في هذا العالم الاجتماعي الذي لا يرحم.

هل يعني ذلك أن بورديو متشاكك هل يعني أنه مع الحتمية ضد الحرية كما يكرر بعضهم كثيراً؟ عن هذين السؤالين المزعجين أجاب عالم الاجتماع الشهير أكثر من مرة، واشتكى من إهمال الناس له بأنه «محتوي» أو «فردى متشاكك». يقول: «إن من يمارس علم الاجتماع والتحليل الدقيق لأوضاع البشر في العالم الاجتماعي لا يستطيع أن يكون متشاككاً جيداً. إن العلم الذي يريد أن يفهم ويتكشفت عنه ما هو موجود من طرائق يتطوّر حتماً أنه لا شيء موجود من دون علة وجود. لكن عالم الاجتماع يضيف إلى هذه العبارة كلمة «اجتماعي» فتصبح من دون علة وجود اجتماعية»¹.

ولكن الناس يخطئون، يخلط اسم الحتمية بين شيئين مختلفين جداً، الأول، هو الضرورة الموضوعية الكاملة في الأشياء، والثاني، الضرورة «المبشاة» الظاهرية والذاتية، أي عاطفة الشعور بالحتمية أو بالحرية. إن درجة الحتمية التي نتحكم في العالم الاجتماعي تعتمد على معرفتنا له. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فنحن نجد أن الدرجة التي يخضع بها العالم الاجتماعي للحتمية ليست مسألة رأي شخصي. [هناك عالمان اجتماع لا يقول لي أن أكون مع «الحتمية» أو مع «الحرية». هذا شيء لا معنى له في نهاية المطاف، وإنما تكمن مهمتي في استكشاف الضرورة إذا كانت موجودة. وحيثما تكون موجودة، وكلما تقدم علم الاجتماع في معرفة العالم الاجتماعي، واستكشاف قوانينه تزايدت أهمية الضرورة ووجودها في كل مكان. ولهذا السبب ينهون علم الاجتماع بأنه «فردى» أو «محتوي» كلما كان أكثر تقدماً»².

وهي مكان آخر يتحدث بورديو عن المثقفين ويقول ما معناه: [أحدى السمات الخصوصية التي تميز موقع المثقفين داخل الفضاء الاجتماعي تكمن في أنهم يتوهمون الاستقلالية بالنقيض إلى الحتميات والإكراهات الاجتماعية. ولهذا السبب بالذات فإن الحتمية الاجتماعية تضغط عليهم بشكل أكبر عن طريق وهم الحرية الذي يتخون به. ثم يختم بورديو كلامه بهذه العبارة الجميلة: إن علم الاجتماع يحررنا عن طريق تحريرنا من وهم الحرية...»³.

هل يعني ذلك أن التغيير غير ممكن، وأن الوضع القائم راسخ لأنه يمتلك قوة وجود معينة؟ هل يعني ذلك أنه أبدي، وأن التسيطر مستطير حتى آخر الدهور والظروب مطلوب حتى آخر الدهور؟ يجيب بورديو بالنفي الفاطح، وذلك لأن المجتمع في حالة تغير مستمر حتى لو بدأ هامثاً وانكساراً على السطح. ثم إن بورديو يذهب إلى تأسيس علم اجتماعي نقدي صادم وبالتالي تنبؤي، لا تنبؤي ولا مكثري محافظ، لكنه كأي باحث كبير يعرف أن التغيير ليس مسألة كلمات وشعارات وأحلام رومانطيقية، أو ليس كل هذا فقط، إنه شيء آخر، يقول: «من أجل أن يحصل التغيير ينبغي علينا كمرحلة أولى استكشاف القوانين السائدة في العالم الاجتماعي (المجتمع) ثم استغلال التناقضات الموجودة في هذا العالم وخصوصاً عندما يعني أزمة موضوعية، عندئذ يكون هناك حظ ما في إجراء التغيير وتجاوز التغيير، وإلا فإننا نضيق وقتنا سدى ونكون كمن يطبخ الصلح...»⁽¹⁾.

بمن يستعني بورديو في عمله التحليلي - النقدي هذا الذي يشغل في طريقه كل شيء ما الأسلحة التي يستخدمها والشخصيات التي يتنكب عليها لمواجهة علم الاجتماع المدجن والرسعي، الذي يطف دائماً إلى جانب السلطات الهيمنة (من مؤسسات وأرباب عمل وبهين سياسي وفيلسوف مثقف...) إلخ؟

في أحد الدروس التي ألقاها بورديو في الكوليج دوفرانس راج يقيم تجربته العملية فلسفياً ويعود على خطأ السائدة لكي يتأمل أولاً كيف يتعامل علماء الاجتماع مع العلم، سوف تتعلمون أنكم في درس فلسفة لا هي درس علم الاجتماع، ولكن أرجو أن تعلموا أن ما افهمه ليس عملاً نظرياً بحتاً، وإنما هو عمل نظري يعني، بعد انتهاء المحاضرة، أي بعد إجراء البحوث الميدانية والتطويرية، إنه يهدف إلى التحليل من وجهة العمل الميداني والسيطرة النظرية عليه، كان السؤال الأساسي الذي طرحه هذا العام يخص العلاقة بين السلطة والعرفة، وكان أطروحة قد فطرا ذلك في الفترة نفسها التي كنت أجري فيها أبحاثي الميدانية (يقصد هوكون لكن من دون أن يسميه)، وقد رأيت أنه ينبغي تجاوز الوقت الأفلاطوني الذي يعاكس السياسة بالنظرية ويقيم حداراً عازلاً بين العلوم السياسية والعلوم الفكرية الصرفة للفيلسوف، أريد أن أتجاوز ذلك لكي أؤمن على أن هناك سلطة للنظرية، أو سلطة نظرية، النظرية هي مبدأ الرؤية بالمعنى الأنطولوجي للكلمة، وهي مبدأ التقسيم والتصنيف أي تقسيم العالم الاجتماعي إلى فئات وأصناف، إلى خير وشر، وقبول ورفض، ومفكر ومؤيد، وغير ذلك، لقد فمت بهذا التمييز النظري كعالم اجتماع وباعت مبدائي، وحاولت تصديق قوانين السلطة النظرية واليات اشتغالها، أي الشروط الموضوعية لممارستها وفوزها على البشر أو الفاعلين الاجتماعيين ضمن حقل معين، وهذا ما ينسأ الفلسفة عموماً، لأنهم يفكرون دائماً في مصطلحات الجواهر الخاصة، إني أعود إلى الوراء بعد أن اجتازت الشوط عملياً، وذلك بغية استخلاص

النتائج. لقد كان موعده الحصار النظري، وما هذه الخلاصات أو التوليفات الثلاثة، إلا عبارة عن تجميع لمساهمات قام بها فلاسفة وعلماء اجتماع ومنطرون. وهي تبدو كقوة الأولى أو للأنظار الساذجة أنها غير متوافقة بعضها مع بعض. أقصد بالتوليفات هنا النتائج الأساسية لفكر ماركس وماكس هوبر وموركهيم. يلمني البعض لأنني ماركسي وهبيري وموركهيمي معا. أعتقد أن هذا مقصدي لأنني أخذ بعين الاعتبار الرأسمال النظري القرائن من قبل مفكري الباطني. وأعتقد أن العمل العلمي لا يتمثل في محاولة التمايز والاختلاف، هذا فعله مفكرو الباطني من أجل التمييز بالفرق والخصوصية. وإنما يتمثل في تجميع النتائج التي توصلوا إليها ولكن، ليس بطريقة تلقائية، وإنما عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة بينهم. إن هذه التناقضات ناتجة من وجهات النظر التي يكونونها عن العالم الاجتماعي. ولهذا السبب ينبغي أن نأخذ أيضا بعين الاعتبار وجهة النظر التي يشكلها كل واحد منهم عن الآخرين. قد حصلت لدى كل منهم من خلال وجهة نظر محددة. وإن كلا منهم سجين وجهة نظره. وأقصد بوجهات النظر هنا النقاط التي انطلاقا منها تشكلت النظرات والرؤى عن العالم الاجتماعي. أقصد نظراتهم ورؤاهم. أعتقد أن أخطاء ماركس مثلا أو نواقصه قد اكتشفت بشكل واضح من قبل رجل مثل ماكس هوبر. لقد رأى ماكس هوبر ما لم يره ماركس في العالم الاجتماعي، لسبب بسيط هو أن ماركس قد رأى ما رآه ولم يره غيره... وكذلك يمكن القول إن موركهيم قد رأى ما لم يره غيره... (الخ)

ير يورديو أن نظراته هي لا، بل هي أفكار جديدة، متطابقة أو متضادة فيما بينها. ولكن، إذا ما فعلنا بعملية نقد جدي لها وأرغمناها إلى منشأها الأصلي وإلى خطتها الأولية عرفنا أنها متكاملة لا متناقضة.

أولا - في المقدمة: توليفة جديدة من ماركس وهوبر وموركهيم

١ - ١: البنية الاجتماعية للحقبة

ما الشيء الجديد الذي يميز يورديو عن غيره من علماء الاجتماع؟ يقول يورديو: إذا كان هناك حقيقة فهي أن حقيقة العالم الاجتماعي عبارة عن رهان من الصراعات، لأن العالم الاجتماعي تصور وإرادة من ناحية. ولأن التصور الذي تشكله المجموعات عن نفسها وعن المجموعات الأخرى يؤدي من ناحية ثانية مهمة إلى جعل ما هي عليه المجموعات وما تقوم به. ليس تصور العالم الاجتماعي معطى أو تسجيلا وانعكاسا، إنما هو نتيجة أفعال كثيرة من البناء التي سبق أن حصلت أو ستحصل من جديد واستمرار. فهو موضوع في الكلمات المتداولة. كلمات سبق أن تكونت تعطي معنى للعالم الاجتماعي بقدر ما تسجله. كلمات أوامر تؤدي إلى إنتاج النظام الاجتماعي، وذلك بالإعلام عن فكر هذا العالم وإنتاج المجموعات التي تشير إلى

هذه الكلمات وتحركاتها. باختصار فإن البناء الاجتماعي للحقيقة الاجتماعية يتم من خلال (بوساطة) أفعال البناء الكثيرة والمتناقضة التي يقوم بها الممارسون في كل لحظة. في سرعاتهم الفريدة أو الجماعية، العفوية أو المنظمة. وذلك لغرض تصور العالم الاجتماعي الأكثر توافقاً مع مصالحهم. صراعات بالتأكيد غير متساوية على الإطلاق، لأن سيطرة الممارسين على أدوات إنتاج تصور العالم الاجتماعي (وأكثر من ذلك على أدوات إنتاج هذه الأدوات) هي متوترة جداً. ولأن الأدوات التي تقدم مباشرة إليهم تكون محدودة جداً. وبشكل خاص اللغة العادية والكلمات المتداولة التي هي - بسبب الطبيعة الاجتماعية التي تحملها بشكل خفي - متوافقة بشكل مختلف مع مصالحهم تبعاً للوضع الذي يحتلون في البنية الاجتماعية^{٢٩}. يمثل الجديد إذن في ربط ما هو ذاتي بما هو موضوعي، وعدم الفصل بينهما - فلا وجود لذاتية مستقلة وأساسية في فهم الواقع الاجتماعي كما هو الأمر عند ماركس فيبر أو تالكوت بلوسونز أو إدوين هوسول لوجان بول سارتر. كما لا وجود لموضوعية قائمة بذاتها كما عند كارل ماركس أو جورج لوكاتش أو إميل دوركايم وكلود ليفي ستراوس. والحقيقة الاجتماعية، تبعاً لذلك، هي حالة من الصراع، وبالتالي من التغيير العالم. والحقيقة الذاتية لا تنقسم ذاتياً، بل على أساس ارتباطها بالحقيقة الاجتماعية، أي على أساس أنها جزء منها. والتناقضات في المفاهيم غير متصلة عن التناقضات في الواقع الاجتماعي. ما يميزه فكر بورديو هو أن الذاتية التي يعيد إليها الأهمية لا تشكل عنصراً من الحقيقة الاجتماعية، إنما هي صفة بالحركة والإبداع. فهي التي تعطي معنى جديداً للواقع، وتؤدي إلى مفاهيم جديدة. ولهذا السبب، فالمفاهيم نسبية، والحقيقة غير ثابتة أو أولية. يتلوه بورديو من ماركس فيبر حين يعيد الاعتبار إلى العنصر الذاتي الفريد، لكنه يعتمد عنه حين يربط بالحقيقة الاجتماعية وبالطرق الاجتماعية، ويتلوه حين لا يقر بوجود حقيقة موضوعية قائمة بذاتها، لذلك لا تعتبر مقارنته توفيقية بلدر ما تعتبر جديدة تدعو إلى إعادة النظر في أمور كثيرة، كما تدعو إلى مناقشات وآراء جديدة.

٦ - ٢: العقلانية والعلمانية

كيف يربط بورديو بين الموضوعي والذاتي؟ يقول: [ولكن ضلالتنا مع الظاهر، برفع درجة الضرورة الدركة والمعتقد، معرفة جيدة لقوانين العالم الاجتماعي، يقدم العلم الاجتماعي حرية أكبر - إن كل تطور في معرفة الضرورة هو تطور في الحرية الممكنة. وهي حين أن تجعل الضرورة يحتمل على شكل من معرفة الضرورة - ومن دون شكل الضرورة «الأكثر مطلقاً» والأكثر كلية، ولأنها تجعل نفسها كما هي - فمعرفة الضرورة لا توجب على الإطلاق ضرورة هذه المعرفة. وبالعكس، فهي تطور إمكان الخيار في كل علاقة من نوع، إذا كان لدينا هذا

فسيكون لدينا ذلك، إن الحرية للمشكلة في اختيار القبول بـ «إدأ» أو برفضها هي خالية من الغنى مادامنا تجعل العلاقة التي تجمع مع الـ «أنفالد» إن وضع القوانين التي تقترض حرية الفعل أي «القبول البلاوعي» لشروط تحقيق تأثيرات متوقعة، يوسع من ميدان الحرية، القانون الجوهري هو طبيعة، مصدر (أي حالة العلاقة بين رأس المال الثقافي، الثروة والتجارب الدراسي) والقانون المعروف يظهر كإمكان للحرية¹⁴.

يعبر بورديو أنه لا توجد قوانين بذاتها ومستقلة عن الوعي، فهي قوانين تكون خاصية للتعبير مع تطور الوعي، هذا يعني أن الضرورة غير منفصلة عنه، وبالتالي عن الحرية. ونظرا إلى هذا الارتباط لا توجد ضرورة مطلقة، كما تحث طبيعة هذه الضرورة بغير ما يتطور الوعي، يوضح بورديو فكرته هذه من خلال العلاقة بين رأس المال الثقافي، الثروة والتجارب الدراسي، مادامت هذه العلاقة مجهولة، أي مادامت صعوبة الأسباب الحقيقية أو الظروف الاجتماعية التي لا تساعد هناك معينة من التلاميذ أو الطلاب، مثلا، على نجاحهم الدراسي أو الجامعي، مادامت عبارة عن طبيعة أو قدر، فمصدر هؤلاء الطلاب هو الفشل، لأنه مقدر عليهم ذلك، إذ ينقصهم الذكاء والثقافة والمعرفة، فالذكاء هو من يصيب طلاب من طائفة اجتماعية مختلفة لا يتدأما، ونحن نعرف الأسباب الكامنة وراء هذا الإرث الثقافي أو وراء هذا «الذكاء» وهي في الحقيقة أسباب اجتماعية طبيعية. ونحن نؤكد هذه الشروط، عندما نلتزم الصورة من هذا التدرج، ونسبج حرية، ونسبج بورديو، أنشأنا نحن فيقول إن أولئك الذين يتصورون أي ظاهرة اجتماعية كأنها ذات خرموم في الطبيعة الاجتماعية، فإنهم في الحقيقة لا يدركون أنه لا وجود، بل لا معنى لهذه الظاهرة من دون هذا الوعي، إذ ما تغير التغيير الصورة من هذه الظاهرة، وبالتالي تغيير حقيقتها، إذن لا وجود الحقيقة الاجتماعية من دون تصورات معينة أو فهم معين.

التي من الخطورة تحدث عن قانون؟ إنهم من دون شك، أو تجنب قدر الإمكان القيام بذلك وأولئك الذين لهم مصلحة في الضل الجور (أي في عدم التغيير، إلخ) بدون القانون (عندما يرونه) كمنسحب، كقدر في الطبيعة الاجتماعية (مثلا قوانين الأوليغارشية الشاسية للمكافئين الجدد كما يرى بعض المؤلفين)¹⁵. وفي الواقع، فالقانون الاجتماعي هو قانون تاريخي، يدوم طويلا بغير ما يتحرك به، أي بقدر ما أولئك الذين يستعملونه (أحيانا بلا علمهم) هم في إطار استدامة شروط فعاليتهم، ما يتمرن السؤال عنه، هو ما تقوم به عندما نلن قانونا اجتماعيا مجهولا حتى ذلك الحين (مثلا قانون الرأسمال الثقافي، المعنوي)، يمكن به الأدهاء بثلاث قانون أبدي، كما يفعل علماء الاجتماع المحافظون بخصوص الملل نحو التمرکز

(14) القوانين القسرية الأوليغارشية هي عبارة عن المعاهدات، محيرة طبيعة لا بد منها نحو تمرکز السلطة في نفس الأيدي لدى الحكومات (مثلا الأحزاب السياسية) بسبب الصعوبات التقنية للتعبير الجماعي وتجنب التواطؤ.

السلطة، وهي الحقيقة، فعلى العلم معرفة أنه لا يقوم إلا بتسجيل (تحت شكل قوانين ذات اتجاهات) النطق الخاص بلغة معينة في لحظة معينة، والذي يعمل لصلحة أولئك الذين يوجهونهم على اللغة. هم في إطار التعريف الواقعي أو التقني لقواعد اللغة¹⁹. يورديو هنا يؤكد صفاتي النسبية والتغير للقانون، وعلى بعد التاريخي، هؤلاء الاجتماع الذين يتولون بالقانون الأيدي يتعاملون حقيقة أن أي قانون مرتبط، بوعي محدد وبصورات محددة، وبأنه لتغير حقيقة يقرر ما يتغير الوعي هذا أو التصورات هذه. وهذا ينطبق على الموقف من الاتباع نحو تمركز السلطة، لا يبدو أن هذا الوقت يختلف كثيرا عن الموقف الماركسي إلا من حيث الدور المعطى للوعي. ففي حين يعتبر البعض أن ماركس يعطي أهمية الحقيقية الموضوعية على حساب الوعي الذاتي، فإن البعض الآخر يعتبر أن يورديو يعطي أهمية للوعي على حساب الحقيقة الموضوعية. استنادا إلى هذا، فالعلم بالنسبة إلى يورديو عبارة عن قوانين ذات اتجاهات تعكس أوضاعا في لحظات معينة، وفي هذا الموقف يقترب من جورج هورفيلش في مفارقة التجريبية للواقع، أو من غاستون باشلار في عقلانيته التجريبية، أو من جان مياجي في استيمولوجيته التوليدية. ولكي تكون على صلة وثيقة بالحقيقة الاجتماعية علينا أن نذكر طبيعة هذه الحقيقة المتبدلة بقانون غير ثابت.

يتأخر (1) وعند إعلانه، يصبح القانون **رهانا من الصراعات**، صراع من أجل الحفاظ على شروط عمل القانون. **صراع من أجل تعديل هذا الشرط**. إن وضع قوانين ذات اتجاهات يعتبر شوطا لتجارب الأفعال التي تهدف إلى تعديلها والتغيير المرتبطون بالقانون، إذ بتفسير غيريالي له يعود إلى حالة من ميكانيزم ما تحت - الوعي. وبالتالي، فالجميع عليهم مرتبطون بالثقافات القانون كما هو. أي قانون تاريخي، يمكن أن يحمي إذا محبت شروط عمله، ومعرفة القانون تعطيهما خطأ، وإمكانا لمواجهة التغيرات القانون. إمكانا لا يوجد لفترة طويلة مادام القانون مجهولا ويمارس بفعل عن أولئك الذين يخصصون له باختصار، ولكون علم الاجتماع يبدو صلة القانون، فهو بعد صلة الفكر. مثال، ألا يخشى من معرفة متعمقة أكثر فاكتر بالاجتماعي من أحياء أي فعل سياسي لتحويل العالم الاجتماعي²⁰ - إن معرفة الأكثر احتمالا هي تلك التي تجعل تحقيق الأفعال احتمالا ممكنا، ثمها لأهداف أخرى، ومن خلال العمل بوعي مع منطق العالم الاجتماعي، يمكننا إحداث الأشياء الممكنة التي لا يبدو أنها في هذا النطاق، يتحمل الفعل السياسي الحقيقي في استخدام معرفة العقل وذلك لتقوية الممكن ... والعلم الاجتماعي لن يقوم بدوره بشكل صحيح ما لم يلق في أن معا ضد الإرادية غير المسؤولة وعند العصرية القدرية. وإذا لم يؤد إلى تعريف الطوبائية المثالية، الفائدة على معرفة العقل من أجل إحداث الممكن²¹. يبدو تأثر يورديو بهاركنس واضحا حين يعتبر القانون الاجتماعي رهانا من الصراعات. لكن ما يبدو جديدا في موقفه هو دور الوعي الذاتي في عملية إلغاء

القوانين وإحداثيات نظري جديدة. وكما فعل ماركس، يعتبر بورديو أن وضع القوانين وتغييرها مرتبطان بمصالح اجتماعية أو طبقية مثاقفة، فالقانون لهم مصلحة في تغيير القانون، بينما القانونيون لهم مصلحة في الإبقاء عليه.

ما الدور الجديد الذي يحاول بورديو إعطائه لعلم الاجتماع؟ نظراً لأهمية المعرفة الذاتية والقوانين في الحصول على قدر كبير من الحرية في تغيير الواقع الاجتماعي، فإن المهمة الجديدة لعلم الاجتماع تتمثل في كشف الضرورة والقمع والقمع، أي في كشف الظروف الاجتماعية والثقافية للقوانين. وفي مواجهة الإرادية غير المسؤولة المتمثلة في التأكيد على حقائق يمكن أن تكون موضوع لسؤال هي لحظات مختلفة، وفي مواجهة العلموية أو الأدياء بكشف قوانين علمية. وعلى علم الاجتماع أن يشارك وجود طوباوية معقولة في كل التحولات. وهذا ما يكون مصيراً للاعتراف بوجود حقائق غير ثابتة وقوانين ذات انعطافات.

١ - ٣. العلم والواقع

ما الذي يميز بورديو عن ماركس أو دوركهيم بخصوص فهم الواقع الاجتماعي؟ يقول بورديو: «ليس أكثر خطأ من الفكرة الشائعة بأن «الواقع» يتحدث عن نفسه» وهذا ليس فقط في نظام العلم بل في «الواقع» نتيجة اختيار. هذا هو دائما مبررهم وتقويمهم في الحصول السياسية والتقانونية أو حتى الصحفية، مع أنه يأخذ من مثالية تاريخية، الموضوعية ومن الغشاق بأنه يمكننا بوضوح لتفريق «الواقع» من «الواقع». في الواقع، ناتجة عن الصراعات ومن أعلاها وذلك لفرس معنى وثيقة العالم الاجتماعي. ولذا يظهر في حالة الأحداث السياسية الكبيرة كـ «أعمال العولمة». ولكن ليس هذا أقل صعبة من بساطة «الواقع» المتوهمة، التروكة عادة لاستراتيجيات الثقل اليومية، نتيجة، مصفحة، اغتيال وشرقة أو اختراعات، أو كـ «حكايات» الصحافة القاسية الانتشار، التي تشكل ضد «الإعلام» السعي «موضوعية» لتصحيح التي تود أن تكون معتمدة. فالتحليلات والافتتاحيات والبيانات والمظاهرات والمعارض والانشعابات والتصريحات عبارة عن ضوابط ومرة تهدف إلى بناء «الواقع» أكثر مما تهدف إلى شرحها وبطريقة أن يوجه الإدراك والتفسير الذاتي، كالتدخلات البثوية (التبثية) للمفكرين الكبار، يدعيان قول «ما يجب التفكير فيه» أكثر من قول ما هو عليه. لا يمكننا التفكير في إضفاء الواقع للتحليل العلمي ما لم نتعلم مع الوهم بأنه يمكننا فهم كل شيء دفعة واحدة، والذي يعرف العلاقة الطبيعية مع هذا المعنى المباشر التحررية الاجتماعية، وتتعلق الطبيعة في الحقيقة في أن نصوص سؤالاً منا يظهر خارج السؤال أمراً بدنياً. من هذه البديهة التي تفرض على الفهم الأخلاقي، وعلى التعاطف التضامني أو الغشاق «المطلقة»^{١١}. يعكس كل من ماركس ودوركهيم، يعتبر بورديو أن «الواقع» لا تتكلم عن نفسها، أي لا وجود لواقع اجتماعية قائمة بذاتها. إنها على علاقة جدلية بالوعي الذاتي، أو حتى هي نتيجة خيار ذاتي، هو معرفي وتقويمي، أي مرتبط بالفهم والتصورات

الثانية. هذا الموقف يتكررا بماكس فيبر الذي يربط فهم الواقع بالقيم. ولعل. ويعتبر بورديو أن هذا التفسير واضح في الحشود الاجتماعية المختلفة. الشيء الذي يؤكد ربط الوظائف بالقيم هو أنه لا يمكن فصلها عن الصراعات التي تجري بين الفئات والطبقات الاجتماعية. وبالتالي لا يمكن فصلها عن الضحايا أو المعاني المختلفة التي تعطي لها. ويمكن التحقق من ذلك مثلا من خلال المواقف إزاء الأعداء السياسية، كونها تمس مباشرة مصالح الناس. وهناك الكثير من الوظائف السياسية التي نرى أنها عبارة عن قوى وعزيم. أي عبارة عن معان وقيم وتصورات ذاتية. وما مواقف كبار الفكرين وادعائهم البؤرية هي وصف الوظائف إلا تأكيد على جعلها لهم وتصوراتهم ومثلهم الذاتية.

وفي التمهيد، يعتبر بورديو أن العلم لن يقدم مالم نحصل القطيعة مع النظرة الكلية الشمولية إلى الأمور. أو مع الفئتين العامة التي تحدد فهم أي واقعة. ولكي يحل العلم إلى الأمام عليه أن يركز على خصوصية الواقعة. أي على فهمها مباشرة. والتركيز الأساسية لهذه القطيعة تتمثل في عدم التسليم بالبداهيات مهما كان نوعها.

١ - المادية والمادية

في بداية كتابه -الحس المادي- خصم بورديو صمحات مطولة لانتقاد المنهجية الذاتية من خلال أعمال جاي بول سارتر الفلسفية. ثم انتقد أيضا البهيمية الموضوعية بالبرودة من خلال أعمال كلود ليفي ستر أوس. وفي أثناء كتابته أنه في الكولنج دوقرائس تحت عنوان طروس في علم الاجتماع الخادم المحدثين هذين الموقفين من خلال بحثه وكافط. إذن فالتمسكة بضميمة جدا. البهيمية هي مسألة المادية والثاقفة وهل بورديو أطرب إلى كافط من نهيشه. وأطرب إلى المادية من المثاقفة إذا جاز لنا أن مطرح الأمور بهذا الشكل الحدي والتسفي ... أم أنه يريد أن يخرج خطا ذلك بتجاولهما؟

كان أحد أهداف أعماله. ولا يزال. يتمثل في معالجة الظواهر الرمزية ضمن منظور حادي. ذلك أن أشياء الثقافة أو (الأشياء الثقافية) مصنوعة أو (مبتنية) تاريخيا ضد الاقتصاد والسياسة. وهذا ماكس فيبر ضمن هذا المشروع المقتد الأكبر له. لأن سوسولوجيا الأديان التي أسسها تمثل تقدما كبيرا يذهب إلى أبعد من ماركس. يحلو لبعض علماء الاجتماع أن يحشروا باستمرار فكرة التخصد الشائعة التي تعاكس ماركس بماكس فيبر. وراهم يمارسون بين المادية الماركسية و -الروحانية الغيرية- أو -الثاقفة الغيرية-. هذا خطأ شائع. ذلك أن فيبر كان قائدا لما يمكن أن تدعوه بالماركسية الرمزية^{١٤}.

وإذا كانت الماركسية تعني أن القواعد الاقتصادية هي الحاكمة. فإن الشيء الذي حلول فيبر لن يفعله هو البرهنة على وجود قاعدة اقتصادية للظواهر الرمزية بعيدا عن مسألة الملة والمطول.

(١٤) إن تذكر علم الاقتصاد في علم الاجتماع واضح في تعليقات بورديو ونظائره ماكس فيبر أيضا.

وقد برهن بورديو على «الافتقار المطلق للرمزية»¹³⁹ على أن فهم قد ذهب مسافة البعد من ماركس في مجال تحليل الأديان، وكان أكثر جشيرة منه على أكثر صادية، وهو يعتقد أن النظرية المادية للدين موجودة لدى ماركس، لأن ماركس كان قد اكتفى بتحليل وظيفة الأيديولوجيا الدينية، أما فهم فقد تجاوز ذلك واتخذ موضوعها لدراسة سوسيولوجيا الفاعلين الدينيين، وعندما يلزم مفهوم العقل الديني¹⁴⁰ شكل هذا الفضاء المستقل نسبياً، والذي تدور فيه رموزات خاصة، ويصارع فيه الفاعلون الاجتماعيون أي (الفكر) بواسطة استخدام أشكال مختلفة من الرأسمال الديني¹⁴¹ بنسبة «احتكار الشلاصة (أو التحكم) الشرعي» بالمصطلح الروحية¹⁴²، إن منطق هذا الصراع والاستراتيجيات الخاصة التي يستخدمها الفاعلون الدينيون بحسب كمية رأسمالهم ومواقفهم داخل موازين القوى الدينية البحتة، هو الذي يتحكم في اتخاذ المواقف الدينية.

والشيء نفسه ينطبق على الشعر وظن الرسم والعلم¹⁴³، فهل هذا يعني أن بورديو، يريد أن يتجاوز التضاد الشهير بين المادية والمثالية؟

١ - ينبغي التخلي عن نظرية انعكاس وذلك لأن التوجهات الثقافية هي تركيبات أو هيكل مشكلة لواقعها من العالم، بل أكثر من ذلك أنها تساهم في صنع العالم، وليست فقط مجرد انعكاس للعالم المادي كما كانوا يقولون سابقاً. وكما ورد أثناء، فإننا نجد أمس النظرية المادية للأنظمة الرمزية، وموضوعها الديني لدى ماركس فهم أكثر منها أجدى لدى ماركس، ثم يحل ماركس المنطق الموضوعي للإنتاج الديني لأنه كان مشغولاً بشيء آخر، في حين راح فهم يؤسس ما يدعوه بورديو بالافتقار الأديان، لقد حاول دراسة فضاء الإنتاج الديني من طريق مقارنته وموازنته بفضاء الإنتاج الاقتصادي المادي نفسه.

٢ - الشيء الذي قلعه بورديو هو أنه حور فهم وأعاد التفكير في نظريته من جديد ضمن منظور بنيوي. لقد بين في دراساته حول الموضوع أن هناك حقلاً دينياً وفاعلين اجتماعيين متفاعلين داخله، وهم يستخدمون وسائل مختلفة وعديدة على طريقة الشركات الاقتصادية من أجل إنتاج المصالح الدينية، ومن أجل بيعها واستغلالها المزايا... إلخ. الشيء الجديد والمهم الذي أشر به فهم هو تركيزه على المصالح الدينية البحتة، ذلك أن المقارنات الدينية تعلق أو (تظهر) لدى الفاعلين المحترفين من الكهنة وغيرهم مصالح ليست اقتصادية فقط، على الرغم من أنها تتضمن عاجلاً أو آجلاً مصالح اقتصادية.

(١٣٩) كان يميل شخص ما يحمل شهادة الهندسة (الإيزاء) في الأربعينيات من القرن الماضي إلى جعل شهادة الدكتوراه التي اكتسبها بسهولة من طوطم معينة إنه أدنى منه ١ أو كل ما يملكه شخص ليدرك أنه يحمل شهادة الدكتوراه إنه بذلك يساهم في إنتاج بعضه لأفكاره... وأصبح هذه الشهادة الشكالية مطروحة كصفة الرمزي الذي يدرسه الفاعلون والفاعل على التبادلات ليست مهمة ومعتبرة ٢١ في كل بيتكوكا، وأما الأكاديميون العاديون الذين يملكونها إنما عليهم برهن مدى صلاحيتها.

1-5: نقد المحاولات التوفيقية

ولأنه توجد في علم الاجتماع صعوبة أكثر من غيره في التخلص من وهم الشكافية (تطمع للعنى العليا) وهي تحميل القطعة حتى النهاية مع المفاهيم المسبقة ولأنه يعطي نفسه غامبا، سواء أراد ذلك أم لا، مهمة الإجابة عن الأسئلة النهائية حول مستقبل الحضارة، فهو مهيبا حاليا لغيرهم، مع جمهور لا يتحول أبدا إلى مجموعة من الأشخاص المتساويين، علاقة غير واضحة يفتش من أن نجد من جديد ويستمرار منطق العلاقة بين التوافق الناتج وجمهوره ... وأكثر من جميع الاختصاصيين، يكون عالم الاجتماع معرفيا لحكم غامض ومزدوج من قبل غير الاختصاصيين الذين يعتبرون أنفسهم متحولين إعطاء أهمية للتجارب المنهجية طالما أبطلت الافتراضات المسبقة لعلم اجتماعهم العفوي، لكنهم بذلك يطمعون على التنازل بخصوص صوابية علم لم يقرروا به إلا في إطار معناه للزودج، وهي الحقيقة، عندما لا يتناول عالم الاجتماع سوى مواضيع الحس المشترك والتفكير المشترك حولها، فإن يكون لديه جديد يمارس به التأكيد المشترك حيث يحق لكل فرد التحدث عما هو إنساني والحكم على كل حديثه حتى العلمي، مما هو إنساني، وكيف لا يشعر كل فرد قبيلا بأنه عالم اجتماع عندما تتوافق تحليلاته وعالم الاجتماع كلها مع افتراضات الثرة اليومية، بحيث لا يفصل حديث الحال من الافتراضات المحلة إلا بهاجز بسيط من المزوجين¹⁹.

يرى دوركيه أن عالم الاجتماع ما زال يفتش عن حلول جديدة تنبع من الترخع كعالم، مع أنه خطا خطوات عديدة على طريق تطور علم الاجتماع، والعائق الأساسي، بل العطر الرئيسي الذي يواجهه، يتمثل في الاتجاه نحو النبوة، فالعلم في ربه، لا ينبر أو لا يفترض به التعمير من عقله أو مذاهبه، لأن ذلك لا يكشف الواقع أو المظاهر الاجتماعية فيه، وإنما يعمل على تغطيته وتفسيره وإبرازه على ظهور ما هو عليه. وكما هو معروف فالهوامات التبشيرية ليست بأفكار أو مفاهيم علمية، فهي لم تشكل علميا بواسطة مناهج علمية بدمر ما تشكل من أفكار غامضة تعبر عن رغبات وتصورات ومطامح وأهداف، وهي لهذا المعيب تحتوي على الكثير من المفاهيم المسبقة، إلى جانب هذه المشكلة، يمكن التحدث عن تعددية الحس والناتج السلبية التي تؤدي إليها في علم الاجتماع، تجدر الإشارة هنا إلى أهمية إعطاء معنى موحد للمظاهر الاجتماعية، لكن للوصول إلى ذلك، علينا تخطي حوائك إبستمولوجية عديدة وكثيرة سواء على المستوى النظري أو على المستوى التطبيقي، يتعين التحقق من المفاهيم النظرية عن طريق النقد والتجربة، كذلك التأكيد من القامع النظرية والتجريبية، في الواقع القموس يدور دوركيه إلى القطرعة مع المفاهيم المسبقة أو مع علم الاجتماع العفوي، لأن هذه المفاهيم علمية، لا تكفي حقيقة الواقع الاجتماعية أو كما يقول دوركيه، إن تسمح باكتشاف التوازن التي تحكم في الواقع، فهي وليمة التجارب العلمية الفاضلة، كما أنها مرتبطة بالانطباعات والمشاعر

والانتقالات. لذلك لا تعد مفاهيم علمية مبنية على أساس منهج علمي أو على أساس الشك. كما كان الأمر عند رينيه ديكارت، أو التند. وهي تمكن المعرفة اليابضة القامضة للإحساس بدل المعرفة العقلية المرتكزة على التحليلات العلمية. وهذه القطعية تعد شرطاً لبناء علم اجتماع صحيح. موقف بورديو هذا يعبر عن الرغبة في محاربة المناهج التقليدية التي ما زالت مستمرة حاليها. وفي استخدام مناهج حديثة أكثر طوعية، ومهما كانت طبيعة علم الاجتماع والنظريات الفلسفية فيه. فهو على علاقة بالناس، وبالتالي بمصالح وأهداف اجتماعية. لهذا السبب لا بد أن يطرح تساؤلات بخصوص واقع المجتمعات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. ونظراً لإعطائه هذه المهمة ينشئ من أن تتحول غايته العلمية إلى غاياته أيديولوجية، ولهذا السبب أيضاً، فعين يتوجه عالم الاجتماع إلى الجمهور غير الاختصاصي بعلمه، فهو يحاول تعطي الأهداف العلمية وذلك من أجل تحريك مصالح ومطامح شططية معينة، فالعلاقة التي على عالم الاجتماع إقامتها مع جمهوره يفترض أن تكون مبنية على أساس كشف الحقائق، لا على أساس تغليبها بفناء من الشكافية الخداعة، فلا يتعين على عالم الاجتماع حديثاً الإكثار من مزيجيه وأنصاره من خلال طرق وخيصة غير علمية أو طرق مضللة. وينبه بورديو من مطلق العلاقة الناجمة بين المؤلف المشهور وجمهوره، فمن غير الجائز أن يتوجه عالم الاجتماع إلى أصحاب العقول البسيطة كي يكتب رسائلهم وموادهم وتأليفهم له، لأن غايته ليست المعرفة العلمية البسيطة، أو المعرفة العلمية القامضة، إنما المعرفة العلمية التي تتجاوز المصالح الضيقة. ويدين بورديو بشدة موقف غير الاختصاصيين من علماء الاجتماع الذين لا يرتكزون في أحكامهم على حقيقة التحليلات، أو على ما هو علمي فيها، ويعتبر أن أراءهم التي تدعم المفاهيم البسيطة لديهم هي آراء غير علمية، وعلى الرغم من موقفهم هذا، فهم مضطرون إلى التساؤل بخصوص المعاني المختلفة في تفسير الواقع، لأن الاختلاف لا يعبر عن صحة المؤلف العلمي ويتفق كلها مع دوركهايم حول ضرورة ألا تشكل المعرفة المشكوك أو المفاهيم المسبقة موضوعاً لعلم الاجتماع، حيث إن دور عالم الاجتماع ليس التأكيد على أفكار غامضة وحقائق مشوشة. وإنما كشف ما هو موجود في الواقع، وقول ما هو جديد. لهذا الأمر يستلزم بورديو من علماء الاجتماع، الذين تتوافق تحليلاتهم مع الصيغيات العلمية التي لا يفصل بعضها عن البعض الآخر شيء من الأهمية.

وهي الإشارة إلى موقف الكيمياء حديثاً من ضرورة محاربة الاتجاه القديم اللاعلمي والسلبك عنده، والمضي على التقنيات السوية والنظرية السوية، يخلص إلى ضرورة محاربة الاتجاه القتبني عند عالم الاجتماع الذي لا يتوافق مع ضرورات العلم لأنه لا يحتاج أصحاب العقول الكبيرة بقدر ما يحتاج العقول البسيطة التي تود الحصول على نتائج تتوافق مع معتباتها وتصوراتها: أولاً، كما يقول بالشار، «على الكيمياء أن يحارب في نفسه الكيمياء

القديمه، وهكذا، على كل عالم اجتماع أن يحارب في نفسه النبي الاجتماعي، حيث يطلب جمهوره منه تجسيمه. فالمصانعة المائلة ظاهريا للتبديلات، الأفضل سمعا للإبداع جمهور لأنها بديهيات عامة. واستخدم لغة ذلك كتب متعددة تضع جنبا إلى جنب الكلمات المشتركة والكلمات التقنية بقصد دعمها، يقدمان إلى علم الاجتماع قطاعات أفضل عدما يتوي، مع كل ذلك، مفاجأة أولئك الذين يعجب على توقعاتهم بإعطائه تصنيفا أكبر لتواضعهم المفضلة. وبإقديم حديث في الظاهر موجه إلى جمهور ضيق من التلاميذ، وهو يستخدم في الحقيقة الوظائف الموجهة إلى جمهور واسع من ضمن مشروع نبوي⁽¹⁰⁾. إلى جانب أن هذا الاتجاه يخفي آراء وبديهيات وأفكارا غامضة، ويمر عن رغبات ومصالح خاصة، فإنه يعمل على تغطية الواقع بحجج علمية وبأساليب ومصطلحات لا تدعو في الحقيقة سوى افتراضات مسبقة عن عالم الاجتماع. ما قيمة علم الاجتماع إذا لم يهدف إلى كشف الحقيقة والارتباط بجمهوره على هذا الأساس؟ وهل قيمة المشروع العلمي في تحوله إلى منصب أو عقيدة وإذا طين الحذر الإيمئولوجي من استخدام الافتراضات المسبقة، فهل يعد هذا كفى. أو ضمانا أكيدة لعدم استخذامها؟ الوقت السبق لكل من سينسج وكونت وماركس أو دوركهام تؤكد عكس هذه الحقيقة. ما يميز بورديو عن هؤلاء أنه لم يدع إلى محاربة أو تجنب هذه المفاهيم فقط، بل إضمارها للتد العائم.

١ - ٦ : نقد الناقبة الماركسية البورديوية

ينقد بورديو النهج الماركسي التقليدي للواقع الاجتماعي: [يدرك التقليد الموضوعي العالم الاجتماعي لعالم من الانتماءات الموضوعية المستقلة عن الفاعلين والبنية انطلاقا من وجهة نظر مراقب حيادي خارج الفعل فوق العالم الملاحظة]⁽¹¹⁾. الاتهام موجه بشكل أساسي إلى كل العلماء الذين حاولوا تنظيم الواقع أو الظواهر الاجتماعية من خلال قوانين أو أنظمة موضوعية. وهنا يمكن ذكر سينسج وكونت ودوركهام وماركس... إلخ. نقطة الضعف الأساسية عند هؤلاء هي رأي بورديو هي أنهم لم يدركوا الدور الحقيقي للفاعلين الاجتماعيين، وأنه لا توجد ظاهرة اجتماعية خارج الوعي الذاتي. من هذا للتظار مثلا، لا توجد حيادية للمراقب، ولا خصائص موضوعية للظاهرة قائمة بذاتها، وأي ملاحظة مرتبطة بتصورات وإدراكات متعددة، وأي واقعة غير منفصلة عن طبيعة الملاحظة. فالمراتب هو الذي يبنها لأنه هو الذي يعطيها معنى محددا. ومن هذا للتظار أيضا يعتبر بورديو أن عملية تشكل أو تشكيل [الموضوع] الظواهر الاجتماعية ليست عملية ميكانيكية تحصل بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه تجاه ذلك. بهاجم سارتر بوضوح، في نقد العقل الجدلي، أيحي سنلروس وتأثير التشيؤ [الموضوع] الذي تسببه الموضوعانية... في النهاية، كما يوحي بعض النصوص المذكورة، فالعالم الاجتماعي نتيجة أفعال فردية⁽¹²⁾، فهي لا تحدث خارج تأثيرات الأفراد وعواقبهم

وتصوراتهم، وما التبدل فيها إلا نتيجة لتغير في الأفكار والأراء والمواقف، لذلك فهي ليست خارج الإنسان وبعده وتعارض عليه، كما اعتبر دوركايم، فمردا خارجيا منفصلا عن إرادته أو أنها موجودة في عالم خارج عالم الأفراد، إنها في الحقيقة، ولادة أفعال الأفراد أو نتائج للعلاقات التي تنشأ بينهم.

كما يفهم بورديو عملية تشييد الواقع الاجتماعية يقول: «يوجدنا عن أن تكون للناس تصورات مستقرة بسبب وجود التراتيبات، فإن عدم حدودية الأفعال الفردية من الاحترام والاعتبار... هو الذي يمتلي إنتاج التراتيبات»، فهو يعتبر أن التراتيبات الموجودة في المجتمع، أي الأهمية للعظمة، المؤسسات أو الظواهر الاجتماعية على حساب مؤسسات أو ظواهر أخرى، غير هائلة إلى خصائص موضوعية مستقلة عن وعي الإنسان ومربطة بهذه الظواهر أو هذه المؤسسات، فهذه الخصائص من الأهمية والاحترام، والتقدير مرتبطة في الحقيقة بمواقف الأفراد وتصورتهم وإدراكاتهم. وثمنا للعنصر الذاتي هذا تعطي معان أو تشعيرات مختلفة للواقع الاجتماعية، فليس الوجود الموضوعي للتراتبيات في المجتمع هو الذي يخلق تصورات أو تصورات الأفراد عنها، بل إن الأفعال وتصورات الأفراد عنها هي التي تعطي درجات من الأهمية والاحترام، وصفة الموضوعية. وللدلالة على هذا الموقف يمكن الإشارة إلى بعض الظواهر السياسية، فالسلطة مثلا تظهر وكأنها تشكل أو تنشأ بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه، تؤثر على الأثر الموضوعية السياسية، من ناحية لغة التي الموضوعية للهيمنة، ميزان قوى موضوعي، ومن ناحية ثانية، من حيث الأفعال والاحترام غير الشفهية والتي تحدث موضوعية العلاقات الاجتماعية»، تظهر السلطة كقوة حتمية لا بد منها، قوة فرضتها الضرورة، فالهيمنة تظهر كأنها من قوى موضوعية على الناس، خارج تصورتهم وتصورتهم وأفكارهم ووعيهم، كقوة قسرية لا رأي للإنسان فيها يكون التحدث في هذه الحالة عن وجود ميزان موضوعي للقوى، أي عن وجود ظروف موضوعية أدت إلى ظهور هذا الشكل من السلطة، واستنادا إلى هذا الكلام، لا تعطي أهمية للعنصر في وجوده، ينشأ كلام آخر يعطي كل الدور للعنصر والفكر وتصورتهم الأفراد على حساب الظروف أو العلاقات الاجتماعية الموضوعية، لأن احترام الأفراد لهذا النوع من المؤسسات أو الظواهر هو الذي أدى إلى وجودها، بل هو الذي حافظ على مطالها حتى الآن. ويكون الصراع بين تيار العنصرية الذي يقول بالفهم الموضوعي وتيار الحرية الذي يقول بالفهم الذاتي المثلث على إرادة الإنسان ووعيه.

من خلال هذا الصراع، يتبين لنا أن بورديو لا يؤيد الفهم الموضوعي وطريقته ولا الفهم الذاتي وطريقته: «العنصرية من ناحية، والحرية والعنصرية من ناحية أخرى» (إذا توقف الناس عن تمجيد الكبار...) نرى جيدا أن هذا وهان مهم، ونرى في الوقت نفسه على أرض المجتمعات المنقسمة إلى طبقات، وفي ميدان علم الاجتماع، أنه من الصعب أكثر من التكنولوجيا فصل

موضوع المعرفة عن موضوع السياسة، مع أننا نفهم بذلك بشكل شبيه بالنمط¹³، فالمفهوم الحقيقي في رأيه يركز على العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي، لأنه لا توجد ذاتية من دون موضوعية ولا موضوعية من دون ذاتية، ولتوضيح موقفه يعطي أمثلة عديدة فيقول إن شهرة الأشخاص الكبار من علماء ومفكرين وفنانيين وسياسيين وعسكريين، مرتبطة بموضي الأفراد الذين يعتقدون بها وإذا توقف هذا الاعتقاد، وما يستتبعه من مواقف وتصرفات، نزول شهرتهم لا محالة، إذن وجود أي ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو علمية، مرتبط بتصورات الأفراد عنها، ويتقبلهم إياها، بكلام آخر، العلاقة بين السلطة والناس مثلاً عبارة عن رهان حيث يسود جو من التحالف والمناصفة والتضامن والصراع، يمكن توضيح هذا الموقف أكثر من خلال القول إن الناس على دين ملوكهم، أي أن سلطة الملوك، وتجبرهم واستبدادهم وظلمهم غير منفصلة عن وهي الناس بها، لذلك هذا تغير وعيهم تغيرت، هذا لا يعني أن الوعي عامل منفصل عن طبيعة السلطة أو عن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي وجدت فيها، الوعي في هذه الحالة عنصر منها.

يخلص بورديو من موقفه هذا إلى التأكيد على العلاقة التي تربط بين المعرفة والسلطة (السياسة) أو بين الوعي وأي ظاهرة اجتماعية، وإلى أنه لا يجوز الفصل بينهما كما يحصل عادة، ويصعب الفصل في ميدان علم الاجتماع أكثر منه في ميدان الإثنولوجيا، لأن واقع المجتمعات الحديثة، بسبب الانقسام الطبقي واتساع دور السلطة وتاريخ هذا النزاع، يظهر العلاقة بوضوح أكثر وتناقض مع المجتمعات البدائية التي تحاول الإثنولوجيا دراستها، يولي بورديو موقفه على أساس التمييز بين النظرة الوضعية والنظرة العنوية الإرادية، لوهي التقليد الماركسي يوجد صراع دائم بين ميل موضوعاني يبحث عن الطبقات في الواقع (حيث السانة الأبدية، كم هناك من طبقات؟) ونظرية إرادية أو عنوية تكون الطبقات تبعاً لها شيئاً نستنتج، من زاوية نتحدث عن شروط طبقية، ومن زاوية أخرى عن وهي طبقي، من زاوية عن وضع في علاقات الإنتاج، ومن أخرى عن «صراع طبقي، وفعل وحركة، والنظرة الوضعية ستكون نظرية عالم، والنظرة العنوية نظرة متناحل، اعتقد أن الموقف الذي تتخذه حول مسألة الطبقات يتعلل بالوضع الذي تلغظه في البنية الطبقية¹⁴، إذ لا النظرة الوضعية تعتبر صحيحة لأنها تتعامل الوعي والعنصر الذاتي، مع أنها أقرب إلى العلم لأنها ترى ضرورة تجنب تأثير الذات أو الفاهيم المصنوعة في العلم، ولا النظرة الذاتية صحيحة كذلك لأنها تتجاهل الظروف الموضوعية، مع الإشارة إلى أنها شعر عن رغبات وأمال ومطالب، لهذا السبب ينف بورديو بين فهمي وماركسي، يأخذ عن فهمي دور العنصر الذاتي، أي دور التصورات والقيم والفكر في العلم، وعن ماركسي دور العوامل الموضوعية (الظروف التاريخية والاجتماعية) في تفسير الظواهر، ويربط بين الاثنين بحيث يكون العنصر

الذاتي جزءا من الواقع الموضوعي، لأن وجود أي واقعة مرتبط بإدراكات وتصورات ومواقف وأفعال معينة، وموقفه من الطبقات يوضح وجهة نظره، فلا الواقع في علاقات الإنتاج هو الذي يحدد الانتماء الطبقي، ولا الوعي الطبقي بمفرده، ما يحدد الصفة الطبقيّة. بالنسبة إليه، هو الواقع في البنية الطبقيّة الاجتماعية، والواقع هنا يتخطى طبيعة العلاقة بالإنتاج المادي إلى طبيعة العلاقة بالسلطة السياسية. فالواقع الطبقي لأي فرد لا يتحدد بالواقع الاقتصادي الذي يشكّله في الإنتاج فقط وإنما بالنشاط السياسي والاجتماعي الذي يقوم به. إن موقفه في علاقات الإنتاج غير منفصل أبدا عن وعيه وتصوره للسلطة السياسية. كما أنه غير منفصل عن تصوراتك إزاء هذه السلطة.

١-٧ : محاولة تجاوز الثنائية ذاتية/موضوعية وضع في التمييز :

من خلال عرض وجهتي نظر ذاتية ماركس فهير، وموضوعية هاركنس، يدعو بورديو إلى تجاوزهما. لا أرضية في ذلك، وإنما لأن الواقع يؤكد هذه الحقيقة: إلا يمكننا العمل على تقدم العلم في أكثر من حالة إلا شروط الوصول بين نظريات متعارضة. غالبا ما يتكون بعضها ضد البعض الآخر. والأمور لا يتحلل باستخدام هذه التركيبات الحاططة الانتقالية التي كثيرا ما شعرت بها بشدة في علم الاجتماع. وقيل بأن إدانة الانتقالية غالبا ما استغضت كحجة ضد الجهل (اللاثقافة)، وبالتالي من السهل والريح الانطلاق ضمن تقليد، والماركسية. للأسف، ملأت أحيانا وظيفة الأمان الكوسية عدم، والتركيب فهو ممكن إلا بتساؤل جذري يؤدي إلى مبدأ التضاد الظاهر. فالحقيقة مع أنها ترفض أن تكون الصفة الموضوعية للواقع الاجتماعي، وأنت جانبها منها. لقد حدثت من أهمية التصور الذاتي في فهمها. بالتقابل، فاللوموضوعية، مع ذلك دعما على الخصائص الموضوعية للظواهر. فقلت من أهمية العنصر الذاتي أي من أهمية الأفعال والمواقف والآراء التي تعتبر جزءا منها، إذن، لكل من الذاتية والموضوعية إيجابيات وسلبيات. ولهذا السبب، ومن أجل تقديم العلم، يجب جمع كل هذه الإيجابيات، والتخلص من كل هذه السلبيات. كيف يكون التعديل إلى ذلك؟ يكون من خلال نظرة جديدة لتوافق مع الواقع الفسوس أي من خلال الجمع بين النظرية والواقع. وهذا ما حاول تطبيقه بورديو، وهو ما يميزه من غيره من العلماء، لذلك فهو يدعو إلى الربط بين النظريات المتعارضة، فهو لا يحدد الرغبة في التوفيق من أجل التوفيق، وإنما الجمع بين ما هو صحيح، من هنا كانت إدانته للتركيبات الحاططة الانتقالية تبعاً للرغبات المنتشرة بكثرة في علم الاجتماع، من هنا أيضا الخلاف الانتقالية علمه (وهي مشروطة بالحقيقة والواقع) عنها عند غيره. حيث قد تصنف بالجهل أو اللاثقافة. يستلزم موقف بورديو هذا ألا ينطى محصورين عند التقليد معين، كما هو الأمر مثلا بالنسبة إلى الماركسية التي لا تعيد نظرتها في فهم الواقع. بل تعتبرها كأنها النظرة الوحيدة العلمية. وبناء على هذا الاعتبار أدانت كل نظرية

معارضة وأطلقت عليها تهما شتى. ليس هذا بالطرف العلمي في رأيه. لأن من أصول النظرية العلمية ألا تتحول إلى عقيدة أو مذهب أو فلسفة. وهذا ما شدد عليه فيبر من خلال إيمانه المتناهي الذي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. ومع أن ماركس أكد في مؤلفاته المتتوعة ضرورة النظرية الجديدة للواقع، وأن كل المفاهيم تخضع للتغير بسبب تغير الظروف الاجتماعية والتاريخية، إلا هذا ما يعطي أهمية للنظرية العلمية، غير أن اتباعه فهموا نظريته كمفيدة أو كمذهب، فتحوّلت مفولاته إلى مفاهيم ثابتة وأبدية، فالمفولة مثلاً أصبحت أمراً ضرورياً في المرحلة الاشتراكية، وحتى كل مرحلة اجتماعية، كذلك بالنسبة إلى الحزب.

بين يورديو وظيفة الحلول الحاضرة والتحليلات الثابتة المرفوف الماركسي هذا. ويعتبر وظيفة الأمان هذه أو وظيفة العودة إلى الرؤية الأحادية الجانب أو وظيفة عدم كشف التناقضات، غير علمية ويجب وضع حد لها. والتركيبات المسيحية في رأيه هي تلك التي تطرح تساؤلات مهمة وأساسية بخصوص من التناقضات بقصد تحليلها وكشفها علمياً. إن اتهامات يورديو لا تطول الماركسيين قطعاً وإنما ماركس نفسه. [مثلاً، يعكس الانحسار الطبيعي للماركسية نحو الاقتصادية، الذي لا يعرف الاقتصاد إلا بالمعنى الضيق للاقتصاد الرأسمالي والذي يشرح الكل من خلال الاقتصاد المعروف بهذا الطريقة. فإن ماركس فيبر يوسع التحليل الاقتصادي (في المنهج المسمى) إلى مفاهيم تركت عادة من قبل الاقتصاد. مثل الدين. فهو بالتالي يصف الكنيسة من خلال صناعة تأثير الإعجاب، كمختلفة باختلاف الهيمنة على الأنماط العلمية. ويدرج إلى نهاية نهاية البحث هو كنهية الاقتصاد (في المعنى الواسع) في مفاهيم، حيث توجد هيمنة لأيمبولوجيا - عدم الاهتمام، مثل الفن أو الدين¹⁴]. محور هذا الانتقاد أن الاقتصاد كعامل غير كاف في تفسير الواقع الاجتماعي، لأنه لا يوجد اقتصاد بحت، أو حقيقة اقتصادية بحتة، بل هناك حقيقة اجتماعية متعددة الجوانب. إلى جانب ذلك، يبقى شرح الظواهر الاجتماعية والسياسية والفنية من خلال الاقتصاد الرأسمالي الذي يعد شكلاً معيناً للحياة الاقتصادية، غير كاف أيضاً. ولهذا السبب لا يعد شرحاً علمياً كاملاً وصحيحاً. في المقابل، يشهد يورديو موقف فيبر من شرح الرأسمالية، فيقول إنه لم يكن محصوراً بالفهم الضيق للاقتصاد الرأسمالي، فعامل مثلاً فهم امتدادات هذا الاقتصاد في الحياة الاجتماعية. ونظر إلى الدين وثأثيراته، وكذلك إلى الكنيسة. من المعروف هنا أن هناك أنواعاً معينة من الأخلاق والمعتقدات والتقاليد لدى طوائف مسيحية معينة تساعد على العمل الاقتصادي الحر وتبرر هذا التصرف (البروتستانتية بمختلف تفرعاتها، الكاثوليكية الفرنسية والوثنية الألمانية والصاحبيين أو الكويكرز الأيرلنديين والروتينية السويسرية)، في حين توجد طوائف أخرى تتشدد إزاء هذا الوضع (الكاثوليكية). من هنا كانت نظرة فيبر إلى الاقتصاد الرأسمالي مرتكزة على قاعدة أعم وأشمل من تلك التي استند إليها ماركس.

فالاقتصاد يمكن تفسيره بعوامل اجتماعية متعددة كالدين أو القانون أو السلطة. ويعتبر بورديو أن جانباً أساسياً من فهم فهم مفهوم الشرعية بعد صحيحها لأنه ربط بين لشكل الشرعية المختلفة والمعتقدات والتصورات لدى الأفراد بخصوصها. وهذا الربط برأيه من صلب الحقيقة الاجتماعية.

يؤمن بورديو إيجابياً موقف ماركس من فهم الظواهر الاجتماعية، ومن رفضه المفاهيم العامة والانعكاسات الطاعرة أو الخارجية للمعرفة. أو الشيء نفسه مع مفهوم الشرعية. فطرح ماركس مع التصور القوي للعالم الاجتماعي بمحاولة تبيان أن العلاقات «الطاعة جداً، للأمية مثلاً تعبر ميزان قوى. وعند فهم حس المعارضة الجذرية لماركس، يذكر أن الانتماء إلى العالم الاجتماعي يوجب جانباً من الاعتراف بالشرعية. هذان الاستدلال - كمثال جهد عن تأثير الوضع - يتسمكان بالاختلاف. وهما يفضلان المقابلة بين المؤلفين على التوفيق بينهما¹³⁷.

فالعلاقات الأمية تعكس ميزان قوى أكثر مما تعكس علاقات «طاعة جداً بين أفراد العائلة. لكن مع ذلك، يعتبر أن ماركس تجاهل العنصر الذاتي الذي يشكل جزءاً مهماً من الحقيقة الموضوعية، والذي أكد فهم من خلال الاعتراف بالشكل الشرعية من قبل الأفراد مثلاً.

والاعتراف هو نتيجة الانتماء إلى مجتمع ما، أي نتيجة لتقبل وجود مؤسسات أو ظواهر اجتماعية معينة على أساس تصورات وإدراكات ومواقف وتصرفات محددة. وهذان الموقفان هي رأي بورديو يعتبران يمثلان واضحاً عن الاختلاف في الرواية وعن الإيجابيات والسلبيات عند كل منهما. لهذا السبب مع أن مساهمتهما يمثلان ههنا، على الاختلاف في الشرح، فمن الأجدر يمكن البحث عما هو مشترك بينهما، أي عما هو صحيح وعلمي، وهذا هو منطق البحث العلمي. وهذا أكثر بساطة وسهولة من أجل بناء محاضرات واضحة: الجزء الأول ماركس، الجزء الثاني فهم. والجزء الثالث أنا¹³⁸. ويخلص بورديو إلى تأكيد الحقيقة التي

سبق ذكرها وهي أن الحقيقة الموضوعية التي بينها ماركس فهم صحيحها كلياً إذا لم تنهم كمعيار قوى معترف به من قبل أفراد معينين، أي إذا لم تشعل العنصر الذاتي. أي حين أن منطق البحث يؤدي إلى تجاوز التعارض، هي الرجوع إلى الجذور المشتركة. أبعد ماركس من نموده الحقيقة الذاتية للعالم الاجتماعي وطرح عكسها الحقيقة الموضوعية لهذا العالم كمعيار قوى. لكن، إذا أوجع العالم الاجتماعي إلى حقيقته كمعيار قوى، وإذا لم يعترف به كعالم شرعي، هي إطار ما، فإن ذلك لن يكون صحيحاً، فالتصور الذاتي للعالم الاجتماعي كعالم شرعي يشكل جزءاً من الحقيقة الكاملة لهذا العالم¹³⁹. يعادى يتميز موقف بورديو هذا بأنه أن بورديو توصل إلى رؤية المفردات والثغرات هي اناركسية، فألقى أصواء جديدة على طبيعة الواقع الاجتماعية والسياسية، وكشف عن أن تشكيلها أو تشكيلها لا يحصل بمعزل عن تصورات الأفراد وتصرفاتهم إزاءها، حتى أن هذه التصورات أو الأفعال تشكل جزءاً منها. ومع

أن ماكنس فيغير نصحته عن الحقيقة الذاتية، إلا أنه لم ير شيئاً غيرها، إلى أن أتى بورديو واعتبر البعد الذاتي جزءاً من البعد الموضوعي للحقيقة الاجتماعية، وهذا هو الاكتشاف المهم الذي أتى به. إلى جانب هذه المسألة، تحدث بورديو عن الجوانب المتكيفة للحقيقة الاجتماعية وعن طبيعتها المعقدة وعن طابعها الاجتماعي، ودعا إلى التفسير الأنثروبولوجي، ورفض التفسير الاقتصادي. علماً أن ماكنس نفسه أشار إلى صعوبات هذا التفسير الأحادي الجانب بالنسبة إلى بعض أشكال الظواهر الإنسانية أو الفن، ومع أن التفسير الأنثروبولوجي الذي اعتمد لا يتجاهل الظروف الاجتماعية والتاريخية، وعلى الرغم من أهميته نظراً لمحاولة فهم الخصائص الدقيقة للعلاقات الاجتماعية المتعددة، فهو لا يراعي حجم تأثير أي عامل مقارنة مع العوامل الأخرى مع الإشارة إلى فائدة ذلك هي كشف الحقائق.

١-٢- منهج الأنثروبولوجيا الكلية: دراسة العلاقة الكلية

ما طبيعة علم الاجتماع الذي يريده بورديو؟ يعتبر أن وجود علم ينتهز تجاوز التناقض الوهمي كما يسميه بين الذاتية والموضوعية. وهذا التناقض وهمي وتفسري لأن أي طرف من الطرفين يشهد على وجود جانب معين من الحقيقة دون الجانب الآخر، بسبب وجوده بالذات، يفترض علم الاجتماع تجاوز التعارض الوهمي الذي يولد الذاتيون والموضوعيون تصفاً^{١٢}، فالذاتية لا ترى (إلا المنصور الذاتي) (الأفكار والتصورات)، والموضوعية لا ترى (إلا المنصور الموضوعي) (الخصائص المبررات)، هي حين أن الحقيقة الاجتماعية تشمل العنصرين معاً. وهكذا، فأي من التناقض لا يمكن إنكاره. فنتيجة لذلك، فإن علماء الاجتماع الموضوعيين، وبشكل خاص موركايم وماكنس، أي أولئك الذين يعتقدون أنه لا يوجد علم اجتماع موضوعي إلا لأنه توجد علاقات موضوعية (وقائع موجودة خارج وعي الأفراد، قائمة بذاتها، ومعرضة طبعاً) تشكلت بمعزل عن إرادة الإنسان وعيه. ينتقد موقفهم الذي يعتبر العلاقات لا واعية وأنها لا تعطي للتفكير البسيط، وإذا كان علم الاجتماع علماً موضوعياً معكناً، فلأنه توجد علاقات خارجية، ضرورية، مستقلة عن الإرادة الفردية، وحتى لا واعية (أي بمعنى أنها لا تعطي للتفكير البسيط)، وهي لا تفهم (لا من خلال تحول الملاحظة والاختيار الموضوعيين)^{١٣}، بكلام آخر، الموقف الذي يقول بأن العلاقات أو الوقائع لا تكون مرتبطة بالوعي (إلا إذا أدركت علمياً، وأنها لن تكون مستقلة وموضوعية (إلا مع التفكير البسيط، ويتوجه بالتفكير كذلك إلى طريقته في التفكير والتحليل التي لا تعطي قيمة إلا للملاحظة والاختيار الموضوعيين، أي الطريقة التي تهتم بمراقبة وفهم وتحليل ما هو موضوعي موجود في الواقع، وتتخبط ملاحظة أو اختيار ما هو ذاتي، بكلام آخر، لأن الأشخاص لا يدركون معنى كل تصرفاتهم كمعنى مباشر للوعي، ولأن تصرفاتهم تطوي دائماً على أكثر من معنى لا يعرفونه ولا يريدونه، قد لا يكون علم الاجتماع علماً انعكاسياً محضاً يسمح بالوصول إلى التأكيد المطلق بواسطة

الرجوع الوحيد إلى التجربة الذاتية، وربما يكون في الوقت نفسه علما موضوعيا الموضوعي ولـ «الذاتي» أي علما اختياريًا^(١٢). إن علم الذاتيين أيضا من انتقاداته، فهؤلاء إن يتمتعوا من فهم الحقيقة (لتصرفات الأفراد مثلا) من خلال التجربة الذاتية فقط، لأن الأفراد لا يتمتعون من إعطاء وصف دقيق علمي لتصرفاتهم لأسباب عديدة: أولا، أنهم لا يدركونها مباشرة. ثانيا، أنهم يعطونها معاني مشحونة. ثالثا، أنهم يرفضون إعطاء معنى لتصرفاتهم معاني لا يريدونها. إذن، يبقى التحليل من خلال التجربة الذاتية خاضعا لقياس المعنى العلمي الوحيد. ولهذا السبب فعلم الاجتماع إن يكون علما انعكاسيا خاضعا للتفكير الذاتي وللغايب الذاتية.

التحليل العلمي في رأي بورديو هو ذلك الذي يكون بمنزلة الاختيار الذاتي والموضوعي في الوقت ذاته، أو للعلاقة بينهما، أو الاختيار. كما يقول كلود برنار هو «الوسيط الوحيد بين الموضوعي والذاتي»... لكن بخلاف علم الطبيعة، فالأنثروبولوجيا الكلية لا تريد بناء علاقات موضوعية لأن تجربة المعاني تشكل جزءا من المعنى الكلي للتجربة؛ وعلم الاجتماع الأقل شهرة ذاتية يستعين بمفاهيم وسطية ووسيلة بين الذاتي والموضوعي مثل الاستلاب والموقف والأخلاق التطبيقية^(١٣). فلا يجوز مثلا تحليل مواقف أو تصورات أو آراء أو أفكار بشكلها المجرد بمعزل عن معانيها الموضوعية في الواقع للموس. بناء على هذا الموقف، ليس من الضروري أن يكون موضوع الأنثروبولوجيا الكلية عبارة عن علاقات موضوعية أو واقع قائمة ببنائها، كما هو الأمر بالنسبة إلى علم الطبيعة وعلم الاجتماع عند الموضوعيين. لأن التحقق من خلال التجربة الذاتية من المعاني المختلفة للتصرفات بعد جزءا من المعنى الكلي للتجربة التي يجب أن تشمل المعاني الذاتية والموضوعية معا. من هنا كانت دعوة بورديو لواقع الشخصية الذاتية عن علم الاجتماع من خلال استخدام مفاهيم وسطية أو وسيلة بين الذاتي والموضوعي أي مفاهيم تشمل للمعاني الذاتية والموضوعية معا. فلا يجوز مثلا البحث عن معنى الاستلاب في شخصية الفرد فقط من دون البحث عنه كذلك في الواقع أو في الظروف الاجتماعية. أي أن معناه غير مقتصر على الأسباب الذاتية المتعلقة بشخصية الفرد فحسب، وإنما على الأسباب الموضوعية والموسمية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

وعلى الباحث رؤية هذه الأسباب جميعا. والأمر نفسه بالنسبة إلى الموقف الذي يتخذه الإنسان إزاء أي مسألة. حيث يجب البحث عن المعنى ليس في التفكير الذاتي فقط، بل أيضا في الواقع للموس. وكذلك بالنسبة إلى مفهوم الأخلاق التطبيقية. تصدر الإشارة هنا إلى أن معنى الأطلاق التطبيقية المتعلقة في القواعد والقوانين الاجتماعية غير معزول عن معنى الكل والتصورات، والفهم الأخلاقية المجردة. إذ مهمة علم الاجتماع تكون على أساس بناء نظم من العلاقات يشمل المعاني الموضوعية للتصرفات المحددة اجتماعيا من خلال الأنظمة والقوانين

والعلاقات التي يقيمها الأفراد مع وسطهم الاجتماعي والتاريخي، أي مع وسطهم الموضوعي، أو مع المعاني الموضوعية لتصرفاتهم، إيقظ له بالتالي بناء نظام من العلاقات الذي يشمل المعنى الموضوعي للتصرفات النظمية تبعاً لأنظمة مقبسة. والعلاقات الفردية التي يقيمها الأشخاص مع الشروط الموضوعية لوجودهم. ومع المعنى الموضوعي لتصرفاتهم. معنى يملكون لأنهم مملكون به³⁷³. نفي بناء نظام من العلاقات التي تشمل التأثير المتبادل بين الأفراد وشروطهم الاجتماعية، بعبارة أخرى، تتمثل مهمة علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا الكلية في وصف الضرورة التي تتطلب الموضوعية من خلال الاختيار الذاتي. وذلك لتجميع الذاتي بالموضوعي. كلمات أخرى، يعود وصف الذاتية الموضوعية إلى وصف استبطان الموضوعية. والتعطيات الثلاث للمعنى العلمي هي بالتالي غير منفصلة: للعيش المباشر، والدراك من خلال التعابير التي تعطي نفس الموضوعي بقدر ما تكشفه. يعود إلى تحليل المعاني الموضوعية والشروط الاجتماعية لإمكان تحقيق هذه المعاني، تحليل يستدعي بناء العلاقة بين الأشخاص والمعنى الموضوعي لتصرفاتهم -- باختصار، على الأنثروبولوجيا الكلية الانتهاء في تحليل الضرورة التي وفقها تجنر الموضوعية في/ بواسطة الاختيار الذاتي، عليها تجاوز الأمر بشمولها لحظة الموضوعية وتركيزها في نظرية الاستبطان واستبطان الإقناع³⁷⁴. أي وصف كيف تتموضع الذاتية، أو كيف تؤدي تصورات الأفراد ومواقفهم وأرواحهم إلى تشكيل وتشهيد الواقع الاجتماعي. ومن ثم كيف تستبطن الموضوعية الذات أو كيف تؤثر الشروط الموضوعية فيها وكيف تشكل المعاني.

وبما أن المعاني أو التعابير الذاتية للأفراد قد تكشف أو لا تكشف المعيش المباشر نظراً لتعددتها واختلافها بخصوص أي تصرف، فإن معرفة هذا الواقع المعيش تعود إلى تحليل المعاني الموضوعية للتصرفات. أعني إلى تحليل المضامين المحددة من خلال نظم وفرواد معينة. وتحليل الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تسمح بتحقيقها. وبالتالي، هذا التحليل يرتكز على العلاقة بين الأشخاص وشروطهم الموضوعية. بكتاب آخر، يكون كشف الواقع المعيش من خلال تحديد الظروف الاجتماعية المختلفة (تبعاً للفئات والطبقات الاجتماعية) التي تسمح أو لا تسمح بتحقيق المعاني الموضوعية للتصرفات المحددة من خلال مواقفهم ومؤثرات واستعدادات ودرجة معينة من المعرفة. أحياناً تتوافق المعاني الموضوعية مع استعدادات الأشخاص لدى فئات معينة، وهي هذه الحالة يتم التوافق بين المعنى الموضوعي والمعنى الذاتي. كأن ينجح مثلاً في امتحانات الدخول إلى كليات الطب والهندسة وغيرها من الفروع العلمية أشخاص من فئات اجتماعية متوسطة أو ما فوق المتوسطة. وأحياناً أخرى، ينفخ مثل هذا التوافق، كأن يربس في امتحانات الدخول إلى الفروع العلمية التطبيقية الطلاب المنتمون إلى الفئات الشعبية. وفي هذه الحالة يكون التناقض بين المعنى الذاتي (أمال

ومطامح الأفراد)، والمعنى الموضوعي (الشروط التي تسمح لهم بتحقيقها). وقد يعمل المعنى الذاتي أحياناً على التغطية المعنى الموضوعي، خاصة عندما يقوم الفشل أو الرسوب في الامتحانات بأسباب ذاتية.

١ - ٩: نقد البنيوية ونزولها

يحاول بورديو أن يتجاوز البنيوية، وأن ينحسب إلى ما وراءها، كان الفكر البنيوي قد طبق بشكل خاص على الأنظمة الرمزية من لغات وأساطير وأديان... إلخ، وقد مكنت البنيوية ثورة في علم الأناسة (الأنثولوجيا). لقد تبين أنه لايفي دراسة الشعائر والتقاليد والأساطير كأنظمة متكاملة ومستقلة بحد ذاتها، أي كأنظمة لها تماسكها الخاص. لقد أحدثت البنيوية بذلك القطيعة مع الأنثولوجيا الاستعمارية والعنصرية التي غالباً ما تكون مقبولة من قبل المستعمرين أنفسهم؛ كانت الأنثولوجيا السائدة تقول بأن الأساطير والشعائر، وهي عبارة عن طقائيات أو ممارسات قوسية، غير متماسكة، ولا معنى لها. وبالتالي فإن ثقافة المستعمرين التي يقب عليها الطابع الشطوي والريفي «متدنية وسخيفة وبدائية» بالقياس إلى الثقافة «العلمية الأوروبية». إن شخصاً مثل بورديو - كان قد شهد النظام الاستعماري في الجزائر - يعرف جيداً كم كانت البنيوية ظاهرة ثورية (في مجال الأنثروبولوجيا على الأقل). كان شيئاً ثورياً أن يعامل عالم الأنثروبولوجيا **التصورات الخاصة** بغير الشعوب الأوروبية، كأنها أنظمة لها منطلقاتها الخاصة، وتماسكها الخاص، الذي لايفي البنيوية به أو تفرقه من المعنى. وكان ذلك يمثل قطيعة حقيقية مع التورية الاستعمارية التي قدحها معظم الأعمال الأنثولوجية السائدة في ذلك الوقت.

ولكن على الرغم من ذلك، فقد جاء وقت أحس فيه بورديو بالحاجة إلى إحداث القطيعة مع الأنثولوجيا البنيوية وليفي سخراس بالذات، ذلك أن ليفي سخراس قد حصر عمله فقط في تحليل الأنظمة الرمزية وخصوصاً الأساطير، أي في التصورات والبنى القوقية. أما بورديو فقد لزم عليه أن ينحسب إلى أبعد من ذلك لكي يحلل العلاقات الاجتماعية بمنتهى أنظمة متماسكة وذات دلالة. بمعنى آخر فليد تقل البنيوية من مستوى التصورات والأساطير والمخيلة إلى مستوى الممارسات الواقعية والعلاقات الاجتماعية بوجود فضاء اجتماعي للعلاقات التي تشكل تصوراتها أو التصورات المشكل عنها التعبير الرمزي. هذا ما حاول دراسته في كتابه «التبوير»، «التد الاجتماعي للحكم التقييدي أو لراي»^(١١)، حيث يتحدث عن أشياء كثيرة من بينها: «الوجبات الشعبية، (وجبات الطعام)، والوجبات النرجولية، والنوق الشعبي، والنوق الكورجواني». ثم معادلاتها على أرضية الواقع الذي، ونظام القيم الخاص بكل منهما.

وهذا ما فعله في الجزائر أيضاً، فقد درس هناك نظام الألبسة التقليدية، ثم النظام الأوروبي (طقم + كرافات...)، وقد كان النظام التقليدي مقسمة متشعبة، ويتخذ شكل التراتب

الهرمي. وقد فهم بسرعة بعد أن فكر في الظاهرة أن هناك علاقة بين نظام الواقع داخل الفضاء الاجتماعي (المجتمع)، ونظام الواقع داخل الفضاء الرمزي للأبسة والبروت. والناس هناك يعرفون ذلك، ولكن فقط على مستوى الممارسة العملية: فتدعوا برون شخصاً في الشارع فإنهم يمتصون موقفه الاجتماعي انطلاقاً من التمعن في لباسه وهيبته. إنهم يعرفون هل هو جيلي أم حضري، هل هو فطير أم نسي. هل هو تقليدي (تتخذ تكون قطع اللباس متماسكة ومتجانسة) أم مثقف (وعندئذ يكون اللباس خليطاً من الزي التقليدي والأوروبي). هناك إذن نوع من التنازلي بين نظام الأبسة ونظام الواقع أو الراتب الاجتماعية. وقد تمثل عمله بدراسة العلاقات الاجتماعية وتجلياتها الرمزية مما يستلزم تشكيل نظاماً متماسكاً، تتحدد بالأنظمة الرمزية هذا: الأبسة والثقافة والسكن والشعائر... إلخ⁽³⁷⁾.

وبوردو يريد فهم الحدود الفاصلة بين علم الأبسة (الأنثولوجيا) وعلم الاجتماع (العميسولوجيا). فالفرق بين هذين العلمين هو نتائج العنصرية الاستعمارية، ولم يعد له أي مبرر وجود الشيء الذي حاول تبنيه الأنثولوجيا والمجتمع الذي يدرسه، تتحدد تأثير العلاقة الخارجية في الموضوع للمدرس واللغة للمروسة. كان عالم الأنثولوجيا البنيوي قد أحمل هذه العلاقة تماماً (المقصود ليفي ستراوس) فحينما درس بوردو المجتمع الجزائري (عاداته، طقوسه، علاقات القرابة والزواج، **وارتكار كل ذلك على مفهوم المرض أو الشرفاء**) لكتشف أنه مشروط بموضعه كمراتب خارجي بكل مبادئه وأبوابه، يعني أخذ العلم بذلك وعدم إخلاله كما فعل ليفي ستراوس، **الذي انتهى بالتقول: أنا جرافة جوارحي وساهل خارجية، ولي أطلب قيم العقلية المركزية الأوروبية على حضاراته الآخرين**. لأن الآخرين مستكشفون جديراً هذا موقفه ينطوي ضمناً على عرقية مركزية واضحة.

لهذا السبب فهم جالده يريد أيضاً ليفي ستراوس بالعرقية المركزية، وقد رد عليه ليفي ستراوس قائلاً: «إن هؤلاء الذين يريدون هذا الكلام يربطون معنا عن القيام بأي محاولة لفهم الثقافات الأخرى، وهم بالتالي يستكشفون في ظلامية جديدة. ذلك أن الفهم يتطلب حداً أدنى من التماثل والهوية»⁽³⁸⁾.

كان ليفي ستراوس، قد حقق تقدماً كبيراً في فهم وبدراسة الفكر الأسطوري لمجتمعات عديدة ومختلفة، ولكن رفضه للعرقية المركزية أدى به إلى رفض تحليل موقعه بالذات كمدرس لمجتمع آخر، إنه يحترم الثقافات الأخرى ويحجب بها، ولكن هذا الاحترام يشوبه إلى تأييد المسافة بينه وبينها، فهو شيء وهي آخر، ما دامت لم تتخذ طبعاً تطوّر الغرب نفسه. يمكن القول بأن ليفي ستراوس قد وقع في نوع من العرقية المركزية البورجوازية أيضاً، هناك نوعان من العرقية المركزية: الأولى عرقية مركزية ثقافية (أي الغرب مركز الحضارة البشرية والثقافات الأخرى وحشية وبدائية)، والثاني عرقية مركزية طبقية، وهذا النوع الثاني نجد

لدى المثقفين اليهوديوليين في البلدان المستعمرة مثابها، إنهم هم أيضا ينظرون إلى أبناء شعوبهم من الطبقات الشعبية والريفية نظرة استعمارية. وقد نسي ذلك يورديج عندما كان يقوم بأبحاثه البدائية في الجزائر. حيث اشتغل مع بعض هؤلاء المثقفين. إنهم يحملون عقلية المستعمر للهيمن من دون أن يدروا ذلك، لومن دون أن يدروا³⁷.

لقد عاش يورديج كل هذه التجارب من «إثنولوجية» و «سوسيوولوجية» وعلمها عاد إلى فرنسا راج يدرس نظام الزواج وعلاقات القرابة في منطقة الأمازيغية «البييريه» (جنوب غرب فرنسا) وهنا راج يشرح ذاته الخاصة، يشرح مجتمعه الذي ولد فيه، ولم يعد مراقبا خارجيا، واكتشف أن الخطر على نجاح دراسته عندما كان في الجزائر كان يكمن في زيادة المسافة. وأن الخطر هنا في مجتمعه يكمن في نقص المسافة. أو انعدام المسافة مع المجتمع المدروس. هكذا نلاحظ معه أن هناك سلبيات وإيجابيات بحسب موقع الدارس من الظواهر المدروسة، ينبغي ألا يكون بعيدا جدا، ولا قريبا جدا وذلك لكي يرى الأشياء على حقيقتها الوسوعية. وينبغي أن يقوم باستمرار بعودة فدية على ذاته، وعلى أدواته ومنهجياته. أو أن عالم الإثنولوجيا البيوري قد حلل موقفه العلمي كمرآة خارجي واعترف به منذ البداية، لاكتشف أن ما يدعوه به «الفكر الفوتوش» ليس شيئا آخر إلا منطق فكرة الخامس بالذات في الحالة العملية، أي هي حالة الممارسة اليومية المعنوية. إن الفرييريين بدالين أيضا على طريقتهم الخاصة، عندما يتعدون في مختلف شؤون الحياة والذوق. وهذا يعني يكرهون... إلخ. وقد حاول في كتابه «الحسن العملي» أو «الخير العملي» أن يدرس الية التفكير ووظائفه هذا النوع من الفكر العملي المباشر والعفوي، أي فكر الصالحين الجزائريين مثلا عندما يدبرون «مؤامرة زواج» «صفة زواج» ليس فقط بين شخصين (رجل وامرأة) وإنما أيضا بين عائلتين وعشيرتين بكل ما يتضمنه ذلك من موازين قوى وتحالفات ومصالح... إلخ. وقد درس الشيء نفسه في منطقته بالذات (منطقة البحر في جبال البييريه) واكتشف أشياء مشابهة وعملاقة، إذ ذكر أن أمي قد قالت لي يوما: إن العلة الفلانية (أ) قد أصبحت تسب نفسها إلى العلة (ب) منذ أن أصبح أحد أبناء هذه الأسرة مهندسا في البوليتكنيك وراحوا يحملون بتزويج انتهم منه. إن الصالحين «البداليين» ليسوا أغبياء وإنما هم بارعون «شطار» يعرفون ما يريدون، وهم يستطيعون حل مشاكلهم منطقيا عمليا أو منطقيا قبل المطلق. وهذا ما نقفه نحن بالذات هنا في باريس الحاضرة في أمثالنا اليومية وأحدنا الشخصية المعنوية، أي عندما نتوقف عن التفكير المنطقي الحسابي والمنهجي التطبيقي الذي نستخدمه فقط في أثناء البحث والتحليل. أو عندما نراقب أنفسنا كمتقنين جادين أو مسؤولين. هذا ما نقفه عندما نتحدث في السياسة مثلا، أو عندما نطلق أحكاما معينة على العرب أو الإسلام أو الفارسية أو السود أو الشيوعيين أو الصهيونيين³⁸.

١ - ١٠ : نقد لنظرية السلطة / السلطة

أما فيما يخص السلطة ودراستها فتلاحظ أن هناك تقارباً بين بورديو وماركس. فتلاحظاً يركز على مفهوم السلطة السائدة في مجال معين أو في حقل محدد. إلا ما استخدمنا لتعبيرهما الخاص بالذات. عما من جهة. وأما من جهة أخرى فقد وجدنا ماركس وروسون يناقش مفهوم ماركس للسلطة ويحيط عليه إعماله للمسألة الأساسية. أي مسألة تحليل السلطة المركزية وليس فقط السلطات الوضعية والحالية.

إن موقف بورديو. في الخطوط العريضة. قريب إلى حد كبير من موقف ماركس. ومع ذلك فهو مختلف جداً لقد حاول أن يحلل منطق وإلية ما كان قد أسماه بالسلطة الرمزية. أي السلطة التي تمارس نفسها على هيئة القدرة التي تجعلنا نرى أو نسمع أو نصرف أو نؤمن. والنتيجة من ذلك يمكننا أن نتحدث عن السلطة النظرية أو سلطة النظرية إلا ما أعطينا لكلمة النظرية معناها الإيديولوجي الأصلي. أي برنامج الرؤية.

كيف تمارس هذه السلطة دورها؟ كيف تمارس صفتها؟ هنا ندخل في منطقة المعرفة / الجهد. أو المعرفة / اللاشعور. ذلك أن السلطة الرمزية هي سلطة تصفية في الأصل. ولكن الناس يشرطون شرعيتها لأنهم يخفون أنها تصفية. وهذه هي الحال فيما يخص نظام الشهادات مثلاً في المجتمع الغربي الحالي. فإذا قال قائل عنه بأن ذلك يمثل علاقة على محتوية وراء صفتها كعلاقة فوق قوتها والديهي الإبقاء بأن التهيئ عليهم يساهمون في ترسيخ نظام الهيمنة على طريق الاختراقية أول ينبغي أن نستنتج من ذلك القول بأن التهيئ عليهم متواطئون مع عبوديتهم. وأن السلطة نجية من تحتها ربما. في الواقع أن السلطة ليست شيئاً متبوعاً هي مكان ما. وإنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابهة. ونجد أن كل دولة العالم الاجتماعي (المجتمع) ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار من أجل فهم أليات الهيمنة والسيطرة.

لقد تحدث الفلاسفة كثيراً في لقاء سني السبعينيات عن السلطة. وراحوا يشاطرون حل السلطة تأتي من فوق أو من تحت؟ يبدو لبورديو هذا السؤال مسألاً جداً. في الواقع أنه لا توجد سلطة واحدة. وإنما سلطات عديدة. وكل سلطة مرتبطة ومتشعبة مع الفضاء الذي تمارس نفسها داخله. أن تدرس سلطة معينة فهذا يعني أن تدرس بشكل رئيسي الشروط الاجتماعية لإمكان ممارسة هذه السلطة. وإن كنا نعرف ماذا تعني السلطة الاجتماعية أو سلطة أستاذ الجامعة فإنه ينبغي أن ندرس هذا الفضاء الذي تشكل فيه هذه السلطة. وتشكل فيه في الوقت ذاته شروط ممارستها. يبدو لبورديو دراسة السلطة الاجتماعية صعبة جداً لأنها أبعد ما تكون عن السلطة التي تمارس دورها في الحقل الاقتصادي مثلاً. وإذا كان هناك من سلطة ترغب في أن تقول بأنها ألية من تحت. فإنها السلطة الاجتماعية. هذا الكلام خاطئ دائماً. ولكنه هنا أقل خطاً منه في أي مكان آخر.

إن السلطة الجامعية هي سلطة تعارض دورها من خلال العلاقة التي تربط بين «الهيمنين» و«الهيمن عليهم»، ولا يستطيع المسيطرون ممارسة هيبتهم وسلطتهم إلا عن طريق حصول توافق (غالبا ما يكون لأغراض تافهة) من قبل المسيطر عليهم. والسؤال المهم المطروح هنا هو كيف يحصل التوافق؟ لقد حاول بورديو أن يجيب عنه من وجهة أسئلة أخرى عندما درس الموضوع بالتفصيل في كتابه «الإنسان الأكاديمي». لخصيف أن السلطة المركزية التي يتحدث عنها روبرتسون ليست إلا تجميعها (أو محصلتها) لكل السلطات الفرعية المنتشرة في مختلف نواحي الجسد الاجتماعي.

١ - ١ : نقد الإنسان الأداة

في كتابه الصادر عام (١٩٨٢) بعنوان «ماذا يريد الكلام أن يقول»، نلاحظ أن بورديو يتخذ بشكل منهجي ومقتنع تصور كل من سوسير وشومسكي لفهمي اللغة والكلام (أو بحسب مصطلح شومسكي: «الكلام» الاستخدامي)^{٢٢}. فشومسكي يهتم مسألة الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تتم ضمنها عملية اكتساب الكتابة اللغوية الشرعية (أي القدرة على امتلاك قواعد النحوية والتركيبية للغة السائدة). ثم يذهب في الكتاب نفسه أيضا إلى أن كل قدر الأسميات الحديثة قد حسم عن طريق الانقلاب الافتتاحي (التدشيني) الأول الذي فعله به سوسير نهائيا بين «الأسميات الداخلية» و«الأسميات الخارجية» وعد الأولى وحدها جديدة بأن تحدث علم الأسميات. أما الثانية فتتعلق بتعريفاتها الخارجية الخارجية على علم اللغة، كالجسم والافتقار... إلخ. وبالتالي فلا علاقة لسوسير بها.

والنقد هذا ينطبق حذوقا على النقد الأدبي السوسيوي المعاصر، الذي يزعم بأنه يهتم بالنص كشبه مستقل عن كل العوامل الخارجية. ليس التحليل البيوري (أو نوعا محددا) (أو تحديدا) على التحليل الداخلي القديم، الذي يبالغ النص كشبه مستقل لا علاقة له بالخارج. وليس من قبل المصادفة أن كل القسريين الذين تعاطوا دائما طريقة التحليل الداخلي للتصوير يتلون البيورية بكل سهولة وترحابه في حين أنهم ينكرون من المناهج الأخرى. يعتقد بورديو فيما يخصه أنه ينبغي الربط بين الفضاء الذي تتموضع فيه النصوص والفضاء الذي يتموضع فيه المتحدثون (أي الكتاب).

ينبغي أن تحدث النظمية مع القواعد الداخلية للتصوير للعزولة بعضها عن بعض كذلك التي حصلت لتصوير «القطعة» السوداء من قبل حاكميون وإيلي ستراوس، التي حالت بشكل وثيق جدا. ينبغي أيضا أن تحدث النظمية مع منهجية لانسون أو فريود التي تربط بشكل مباشر بين النص الأدبي وكتابته. وتعتبر النص مجرد تمكاس لحياة الكاتب الشخصية، الشيء الذي يدور إليه بورديو يتمثل في الكلف من بنية العلاقات بين نصوص فترة زمنية محددة (وليس نصا معزولا بعزولة) وبين بنية الواقع التي يحلها مؤلفوها داخل العقل الأدبي. أما رأي بورديو في

منهجية جولدمان هي التحليل الاجتماعي الماركسي للتخصص الأدبية. فهي هي تعمل لتحليل الأعمال الأدبية إحدى الصيغ الملائمة للمنهجية الاختزالية السوسيولوجية. وهي تشكل بلا ريب نقداً بالقياس إلى المرحلة الجدالوية السابقة. ولكنها مع ذلك تبني غير كافية في توضيح العلاقات بين الأدب والمجتمع، ذلك أن هذه الطريقة (أو المنهجية) تقيم علاقات مباشرة وهجبة بين المتغيرات الثقافية وموقع منتجيتها داخل الفضاء الاجتماعي (أي داخل المجتمع). ويعتقد بطفون أمكنا من نوع: هذه الرواية تعبر عبر البورجوازية الصاعدة، أو الطبقة العاملة، أو البورجوازية الصغيرة... إلخ. إن منهجية جولدمان تقع هي أيضاً في نوع من الاختزالية واختصار المراحل، إذ تقيم علاقات بين شيئين متباينين جداً: وطعن عملياً (أو تعسفاً) مسألة الوساطة أو الوسيط المهمة جداً. يقصد بذلك وساطة الفضاء الموضوعي الذي ينتج الكتاب من خلاله، وهذا ما يدعو فضاء الإنتاج الثقافي. صحيح أن هذا الفضاء الصغير يقع داخل الفضاء الاجتماعي الأكبر، ولكن تبقى له خصوصيته ورمزيته الذاتية وعصرانيته ومناقضاته. ويمكن أن تكون مصالحه مختلفة عن مصالح العالم الخارجي. ينبغي تحليله لذاته وبذاته قبل أن نربط بشكل تجريبي وعامس بين الأعمال الأدبية والتشكيلات الاجتماعية الكبرى.

يعيب البعض على بورديو (ريمون أرون مثلاً) أنه يريد تفسير كل شيء عن طريق منهجية علم الاجتماع، بل لقد وصل به الأمر - حسب ريمون أرون - إلى عدم تحليل كسائط سوسيولوجية والسؤال: هل هناك من مفهوم معين لمنهجية السوسيولوجية التي نمارسها؟ ولماذا لا يولي «المؤلف» أو «المفكر» أهمية كبرى في تحليلاته؟ هل هي شيء غير موجود، أو ليس له معنى هكذا تنطوي مرة أخرى ومن طريق آخر بتلك المسألة الزمنية، مسألة الحتمية والحرية... وبورديو يوجب بأنه: عندما يكون المرء عالم اجتماع، فإن عليه أن يدفع بالتفسير السوسيولوجي حتى هذه النقطة ويصل إلى أبعد نقطة ممكنة. وما يتجو عنه أو يستعصي عليه يبقى شيئاً مهماً ومثيراً للبحث. يعتقد بورديو أن مفاهيم من نوع «التوبة» و «العبودية» هي مفاهيم قبلية لم يلبس بعد، إنها مفاهيم قبلية مشكلة تاريخياً، وهي تشكل حجر عثرة يمنعنا من فهم الأثر الخاص بـ «البدع الخلاق». وهو يقصد بذلك أنها تمنعنا من أن نفهم أن البدع مهماً مثلها من طريق أوضاعه الاجتماعية الخاصة والثلاثية لكي يحتل موقعا معيَّنا داخل حفل ما، وإذالية ما يكون هذا الموقع عامداً في البداية. لقد حاول أن يبرهن على ذلك من خلال دراسته لحالة طوبور وهابيدجر. ليس المهم البحث عن سر المفردة، وإنما المهم هو أن نفهم كيف تتم عملية إنتاج الأعمال الأدبية وإنتاج الفنان (ولادة الفنان) كنظام أو كشيء مطلق لكي يمتد به ويضمهم ويحل. ثم ينبغي أن ننسأل كيف أن العمل الفني والأدبي العالي يتولد بواسطة لقاء استثنائي بين مجموعة من الفئات والاستعدادات والمواقع الاجتماعية المحدد الذي يحته الفنان وأهل الفضاء الأدبي أو الفني.

عدد الأثر والتماس بين القديم والحديث دراسة تطبيقية من أشكال التفاعلات النحوية في رواية « شجرة بناء وقصر »

أ. عبد الله تيت الأعشير (*)

أولاً : تقديم

قبل الإقدام على الكشف والإبانة عن توضيح
التماس وتفسير السابقين في جسد رواية
« شجرة بناء وقصر »⁽¹⁾ لأحمد الشوقي، أؤكد
أن عملية الكشف عن النقط، وتحديد الموضع،
والغوص على الدور المستطرفة التي أصبحت
نص الرواية بناء الحيات، موضوع قديم
جديد، خاص فيه الخالقون، وخاص فيه
القواصم، الخاص ومحتل، عربا وأجانب،
ونعوا فيه كل منذهب حتى النشوء إلى أن
تداخل النصوص وتعالقها.

والاستفادة لاحقاً من سابقها، أصبح حتمية لا غنى عنها، بل إن الانقضاء والأخذ المتعدي
فانقوا لا مناص منه بالتمسك إلى الفن القديم، والأدب البليغ، الذي توضح كتاباته بآثار
قراءاته، وتصبح صدق لها، بها ينوب لسانه، ومن حوسنها أثر يستقر مواد الطبع، حتى يبلغ
الغاية في إجادته وجود الخطاب، وطرائق البلاغة.

(*) باحث وأستاذ محاضر.

وإذا كنت أعي أن الخوض في هذا الباب يحتملي عرق القرب، ويلزمني أن أبذل النكيلة في الفوص على الدور والثلاثين، لأنه موضوع «لا ينهض به إلا الشاهد البصير». والعالم اليوم، وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكملناه^{١٢}، فإني توضيحت ما استطعت. الإحاطة علما بالنصوص المستثناة، ودققت النيش والتفتيش والتثبت، ومسيرت، ووقفت عند كل شاهد، الفارقة بمسئله، وإن كان خفيسا عدل به عن نوصه وعظه، أنعم فيه الفكر قصد التيسر والتثبت، أسود بالرمضاء الأثبات، الذين ارتكوا غرور البحث والتقصي، فجازوا بقدح القمطر، والرفقوا بقرد من لا يخلق ضاروه، ومطروا هباب هم أمات المصادر حتى تمكنوا من الإمساك بتواصي الأخذ والاتباع. فطسلا عن الأطراف والنواحي، ضللتهم الأخذ بتواصي كل صروب من ضروب الاقتداء، استمدادوا كان أو استعانة، حلا أو تلميحاً، قلبا أو اقتباسا وتضميها، تواردا أو اشتراكا، مسحا أو نسخا ومسلحا وسرقا.

ثانيا: نظرية العرب الغدافي إلى صفائح النص الأدبي

النظر إلى ما حيّز انتقاد العرب القدماء من شأن ضروب تمديد الكلام شعرا ونثرا، يتبين أن المسألة هي الإجازة، والحدافة في المسألة ينهضان على الأسس الآتية.

١- طير الاستعداد النفسي

وهي مرحلة تتسنى على مجموعة من الأوصاف النفسية والتركيزات الذاتية، كالميلنة والطبع. وقد ألمح إليهما ابن طباطبغا العلوي في قوله: «فمن صح طبعه وذوقه لم يصدح إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض^{١٣}، أما ابن وهب الكاتب فقد أوضح في باب قسمة العقل أن العقل الموهوب أصل، والموهوب الطيب، والمكتسب فروع، والأشياء بأصولها، فإذا صح الأصل صح الفروع، وإذا قسدت قسدت. وقد شبه بعض القدماء العقل الفريزي باليد، وشبه المكتسب باليد، فكما أن الغداء لا يستحيل إلا بالأبدان المحيلة له، ولا ينفع إلا بصحولة فيها، فكذلك العقل المستند بالأدب لا يتم إلا بالعقل الفريزي^{١٤}، أما ابن أبي الأصميصي المصري فقد لخص وصية أبي تمام البيهقي منتهيا إلى أهمية هذه المرحلة قائلا: «يجب على من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر، أن يعتبر أولا نفسه... فإذا وجد لها قطرة سليمة، وجيلة موزونة، وذكاء وقادا، وحاطرا سمحا، وفكرا ثاقبا، وهما سرايا، وبصيرة ميسرة، وألمعية مهيبة، وفوة حافظة، وقسرة حاذية، وهمة عالية، وأهبة طمعية، وقطة صعيحة... كان موصوفا في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفسية^{١٥}».

ب- طوبى الاختلال الخطي

وليطبقة ابن طباطبا العلوي قائلا: «ولشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه. فمن تصد عليه أمارة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبين الخطأ هي ما ينظمه. ولحنه المبوب من كل جهة، فعملها: التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لغزون الآداب، والمعرفة بأهام الناس وأنفسهم، وعنائهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصديق في معانيه، في كل من قالته العرب فيه، وسلوك مذهبها في سفلها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها...»^{١٦}، وهي الأدوات نفسها التي يفتن حولها ابن وهب الكلاب في الاستعداد لصناعة الشعر «والشعر حيث يقول: «ورحاج الشاعر إلى تعلم العروض ليكون مهيأ له على قولها، وميزاناً على طبعه، والنحو ليصلح به من لسانه ويتذم به إعرابه، والنسب وأيام العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة اللغاب وللغالب فهمهما...» وأن يروي الشعر ليعرف مصالفة الشعراء ومذاهبهم وتصرفهم فيحدثي مذهبهم ويملك سبيلهم. فإذا لم يجمع له هذا، فليس ينبغي أن يتعرض لقول الشعر... فكل ما ذكرناه هناك من الوصف حد الشعر، فاستعمله في الحسنة والرسالة»^{١٧}، أما ابن فتيبة، فإنه لما رأى كتاب أهل زمانه قد أخذوا أنفسهم من كد النظر، وبلغوا النهاية بنهر آفة محصلة، فقد صنع لهم بالنظر في علوم الأعراف، وعلوم اللغة والحديث، مع دراسة أخبار الناس بآلة الشرائع جيدة الصريحة، مؤكداً أن «لا يتم إلا... من دراسة أخبار الناس والتحقيق عيون الحديث، ليدخلها في تصانيف سطوره مثلاً إذا كتب، ويصل إليها كلامه إذا حاور». وأشار الأمر على القطب وهو العقل وجودة الطريقة»^{١٨}، مما تقدم يتضح أن اكتمال الآلة في العلم بأسرار صناعة النصوص تنهض على الحفظ إذ «لا بد من كثرة الحفظ، لأن يوم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة الحفظ وطيبته في جنسه وكثرته من فتنه، تكون جودة للغة المحصلة عنه للحفظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العنابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي، أو رسائل ابن القفج أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصائغ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ووثية في البلاغة... وعلى مقدار جودة الحفظ أو للسموع، تكون جودة الاستعمال»^{١٩}، من أجل ذلك لم يحظ الشعراء المتأخرون بكثرة محفوظاتهم، فهذا أبو نواس يؤكد أنه: «ما قلت الشعر حتى رويت اثنين امرأة من العرب غير الخنساء، فما طفت بالرجال»^{٢٠}، وأبي لؤي مائة أروجة لا تعرف»^{٢١}، وإلى مثل هذا يشير أبو تمام قائلاً: «لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديواناً لقضاء خاصة ديوان الرجال»^{٢٢}، وقد مال الطب العارفين بأسرار الكتابة إلى الشرائع نسيان ذلك المحفوظ حتى تزول رسومه، وتكفيف الطريقة به فتشاً عن التكيف والنسيان ملكة ينسج على متواليها، كما هو الشأن بالنسبة إلى خالد بن عبد الله القسري الذي حفظه أبوه ألف خطبة وأمره أن يتأسسها.

٤ - طوبى المصاحفة الفخية

إنه طوبى هذه الأثر الأدبي كيممارسة فنية تفرض مبادئ النظر في الكلام لتهدية وتنبيهه حتى يخرج في أبهى حلة. من خلال تصيد الألفاظ المصاحفة المؤلفة المصاحفة المعناني الأيكار. وشمل الكلمات الغير التي لم تصفها أسنة اللسانين. مع تجنب خلطها بالغير البهذلة التي لاكتها الألسنة. وبذلك يمدد المصاحف العالية ويبلغ الولد. فتتفق مضاعته التي اجتب لها طرائد الألفاظ وفلاذ المعاني. واقتصر لها الطرائد الباهرة المكتنزة في أسلوب عربي صريح. قد أخذ من القصيدة بزمها. وأعاد من البلاغة بيجوانيتها. من دون تكلف أو تعسف. وإنما هي الألفاظ وتراكيب محكمة النظم والترصيف. لم يخرج من جدران الخيلة إلا بعد أن اكتوى بها كثرة العاشق بمعشوقته. برمي منها الثراب. ويستلقي التبر. ثم بهجر الصدفعة للإسكك بالقرقرة. وقد عبر شعراء الحوليات عن هذا الليل. حينما دعا إلى كتابة العمل الأدبي. وتركه حولا كاملا. اتتم العمود إليه من أجل التغيير والتعوير والإضافة والتحكك حتى يخرج العمل الفني تام الخلقة لم تترك فيه أي بارقة تبين عن مظهر أو مفعز. قال الحطيفة: مخير الشعر الحولي لتفتح. وقال البيهقي الشاعر. وكان أخطب الناس. إني والله ما أرمي الكلام فضيها خشيبا. وما أريد أن أحبط يوم الحقل إلا ما تلبثت للملك. وقد ملكت هذه الطريقة في المليك والتسويق للذهب الفني الذي دعا إليه العلماء بأسرار حواس تركيب الكلام. حتى أنهم دعوا الأديب إلى اختيار **ألفاظه** **ويصاغها** **الفرع** **والعروة** **كإطار** **زمانى** **يساعد** **على** **استكمال** **أبواب** **الفعل** **الإبداعى**. وثقة في تقوية الاستعداد النفسى لعملية ولادة النص. ولا سيما أثناء الليل حين نهى الأصوات. وتهمد الحركات. وتتمشى العقول. وتشتت الأبدان فيصدر عنها كلام يفيض بالاحساسات الصادقة. لأنه أمين نفسه ومملكته وذوب روحه مع مراعاة ما يجب لكل مقام من المقال. والابتعاد عن تأليف الكلام عند الضجر. وقد عبر بشو بن التميمي في صحيفته المشهورة عن هذه الرؤية التكاملة لمراحل الصنعة الفنية الذي يشمل كل المكونات البنيوية للنص الأدبي. في قوله: أخذ من نفسك ساعة نشاطك. وفراغ بالك. وإجابتها إياك. طاب قليل تلك الساعة أكرم جوهرها. وأشرف حميها. وأحسن في الاستماع. وأحلى في الصدور. وأسلم من فاحش الخطأ. وأجلب لكل عين وغرة من تلك شريف. وبمعنى بدع. وأعلم أن ذلك إحدى عبقك مما يعطيك يومك الأول. بالك واللطافة والخاصة. وبالذكف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطأك أن يكون مقبولا فصدا. وخفيضا على اللسان سهلا. وكما خرج من ينبوعه. ونجم من معدنه. وإياك والتوهر. فإن التوهر يملك إلى التقيد. والتعهد هو الذي يستهلك معانيه. وشيئ الفاضل. ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لقطا كريما... والعنى ليس بشرفه بأن يكون من معاني الخاصة. وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز النعمة مع موافقة الحال. وما يجب لكل مقام من

الخلق. وكذلك اللفظ المعاصر والخاصي... فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتكتمل الصلابة. ولم تسمع لك الطباع في أول هذه، وتعمى عليك بعد إجابة الفكرة، فلا تسجل ولا تسجل، ودمه جازي يوهك وسواد ليلك، وعادوه عند نشاطك وخراب بالك، فذلك لا تدمج الإجابة والولاء. إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصنعة على حرق^{١٢٨}، إذا كانت لك طبيعة في كتابة الشعر والشعر، ولم يطرأ لك عارض يفسد فريحتك كما هو الشأن بالنبية إلى الشاعر الصردق حين قال: «أنا عند الناس أشعر الناس وربما مروت علي ساعة ونزع مني من علي من أن أقول بيتاً واحداً»^{١٢٩}، وفي باب صنعة الشعر يورد ابن طياتيا العلوي مجموعة من المعايير الذاتية على الصنعة الفنية، منها: «مشكلة اللفظ للمعنى، وشدة توافقهما مع الثقافة، مناسبة الوزن، التوفيق بين الأبيات بسلك ناطم لها حيث يوضع كل بيت مع أخيه، التهذيب والتفحيم من خلال توحى الألفاظ الصلبة التقنية في سواطها، والألفاظ الغريبة مع جوارها. الصدق مع الالتزام بمطابقة كل طبقة بما يشاكلها، حسن التخلص من غرض إلى آخر، بلا انخسار للمعنى الثاني عما قبله، وفي ذلك يقول: «فلذا أراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يورد بناء الشعر عليه في فكره نشرًا، وأعد له ما يليه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والظواهر التي توافقها، والوزن الذي يفسل له القول عليه... فلذا كتبت هذه المعاني وكثرت الأبيات وقل بينها بأبيات تكون نظاماً لها ومسلماً جامعاً لما نشئت منها... ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نفيسة... ويكون... كتابهم المعاصر الذي يوزن بين التفتيم منها والإيجاز الزائد، ولا يشين مقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظفها وتنسيقها. وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي القصيح، لم يخلط به الحضري الثقل، وإذا ألقى لفظة غريبة لطمها انوارها... ويعتمد الصدق... ويحصر ليه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب القلوب بما يستحقونه من جنيل المخاطبات... ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها... ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم، وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصلاً كفضول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يسل كلامه على شعره في فنونه صفة لطيفة... باللفظ نطس وأحسن حكاية، بلا انخسار للمعنى الثاني عما قبله»^{١٣٠}، وهي القواعد نفسها التي يبدن حولها ابن أبي الإصيص، حيث عهد باباً في تحرير التحبير سماه باب التهذيب والتأديب وشرح فيه للأديب قواعد لصناعة الكلام قائلا: «التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لولفح، ويطلب منه إلى ما مر على الناظر أو الشاعر من يكون مستغرق الفكر في العمل، فيغير منه ما يجب تغييره، ويحذف ما ينبغي حذفه، ويصلح ما يتعين إصلاحه»^{١٣١} حتى يلقى الكلام من كبر العي، ويؤمن من أود التهذيب لذلك يدعو الراغب في الإعادة الفنية أن يحصل المعنى قبل اللفظ، وأن يروم اللفظ الجزل، دون الرذل، والسهل دون الصعب، والعذب دون المستكره، وأن يلتزم حسن التاليف والتنسيق، ويجود للطاق والتخلص والمطاطح»^{١٣٢}، بل إنه يدعو الأديب

الخلق إلا يجعل كل الكلام شريفاً عالياً، ولا وضهماً نازلاً، بل فضله لتحويل العقود... فإن العبد إذا كان كله نهيماً، لا يظهر حسن طرائفه، ولا يبين كمال واسطته... فإن الكلام إذا كان متروفاً اقتضت الأسماح فيه، ولم يلحق التقوس كل من اللطافة ومعانيها¹⁴⁴.

ثالثاً: نظرات النقد العربي القديم في إشكالية الأخذ والاستعداد

من تصورات العاصميين

يشهد تاريخ الإبداع الأدبي أن تعامل النقاد العرب القدماء مع الأثر الأدبي، كانت تحركه نزعة الإضافة الجديدة والتميز، فهو أن تراكم التجارب السابقة، وسبق المتقدمين إلى طرق المعاني الأنيكس، فرض على المتأخرين النظر إلى المعاني الإنسانية للشعر، ويشتبهون منها شعاعات ترجع عواطفهم، ويؤمنون إليها لشجيرة هاجس الإبداع والتميز، أصلاً هي خيالة قصب السبق إلى معنى يبيع صطريح، أو وصف واللق مبدع، ينفي عنهم وصحة السبق لأن أغلب المعرفين بضرور الصناعة الكلامية نظروا إلى التداخلات النصية تحت مظلة السرقات الأدبية. حيث أورد صاحب العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده باباً سماه «باب السرقات وما شكلها» كما عنون صاحب عيار الشعر باباً بعنوان: «المعاني المشتركة» السرقات، وخصص صاحب أسرار البلاغة فصلاً «في الاتي في الأخذ والسرقة والاستعداد والاستعانة» أما صاحب التلخيص في علوم البلاغة فقد انتهى الكلام بمناقشة «في السرقة الشعرية وما يتصل بها وغير ذلك» وأورد صاحب الصنائع باب السادس «حسن الأخذ وحل المنظوم» أما صاحب التوسعة بين القتيبي وخصومه فقد أله العنوان الأتي: «السرقات الشعرية» بينما أسرف صاحب الخلق المسائر في إيراد ضرور السبق في القسم الثالث من الكتاب شأنه في ذلك شأن ابن أبي طاهر الذي خرج سرقات أبي تمام نظرياً فيه الكثير من الكفالة وعدم الإنصاف. الأمر الذي جعل صاحب الموازنة في إطار الحديث عن سرقات أبي تمام يصحح ما ادعاه ابن أبي طاهر سرقاتاً لهية. كما صحح في إطار الحديث عن سرقات البيهقي ما ادعاه أبو الضياء بشر بن نعيم أن البيهقي قد سرقه من أبي تمام. وليس يسرق عند التثبت والتعليل.

وإذا كنت لا أقصد أن أفضل القول في قضية السرقات الأدبية ومعلقاتها، فإن النظر إلى ما أورده المنحرفون المضطربون من المصطلحات النقدية التي تعود في محيط من الأخذ والاستعداد من السابقين، يؤكد ولا شك أن النقاد العرب القدماء، لم ينظروا بعين المصطلح إلى هذه الإشكالية، وإنما نظروا إليها نظرية منصبة «لا تتكرر لهذا الأخذ والاحتفاء» بل تعدد عملاً فيها لا غنى للأدب عنه شاعراً كان أو ناظراً، وإن سموه في أكثر مراتبهم سرقة¹⁴⁵، ولا سيما بالنسبة إلى المعاني المشتركة التي يتصرف فيها الأدباء تصرف اقتدار يبرزها في أبي الحلال. وإن ظلت مشهودة فكرياً ورؤية إلى معنى مطروق سبيل إليه، إلا أن غنى بالكتاب

البلغ، ولا الشاعر المقلد، ولا الخطيب المصنوع عن الاقتداء بالأولين والاقتباس من المتفهمين، واحضاد مثالي السلفين، هي ما اخترعوه من معانيهم وسلوكهم من طرفهم. كان الأول لم يترك لأخيه شيئاً، فمن أخذ منهم معنى بلفظه فقد سرقه، ومن أخذ منه بعض اللفظة فقد سلبه، ومن أخذ عازباً وكتماناً من عنده لفظاً فهو أحل به ممن أخذ منه^{١٢٠}، وهو الحكم نفسه الذي أوردته ابن رشيق القيرواني منسوبة إلى بعض الحذائق قائلًا: «وقال بعض الحذائق من المتأخرين، من أخذ معنى بلفظه كما هو، كان سارقاً، فإن غير بعض اللفظة، كان سالباً، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو يقيه عن وجهه كان ذلك دأباً عذفاً^{١٢١}، وهو الشرط ذاته الذي اشترطه ابن طيحايا العلوي في تناول المعاني المشتركة، مؤكداً أن الشاعر إذا تناول المعاني التي قد سبق إليها، فأنزلها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب، بل يجب له فطيل لفظه وإحسانه فيه^{١٢٢}، ولا سيما إذا أحسن دمج النصوص المتماثلة في النص المنتج، وأحسن تبيينه بكتيبة مبتكرة تستر ظلال الأثر المستمدة منه حتى يلبس الأمر في الصياغة، ولا يتطعن إلى ما فيه من الاستعداد والأخذ، إلا الجهالة الحذائق بأسرار الصنعة الكلامية التي اعترفوا في البحث عن أصول الكلام، وقلبوها ظهور لفظه، وسلبته لظهوره، أملاً في العثور على رسوم كلام السلفين التي يبحثون فيها إلهاماً من خلال اعتماد إستراتيجيات قلب المعاني أو حل الشعر وعقد الشر، من أجل ذلك فإن الأديب الذي يتخذ الأداة في القول بحاجة أثناء تناول المعاني المشتركة، إلى إظهار الجيلة وإظهار النظر في تناول المعاني واستعمالها وتلميسها حتى تخفى على نقادها والمستمراء بها، وينتشر لشهرتها كلمة غير مستدق إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإذا وجد معنى لشيء ما في تشبيه أو غزل استعمله في المديح، وإن وجد في المديح استعمله في الهجاء... فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير معتد على من أحسن حكمها واستعمالها في الأبواب التي يحتاج إليها. وإن وجد المعنى الخطيب في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله وعمله شعراً كان أخفى وأحسن. ويكون ذلك كالصنائع الذي يذهب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه... قبل لتعاني بعداً قدرت على البلاغة فقال: بطل معقود الكلام، فالشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر معقول^{١٢٣}، ولقد تلمذ الفداء الفدائي، أو على الأقل بعضهم، مع الكتاب والشعراء مودعين أن الاتفاق في عموم الغرض لا يعد سرقاً وغصبا، ومن ثمة يجب ألا يتحدث فيه عن سلف، وخلفه، وألا يفتل فيه بالتفاضل بين المشتركين، لأنه عام متداول بين كل الناس، بل أنه من الأمور التي تدرك بالظن والجيلة، ولا يحتاج فيها إلى إعمال الفكر والاستنباط الرأي، بل إن بعضهم جعل هذا التشاؤك دليلاً على شراكة الفكر، ووحدة الخيال العربي، والإنساني، والنفاذ الهواجس، مع إمكان التوارد، الذي يصل الخطورة الأدبية المتماثلة بالخطورة الأدبية اللاحقة، هي إطار من التسلسل الذي يظل مشغوداً إلى

التي تفرع منه الفرقة التي تضمن لنيل التحول الاستمرار للتجديد الذي لا يفتقر الصلة بالأمل، لأن المعاني شيء يتناولها الأدباء، لا غنى للاحتقار عن تناولها ممن تقدمهم، أو العصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم، إذا أخذوها، أن يكسوها ألفاظاً من عهدهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويبرزوها في تغير حيلتها الأولى، ويبرزوها في حسن تأليفها ووحدة تركيبها وكمال حيلتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحل بها ممن سبق إليها... قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لولا أن الكلام يعدل نفسه»، وقال بعضهم: «كل شيء شئله قصير إلا الكلام فإنه إذا شئله طال»^{١٣١}، يتضح مما سبق أن أغلب النقاد البلاغيين القدماء يخرجون المعاني المشتركة من باب السروق والقصبة لأن الاتفاق في عموم الفروض من الأسور التي لا يكون الاشتراك فيه والخلا في الأخذ والصرف والاستمداد والاستعانة، لا يرى من به عسر يدعي ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ^{١٣٢}، بل إن الذين حققوا النظر وأنعموا بالتأمل رأوا أن الأخذ والاستمداد عبارة شديدة مركزة في النفوس لا يستلحق عنها التناظر الذي يقتل مستعين بخاطر الآخر، ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه... وإن تجاوز ذلك قليلاً في الفروض، لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ، ثم نسب المحدثون إلى إحقاقه بالنقل والقدح وتبوير القبح والذلول، وتكلموا بهر ما فيه من القبيحة بالزيادة والتكثير والتعريض في حال، والتعريض في أخرى، والاحتجاج والتعطيل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاع إليه من هذا الأمر ما لا يقدر معه من استمراره وإبداع مثله^{١٣٣}، لهذا السبب لا يكون في الاشتراك أي المعاني أي متغير أو متغير، ولا شجماً إذا كسبت تلك المعاني ألفاظاً شائعة والفة، وهذا بها من العرس الذي جاهد فيه الأمر الذي يبعدها عن الأخذ الظاهر للذموم، لأنه معطى صرفاً، فشيء كانت أم سلطاً ومسحاً ونسباً، أما الأخذ غير الظاهر الذي يتشابه فيه التعيين، أو ينقل أحدهما إلى الآخر، ويجعل نقبضاً للأول، أو يضاف إلى المعنى الأول ما يجعله، ويطرجه في أروع صورته وأجمل هيئة، فإنها أشكال مقبولة معهودة، ولا سيما إذا أخرجها «حسن التصرف من قبيل الاتباع إلى حيز الإبداع، وكلما كان الشد خفاء كان اقرب إلى القبول، هذا كله إذا علم أن الثاني أخذ من الأول، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر، أي مجيئه على سبيل الاتفاق من غير قصد للأخذ»^{١٣٤}، كما يمكن من أن يهتد أنه أشد لنفسه:

مُسْتَعِدٌّ وَمُسْتَفْلِدٌ إِذَا مَا تَشَبَّهَ

تَهَلَّلَ وَاعْتَسَرَ اعْتَسَرَ كَرُّ لُحْدِهِ

فهل له أين يذهب بك هذا الخطبة؟ فقال: الآن عظم أي شاعر، إذ وافقته على قوله من دون أن أسمعه^{١٣٥}، وكما وقع لأي حلال العسكري في صفة النساء، حيث وجد المعنى ذاته لدى بعض الأدباء البغداديين، لذلك صرم ألا يحكم على متأخر بالسوق^{١٣٦}، شأنه في ذلك شأن

القاضي عبد العزيز الجرجاني الذي يؤكد أنه «من أجل أهدأ أنفسه، وأعمل فكره، وأكتب خاطره وبغته في تحصيل معنى يقتضيه شروهاً مستهدفاً، ونظم بيت يحسبه قديراً مخترعاً، ثم تصح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثلاً بعض من حسنه، ولهذا السبب أحضر على نفسي، ولا أرى لغيري من الحكم على شاعر بالسرفقة»³⁴، لا سيما إذا توارداً والتقا في معنى مشترك لا يختص بمعرفته قوم دون آخرين، ولا يرجع فيه إلى إنعام الفكر والتقدير. ولذلك أخرج الأسيدي قضية السرفقات من مسائل المحدثي وأبي تمام فأتى: «وكان ينبغي ألا أذكر السرفقات في ما أخرجه من مسائل هذين الشاعرين، لأنني فطعت القول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر، لم يكونوا يرون سرفقات العلاني من كثير مسائل الشعراء، وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا باباً ما نرى منه متقدماً ولا متأخراً»³⁵.

يتضح من هذا الجرد الإجمالي لأراء العلماء العرب القدامى المتطلسين في صناعة الكتابة شعرها ونثرها، أن قضية السرفقات الأدبية، وإن ظلت محكومة بسياسات تاريخي يبحث عن عثرات حملة البراج العربي، في إطار الصراع المحتدم بين جعلتين: الأولى يحمل ثواء الانحصار لكل قديم، ويود أن يتاح كتائب الجعقل الثاني، الذي يشهد سلاح الجديد يبري به أوصال الثالثة القديمة بكتابة مولدة منظرية الظاهر، عميقة الباطن، فإن هذه المركبة، وإن عثرت، بلبوس أخلاقي، فغضى إلى دم الوجه المسافر للمسؤول، لأنه ليس سوى نسخ وبيع وبيع وبيع وإشارة، قد أثمرت البحث على التفسير الأدبي الذي ودوحة الإبداعية فيه، وكشف هويته وروافده، من خلال إشراج البحث بالنسبة إلى قوانين شائعة من خلال التضمن إلى دلائل التفاته، وحواره أو تعبه وقبلة التضمن من السلف التي تقع في دائرة استبداده، وبالتالي تحديد الروافد التي تعد محور الدوران هي البنية التركيبية للنص سواء تعلل الأمر بالأفكار والعلمي المختبئة في النص المستفيد، أو بالتطبيقات الأسلوبية التي يلتجئ إليها لكي يحضي بواسطتها الفن ديبه إلى المعنى المصوب من خلال اعتماد إستراتيجية حسن الأخذ والانحياز التي يمارها ابن أبي الإصبع فأتى: «وهو أن يأتي المتكلم إلى معنى أخشعه ضربه، فيحسن التباهه فيه، بحيث يستحله بوجه من وجوه الزبادات التي وجب للمناظر استحقاق معنى التقديم، وذلك باختصار لفظه، أو قصر وزنه، أو عنونة ظاهره وتمكيها، أو تنعيم نفسه، أو تكميل التمام، أو تعليله بعلمه من الهدى يحسن بمثلها النظم، ويوجب الاستحقال»³⁶.

كما أثمرت هذه المركبة جهاراً مناهجياً اصطلاحياً يهد بحل مشكلة لوكلاز نظرية التفاعلات النصية العربية التي تحمل في ثرائها جد، لم يتطور لدى الغرب كإجراء نقدي إلا في أواخر عقد الستينيات من القرن العشرين، كما يتوضح ذلك في أعمال كريسستينا، جروب، ويلتهير، تونبوروف، بارث، جنيت، ومن لف لفهم، ويوضح للشعر الأثني ضمن استغلال التقاد العرب القدامى قضية المعاني المشتركة التي أرست أسس نظرية التفاعلات النصية العربية،

وأخيراً: نظرية التناقص في النقد الأدبي الحديث

يشهد تاريخ النكتانية أن الأعمال الأدبية المتميزة تكاد تكون أعمالاً مقتبسة من أعمال سابقة. فغير أن هذا الاقتطاف والاستعداد ينزهران من خلال اعتماد تقنية الإغفاء وحسن السبك في أجود الثوابل الذي تتوزل فيه الألفاظ والنعابير ملولتها التي تقتضيها. إلى خلق قيم جديدة لها تأثيرها الفاضل في دلالة النص المستفيد. على الرغم من أن أفكار قوالب المعنى المتجاوز معه وخصائصه الأسلوبية لن تستطيع إستراتيجية التحويل المعتمدة أن تعطيها ولبيدها كلفة. استجابة لفتون أن أي خطاب ينقل أصداء خطابات أخرى ويتجاوز عنها في حلفة تشبه دوران الحوامات لثانية التي لا تعرف التوقف في الزمان والمكان، لذا يبدو أن التناقص شيء لا مناص منه. لأنه لا شكك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتها. ومن تاريخه الشخصي. أي من ذاكرته. فأساس إنتاج أي نص هو معرفة صاحبه للعالم. وهذه المعرفة هي وكبرة تناول النص من قبل القارئ أيضاً^{٣٣} الذي يسعى إلى كشف المكنون. وتعرية مصدر التميز والإبداع الذي طرز النص الجديد على مثاله.

التناقص إذن عمل كيميائي شديد التعقيد، لأنه لا يأتي بإمكان المؤثر على نص نفي منطقي بذلك هي أرخبيل منعزل عما سواه. وقبل عرض نماذج من التعريفات التشابهية لهذا المصطلح تجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم يوافق أساليب فنية في التحليل الغربي مثل: النص المولد، النص المقجب، النص للكون، الأيديولوجية، إلى أن المفهوم التناقصية هو مفهوم التناقص الملتزم من لبن «جوليا كريستينا Kätevra» دالكا، ١٩٦٦م في كتابها «ابحاث من أجل تحليل دلالي Recherches pour une Sémiotique» بعد استعاضتها من أعمال ميخائيل باختين «Mikhaïl Bakhtine» الذي أشار إلى أن التفاضل النصي ينحصر على مستويات من الاستشهادات وإن أي نص ليس سوى امتصاص وتحويل نص آخر^{٣٤}. من خلال بعض التعليقات والاستشهادات والاستعدادات أو الإضافات التكميلية، بله الاختصاصات والشرح. أما المعجم الصغير فيؤكد أن التناقص مجموعة من العلاقات التي يهيئها نص، وخصوصاً النص الأدبي في ارتباط مع نص أو نصوص سواء على مستوى إنتاجه (بواسطة الاستشهاد أو السرقة أو التلميح والإشارة أو المعارضة... إلخ) أو على مستوى قراءته وفهمه من خلال المقابلات التي يهيئها القارئ^{٣٥} مع النصوص الفنية المستخدمة في النص المستفيد. حيث ينتج من النصوص المستخدمة تركيب ثان يميل عادة إلى الانسلاخ والتوازن مع السياق العام للنص المستفيد. وتارة أخرى ينتج نحو التعدد والتميز من خلال تتبع مسار التلميح والتبدل والأجهزة والإزاحة، ولعبة في نصي النص من الوجود، واختلال مكانته إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. إنه نوع من الامتصاص الأسطفي الذي يتخذ أشكالاً عديدة لتتوحد بين الاستشهاد أو المقجب والسرقة، أو الافتراض في ذهن القارئ، أو التلميح... وهي كلها أشكال لا تستطيع إعفاء علاقة المعنوي بين نصين

أو أكثر. لذا فإن التباسية هي الممارسة التقليدية للاستشهاد (الاستعمال المزدوجتين والإضافة التوقفية على المصدر) أو بشكلها الأقل وضوحاً، والأقل قانونية وهو الانتحال... وهو التباس غير معلن، ولكنه حرفي. أو بشكلها الأقل وضوحاً وغير الحرهي وهو الإيهام أي على شكل قول يفترض فهم معناه التكال إيراد علاقة بينه وبين نص آخر تحيل عليه بالضرورة انشابة من تشابهات النص الجديدة^(١٢). أما «جبرار حنيت Gérard Genette» فيؤكد: «المصور اليوم (١٢ أكتوبر ١٩٨١) خمسة أشكال من العلاقات عبر النصية «Transécriture» التي أعدها في ترتيب شبه نصي اصدي تجريدي. تضمني وشعولي. الأول لكتشفته «جوليا كريستيفا Julia Kristeva» منذ سنوات تحت اسم التماس؛ وهذه التسمية هي التي امتدتها حنيفة بجهازها الظاهري. أما من ناحية فاحصر مفهوم التماس في علاقة حضور مترافق بين نصين أو أكثر، أي الحضور الفعلي غالباً نص داخل نص آخر، وهي شكله الأكثر جلاءً وأبينة. وهو ما كان يعرف تقليدياً بالاستشهاد (سواء كان بعلامة تخصيص أو دبرها). وفي صيغة أقل جلاء الانتحال والسرقلة الأدبية كما هو عند «Lévi-Strauss» مثلاً وهي اقتران غير معلن ذو طابع أدبي. وفي صيغة أخرى أقل جلاءً، وأقل أدبية كما في التلميح. أي تقديم بكيفية دكية لمعطى يفترض إدراك العلاقة بينه وبين فكرة أخرى تحيل عليه في هذا الموقف أو ذاك^(١٣). في حين يؤكد المصنف الكبير للأدب أن التماس مطور من لدن «جوليا كريستيفا» اعتماداً على جهود «ميكائيل باختين» حيث إن: «هذا المفهوم يعمى إلى توضيح العلاقات التي يفهمها نص أو قارئ أو كلمة عند إنشائها مع نصوص أخرى. ويمكن أن ينعطش في الاستشهاد، السرقلة الأدبية. التلميح، أي إطار أشكال جديدة من العلاقات مع نصوص أخرى سابقة أو لاحقة^(١٤). بينما يرى «كلود دوشى - Claude Duchet» أنه ليس هناك نص نقي وهو التصور نفسه الذي ينطلق منه «جبرار هينبي - Gérard Vigneux» الذي يورد قولته «كلود دوشى» المسابقة مؤكداً أن «التصوم لا توجد إلا في علاقة مع نصوص سابقة عليها، في إطار من التطبيق أو التعارض مع خطاطة نصية (Statue vivante) موجودة من قبل. ولكن هي علاقة واسعة^(١٥)». إن إعادة قراءة إنتاج محاولة هذه التعريفات توضح أن التماس أعم وأشكال، تارة تبدو ظاهرة صريحة بها، وأخرى خفية غير معلنه على رغم تكرارها لوحدة أو وحدات النص السابق، وهي: ١. الاستشهاد سواء كان بالكلمات، أو من دون توحيق. ٢. السرقلة الأدبية. وهي نوع من الاقتراض غير المصرح به. ولكنه يبقى حرفياً غير شرعي في الغالب الأعم. ٣. التلميح: وهو نوع من حسن الأخذ الذي لا يتمكن من العثور عليه في النص السبق سوى الناقد البصير بأسرار الصناعة الكلامية.

(١٢) Grand dictionnaire des lettres françaises 1987 page 766.

(١٣) Gérard Vigneux, Lire: du texte au sens, éd International, 1979, page 62.

المعارضة، وهي نوع من قلب المقضي الذي يفرضي إلى إنتاج دلالة جديدة لا تستطيع أن تفني وجود علاقة شدة مع النص الأصلي.

وبعد، لماذا تبقى لهذه الآراء والأنماط المتأصلة من حداثة إذا ما ظهرت بالآراء الرصيفة والتفويجات المبرزة لأشكال الاستعداد التي أشبع تقادما العرب القدامى بحثها؟ ألم يمرض ابن طباطبا الطوسي في القرن الرابع الهجري، لما يحتاج إليه الأديب من ضرورة تطبيق النظر في تناول المعاني المشتركة، وتقليبها بأنواع من التوشية حتى تغطي على المصراء بها؟ ألم يوصل الطبريزي القول في عرض أشكال الأخذ والسرفقة؟ ألم يحدد أشكال الأخذ الطاهر، من تسع وسبع وخمس؟ ألم يبين أنماط الأخذ غير الطاهر من القبحات وتضمنين وحل وعقد وتكميح، وقتب وحسن تصرفه؟ ألم يوضح الطائفي عيب المزيير الجرجاني أن باب الأخذ والسرفقات لا ينهض به إلا الناقد التحريز، والعالم القطنس القادر على الإحاطة علميا بأنماط ورثب الأخذ لمفسلي بين السوق والتقصي، وبين الإشارة والاختلاس، وبين الإلمام والملاحظة، وينبغي بين التثبوت الذي لا يجوز إغناء السوق فيه، والمثقل الذي لا يمكن أن يدعي أحد أنه أولى به من الآخر، وبين التراث الذي يحوزها المبتدئ فيملكها، وبين ما لا يصح أن يقال فيه هذا لفلان دون آخر؟ ألم يعد القطف بمسحة صلامة الحذافة في المبدول بالكلام من نوعه وصلته، وعن ورثته ونظمه، وعن رويته وقافيته، حتى إن ظهر القطنس عندما يمر بالكلام، يحدد منها ما يحظرها؟ ألم يتعودك إلى أبي الإصبع عن حسن الاتباع، وبين وجود الزيادة التي ترويب المناظر المتخيلات على القطف؟ ألم يمرض لضروب الاختصار والإتمام والتعليق؟ ألم يتحدث المسكوي عن صلبن الأخذ وحل المنظوم وعن أسباب إغناء السوق من حل وعقد ونقل؟

أي صباية فضل إذن تبقى لأراء المحدثين إذا ما ظهرت بالآراء التقليدية التي ألقت إلى بعضها بالنسبة إلى نظام العرب القدامى؟ لا شك في أن الساحة الثقافية العربية تملأ الدنيا بعمل هذه الآراء منذ بداية القرن الثالث الهجري، حينما ثبته البلاغيون القدامى إلى استعالة وجود نص في خلاص من تأثيرات النصوص السابقة، ولئن كان استخدام مصطلح السرفقة، يفتي من مجهودات السابقين، فإنه من النصف التأكيد أن أغلب الذين خاضوا في هذا الباب لم يقتصروا جهودهم على الاستخدام الأخلاقي الذي يفرضي إلى ذم الوجه السابق للمسؤول، بل عرضوا إلى أوجه حسن الأخذ وتصحيحا للكتاب والشعر، موضحين لهم طرائق حسن التصرف في المأخوذ من نقص أو زيادة، أو قلب أو تحلية، رغبة منهم في الوصول بالمؤلفين إلى امتلاك معاني السابقين، وإذا ثبت بالدليل الذي يقطع دابر كل معترض، أو متردد كان أن يتسلخ من جلده العروية، فاصبح يملك كلامها المبعين على الكلام، فإننا ندعو تقادما الرصفاء إلى تجلوز عتدة النفس التي دشنت بها

الأجنبي، أملاً في تخطي الفجاءة عن التفضيلات النفسية الرائجة الراجحة في تراثنا التقديري العربي الذي سببني منا على طرف الثمام إذا جعلناه المنهج المذهب الذي يجب أن نوجه إليه نهاية الأمة.

خلاصة: أشكال وأنماط قصص الأخوة والتنافس في رواية «شجيرة

حذاء وقبر» :

١-٥ : تقديم

في ظل هذه الفكرة الضاغطة من النصوص الروائية العربية التي تلتذذ بها القاصات كل يوم، ليس من المستبعد على الباحث الفطن أن يعثر في ما يقرأ من نصوص على بصمات وغمزات التأثيرات المشتقة من الآثار السائدة إلى النصوص اللاحقة في شبه تفاعل كيميائي يصير على التصادم مع العناصر المكونة للعمل الفني أحياناً، وهي أحياناً أخرى يجمع في التماثل والتلاقي التسلي معاً، غير أنها في تصادمها وتماثلها تدخني إلى إنتاج نص أدبي منسجم يعكس التعمد في التفرّد من خلال الساحة الواسعة التي تشترك فيها العناصر المتفاعلة فيما بينها، من دون خيانة للنصوص التي تنتمي إليها، والتي تعد النص المقول (يفتح اللام) بروايات متصرفة من هذا وهناك حتى تصير عجاوبة بالقوة العضورية، على الرغم من الحرس الشديد على إختفاء الدنيم بالحوار، أنها فرادى استجبت بأصعابها الذين سطوا كمنها، وبالتالي يصير من المستبعد نسبها إلى أي أثر من الآثار المتضمنة، ومن ثمة يفرض حضورها في النص المنحجب (يفتح الجيم) نتائج ثمرية الفرواق المتدروسة في لا وهي الكتابة، أو بغيره القدامى بنت محفوظه الذي درّب عليه فهمه، وهذب به طبعه، وفتح به ذهنه، فأصبح مادة فصاحتها والسان يلائقته وذوب روحه وجيلته، حيث تلفت الكلمات والمعارف أو المعاني المستندة من نصوص سابقة في ثياب أليفة محكمة التسج والصياغة من خلال صرف كثير من المعاني المطروقة إلى وجه غير المعنى الذي أسس عليه التقدم،

والقول أن الأستاذ أحمد التوفيق يعد - من خلال أعماله الروائية - من الأدباء المفلحين الخُرّس على امتلاك السحر القوي اللافت الذي يسحر الأكراب بواسطة براعة المزج، بين الفسحة التراثية الفريدة، وأخذاً للعاصرة الألفية، مزج يفوح أريجيه على العيازة التي تبدو صورهها بمنزلة أشكال والوان قوس قزح لغة تأسر وتفتن بسحرها، وتجيّلات تشكّلانها، ينسجها الروائي براح طالع، كلما أحسست بطرب اختفاء أسراب التعابير الأسورة، أذهبت بأسراب أشد أسراراً، لغة كأنها هي جمال تناسفها، وبراعة سبكها وحسن تأليفها تحاكي ريش الطاووس حلية وجمالاً، وكأن الروائي يفرغ أدواتها التشكيلية وألفاظه من بحر وآخر بعد «أبو عذرها، وهو أول من استعملها وافترعها، مع أننا كنا نعرف ذلك القلط من قبل،

ولكن لا، سواء معرفتك لفظاً فليعلم في المعجم، واستعمالك ذلك اللفظ الذي كان قديماً في المعجم فتحوّله إلى عروس مجلدة... وإلى ورثة لعيل بالشذى، وإلى كائن يطلع بالحياة والحنون^(١٢)، هذا هو ديدن الفوق الذي خبر بالتجربة أنه لا يخطئ للأثر الأدبي عامة، والرواية خاصة شيء غير حمال اللغة وبراعة السبك التي لا تحمل الكلام كله شريفاً ولا هابطاً، وعندما مل بحب تفصيله تفصيل المقدم الذي لا يظهر غشائه إلا واسطته التي تأخذ من الجمال والفتنة أخذاً عجيباً ينقل إلى مواطن الأصناف، وذلك في الميزة الطيعة للغة الرواية التي إذا لم تكن لغة شعورية، أمينة، رشيقة، عذبة، مفردة، مخططة... متزينة، متفرد، لا يمكن إلا أن تكون شاحبة، ذليلة، طيبة، كئيبة، حسيرة، خلقة، بالية، غائبة، وربما شتاء شبراء^(١٣)، تأسيساً على هذه اليقينية، فإن الأستاذ الفوق مال، في ما عرّ لي، إلى اختيار لغة شعورية نابضة بالشاعر الإنسانية المؤثرة، كثيفة موحية، تبعث كثيراً من الأفكار من مرقدها وتحيي موانها من دون لطيف ثوبها الفشيب بأساليب العامية التي يستمر بها دعائها ضحالة بضاعتهم، وضيق ذات أيديهم، حتى إن الشرس أولى بهم من الحديث والكتابة على هذه الشائكة الشائكة، التي يقدّون فيها بالكلمات الشعراء الضعفاء المصنوعة من مصانهم القوية الرديئة، استجابة منهم لدواعي ملازمة أوضاع الشخصيات المختلفة في العمل الروائي، حيث يجب أن يتكلم الشخص بالغة التي يعرفها، إذ لا يمكن أن تكون لغة العامي، هي لغة الشخص، ولغة المصاح، هي لغة الشخصية، وهم جراً، وهي كلها مسوغات بعض الكتاب المقاصصين القاصحين الذين الخطأ اختيار اللفظ الفصح، يتلقون بالعامي والسوقي، ليحسبوا مع السواد الأعظم غير عاشقون بها يخطئون من صميم في ثوب العربية الفشيب، وما يخطئونه من كلام شك يجمع بين الحصة والعر، وهم يهيمون أنهم يحسنون صنعا، كما أحسن أسلافنا الذين فصلوا الكلام تفصيل المقدم، وجعلوه منوعاً لكي لا يمل من دون تنكب سبيل الفصحى، كما هو الشأن بالنسبة إلى صنوع جلال الدين السيوطي الذي ظل يتهنى بهذه التجربة اللغوية فألفه يكتب عشرين مقامة، موزعة على عشرين شخصية مختلفة، فيأخذ لكل شخصية لغتها الوطنية، ولكن في إطار الفصحى العالية^(١٤) البعيدة عن التعابير المتداخ، والأساليب العامية للدولة، التي تشر ظلالها في ما ينشئون من تزيينات وشعارات عكرت صفاء العربية، معتقدين أنهم يؤسسون لزمان النهائيات، وهم لم يقدوا بعد وسيد البدايات، ومن يضل الله فما له من عار!

إذا انتصح أن، المسألة اللغوية، في الصردانية، تحتاج إلى براعة اللزج، كالصنوبر المزوج من جملة من الفواكه مزجاً مدروساً تراعى فيه رقة النوق^(١٥)، فإن مؤلف رواية مشجرة حناء وقصر، يمتلك كفاية وصفية شائقة، يجعلها تاضم الإيقاع اللغوي مع موضوع الرواية المرتبط بتعريه معيش الناس في قرى جبال الأطلس الكبير، من خلال علاقاتهم بسلطة الفواد والشيوخ

بعد الأندلس والفتوح بين القديم والحديث

إبان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعلى الرغم من حرص المؤلف على تسجيل التفاصيل اليومية لحياة القائد -محمّد- في حياته، وتزجج الرواية بنحو اقتحام عوالم غريبة (المسحور، الجن، الكثر...)، بل تعتمد الشخصيات المتفاعلة في العالم الروائي، واختلاف مفاهيمها المرجعية (الفرار، الشيوخ، الفقهاء، العرفيون، العرب، الأمازيغ، الدجالون والمتوهمون، اليهود...) فإن الرواية لم تتأثر عن شعورية اللغة وتنطق بالذاكرة التراثية التي لمثل لحنها في شبه التمهال مقتدر بين الممارس التي يهجر منها الكاتب أصوله القليلة، وبين الإيمان في شعورية خيالها النفسي الإنسانية مع العروس على إدانة نزعات الشر وحس التسلف والأمنيات التي تكون السبب في الإيقاع بالتمني، وقديما قيل **وَبِئْسَ مَنَعْنُ حَفْظَهُ فِي أَمْنِهِ**.. الروائي إذن متداخل في لفته الشعرية، صانع ماهر في انتقاء الأساليب، بل انتقاء أشكال الحلي ووصفها بدقة مثالية، يارع في إضافة خيالها النفوس، فمن في النفوس على الضرر، لا ترى قلما ولا أمنا في ما يهجر من هرائد أساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي القديم، تأليف عن عبارات الأمثال والخطب والرسائل والتوقيعات، وذلك مزجة لا تتوافر إلا أن أصغر في البحث عن التراث، وبذل الجهد في تعبئة العاني المزينة بالانقضاء الوجيزة القصيدة، بخلاف المتجملين الذين لكثرتهم القيسية التي تظهر ما يهرونه إلى كتاباتهم بعزلة وقع بالية **شريعة من روح العصر أو كالأحجار القديمة** المستعمدة في بناء جديد، وروح العصرية والمتغيرة وهم الإسقاط والتأويل، على قلها في الأماكن التي أنزلت فيها، غير أن هذا النوع الأسلوبية التي وصف بنوعها طريقة الوصف (وصف ظم الشاي، وما يجب أن يتعلل به من مباحة ومباراة في حركاته وسكناته، قيل، وأثناء وبعد عملية إعداد الشاي، وصف أشكال الحلي التي تقلت المسألة في اختبارها استعدادا لزيافتها، وصف الطبيعة الجبلية، وأخلاق الروائح العطرية، وصف شجرة الحناء، وصف كيفية استخراج الكتز، مع عرض أشكال التزيينات...) لا ينبغي أن تضع على بصيرة الباحث المصنف عصابة تخلي ما يجب فيه غفل الروائي في حق العربية، مثل إبراده لفظة الكأس مذكورة، وهي مؤنثة كما ينطق بذلك القرآن وكثير من الأشعار القصيرة، أضف إلى ذلك أن الكأس لا تطلق إلا إذا كانت مملوءة، أما إذا كانت فارغة فهي إما زجاجة أو كوب، كما أورد عبارة (لا سيما) محذرة من (لا) وهذا مختلف للصواب، ثم عرف (غير) وهي مغرطة في التشكيك، ولهذا يصح ألا يدخلها التعريف الذي لا ينفذ إليها شيئا، كما جمع الموار عكزا (أساور) وهي في القرآن والشعر من دون ياء، أساور وأسورة، ثم جعل جمع خروص: خروصون، وهو مخالف للصواب الذي هو: خروص، خرواص وخرواص، وراى البرهة باللفظة الزمانية القليلة مع الفرق الشاسع بينهما حيث إن البرهة هي الحزن الطويل الذي يصل إلى سنة، وخبرها من الانقضاء التي أشرت إليها في بحث آخر، سينشر قريباً.

٢-٥: آيات القرآن وآيات القرآن

إن عرض نص «شجيرة خفاء» وقهره على النص القرآني المقدس، يظهر أن المؤلف نظر إلى رياض القرآن الكريم، نظرة الوثنيّة لزال ملته، المستشقة لعبير أزعجهم، للقطب لأطوب ثماره، وما أرى المؤلف إلا قناعاً ماعراً يتلجج الطريدة المافرة الكثيرة حتى يدخلها تحت الوالة، بعد أن يسميها بظايف الأسلوب الخاص، بعد أن فجر له القرآن الكريم بابح القبول، واستمد منه ما طلب من ثمار عرصات، لم يترك قابلاً إلا اقتبها، ولا نظارة إلا أحسن ضمها، حتى أتى في هذا الإطار بالظهير الثبات، الذي يبدو فلاناً انصبت من مقارناته، في أحسن صياغة ينوز منها التضمين والاقتباس والتلويع والإشارة، كما يتضح بذلك بوزل العارفين بأسرار الصلعة الكلامية على شاكفة قول الفاضلندي، «واعلم أن تضمين الكلام بعض أي القرآن الكريم، ينقسم عند أهل البلاغة إلى قسمين، أحدهما الاستشهاد بالقرآن الكريم، وهو اتقهما وقوما في الكلام، ومورانا في الاستعمال، وهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم، ويليه عليه... الثاني: الاقتباس، وهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن، ولا يليه عليه...»^{١١٤}، وكان بالروائي يمثل وحدة القداس في الاستعداد من القرآن الكريم كما أكد الوريز ضياء الدين ذلك في قوله: «والقرآن في استنباط المعاني من القرآن الكريم، واستعمال الآيات في خلال الكلام، أن نعود إلى سورة من القرآن، وتأخذ في تلاوتها، وكلما مر بك معنى أثبت في وقتاً مشروفاً حتى تنتهي إلى آخرها، ثم تأخذ في استعمال تلك المعاني التي ظهرت وإدخالها في خلال الكلام، وكلما عاودت التلاوة وتكررتها ظهر لك من المعاني ما لم يظهر لك في المرة التي قبلها»^{١١٥}، والنظام أن الاستلا النوعين يعمد إلى مجموعة من الآيات القرآنية، يتخذ هيئتها الأسلوبية، ويستدعي طريقتها التمييزية ومحتواها الدلالي من دون تغيير أو تعديل خطية أن يزيغ عن مقصدية النص القرآني التي لا يجوز الاختلاف معها، وهذا هو العصر في سهولة العثور على الآيات القرآنية التي يتناس معها المؤلف من خلال تقنية التلويع والإشارة كما يتضح ذلك في ما يأتي: «أن ينزل منها عليه في يوم من الأيام سورة مستظهر»^{١١٦} الذي يلتقي مع قوله تعالى من سورة الإنسان آية رقم ٢ «يؤيدون بالشعر ويخاضون يوماً كأن شعرة مستظيرة»^{١١٧}، وقول المؤلف: «ومن يظنون أنهم يحسنون الحساب»^{١١٨} الذي يلتقي مع قوله تعالى من سورة الكهف آية ٩٩ «وهم يحسبون أنهم يحسنون حسابه» وفي قوله من الصقعة رقم ٥ من الرواية «والوحي للسجل دون أن يشعر به أحد، المستمد من قوله تعالى في سورة الكهف آية ١٩ «وليتلطف بكم أحداً» أما قول الروائي «في شروحة من المقاتلين»^{١١٩} فيتناس مع قوله تعالى من سورة الشعراء آية رقم (٥٤) «إن هؤلاء لشروعة قليلون» كما يلتقي قوله «نظر بعضهم إلى بعض»^{١٢٠} مع قوله تعالى في سورة التوبة. آية ١٢: «ولولا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من

أحمد... أما قوله «جلس إلى الأرض وطمأنه وامرأته ناجيهان بعد تلك المحنة»^(١٢) فينظر إلى قوله تعالى من سورة يوسف آية (٤٢): «وقال للذي ظن أنه ناج منهما... كما يستعين قوله: «إن رحمة الله أقرب إليهما» من عطف الزوج القائد»^(١٣) بقوله تعالى من سورة الأعراف آية ٥٥: «إن رحمة الله قريب من المحسنين» أما قوله: «يصنع سلاسل تتوء بحملها الكيوان»^(١٤) فيقتاس مع قوله تعالى من سورة القصص آية ٢٦: «وأرسلنا من النور ما إن مضاه لتتوء بالعصبة أولي القوة» أما قوله «يقول هل من مزيد»^(١٥) فيلحق مع قوله تعالى من سورة ق آية رقم ٢٠: «يوم نقول لجهنم هل امتلاء وتقول هل من مزيد» أما قول الروائي: «أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة» ويكون هو ذلك الباطن الذي من قبله العذاب»^(١٦) فيستعين بقوله تعالى من سورة الحديد آية ١٢: «فخصرب بينهم مسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» وحتى لا أطيل على القارئ الرصيف أكتفي بالإشارة إلى الجمل التي انتمت إليها الملائكة من القرآن الكريم مع تحديد أرقام آياتها والصور التي استقرعت منها على الشكل الآتي:

- ١- شعيب القرمي، حيا جماء، انظر سورة القمر آية ٢٢.
- ٢- ارتفعت وصفت أمانها، انظر سورة آل عمران آية ١١٩.
- ٣- بهاتي لهم من حيث لم يحتسبوا، انظر سورة الزمر آية ٤٤.
- ٤- لا يعرف أحد سرهم وأحوالهم، انظر سورة التيسير آية ٢٤.
- ٥- كان صمدوه في حرج وحينئذ شديد، انظر سورة الأنعام آية ١٢٩.
- ٦- قد حال بينهما كما يقول اللوح بين مفرقين، انظر سورة هود آية ٤٢.
- ٧- ما تقتضي به وطرك، انظر سورة الأحزاب آية ٢٧.
- ٨- على تواضع سرا، انظر سورة البقرة آية ٢٢٢.
- ٩- على حين غرة، انظر سورة القصص آية ١٤.
- ١٠- فقد يكون ثلاث ثلاثة، انظر سورة المائدة آية ٢٥.
- ١١- حتى إن الواحد منهم يمشي على أربع، انظر سورة النور آية ٤٢.
- ١٢- لقد أرسلت الهدى إلياتي بالخير، انظر سورة النمل آية ٢٠. وكذلك في سورة من الأيات ١٢ و ١٨.

- ١٣- وجدت المسألة ما قالت طاعتها... حقا، انظر سورة الأعراف آية ١٢.
- ١٤- أخذته المرأة، انظر سورة البقرة آية ٢٠٤.
- ١٥- ويربطه بالعمود ليدوق العذاب الأليم، انظر سورة الصافات آية ٢٨.
- ١٦- مما فوق الأرض، أو مما تحت الأرض، انظر سورة طه آية ٥.
- ١٧- من أبرح هذا المكان إلى أن تطلع الشمس، انظر سورة يوسف آية ٨٠.

- «إن يعاقب كل معطِّلٍ لا تقصوا من قوله» انظر سورة آل عمران آية ١٥٩ .
«وهي بشرى سيئة» انظر سورة مريم آية ١٦ .
«كظم فيه عينه» انظر سورة آل عمران آية ١٢١ .
«واتخذ طريقه إليهم» انظر سورة الكهف آية ٦٢ .
«أخلق سبحانه وجعله بكاء» انظر سورة الكهف آية ٩١ .
«هارباً من القرضين ومن الناس أجمعين» انظر سورة المجدة آية ١٢ .
«وجرت البنت إلى مكان قصي» انظر سورة مريم آية ٦١ .
«لا يخلق في الله لومة لائم» انظر سورة المائدة آية ٥٦ .
«منجاة حصونه» انظر سورة العنكبوت آية ٢ .
«عفا الله عما سلف» انظر سورة المائدة آية ٩٧ .

وبعد أن أتممت لهذا النوع من حجب الأخذ بالمعبر على وجه التمثيل، لأؤكد أن المؤلف لم يلجأ إلى قلب معاني القرآن إلا نادراً وهو قلب لم يمسح فيه إلى تحويل المعنى الذي ينتج شيئاً مخالفاً لشمسية القرآن كما في قوله «وكانت عاقبتهم يسيراً» الواردة في الصفحة ١٦٧ من الرواية الذي قلب فيه المعنى في القرآن الكريم كما يوضح ذلك في سورة الطلاق آية ٦٥ التي يقول فيها تعالى: ﴿فَدَاخِلْ إِلَى آلِهَا﴾ وكان عاقبة أمرها طموراً. من خلال هذه الاستعمالات يوضح أن القرآن الكريم دخل إلى قلب المؤلف، وترجع براعه على أسرارها. وأرتبطت بكثرة التورية. فكل تكرار أوصف من حيث البناء، وأسلوب من حيث الماء والرواق، وأعجب من حيث التوفيق والمعنى. ولا أريد أن أصبح الهراع من هذا التشبيه القوي في أسلوب التوفيق من تون الإشارة إلى نص الرسالة التي أرسلها أبناء النوح أحماد نابت إبراهيم إلى الشاهد عولد الشهادة^{١١٤} التي لم يجد فيها غير رؤوس الآيات القرآنية الآتية:

«إن فرعون... ومن اعتدى... بل كاتبه... لقد علمت... إن موعدهم... خذوا زينكم... قال طورت... التي تدخل في باب التوقيعات للفرقة، التي ينتهي فيها استحضار الآيات القرآنية، ناهيك عن حرص المرسِل على التلييس على القارئ العادي الذي قد تقع الرسالة في يده. إن نطق العذات تستدعي نهاية القرائن المضطرب الحائق بأسرار كتابة التوقيعات، بله القرائن الحافظة لكتاب الله حتى يتمكن من القبض على المعنى المراد. بعد العزير عليه في تضاعيف الآيات القرآنية التي اكتفى فيها المرسِل بالتلميح والإشارة، حيث إن رأس آية: ﴿إن فرعون﴾ الواردة في سورة القصص تستدعي إتمام ما سكنت عنه المرسِل ليوضح المعنى المراد على هذه المسألة: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحییٰ نسائهم﴾^{١١٥}، كما أن رأس آية «ومن اعتدى»

التيوهة بتقاط الحذف يستلزمي عرض منطق الآية بالتمها وهي: «فمن اعترى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعترى عليكم»^{١٣٤}، كما أن رأس الآية الثالثة «فيل تلتهم» يفرض البحث عن الآية التي تقول: «فيل تلتهم بفنة فتمبهم فلا يستطعون ودعا ولاهم ينظرون»^{١٣٥}، أما رأس الآية الرابعة الواردة في الرسالة فيدعو القارئ إلى استحضار الآية هكذا: «فقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد»^{١٣٦}، أما رأس الآية الخامسة المنقطة من سورة (هود) نفسها: «إن موعدهم...» فإن استحضار آخر الآية يبين الراد على هذا الخوال «إن موعدهم المسيح، ليس الصبح بقرب»^{١٣٧}، كما أن إتمام رأس الآية السادسة «فخذوا زينكم عند كل مسجد»^{١٣٨} حين مكان الحدث الذي يمتنع صياحا، أما رأس الآية الأخيرة الواردة في الرسالة «قال عفرته...» فإن إتمام منطق الآية هكذا «قال عفرته من الجن أنا أنتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لغوي أمين»^{١٣٩} يظهر وجه السرعة الذي يمتطيق بموجبه الأمر.

إن الرسالة السابقة نموذج من رسائل التوقيعات التي كان الملوك والرؤساء والأعيان يتبادلونها في ما بينهم، وهو نوع كلامي معروف بالإنجاز والاختصار، حتى أنهم جعلوا من التوقيعات ما يلقي بالكلمة أو بالحرف أو بالآية من القرآن^{١٤٠}، وواضح أن هذه الرسالة التي أحكم أبناء الشيخ أحمد ثابت إبراهيم صياغتها من حيث تسميتها وفراغها تشبه ما عده ابن عبد المنور الكلامي الأنطيسي من أعرب التوقيعات اعتبارا على ما حكاه ابن جني حيث قال الكلامي: «ومن العرب التوقيع ما يحكى أبو الفتح يد جني قال، لما أنشد أبو الطيب سيف الدولة قصيدته التي يقول فيها:

يا أيها الحسن المشكور من جيني
والشكر من قبل الإحسان لا ينجلي
قُلْ لَنْ أَقْلَعَ أَمِلَ عَلَى سِلْ أَحَدُ
زَنْ هَشْ بَشْ تَضَعُكَ لَنْ سُرْ صِلْ

ويقوله تسميتها وخرج نظر سيف الدولة فيها، فلما وصل إلى هذا وقع تحت أثر، أفنالك، وتحت أثر، يعمل إليه من الدرامم كذا، وتحت أقطع، قد أقطعك الضيقة الفلانية... وتحت لعل، يقاد إليه الفرس القلاني، وتحت حل، قد فعلنا، وتحت سل قد فعلنا فاسأل، وتحت أهد، قد أعدناك إلى حسن رأينا فهد، وتحت زد، يزد كذا، وتحت تَمَجَّلْ، قد فعلنا، وتحت أن، قد أنيتناك، وتحت سر، سرناك، قال أبو الفتح: فيلاني أن أبا الطيب قال إنما أردت: سر، من السريرة، فأسر له بجارية»^{١٤١}، هذه نهد وتكف ليعين أن المؤلف ملك مسلمك الأغذ الحسن من القرآن الكريم، ويجري فيه ملكه عنائه، فأدرك الغاية من الاستعداد الحسن، وجاء بالنتيجه، ونشجع ما طاع من أزهير رياض القرآن المطرود.

2-5 : الاستدانة والاقتداء من القرآن والأحاديث النبوية في الرواية

بعد الحديث عن القالب الأحاديث النبوية التي اقتبسها الروائي، بما حضما لا يدرك قهره، ولا يتكفى عجزه، وما أطن المؤلف إلا أنه قد طيل الفصل، ووضع انتهاء مواضع الطب في اقتطافه لجموعة من الألفاظ التي سمعت في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، التي تعد بمنزلة المادة الثانية التي يستعين بها الأدباء في ما ينشئون من كلام، لما توافر لها من خاصيات البلاغة والفصاحة التي يفرغ بها خير من نطق بالضاء في البدو والحضر. ولشي من اليقار أن الحمولة الدينية التي تنبعث بها كثير من التعابير في رواية «شجرة حياء وقهر» مستمدة في الغالب الأعم من الأحاديث النبوية الشريفة التي يتناس معها المؤلف بالكيفية نفسها التي يتناس فيها مع القرآن الكريم، حيث يحرص كل الحرص على الحفاظ على السياق العام الذي يرد فيه الحديث، ومن ثمة فإن المعاني، والتلفظات التي يستعين بها الروائي ويستمدعها، تبقى على حالها، لا يؤدي نقلها إلى تغيير دلائها وإنتاج دلالة جديدة، وإنما يظل المؤلف يستحضر الأجواء نفسها كما هو الشأن في قوله من الصفحة ٢٠ في الرواية: «الحاكم الذي خير من الحاكم الضعيف» الذي يستحضر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الذي خير من المؤمن الضعيف»، وفي قوله من الرواية الوارد في الصفحة رقم ٨٢: «القيم تجعل في قهره اللطف» الذي بعد **أجواء الدعاء** نفسه لدى الرسول الكريم. كما بعد قوله من الصفحة رقم ٦٠ من الرواية: «دركته» بـ«ظهر ظهره ثانية» بوجهها اقتدير الرسول صلى الله عليه وسلم، من شر الظفر الزانية. كما أن قوله من الرواية في الصفحة رقم ٧٩ «نحمد الله على لطفه بعد قدرته» يستمد الألفاظ وللال المعنى ذاته الذي لا يشارك الرسول الأعظم عندما قلّم بالمسلمين ثلثه، أما عبارة «يشبهوا دركاته أيضا بدركاته جهنم» الواردة في الصفحة رقم ٢١، هي وصف المسجون المزعج بنلاء بجوار القصيدة فهي عبارة لا تختطف عن الحديث الذي يشير فيه الرسول الكريم إلى أن الجنة درجات، و«همهم دركاته» كما يوضح ذلك من حديث العباس الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم: «أما كان يرفع عنك ما كان يصنع بلدك كان يعطيك ويحسب عليك فقال: لقد أخرج بسببي من أسفل ذلك من النار» فهو في ضحطها من نار...^(٢٢) أما عبارة «ما عساهما فاطمة» التي جاءت على لسان الناس الذين أحضروا لثلاثة القائل «عمو» بـ«مسمية» ليعينه فلما على قبائل الأطلس الكبير، والذين ينشئون كيف لتصرف المجنونة «فاطمة» لأمجانت، فهي تتناس مع قوله صلى الله عليه وسلم لأهل قريش عندما تمكن منهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم». غير أن الروائي في اقتراضه لهذا المعنى حرص على تغيير دلائه استعمالا مع مقصديته التي يروم من خلالها التفتيح على القائل «عمو» ولتكميل أنف نغوته منذ اليوم الأول لتلقي الثقلات من لندن كبار الأعيان والشيوخ، حتى ولو صدرت هذه الطريقة من لندن المجنونة (فاطمة) لأمجانت التي

كانت عاقبتها إبداعها السجج حتى ينظر القاصد ومشاوره (أين الزاوية) في أمرها، بخلاف أهل قريش الذين قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: انزعوا هانتكم الطلقاء، أما عبارة سائر الركب لا يخشركم القبائل (إلا إذا حمته الأرفاق). وحفته الرحباء الواردة في الصفحة 144 من الرواية، فهي تلمس نفس الحديث الوارد في فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، وتصوره أبناء دلالة جديدة تعتمد التشويش الكفوي، (حمته الأرفاق: غشيتهم الرحمة، حفته الرحبة / حفتهم الملائكة) إنها محاولة تنقياً تفكيكاً لنص الحديث النبوي، من دون القدرة على إخفاء المثال الحقيقي الذي طرأت العبارة على هديه، كما يتضح من قوله عليه السلام: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبداً به عمله، لم يسرع به نسبه»³⁹.

هذه نكت من الأحاديث التي لحاور معها المؤلف واستعان بها من حيث ألفاظها ومعانيها، وهي نسومن توضيح أن القائمة التي يقتضها منها المؤلف مائدة دينية تسر وتعمق في الحفاظ على ذاكرة النصوص القديمة، وفيما قيل: يقول الرجال تحب أسنة أكلها، حيث طرأ المؤلف بقدح القصص، واقتضى ما شاء من الفلاند والأفكار الأبتكار ما وجدها في ما حبر من كلام يمتد ألفاظه غرائس معجولة. ومعابه **دورا خاصة تشهد** المبدع على عرافته في الكتابة، وقدرته على الجمع بين الفصح والترن، **والحسن المبدع**، كما يصحح التبل في الكتابة، وسهارة في بناء كلامه على أصل لا يزلزل.

2-0 : حل الشعر والنثر اعتماداً على في الرواية

يتفق النقاد العرب القدامى على أن توظيف الشعر في الكتابة النثرية يتمظهر على ثلاث حالات: الأولى وتتمثل في الاستشهاد، حيث يورد الناثر البيت من الشعر أو البيتين، أو أكثر ضمن الكلام المنثور، أما الحالة الثانية فيتمثلها بصياغة النظمين، وهو أن يضمن المؤلف كلامه بيتاً من الشعر أو نصفه، أما الحالة الثالثة فيصطلح عليها: **الحل** وهو: «أن يمدد الكاتب إلى أبيات من الشعر نوات المعاني، فيحلها من عقل الشعر، ويصحبها في كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن والأخبار النبوية... قال صاحب «الرياض والريحان»: وهو شأن حقائق الكتاب في زماننا، وفيه من الجمال شئون: منها أنه يدل على حفاة أدب الجيد، واتساع الحفظ، والتميز والتأني لسبك اللفظ، ومنها أنه ليس يشهر منها إلا النادر للغاية في الحسن، فهي إذاً حلت بحاورها النشر بما يناسب حسناتها في البراعة، وهذا كثير في هذه الصناعات»⁴⁰. ويشترطون في الحل أن يكون جيد النسيج، لا يفسد من الأصل الذي منه أخذ، وأن يقع في الموقع الحسن، من دون قلق أو فسق من المكان الذي وظف فيه الكلام المحلول.

والحق أن الناظر إلى الشعر الذي حلّه الروائي يتبين أنه أحسن استيفاء الشعراء المتأخرين الذين اقتبس منهم أطواراً وفلاذد وشئ بها كلامه. على الرغم من أن تلك الألفاظ والمعاني ظلت مقتصرة بأصحابها الذين شقوا كمها، حتى أصبح من المصور نسبها إلى غير من اتتد بها من بوازل الشعراء القدامى. أمثال امرئ القيس وطرفة بن العبد- وأبي ذؤيب الهذلي ومن لده تميم. كان هذا يبدن المؤلف الذي سعى إلى إدراك ما خلا من كلام السابقين بغير به ما يقع له من قصير في مراعاة قواعد العربية. ويذهب في أمات المصادر، ما يبرز به كتاب عصره الذين يشترطون من أجن المتابع ما ينظر منهم الشعراء، ويدعوهم إلى طرس شفاقتهم. ولكي أبدي المصريح عن الرغبة في ما ذهب إليه من تفرد الكاتب في حسن حله للأشعار التي اقتبس منها تصامير، أكد أن هذا الافتراض من فهم الشعر العربي الصحيح. كثيراً ما طرب ليد الروائي من لغة الأقدمين، حيث تصطبغ بأصباغ بدوية منسجمة مع مجتمع البداية المغربية الذي ظلت دأفته الفنية مشدودة إلى القديم كما يؤكد المعجم الآتي ذلك (إنحاشوا - سورة - حلم - فصي - مناور - قدي - رقة - عقيرة - ظهر النجم - الحقة - سدولة - ثعلبي - أناخ - الخواز - الصدف - البز - الخيزر - ريات الحجال - البرقع - فرس هيكل - الحابل والتابل - عن - المسك - العتير - الحوريات - خشي حنين - الليث - محمد العود - القينة - البصرة - الميرة - الثرى - التبر - كواكب - الوطر...).

هذا المعجم الشعري الذي يرمم في محيط من المناظرة، يرمح بلا صراء العضور القلبي لتصوص الشعراء القدامى في نفس الرواية، وهو محقق التركيب من أخلاط عديدة، تظهر نظرة بوجهها الساخر من خلال اعتماد تقنية الاستشهاد كما هو الشأن بالنسبة إلى حكمة الشاعر العربي التي أوردها إمام الزواجة القائل «هو» على سبيل الميزة⁽¹⁾

إذاً رأيت نيسرور الطيث بلرزة

فلا تظن أن الطيث ييسر

أو بالنسبة إلى كثير من الأشعار الشعبية التي يستمدعها المؤلف من الذاكرة الشعبية، ولا سيما التي تنزع منزج الأمثال مثل ما سطره في الصفحة رقم 48.

الكلام خصو نهمام

الحكام خصو نهمام

والثيت يتبع اللام

الأحق يتبع الوشام

أما تقنية التضمين فلا تظهر في الرواية إلا لماماً، من خلال صدر البيت الشعري الذي أورده القاضي بعد عودته من أخذ شهادة عقد زواج القائل «هو» بابتنة ولد الشهباء «السالة»، صاحبة القوام المعدل الرشيق، حيث أورده القاضي الشطر الأول من همزة

اليوسفي (كيف ترقى رفيك الأتياء)^{١٢٩} على سبيل التيهيم والسخرية من قصر قامة القائد «عمو» وطول قامة الزوج الجديدة «السائلة» وهو إجماع أحسن المؤلف قلب محتواء الدلالي الذي أراد اليوسفي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لإنتاج دلالة مفارقة ولدها السيف الذي أجهز على المعنى الأول كما يتضح ذلك من كلام القائد «عمو» مع مشاورة (ابن الزاوية) بخصوص القاضي الذي تجرأ على «عمو» ورشقته وهو ضاحك بعبارة شعرية ضمنها إشارة خبيثة.

وإذا كان القائد «عمو» قد خالفته العرب حتى صار يقول الشعر كما جاء ذلك على لسان مشاورة (ابن الزاوية)^{١٣٠} فإن القادة الشعرية التي تربي عليها أحمد التوفيق طبعت أسلوبه الشائق الذي تبدو فيه العاطف الأشعار المطولة فلا بد لتبهر القارئ بعن تأنيتها، وجمال موفيقها، وعذوبة رفقتها، وجودة سبكها، وإصابة وصفها، وبراعة نقل معانيها وفنائها من الشكوى إلى الهجاء والسخرية. كما يتضح ذلك من تصوير هيئة القائد «علاء» أب الشخصية الرئيسية في الرواية تصويراً ساخراً حيث جعله ينمط بجمسه تحت أشعة الشمس ليخط له خادمه شرفاً في شعبه، بخلاف الصورة الشعرية التي أوردها امرؤ القيس لوصف الليل الطويل:

فصنعت له شأ فطلي يعلقه

وأرود أن أحلوا وناه يكتل^{١٣١}

في حين حافظ على المعنى ذاته في صوره الشعرية التي نقلها من المعلمة نفسها. في قوله: «لكنه لم يعد إلا وأقبل قد أبيض بؤله»^{١٣٢} الذي يشارع مواصفات ليل امرؤ القيس حين قال:

وليل كموج البحر أرغى سدوله

على فراخ العمور ليطلي^{١٣٣}

وهي صورة كبرها المؤلف ثلاث مرات^{١٣٤}. والظاهر أن أحمد التوفيق يمد من الأدياء الحرامين على التفاعل مع لصوم ذي القروح، سواء نطق الأمر بوصف الفرس الهيكال حيث يعد «نعماء» ابنه القائد «عمو» «صبية بهية طوق فرس هيكال مكتنز»^{١٣٥} وهو المعنى ذاته الذي أشار إليه امرؤ القيس وهو بياكر الصيد على فرس عظيم الخرم:

وقد أقبلني والطير في وكنائنها

مجرد فسيد الأولاد هيكال^{١٣٦}

وقد عزز المؤلف الافتراض من بتابع الشعر الجاهلي برجوعه إلى معلنة طرفة بن العبد يستعير منها أجواء المفرة والهاثة التي يصاب بها الفرد من ظلم الأقرباء. حيث جرد أبناء الشيخ (أحمد نابت إبراهيم) من ممتلكاتهم بأمر من صهرهم القائد «عمو» وذلك مرة في بلادهم لا أفيح منها ممرات. وهاته لا أشد منها مضاضة^{١٣٧} وهي عبارة لا شك هي أنها نسجت على

طريقة قول طرفة:

وعكس ذوي القربى أشد مطاطة

على لثمة من ولع الحمار للهندا^(٣١)

كما سنكت هذه العبارة: «تشوب أطفال الشر في جسم (كديما)^(٣٢)» على طريقة أبي ذؤيب الهذلي في استعارة الأطفال للموت قتلا:

وإذا المنيحة أنشبت أظفارها

أنشبت كل فميمة لا تنفع^(٣٣)

غير أن المؤلف لم يقتصر على الاستمداد من الجاهليين وحل أشعارهم التي تعامل معها تعاملًا إدماجياً محافظاً على دلالتها الأصلية في الغالب الأعم. وهو التعامل نفسه الذي سلكه مع شعر الفول الأموي في هذه الإشارة على لسان «السائلة» التي ظلت تحب ضرتها «كديما» فهي باقية في قلبها كما نبتت في الراحتين الأصابع^(٣٤) التي تسترجع أجواء الشعر العنزي في قول الفائق:

لقد نبتت في القلب منك مودة

كما نبتت في الراحتين الأصابع

كما تسترجع هذه العبارة التي تصف كبير خرواص السجن وما يجب أن يتصف به من شدة وحلق على الآخرين ولكن الأهم من اختيار الخرواص: اختيار كبيرهم. فهو عنوان السجن الذي سيطلق اسمه على اسم السجن نفسه^(٣٥) عبارة جميل من ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه. أو عبارة أبو تمام عن السجن كن سوا الذي رثى أظاء حيث قال الأول:

ضجروا بفسط خروان المسجون به

يطلق الليل تسبيحها وقرا^(٣٦)

وقال الثاني في رثاء أخيه:

قد كنت عنوان كرام منطوا

فكنت فاعطيتك أصول الكرام^(٣٧)

غير أن المؤلف قلب المعنى المتناص معه. حيث إن بؤرة عبارة أحمد التوفيق بالنسبة إلى كلام الشعراء إن اكتفت باقتراض اللفظ فقط. أما المعنى فقد دعركه وعكسكه حتى أضحت ديب الكلاب إلى المنيعين السابحين. وهي الإستراتيجية نفسها التي سلكها مع المعنى الذي يتناص فيه مع الشاعر العلوكي «البهاء زهير» حيث نعت «السائلة»: «لو أنها سافرت إلى هناك بأحذية طير مبارك لنعط فوق سور ذلك البيت وثواني المكومات»^(٣٨) حيث يقول البهاء زهير في معرض ترقله:

فكانت إن سورنا عالي البنا

فلت لها إني فوسه طائر

لما عبارة سمعته به دموع ماثقها⁴³⁴ فهي تستثير صوت ابن زيدون، تأميك عن صوت أحمد شوقي الذي يعارض القصيدة ابن زيدون نفسها، وهو استمداد يصور على ترجمة أجواء الحزن الذي خيم على السلسلة، أثناء طقس الماشطات، والحزن الذي سيطر على ابن زيدون من جراء البين والفرق بينه وبين محبوبته ولولته، والحزن الذي جثم على أحمد شوقي في مقام الاختياري، الأندلس، حيث يقول ابن زيدون:

يترن وبنا قيسا البنت جوارحنا

شوقاً إليكم ولا حلفت مائتة⁴³⁵

ولقد أصاب الكاتب الفضل في تديد الفضا، النص الشعري من خلال تقنية التفل التي أضحت إلى توليد دلالة أخرى كما يتضح ذلك في قوله عن القائد وهو القائد شخص أوج سلمي الإحسان لا يستطيع أن يسير أغوار الصدق ليبحث عن البر⁴³⁶ الذي يستمره من حافظ إبراهيم في وصفه للغة العربية التي رماها بعض المتعاصرين الداعين إلى العامية بالمعجم، على الرغم من أنها بحر زاهر لا ينكس حيث قال:

أنا البحر في أحشائه البحر كاسل

فهل سألوا البحر من عن صدقاني⁴³⁷

مما تقدم يتبين أن الأستاذ النوفيل حادق لمن، فعل خديت أحسن التأليف بين الألفاظ المتخيرة ينتضجها من أمثالها، وهي أشد ما تكون تطيرا وصفاء وسلامة، تفيض إليها الأسماج، شأنه في ذلك شأن صنع النثر الذي لا يقل في انتقال من زهر إلى آخر حتى يصنع لطافتين شرابا يشفي الصدور، فهو ولي تفل بين دواوين الشعراء، فإنه أحسن اختيار القمم التي استمد منها فلائذ أجاد تأليفها فصاحة المعاني المبتكرة وهو، يلقي عنه مثالب القصب والإفارة.

5-5 : جمع الأثر والاستعانة بالخطب في رواية شجيرة حناء وقصر

ليس من المستير على من بذل العناية هي دراسة الرواية أن يتبين واقع المؤلف باقتناص ثقت وعبارات من خطب الصابئين التي أودعها في ما حبر، من دون تكلف أو شاق في مواضعها التي اندمجت فيها في اعتدال وتوازن تفيض لها القلوب، وتستحسنها الأسماج، ولتتعجب من نواضعها الأنعام، ولا غرابة في هذا الاستمداد الحسن لأن الخطب تعد «من أكد ما يحتاج إليه الكاتب، وذلك أن الخطب من مسنودات سر البلاغة، ومجامع الحكم، بها تباخرت العرب في مشاهدتهم، وبها نطق الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتعبد الكلام، وبها يطايب الناس والعام، وعلى منوال الخطابة تصبغت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مثلت الكتاب⁴³⁸ لهذا حرص القدامى على وضع قواعد، فطفي بالذي يرسم خطاها إلى الإجداد، ومن بين هذه النصائح التأكيد على كيفية تصرف الكاتب في

الخطيب، حيث يوضح القائلوندي أن «من حفظ الخطب البليغة، وعلم مقاصد الخطابة، وموارد النصيحة، ومواقع البلاغة، وعرف مصطلح الخطباء، وعشاهيرهم، اتسع له المجال في الكلام، وسهلت عليه مستودعات التثمر». وذلك أنه صعب العاني، وقاض على لسانه في وقت الحاجة ما كس في ذلك بين علومه فأودعه في ثمره وضمه في وسيله، واستثنى عن شغل الفكر في استنباط العاني البديعة، ومشفة النصب في تتبع الألفاظ النسيجة، التي لا تنهض فكره بعلمها ولو جهد، ولا يسمع خاطره بظنرها ولو دأب. إن الخطب جزء من الحزاء الكتابة، ونوع من أنواعها يحتاج الكتاب إليها في صغور بعض المكتابات، وفي الهيئات والعهود والتطاليد والنشاورى وكثير النواحيق والراسيم والمناسير^{١٢٨}. ولعل الاستباز التوفيق من أولئك الكتاب الذين ملأوا ذاكرهم بحيد الخطب شأنه في ذلك شأن ما يحكى عن خالد بن عبدالله القسري حيث قال: «عظمي أبي ألف خطبة ثم قال لي: ناسها - فتناسيها، فلم أزد بعد ذلك شيئا من الكلام إلا سهل علي^{١٢٩}، فكان لهذا الحفظ والنظر في آثار الأسمين تأثير كبير في كلامه الذي يفرقه من بحر لا يساجل، ولا يغالب في الامتلاء. إذ إنه يمعن في اختيار كلمات يحملها منومة مخطومة، تتلطف من بطون أمات المصادر كما تلتقط الجواهر من معادن الأسيطة. وأية هذا الانشطار: العبارات الأنية حيث يقول «أين الزارة» عن كبير حراس السجن: «بل يكون من مسيلحتك أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة». ويكون هو ذلك الياطين الذي من قبله العذاب^{١٣٠} - يخلق الرحمة من أن تعد العبارة لتتصل مع الآية رقم ١٢ من سورة الحديد التي تقول فيها تعالى: «يضرب بينهم يسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب...» فإنا لا نعدم مثل هذا الكلام في خطب القدامى كما يشهد على ذلك قول أين نبأة الخطيب من خطبة ذكر فيها الضيعة قائلا: «هناك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له التواب، وحل عليه العقاب، فيضرب بينهم يسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب...»^{١٣١}. كما أن العبارة التي يصف فيها الركب الذي سارت فيه زوجنا القاتل هو (كيسا - المسألة) حيث يقول عن الترافيق المختارين من أصحاب الأمانة والشجاعة الذين يحس بهم «مرافضة جواهر الخنور وريبات الحجال»^{١٣٢} هي عبارة تتناس مع قول الإمام علي بن طالب في إحدى خطبه حيث يقول عن أتباعه: «وعشول ريات الحجال»^{١٣٣}. قال الثعالبي: «نبأ الخنور من العذاري، ويثال لون أيضا ثبات الحجال»^{١٣٤}. وإلى ذلك يشير حافظ إبراهيم في قوله:

أي ذوات الحجال عشش للبر وعمن شدة للرجال^{١٣٥}.

أما العبارة التي أوردتها السارد عن «هموء» الذي تمكن بعد جهد جهيد من تكوين وقد الأعيان الذين سترجوهون معه لطلب توليته قائدا عليهم، حيث «استرهب الأفريقين واسترهب

«والعل الهزيمة تجوز عليك العزل» - وحتى لو اقتضت قلعة أيت إبراهيم بتعزيز المعسكر، فإنهم سيأخذون كل شيء وتعود بطبي حنين^(١٠٠)، الذي يستحضر دلالة ذلك الأعرابي الذي أوقفه حنين في المصيدة وأخذ راحلته وما عليها، وذهب الأعرابي للبحث عن الخف الأول بعد أن تمكن من الثاني، فلما رجع إلى قومه من سفره من دون شيء، قال بعد بأس وخيبة: «جنتكم بطبي حنين^(١٠١)». هذا هو «دين المؤلف في إبداع مجموعة من الأمثال في الترواية، وفيه منه هي لتفسير أحوال وأوضاع القائد، وهو» وإيادته بالأشياء والنظائر في أوجز قول وأصح عبارة، وأعمق دلالة كما في قول القائد «همو» عن زوجته «السائلة»: «جاء القنديل يقتيل مطيع بالزيت^(١٠٢)». وهو يشير إلى محبة العروس في فترة الفلاني البيض التي تكون فيها قابلية النساء للحمل أكثر. أما مثل: «سأبحث لميزانك من كفتة الثانية^(١٠٣)» - الوارد على لسان «ابن الزوازة» فهو يشير في إيجاز شديد إلى عزم للشاور «ابن الزاوة» على تزويجه من أهل الجبل. أما عبارة «كان في مناسبة الغداء أيضا القاضي الذي جاء ليعمد العود للقائد^(١٠٤)» فتحيل على القتل العربي المشهور «العود العمد^(١٠٥)». كما تحيل عبارة «وبينك لتقم حجرا كل المعروفات في القبيلة بترويع الكلام^(١٠٦)» على القتل العربي، «كأنما أقمعه العصور^(١٠٧)» أي أسكته وهي ذلك بقول الشاعر العربي:

لو كُتِبَ غُزَى قَتَمَهُ حَجَرًا

أصبح الصيحر من خيال الأبطال

أما العبارة التي أوردها السارد من السلسلة الأولى من سيرته أنها تجاه القائد «هو» ما يدل من جهتها على قلب ظهر المجن^(١٠٨) فإنها تشير إلى القتل العربي القاتل: «قلب له ظهر المجن^(١٠٩)» الذي أورده علي بن أبي طالب في رسالة له لابن عباس حيث قال: «إني شركتكم في أمانتي ولم يكن رجل من أهلي أو منكم في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد قلب، والعمو قد حارب قلبت لابن عمك ظهر المجن...^(١١٠)» أي خرجت من المودة وخالفت العهد. أما عبارة: «ونصب غيابه وجلس بضرب أطماسا في أساس يبحث عن العيلة التي يحفل بها الزوازة^(١١١)» فهي تشير إلى القتل العربي «ضرب أطماسا أساسا^(١١٢)» الذي يضرب لمن يظهر شيئا ويريد غيره، وغيرها من الأمثال التي لوح بها المؤلف إلى المعاني المرادة لتويعها فيها وأنما مثل أمثال: «وقع عبقريته، بات قلب الأمر» من كعمل البئر في الكتمان، «يشبهون خطبا إلى موقف حماسة ابن الزوازة، لضرب مصفوريين بحجر» - مالي أهدي الجواهر للدجاج، والدجاج من سقاطته يحسب كل ما في العالم لقطا من حبات الذرة والشعير، التي ما عندو هو تولدو ليه حمارلو... وهي كلها أمثال حافظ فيها المؤلف على ألفاظها، فضلا من أوضاعها كما نصح القائلندي للكتاب بذلك.

ملاحضات: خاتمة

هذا غيض من غيض الاستعداد الحسن الذي أودعه المؤلف روايته التي فازت بقدر الفصح، ومن ثمة استعصت الفوز بجائزة الإبداع المغربي لسنة ١٩٩٨ ميلادية، حيث أبدى المؤلف براعة في الاقتباس من الآثار السابقة، من دون أن تكون كتابته مجرد صورة حاككة لها. انظر إليه مثلا وهو يشير إلى الحادثة التي وقعت للإمام أبي حنيفة الذي استمر في جلسته على راحم الأم الذي أحسبه في رجله إقبارا لأحد الجالسين أمامه لأنه يعلم أن امرء مضطرب تحت لسانه. وعندما تكلم الجالس، وأبان عن سقطه، قال أبو حنيفة في لطف وسطرية: أن أباي حنيفة أن يعد رجليه. وهي العبارة التي أشار إليها السارد أثناء الحديث عن الأعيان الذين «تجسروا على عمو ومدوا عليه الرجل في طريق السفر، وتسير هو على جسارتهم في طريق الذهاب إلى الحضرة، وقام بصيوع لوازم سفرهم حتى أنه كان كالخادم لهم»^{١٢٢}. كما أن عبارات، لم يغمض له جفن، انعاشوا إلى القائد، كان في سابق الزمان ومالك العصر والأوان، مد قطع الفيافي والقفار وطوى الأنهار وركب البحار، أضي القمر بثر أم تراب... تحيل إلى الذاكرة التراثية الغنية لدى أحمد التوفيق الذي يقدو عليه الأخذ والناس قانون الكتابة الذي لا يستغني عنه الأديب اللائق. وفي ذلك يقول الفيلسوفي: «غير حقايق على من تصالط مناديه النشر والنظم أنه لا يستقل أحد باستخراج جميع المعاني بلغة. ولا يستغني عن الظن في كلام من تدبمه: لاقتباس ما فيه من المعاني الرائقة، والألفاظ الفائقة، مع مضافة توثيق أهل كل زمن واسطلاحهم فيتسج على منوالهم، أو يشترط طريقة تعاليفهم. وتوارد الكتاب والشعراء على المعاني غير مجبول... ولا ينقص يمثل ذلك إلا من رسطت في صنعة الكتابة قديمه، وامتزج بأجزاء الفساحة والبلاغة لجمه ودمه. وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز في القرآن الكريم. فإن القصة الواحدة لتكرر فيه مرارا في سورة متعددة. ثرد في كل سورة بلطف وتركيب غير الذي وردت به في الأخرى، مع استثناء حد البلاغة ونهاية أمد القصاحة، ولذلك قل من سلك هذا المنهج، أو ارتقى هذه الذروة»^{١٢٣}. لأن الأخذ والاتباع. وإن كان سنة طبعية من سنن الاستمرار والتجديد. ضرب من الصناعة الفنية لا يدركه إلا الخنديق المتبحر الذي يتلطف مع المعاني المشتركة، يلبسها من أوجهها العديدة، حتى تظهر بعيدة الصلة عن وجهها المطروق المستهلك، وتلك هي الميزة المهمة التي يدركها القارئ البصير بترسيات كبار السابقين في كتابات اللاحقين من أمثال كاتيليا التوفيق، الذي غرب علينا برواية رائعة اختار لها عنوانا يتناس مع الطرب الأندلسي «شربية الحسين»، ويحرك الذاكرة التراثية في رحلة استكشاف فلسفية.

أسفار الترنه والهجرة وعبرانيينها⁽¹⁾

في شعر سليمان العليلى وإبراهيم الخالدي

د. نجمة إدريس (2)

الانطلاقات سليمان العليلى⁽³⁾ وإبراهيم الخالدي⁽⁴⁾ الشعرية تكاد تنبتق من بؤرة صغانية، الا غنى تلك، ومن الإحساس الحاد بالانتماء والحصار حين صغانية الطفل أو الفرج في مشروبات كيون، مكاني وزماني، يتحدى نظما لهما وزعمتهما في الانتماء والشجيرة. ومن ثم كانت تلك الحسابات النبوية والحسية لتجاوز ذلك الخلق (في التكون الطارجي)، والذي الا غنى تلك (في عالم الذات)، عن طريق طلب الترحل والسعي نحو هجرة واقع زماني ومكاني، يبدو. في نظريهما، صجحا وتقصا.

إن ملصح الترحل والسفر والهجرة لدى الشاعرين⁽⁵⁾ يكمن منطويا، أو يبدو ظاهرا في شكل الطلع والأزهار، والكشف، بحثا عن النقاء والتجديد، واكتشاف الذات، وتخليصها من ركعات التشويه والقسوة أو الاستلاب والفرج، أو التكرار والبلادة، لذا تبدو السمة المميزة في مسألة «الارتحال» من الواقع البليد أو المشوه أو الطائم، إنها انطلاقة وحركة نافذة نحو الغد والأني تتخذ سمات الرواية والاستشراق. ولكن هذه الانطلاقة نحو أمس، آخر لا تكتسب زخمها وصقلاتها إلا بصورها عبر رموز وشارات تراثية تبدو متجذرة وعميقة القور في وعي الشاعرين. إنها مبعثان زما «أوسط»، يبدو غارفا وموحشا، زما يتأرجح بين «مستقبل» يحملان يارثيانه وصنعه، ومامش تراثي سهيل يضيء ذاكرتيهما بالائق والعقول. ويمتدحهما شرارات هداية تنير طريق الرحلة. ماض تراثي يضيءهما وأداة من إيمان شميم إنسانية

(1) أقدم القصة القصيرة - كلية الآداب - جامعة الكويت.

أسفار الترحل والترحيل: صور ومنايا

«صاعوبة» ما تزال مرجعياتها التراثية مصدر إلهام لا ينضب. وعن طريق هذا التعامي بالترائي والخاصي، يصنع كل من سليمان الفليح وإبراهيم الخالدي، اجتماعهما الجامحة للانطلاق من مؤسهما الحاضر: «التطور بالبلاد والنفور نحو «أمن» أت، ينهض فوق مشارف الحلم والأمنية».

هذا الشخص الدائم نحو صعوبة «الترحل» و«السفر» لا يميز بالضرورة عن حالة من الاستعجاب والفرح بالانطلاق من الحصار والاستلاب. بل هو ما يعبر عن صفة الاصطراع مع عالم خاطئ لا يرقى إلى الطموح، وبالفرد ذاته يشي بآلم التحول ومعاناة التغيير حين التجرد عليهما. إن الشاعرين لا يوليان ظهريهما لواقعيهما الزماني والكفني، ولا يعترجان حلم السفر والرحلة إلا بعد معالجة وتجريب مصنوع، اتخذ شكل المباشرة، فالحماقة، فانقد، فالتفرض، الذي اتخذ في شكله النهائي صفة الرغبة في الخلاص، واكتشاف ذات أخرى بريئة ومتجددة.

أولاً: سليمان الفليح

١- الصعلة طريقاً

يتخذ سليمان الفليح من «الصعلة» أسلوباً للتعبير عن المآنة والرفض. إلا وجد في الصعلة - بما فيها من إهانات تراثية غنية - الوعاء الأمثل لتجريبه الشعرية البطولية على الإحساس القادح بالظلم ورفقة الحال والانتكاس أمام مظالم السيد والتمسرة، وشاهد القوت الاجتماعي وحصول الثقافة المادية، فاهيك عن اغتيال قيم النبوة متمثلة بالتمسك بالصعراء والبدانة أمام زحف مدينة جائرة تلزم الأمان وشهقة وتنتهك بلا هوادة. لذلك تبدو الصعلة طريقاً لا مفر منه لشاعر مثل سليمان الفليح يعيش تجريبه الشعرية بمسؤوليتها الفني والواقعي. إلا تبدو الصعلة قفراً وواقعاً لتليس الشاعر. فيتخذها مطية وأداة الوحدة كبت معاناته ورفضه واستعجانه لواقع يعادي أو يهذأ أو يهشم. ولعل في ارتداء ثوب الصعلة وإعلانها صعوبة انطلاقه ما أعانه على التعامي بشخصيات الصعاليك واكتساب جرائهم في الشاكسة والمناوشة والسخرية والتهكم، وزهوهم بشجاعة المواجهة والصلف والتعدي، وإحلاسهم للظفر والشطيف ورفقة الحال وخشونة العيش.

إن مصطلح «الصعلة» وحضورها كموقف وسلوك بدأ مع الشاعر في ديوانه الأول: مروراً بالديوانين الأربعة التي تلت، مما يعني أن استخدامها وتماثلها غنوا موقفنا شعرياً باسم الشاعر بهذا الصلح المميز. ولعل استخدام المصطلح نجده في نص «من مفكرة صعلوك» ديوان الغناء في صحراء الأم.

فوقاً بالرميل عند الرخالي
ترويت بالسر والسط. كانت طيور الجزيرة
رفوقاً مع الصبر والشمس طلي
رفوقاً الرفوقاً
سبطة تحسب فوق رأسي
لألمس صبراً المسيرة
فوقت قلت أرخالي طويل
عديت ظلي وقت
وعظي نيا ظلي المسيرة
أفقت من التورم. غطت عظلي
وصارحت طعم العلي. انقضت
تذكرت زحف الأناسي الخطرة
لهذا صغرت لما رأيت الطيور التي في أعالي الشجر
تحد منقهرها كي يصرى الجندور الأخيرة
وواصلت سيري
فأملت أني مشيت ولكن طير المرحي اعظمي
"على العالمين الترنم"
يحدث وجهي الصلاب الساج
وحض النجوم التي لا تحصى
تجسرت ألقيت صيني
عديت ملء الضلع / تجزأت حزناً / ناطق من المروع
وجاءت رفوق النطا / أنظني / من الموت حزناً
عظمت صوب الرفوق
عديت ظل الجناح المرفوق

والسطلقة هي هذا النص ثلثي موازية للترنم الكسبر المرتجف الذي يبدو فيه المرتحل متهاقاً ومتوجساً من "زحف الأناسي"، والطيور التي تحد منقهرها، وحطسا بالاستخدام "بالأسيرة والتخوم" التي تنب براحة وعنفوانه حزناً ومعاً. ولكن الاستخدام بنجوم اللحن التجارلة يحدث لا محالة. وتنتهي الرحلة بالانكسار. ولا يرض من فيه "ظل الجناح المرفوق"، وجاء الاستخدام الثاني لمصطلح السطلقة مرتين في ديوان "أحزان الهند الرحلة". مرة هي نص "جرة على الرواية"، الذي أهداه إلى "شليوبج المطاوي" الذي عرفته بقوله: "إنه من أشهر

أبعاد الحركة والفكرة وعرضها

فربما ان الجزيرة العربية الصعاليك في القرن التاسع عشر. بل ومن قبلهم وأشجعهم^{١٢٠}. ومرة ثانية في نص: «أهلتي الصعاليك»^{١٢١} الذي يشمل على ست مقطوعات: ١- «أهزجاء»- ويطلق فيها الشاعر رضى الميمنية والتمونية والأنسجاني- وكذلك يأتي على ذكر التصرفى للطلع والتشرد والضمعة والبنجاء. ٢- «أنايط شراء» تمثلن المقطوعة بالإحساس بالحصار الذي يدفع إلى الترحل التطوي على الحزن والحاجة. والترنمى بلا أمن أو قلق والتوجد بذاته المتكسرة. ٣- السليك بن السليكة. ٤- أبو الطمجان، وفيهما إسمراو على التمسك بالصعلة متوج حياة على رغم الضيقات والهمزائم. ٥- التفتزي- وفيها يؤنب القبيلة التي نبذت أبنائها وامتنعت أنها مكتفية بذاتها، بأنها سوف تكتشف حاجتها إلى من قبلهم. ٦- «مروءة بن الورد» وهي المقطوعة الأخيرة التي يرى فيها ما من الحصول على الحقوق يحتاج أحياناً إلى العنف والإغارة معاطلين بالرضى والزهر. وكل تلك الإشارات والمعاني الواردة في المقطوعات الست هي جماع طبع الصعاليك وقانون حياتهم القائم على التشرد والارتحال والإحساس الفاتح بالطلب ومناجزة مجتمع الصلف والقسوة.

أما في ديوان مكياب الليالي- فهناك نص «الوسايا الأخيرة للصعاليك بني تفتزا»^{١٢٢}. وكذلك جاءت قطعة «الصعاليك» واسماء «مروءة والتفتزي والسليك وابن الغريفة» في نص «أهنية الولد اليهودي»^{١٢٣}. وقد جاء النص مشحوناً بالحنين إلى البراءة والبداوة والتقاء القلوب- وهو حين يغلب به على التهموم والبالدة وكثرة الكائن- وهذا تقدم الصعلة أيضاً ارتحالاً عن الذات وتكرار وتشتت الزمن والسقام الأسفل.

أما في ديوان «الرملة على مشارف الفجر»- فهناك نص «مجرد صعاليك»^{١٢٤} الذي يعبر عن العجوة بين مظاهر النسي والندبة والتروث التي أصعب سبباً. وعلمه التطوي على توحشه ورفضه وتحمده وانطلاقه. ربما نتيجة الإحساس بقوة العيلة ورثاء الذات. نحو العشوان والنبل. بحثاً عن مثلاً. إنه «الما» الرحيل والابتلاءات عن أولئك الفارفين في صلتهم وترتهم الفاحش ولا مبالاهم. حين لا عزاء إلا بهذا الرحيل.

٢- التهامي والصعاليك نبالاً

تبدو ظاهرة الصعلة في العصر الجاهلي ظاهرة تطوي على التناقضات حين النظر إليها بمنظور عصري. فهي من جهة تشير إلى من يتجهدون للفرات وقطع الطرق من شذال الأتقال والخلعاء. الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جوارهم. أو كونهم مجموعة من أبناء الحبيشيات. الذين تبار منهم أبلاهم وسماوا بأغربة العرب لسوادهم. هم إذن نتاج طبقة مسحوقة. مملوكة الحقوق. تمثل نفوسهم بالإحساس بالنظم والتخلف ورفقة التحال^{١٢٥}.

والصعلة من جهة أخرى تعني موقفنا حياتياً تطوي على الرضى للواقع الجائر. والثورة على انتم القبيلة المثقلة بالاستنكار والصلف وفقر الإنسان وتهمة^{١٢٦}. ولا شك في أن النظر

إلى الصعلة من هذا الجانب سوف يسمح عليها حالة البراءة ويضعها محبة للتعاطف ومثارا للعجب، ما دام الصطوك يداخل من أجل إنسانيته الهندية. وبشأن الهند بالحصار. وإذا أضفنا إلى هذا جوانب أخرى لمطي الصطوك سيته الخاصة، فسوف تزداد مساحة التعاطف والعجب. فالصطوك غالبا شاعر. وصفة الشعر توسع من آفاق إنسانيته ورؤاه. وتعد من درجة إحساسه ورفاهته حين الشخوص في متناقضات الحياة. وهو إلى جانب «ترديد صيحات الفقر والجوع، فإنه يفتن قوة علوية على الأغنياء والأشياء، ويغازل بالشجاعة والعمير عند اليأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو وركوب الخيل. والسمائك يفتن. هي أشعارهم. بعمائهم ويمدحون بالكرم. ولديهم شعر قليل من الترفع والشموخ بالكرامة في الحياة. وكأنها تحولت الصعلة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية. وهي حقا تقوم على السلب والنهب. ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا يهبون سدا كريما»³⁷.

ولعل صورة الصطوك في العصر الجاهلي. وهي صورة تحمل إيجابيات التكسار والنبيل والتهكم. كانت مدعاة لإثارة شغف الشاعر للشبه الأحوال وتغارب التجربة الإنسانية والشعرية. لذا فتمثل الصمائيك والتعاض بشموخهم ومسلحهم يبدو ملمحا مميذا من ملامح شعر سليمان الفرج. هناك ذلك التوجه المستسلم لتقر ورقة الحال والتشطت:

تألي الشرد والقر لا يني
فالدعوان كان صلبا
فليس علاج الصلاة إلا الصلاة³⁸

وهناك ذلك الصلوف القسري أو الإنصاء - الذي يشبه الجوعان - من الشرف والفضى ومشاهد الرفاهية. التي يضح بها للفرهون ومنهم الفارغة. هي حين ليس للصطوك شعر أن يعيش على هامش هذا التذبح مخطوطة على الشدة:

ليس للصمائيك / الاحتضارات / والكرفلات
طنوس الدين الشبقة / والبز البلاء
ليس للصمائيك / دعوات البغرات / أو واجبات الطغرات
لأخرج المرأة "الكاشحة"
ليس للصمائيك / غير ملح البحر / ورمل الصغار³⁹

ونتيجة لهذا الإحساس الساحل بالابتذال وعدم القدرة على التأقلم مع مجتمع الرفاه. لعمرو في نفس الشاعر نزعة «المنغرة للتهكم». وتتأصل. وهذه المنغرة قد تتخذ أحيانا شكل الأزداء واحتقار الغنى والأغنياء. ومحاولة النيل منهم واستمغفارهم. وسلبهم صفات النيل والبرودة أو التقوى والهيبة.

أساطير الفلك والهجرة وخراباتها

وهي ديوان «رسوم متحركة»، على وجه الخصوص، تتضح نزعة السطورية من «أصحاب الديمار» والاحتشاش ضاعف في أشد صورها إثارة، وذلك حين يكون الغنى مدعاة لإدلال الفطير وسحقه:

أذل من دجاجة / أغفر من عرصار
أخفر من بحرقة / أخضر من حمار
لكية / سبحان يعطي الرزق / لكي نزل الحق
جوزة قود / وسيت الديمار
وميه ما يكفيه من طيب الأذكار
لكية وجدة وشاية صغيرة / ليس بها من عار ٢٣٩

وحفرة الديمار لا تذل الفطير فقط، بل تقصيه أيضا عن مراتب المجد، وتطفئ شمسه، وتعيد صاغرا إلى حياة الظل:

في الزمن السخيف / عدلي ألف سيف / يني وبن الشمس
لا تقطع الإعجاز / بل تقطع الرغبات ٢٤٠

وبذلك يتحول غش الأشرار وراهم، وما يستوجب من نفوذ وشهد إلى سيف معاكاة آخر يقهر الشاعر ويشمره بالضممة إزاء التبعج، وبالتقشور والتماتة إزاء حواجز الاستعلاء:

لي رجاء لا يصر / سيجي عين البحر
لست أملك / من تدوير الأنياب / بقلوب الفجر
كلما غرك طاب / سبلي غرق ضرر ٢٤١

إن نزعة «السطورية المتهكمة» التي خصص لها الشاعر إصدارا منفردا، وهو ديوان «رسوم متحركة»، لا شك في أنها تطوّر على وجه آخر من وجوه المعانيك وهذه المعانيك تتضح في عدم القدرة على التأقلم مع واقع يشعر بالفن والاستلاب، ويريد من الضمور بالانسحاب والضعف، فتتضخم حينئذ الرغبة في رفض الواقع والتبيل من رموز، وإيلاهم بذلك السطورية الثلاثة. وكثيرا ما تأخذ هذه السطورية أبعادا غير مبررة، وتتحول إلى لون قائم من الساذجة الضمورية والتفاد بالانقسام ٢٤٢.

وهي كل أحوال السخرية والتهكم التي يتكبتها الفلتاح لا يشترك من خلال سطريته وامتناعه بأنه الأفضل أو الأنقى، بل يعمل فجيئته الشخصية من خلال هذا الواقع الشائك، فهو - كما في نس محالة ٢٤٣ - يشارك أولئك السطور منهم تلوهم وغياهم، ويذوق معهم في جز من الجبهة والبالدة والفسور والسفراغ من الطموح وبهجة الحياة. ومن خلال غرقه في أوجالهم يحلم بشكل شمني بإمكان اللجاة من خلال الاعتراض والتطهير.

وكما ينتقم الصعلوك الجاهلي بالطرد والسلب والتهب وإلحاق الأضرار المادية بمن سلطوه حق الحيلة الكريمة ويضرمه إلى التشرد وشطف العيش، يتخذ صطوك العصر ما يشبه هذا المصطلح. إن لم يكن بالفردة الفنية التي تتطلب الحيل وهذه التيل وسرعة العدو. فبالذكاء والمباورة والمهارة التي تحفل الغاية، والشاعر إذا معترف بفداحة الفطنة. فإنه يراها أعون شراً من التباكي والشكوى.

فزع البكاء، يا أيها الحكام والشكاه

والغمر زمان الصب، شر السلب، شر التهيب

تأفكر الأشياء في زمانها صارت هي الذكاه¹³

إن السلب والتهيب ليسا هي عرف الصعلوك عارا وتفهية، بقدر ما هما سبيل لنيل الحقوق التي تحتاج إلى علف وشجور. حينها تغدو الفارة مدعاة فخر وخيلاء، وسبيلا إلى العدالة. هي إحدى مشطوعات «أغاني الصعلوك» يتوحد سليمان الطليح مع «عروة من الورود» فكتلا:

لنهر الصعلوك يأتي

وفي بيته الآن ينتظر الجاهلون القرى

والإقامة

يخبر على ثوب كسرى وحيدا

كما البرق قبل المساء

ورائي قبل المشاء

يسوق الزنايق المغائير

كالكثير يسبح فوق الصلابة¹⁴

من الملاحظ أن إحساس الشاعر بالثبوت والمطالمة في محيطه يكاد ينسب منجمله على شعوره بثبوت البشر ومطالبهم وصمودية تقبلهم أو التماثل معهم. مشكلة الشاعر الأساسية هي إذن مشكلة «الناس أو الآخرين» المشرّب بين شهرتهم والرافض لصلتهم وشعورهم له. بينما هي التماثل هناك حب للأرض والوطن. ورغبة صاخبة في الانتماء إلى حضن يبدو أنه يرفضه ويقتضيه. إن «الوطن» كمنسحق وملاذ. يتحول لدى الطليح إلى أمنية جارحة، لأنه مصدر علق، أو جنة تغلق أبوابها دون محيطها الأوفياء، فيظل مهلا بيكاته وخشاكه لتلك البلاد التي لا تشك «شماجزة» لأنه يعني لها هي السماء، أي يعني بطريقته الخاصة، على رغم عدائها له.

أما طائر أعزل في حنول البكاء

شامرتي - صباحا - بلادي

لاني ألقي لها في المساء

فهل - أيها العارفون بكل الأمور -



وأكثر بلافا تشايعاً لمبارها
في سبيل الغناء^{١٣٥}

مختصاً قطاع «الشعري» في مقطوعة بهذا العنوان، يؤكد سليمان الفليح مرة أخرى ولادة «التيبيلة - الوطن» على رغم صروف أزمائها. ولكن التيبيلة مستظل سائرة في غيبتها، ظانة بانفصالها بذاتها، حتى تكشف حاجتها إلى من يثبتهم من «أبنائها المختصين». إن التيبيلة التي طرأت في «الشعري» دأبها نحو «الغياض العذبة» في موسم الحبيب، هي «التيبيلة تعود في عصر الفليح لتسمه بـ «الصفحات الزائلة» ظلماء، كما وسمت الشعري» وستفتقده يوماً حين الحاجة إلى «مختصين» وأدلاء^{١٣٦}.

أعزى طاقاً خلعت^{١٣٧} لأن التيبيلة «تكر دوماً بأن الحبيبة ستلق حتى خلق الحبال» وقد حتى حدود الحبال، ولكنها بعد أن مضى الوسر طابجي، التربع، ويكشف زيف التروى للستيبة، أخيراً فكر أن الغزالي إلى موطن العشيبة في مواسم الحبيب، أصلاً جد بيبة وتعرف أن الأنداء، نحو الغياض العذبة، أباؤها المحضون الذين وشهر - جزاء - بكل الصفات الزائلة^{١٣٨}.

ويبلغ التعلق الغنيبي عمداً حين التحول الفنية التواحد مع «الأرض - الوطن» إلى لون من الارتحال الصوفي التسميت نحو مشروطة ضوئية ماثلة يستلطر منها الشاعر الأمن والعيشة

وعيشاً موحى وأمة لمن دخل

وأمة من دخل

جداً موحى غير أن التيبيلة لم تقبل

لما لجف خزاني الصحاري^{١٣٩}

ولكن «موضوعي» الذي التحول هنا في نص «طير الغياض» إلى رمز صميم للأمن والهدوء مقروء، تاركاً الشاعر بك مسافراً ورابعا في «صفحات الغياض»، وقد «عده الارتحال» وانتظار توجه موحى بهل^{١٤٠}.

أسافر في صفحات الغياض، طيرا غربيا بلا حية أو صدى

غير أني لما كرهت الظلام، وطال اصطياري، توجعت في فة الغياض

التي كنت به، شر صار الغياض مدلري، أصبح لقد هدني الأرحال

أفك عشتي على هذه الأرض، منتظرا لك وجه «موضوعي» بهل^{١٤١}

إلى أن ملكت انتظاري، قلت سأصنعه قمر، أو رغبتا من النور

أعديته للجانين أو الضالعين، فكان لذلك وجه موحى اختراعي الأخير

وكان الرحيل إليه قراري، وموضوعي أجعل ما خلق الله في الكائنات

تلق موحى منذ لرون فتشعلها بالمحرق، شر تر

لذلك حان إليها هذا الزمان قراري^{١٤٢}

يقدر نص «طير الفياض» سالف الذكر مشكلة الاضطراب التي تعالت في الرغبة في الرحيل والبصر من عالم الآخرين. بحثا عن وطن يشبه الحلم في دخته واحتوائه، وخلوه من القسوة، وينقذه من الملوثين والتجسسين والمخالفين منظوهم وتسيدهم، واضطراب الشاعر يشبه اضطراب «الشطري» في «الغاية العربية» في مستواه النفسي والروحي، فهو اضطراب يفننه الوحش والهجرة عن وسط يتزعمه أو يتعصبه العماء، أو يسلبه حق الاعتراض والحرية وتحقيق الذات:

وفي الأرض مثلي للكرهم عن الأذى
وفيا لمن خاف القتل متعزلا
ولي دويكر أغلوت سيد علس
وأرض زملول وعرفاء وحبال
هم الأهل لا مستودع السر ذائع
أبصر ولا الجاني بما جر يخلل^{١٣٨}

وكما يستعمل الشطري الاضطراب من مستلح الحياة بالناس الذين أنوه وأكروه حيوانات البرية وكلماتها المتوحشة. يستخدم أعلا وسفلا يستميش بهم عن خيبة أمه الإنسانية الإنسان وأخوته، يتكلم سليمان الفليح **الفتوة والوحش** والتماضي بالحيوان والطير وكلمات البرية فليج من خالاتها إلى عالم يأنس، ويهيم ويقيم بهم أواصر الحب والإخلاص الفطوريين في عالم البشر. وهذا التماهي بزوح الحيوان وعالمه يترك على مستويين مختلفين:

المستوى الأول: يتمسح في ذلك الحنو، والصميم المتبادل بين الشاعر وعالم الحيوان والطير، إلى درجة التغمص والاندماج اللذين يسور الشاعر من خلالهما ما تطوي عليه أرواح الحيوان من سمات أخلاقية تعلمه بالإعجاب والتقدير الجم. في نص «أمير الوحوش» الذي يهديه الشاعر إلى زوجين مكثبيين، الذئب في حديقة الحيوان - وصديقه مسطر الموسري في الشقة الوحيدة، يعدد مقارنة بين هذين الكائنين المرتبطين للأسر وضودية الجسم، وغما عنهما، وبينه هو الذي «يلوب» بهذي الدائن منذ انهدر إليهما، غططن وأمن وأهين، ومن خلال هذه المقارنة يتوصل إلى أن القاسم المشترك بينهم - هم الثلاثة - هو تلك الروح الوثابة التي تستعصي على التقيد وتطلع إلى الانطلاق. ونظال «زنجير مثل الرياح»:

عن الذئب أولا:

مرحبا يا أمير الوحوش أحببك من فة الذئب
ولقد مر نورا من سحر البراري إليك
ولربك من لغة الأنزواء
قلت أسير الزمان / عبد لحسنة الآخرين

ولا تقبل الأرحام كفاي الرحوش، ولا تقبل الإحناء
تلوب طوال النهار، "مخزن" صار إليك جميع القنار
وصاروا الفضاء

ومظي يلوب يذلي القبان مثل المحدث إليها
طعنت / لعنت / لعنت

ولكن روحى شفى ترسج مثل الرياح
عن الموسوي:

غراب جميل يحيل على الشعر والحب والأصدقاء
فيكره عصرا، بلونه دهر
لكنه كعصا الخيزران، يرفض الإحناء
عن الكل:

كلهم في البلاد سواء
"سفر" وأسر الرحوش وظلي
كلمات يلب

وتبدأ من حيث لا ينفى الأبدان

في هذه المقارنة تبدو صورة الذئب لتعطي الزخم والوهج للشخصيتين الأخريين في الشعر
وهما: الشاعر وصديقه المصور الموسوي. إلا أن هذه صيغة رفض الارتباك من غرائز الذئب
الأساسية التي تكسب هذا اختلافها جديلا حين نسبها إلى الإنسان.

والحيوان لدى الفيلج لا يدخله بـ "أخلاقه" - فقط، وإنما يشير هي نفسه العنق والشفقة
على مصيره الذي تهدده شراسة الإنسان وعيسته التي تقال براعة الطبيعة، التي تغفل وعورها
الطيور والكائنات البرية،

قرب جزيرة عرفة
سند صباد أحسن "عرازه"
نحو الزهرة
ما طارت

وبعيني هذا حزن الدنيا
كأن ترقبه مشوهة ١٠

المستوى الثاني للتصاهي مع عالم الحيوان يتضح في تعامل الشاعر لطباع الحيوان
الفرائزية وغرائب تصرفاته، ومن ثم إسقاط هذه الطباع الحيوانية الفرائزية على الإنسان
وتحويلها إلى طابع ممنوعة أو مثيرة للتساوية والتهكم. وهذه إحدى طرائق الفيلج في

الشعير عن استهجانه لأولئك الذين يشكلون تهديدا له، لأنهم يحتاجونه أو يستعملونه بنفوذهم وسلطانهم أو ضلوعهم، فيدافع عن نفسه بأسلوب المشعيرة والتحكم على فجاجتهم وغلظتهم واعتقارهم إلى الإنسانية. ولذلك يمسقاط طباع الحيوان المشعيرة عليهم ورسمهم بتلك الصور الكاريكاتيرية الهازلة. ونظرة سريعة إلى عناوين قصص ديان «رسوم متحركة» نرؤونها يكمل غير قليل من صور الحيوان البرية والبحرية والزواحف والحشرات التي يرى لها شبيها من بني الإنسان، مثل: البطريق، البزل، الفهد، السلطاني، الهر، المسحية، أبو جعل، غرور، حشرة، سحرة، السمكة، الضبع، الوشي، الخرتيت، عضادة، الهويس، كلب، الخفاش، الرعاش، الشرهية، الفريالة، اللخمة. والأمر لا يحتاج إلى تأمل طويل لمعرفة رأي الشاعر في أولئك الذين يسميهم بأسماء هذه الكائنات.

إن توظيف صورة الحيوان، عامة، في شعر سليمان النخيل قد يختلف بشكل أو بآخر عن مثيلاتها في مرجع تراخي مثل كيلة ودعة^{١٣}، هي «كيلة ودعة» يأتي شعاعي الإنسان بالحيوان استجلايا للحكمة والاعتدال والتعلم والتأمل، وتكون شخصية الإنسان في سياق القص ضمنية أو افتراضية، في حين تأتي مقاربة النخيل، لإمواز العنسى عن طريق التقابل والتوازي وانعكاس المرايا، وهذا التوظيف يحول الطباع من طباع غرائزية مصحدة لدى الحيوان إلى طابع مصحوة أو مستهجنة لدى الإنسان، ولكنه لا يخلص الحيوان برأيه وتغاليته، بقدر ما يستنكر على الإنسان خروجه عن أبعده وتزييه بزي لا يناسبه وسمات ليست له.

٣- هرجلة الصخر

يمكن اعتبار سليمان النخيل، الشاعر والإنسان، خبير من غير عن أزمة جيله من أبناء البداية المتأثرين على مشارف مدن القطفة، الذين اضطلعهم الصحراء لشعبها أو لانتهاه عهدها كموطن في زمن التعطير الكاسح، فوجدوا أنفسهم منكسرين على لغوم مدن ترفضهم أو تحتفظ في قبولهم، وتصدعهم من اللطفين أو الزاثنين على الحاجة، وتكاد معانات النخيل، من هذا الوضع القلق واللاإنساني، انطوي على التشرد وفقدان الأمن وسباق الهوية، تشكل صورة العائد في مجمل أعماله الشعرية، إنه يجد نفسه كأنثى ملهبا ينف بين عالمين موحشين، أحدهما صحراء غامرة لتلاشي روحها الأليمة وبرامتها وطهرها بكل ما تمثله من فهم الأصالة والانتفاء إلى الجذور والحضن، وثانيهما مدينة تطوي على القسوة والتبدد ومعاناة أولئك اللاعنين إليها، الذين اقتصدوا، نتيجة للتمميزات القسرية، صغرانهم وشموخهم، وغدوا جماعة من المستعطين الفقراء المبتلين بالأحزان، والأهلين إلى الانطلاق، يمكن اعتبار نص «البدو الرحل» من ديوان «الحزان البدو الرحل» خبر ما يعبر عن هذه المعاناة في شعر النخيل فتا وموهوعا، إنه نص يتعجر بالشجن والقرعة، ويضج بذلك

أشجار الكرك والهندة وعربياتها

الروح والارتجاف الإنسان من انكساره ومرااته. وعذابات ارتحال العموي يتخذ بعداً روحياً ونفسياً أصح مدى من بعده الواقعي. إن حكاية أشجار جماعات البدو الرحل اللاجئين ليوايات لندن، معمرين بالحاجة والذل والفقر، تنمو في هذا النص الخلية فليجعة معذبة تظن اندثار الصحراء وسقوط رموزها وانحجار إنسانها:

ها قومي الجندوا من مرتعات لظاني - شهب الأعيان -

لحانهم ربح المستفيل نحو الواحات المأفوة بالأطمار

ها عمر مثل براد النحط القادر من أشجار الظهير في الدنيا

جاسوا وانتشروا في هذي الصحراء الرملية مثل الأشجار

ها عمر عند حلود الظهير الأزرق نوا

فومد كل خير منهم عروضة / عروضة

جلوا بالنهر وليكاهم برق شط الظلمة "يشعل"

يتعرج في دائرة الأمل المغلق

لكنه ما يلبث أن يخبو

فابتلت من لطمهم عند البحر الروح

الأرض / الأشجار

ها عمر قوما

ساروا نحو نجوم المدن الكبرى

حور / عطش

يستقصون الخير الباس والماء الأسن والنار

ها عمر عند حلود المدن الكبرى محنير القنات

متكسرو الهبات

ومشعلون بأسمهم الرقة لا تكسومهم

إلا الأطمار

ها عمر لحانهم / كي نجدهم

عن أسوار المدن الكبرى

نحو نجوم المدن الكبرى

خيالة حيل التل

ها عمر يخطعون هناك

مثل الأخشاب للتفجيرة خلف الأسوار

ها عمر يتطفون هناك



عند حلول الفجر الأزرق مثل الأنجر
كم يبدل عن آخر أسوار البقو الرحل
في هذا العصر سار^{٣١}

أما نص «تحويلات الخيل الزين» في ديوان «الغناء في صحراء الألف» الذي قدم له الشاعر بشوالة: «إلى حيلي، خروبي الضارب السوداء» ففيه تصوير قريب أشبه بالمسيرة الذاتية المضمرة لتناول التغيرات التي مسّت حياة أبناء الولاية إبان الخمسينيات والستينيات والتغيرات من القرن العشرين. مقبورات مفاجئة وكاسعة نقلتهم من دعة الصحراء وشطونها إلى مدينة النفط والحد:

١- الخمسينيات

أذكر في أعراس البدو الرحل نحر الشجر النلي عبر الأك
وسيط الشمس ترحنا بقايا تلك الأسماك
أذكر إذ أوطأ في دغني
وهذا الذكرى في الليال
وجها بدويا مخروفا، ضياء كسود السلال
يركض خلف الأيل العطش

يحتر أرا وصية بعد الألف^{٣٢}

هذا الوجه البدوي ذو وجه «الخيال الذي».. المثل هكذا كانوا يسمون حواء في ليل الصحراء، حين كان ابن الصحراء في تلك الفترة، ولكن ما إن يأتي عند الستينيات حتى:

لحي سنون المحل المرعب
وجبي الغر المتآكل
بجهد إيل البدو الرحل
يحتر عبر المدن الكبرى^{٣٣}

وهكذا بعد «الخيال الزين» نفسه «محتشوا» ضمن أسوار شركة النفط بعد المحل الذي أصاب حياته في الصحراء. وما إن يأتي عند الستينيات حتى تغير مدينة النفط ملامح «الخيال الزين» فيستعصي التعريف عليه، ولا يبقى من ملامحه القديمة غير صدى حدائه الذي كان يخلقه إبان الخمسينيات:

«وخذا وسامه حال
وروت على أمر وعال^{٣٤}

وهكذا يتزامن سقوط الصحراء مع نهوض المدينة، التي التفتت، بالنسبة إلى الشاعر، صورة المارد العذبي الذي يطوي على التوحش والقسوة، فيتخاضل أمانه

الإنسان ويشهد عطفاته وزعمه القديمين، ويبدو «قليلًا بلا حواله» أو «حطلة مقطوعة الجذور» - ولا يملك حينها - وهو في هذا الوضع المستعصي المنكسر - غير أن يحلم «بمضارب قبيلة القارية»:

«دعوني يا رفاق الوجع للحر

أصعب من الغارين كنفه معني بلا حراك

أعيا غسلي أكف البحر البيضاء إلى مضارب قبيلي العارية

التي تعني جربها كرايات سوداء تعان عن يده لزمة الليل

لأنني بذلت أحس لنس حطلة مقطوعة الجذور ٣١٢

وكما ينكسر الإنسان البدوي أمام مدينة جائرة لا تفهم لغة دوحه وبرامته. كذلك يُذل

«الجبل» ويقضي «الكتيب» بلا عواء، ويتحولان من رمزين من رموز الكبرياء والعظوان إلى كائنين

مستعجزين حينئذ، لا قيمة لهما في ظل المدينة المزاحفة:

الجبل الذي حلقه الرعاة

في القلاة

حينها بهجور

قد قرت حاشته

كواسر الطيور

مخرج القود من عيون

وقتل حول قسه

يلور

ذئب وحيد في الغراء

يلقي على الحشائش الخضراء

بريز إلى دخان المنط

ذئب بلا مأوى

ذئب بلا غراء

ذئب أربما أقت به الرياح

إلى ساحة الطبع

ذئب بلا طبع

ذئب أربما خربأت من حسنة الصحراء ٣١٣

وكما تغتال المدينة كالكائنات الصحراء وحيواناتها، تغتال أيتها وأساتها ومرايعها وشحيلها - حين

التواء في التربع - إلى صورة أخرى مسموطة من حياة المدينة الصالحة المعادية:



هذه التبعة أعرفها ولم تضر الزمان
كانت مسعرا للحيارى / وميتا للخصم والقتلان
كانت مرتعا للأبل / إلا يخرج حليب التوب بنكهة الأرز
هذه التبعة غدت الآن
في الليل - بالرج - منية تعج بالأوز
وحينا يسيظ النهار
تخرج بالحيارى البيض والفرات الأمريكية المسح والتول
تطعمها التام الحريفة
مرحبة من "التوازين" للصبرات في الهواء ١٩٩٩

وبذلك أصبح القديسة صبرية واجبة، والصبراء ورموزها قدسنا رضا عنها وتتبع.
ويبدو أن النقلة الصريعة والمنشورات المادية التي دعت حياة الطارئين على
القديسة وضعتهم وجها لوجه مع جو شرابي فقد فيه البعض هويته وسيماءه..
وأختلطت لديه القيم والسمات التي أتى بها من الصبراء مع قيم القديسة المادية.
لذلك لم يند أمثال هؤلاء كما كانوا، وأبنا لم يمسحوا مثل أهل القديس في نافعهم
السبل مع طوائف النحضر وأدائه وأساليب الحياة.. ولعل خير من يمثل تلك
الشخصية المذبذبة المخططة ما نراه من رسم كاريكاتيري مشهور للشفقة في
لصبرية الجملة، لذلك المادي الذي تحول إلى رجل مسوخ مشوه الهوية عندما
ارتدى عباءة لا تناسبه

جمل يدخل إلى الشرايين / يرتدي خرقة الذهب
يشد السمريرة عن نوحها الزخرفات
ضجج للفتين في "البيت" لا يستتر له الرخاء
ينزع على أول القولات
ويجز حزمة شوي رخا بذال الحريف
بعد الفود التي استرت في السمر
فما كما حريق بل بغير اليد
نحر من مئة الشيل والخط "الزرفلات"
نباقة حة "السكتون" ويصفي إلى الماز مندهلا / بالقاء العنيف
جاء رحلان من "السيكيري" أعداء إلى القبر
وقا في ملاحة جيد / لودعه إلى آخر الليل / في غرفة الانتظار
بعد يوم / الحبيب ما يشبه الأتار / يصفى بديه

يخجل أن الحداة المتهين قالوا له
 "أكرهين بأفانها نخل شيل بخوفهن نسع صرخ الجلابند"
 تعاطر في كبد القبط والعبط والكدر عبر القفار
 تناول باقة ورد ودلوا من الماء / راح يمزج فيها مع الكافور
 غلال بالشعر وجه البعير
 نبض أن النساء يتلون فيه القصة
 إذ كن يهمن شوقا إليه استنار
 فأرعى وأردأ حطر كاسين طر ٣٧

هذه الوثائق المسوخة في نيكمها - على شموخ بنهار وعشوان يتهاوى ويتحول إلى مسخ -
 تكاد تحاذي في فصاحتها ما يراء الشاعر من حضور للمعارف الصارخة في مفردات حياته
 غلب عليها التفريب والوان الكونشال والتناقضات المزعجة . إنه لا يملك إزاء هذه المشاهد غير
 أن يتأمل ويتهم ويتطوي على رفضه والمترابه:

خلا بك نكين مع سنانور دالي وهو ينخط
 على فرشاة الرسم ليشرح سبب الأوان
 والرسم ماسر لابل العنابر المصطرة على المقل
 خلا بك عطلين من شدة الفناء على منكركم
 وهو ينحدث عن القصة المأسرة كالكلمة طيبة فاحت
 خلا بك ضحعين من خلف حجاب السرة فلو سارتر
 وهو يتولى إحياء فنانا "سبح الوجه" ٣٨

ويبدو أن المصائب الشاعر إزاء هذه المشاهد المسوخة التي تعاصره وتثير مسخه ورفضه
 كان مدعاة لسقوطه بين حين وآخر هي هذه التوحش والفزع . لذلك تبدو بين صورة الشعرية
 الرؤى المزعجة الموحشة . وتكثر الكوابيس وصور الرعب والخواء في عالم فقد فيه الإنسان
 وسادت آلة الدمار والقسوة والتهم والتكوت:

الباقه الإلهة عرخت لموجة من اليراثيوم المشع / فأصبحت وحيدة الحلة
 دخلت مجال الفيز النفاذ فاخترفت عظامها الأشعة السينية
 غرات الهيكل عظمي من فولاذ وكثمة من الأسلاك والأضواء يدور في فضاءها
 دمر ملون أبعاد وفترات الهوة / نحيه الشيخ والقيصور
 والمحطات والنداء وأحاديث السينة
 الباقه الإلهة ولجت رعاء مذبحتها بنطح القوار
 وحللت في دماء اللعان الفنية / غنت لها أوبرا بكس البراء

واطلقت من جوفها / لوحنة بنية
عابر الحبيب أسوداً / يسير في ضروبها الشفاعة الزرقاء
ويخرج الغارقات من مسلماتها / ونبضة طائر أعلى مسلماتها / واطلقت سحابة كروية وكانت الشافة /
في حذر الإطاعة / وصحوة الإطاعة
باركة لجنر / غاية ذرية¹³

أما نص «وليمة الكارثة»¹⁴ فهو صورة من صور النزاع الأكبر، فيه تتزاحم الأسلحة
الجبروتية مع لبيب الغارات وتظهر لون الصحراء، والأحطال المزوطين اللاعين بالمقارب الميتة،
وكروات النار، والسحالي التي تزدلي كعجبال، والأفعار المكسورة الهاربة من عصاف التبراز...
إلخ. ويكاد «التوحيش من الزمن القاسد» يشرق الشاعر في الكواكبس والبرؤى المرعبة التي تهدد
كلها بسوء المال والتمزيق والانحدار الأثني:

ورأيت اللبلة يا لبي خيلاً يرفوس منظره
ورأيت امرأة فوق البريق مرفوعة
عطف ياسي / حارية يغسلها الدم
ورأيت غيوماً تركض فوق مضاربها غاية اللون
ترش رحال قبيلتنا عباء النار وروح السر
ورأيتك يا لبي مشجوعة / غريق الهلاك في الخطى
وتشبه فنان البحر
ورأيت غرباً كبر الليل / بعن حولي
ويصور كثيراً حول الحيفة يتعاقلي / يهب عطلي
ويطير بعيداً يتركني
القرع فوق الرمل الأسود / أخذ عطلي¹⁵

ولمّا هذا العالم الشهاوي الذي لم يعد يملك أن يهبره أو يعيد إليه برامته الضفודה، ينف
الشاعر مرتعداً وعباً، يحاول أحياناً أن يواجه الغربة الطاحنة «بالتعدي الخطوي على الصلاة،
والتمسك، بالبدن» في «زمن صعب، يتطلب منه أن يكون «ضارباً من وحوال الجبال» و«صاحباً
مثل ربح» و«منتجاً مثل حقل قمح» و«صاحباً كالحصان الذي لم تكن أسرته الفيلة»...
وأحياناً أخرى يتكبد الشد اللاذع للأوصاف المقلوبة والتشويه، ويدين الواقع المستعزي القاسد
في «الزمن الرديء» الذي انعكست فيه القيم وتقهقر الخير وتنامى الفساد والظلمة¹⁶، وإلى
جانب التعدي والنقد اللذين قد لا يكونان مجديين مع عالم بهذا الزخم من المشاكل
واللامبالاة، تبقى نافذة الحلم مشجوعة، ويبقى البحث عن النص الغريبة الشائنة عن طريق
التشبث بالحلم و«مدن مثل عناقيد الضوء على الشاطئ تومر»:

إنها يا رجل البر الجاهل فزحلتها من
بالعشب هناك ينسوي شوق الحدران
وبها ماء الفضة الضحاحة بزجاج يشبه "عين الحباب"
وسنني القلبي بالحرارة^(١)

ولعل من ضمن أغاني الأحلام التي تهذي الروح وتلبس روح الشاعر التسنو حشة يبرز حلم
الصعراء مرة أخرى الصعراء الغريبة المندثرة التي لم يزل منها غير الحنين إلى مفرداتها
وروحها وبراعتها وقهرها الهارب، لذلك تقود الصعراء، الحلم الموشل الأخير الشاعر يبحث عن
أمنه وهجته وروحه، فيصعد تلك الرؤى العذبة ينسجها في لوحات وهمية كخاروب ورماد على
مشارف القصور والجراس زهر كفنن، وحفول الونية، وحملان للفقو، وقضاء رواية، حتى
يشمل بالأتنين الأتني.

والشاعر إذ يقطع هذه المسافة غاربا ومرتحلا عن مدينة ممسوخة وقاسية، حالها بروج واحدة
صعراوية تحلو على اختراجه، فإنه في رحلة خلاصه هذه لا يفي بتشتيت بضائع عطاء أخرى
مشكلة بالصدقاء ورجال يكتسب للشاعر فيما عليا أو شيوخا، فيمجدهم ويستمدهم
ويطفي في ظلمهم وحاله، فإلى «حمار الله الحميد» يشد نحائب حروقه ويسوح قاطعا القهاري
رغبة في الوصول إلى منبع «القطاء أو الأمن والأرتواء الروحي الذي يمتلكه هذا الصديق
وأحزان عشيقته البرية إذ بعد قطع الطريق الذي تصور أو مثاقفه سباحة وانطلاقا نحو الأسس
والأجمل، تد الرحلة وتكتسب منها «الروحي» القاء حبيب محمد الحويهي، فهو «القطاة
التي ماحتها الرياح» والتي تنقب إليها القوافل من وطاء الشمس.. وأما باقي الأصقاء الذين
بمجدهم ويستمدون عضولهم فهم «حياء البراري الأسيلة» التي «لم تحمهم في أي إسبل»
ولم تكن أعراقها للرياح.. وواحد منهم ضائع باتجاه السماء، «دعاب أعراقه الروح» ويمارس
أبوس صيل.

ثانياً: إبراهيم الخالدي

١- هو أجمع المرحل والمطر على أنها

ملامح الرغوة في الصفر والفرحان والظروج من دائرة الرثابة والتكرار والثبات، تظهر بدا
عند الخالدي في نص «هيما يتعلق بطائر طنجة»^(٢).

ففي «القطار» تكمن فكرة الرحيل والبحث عن الحركة التغييرية والاكتشاف عن طريق
«الصفر» والانتقال، و«طنجة» تدو تلك الغاية البعيدة الغريبة التي تسعى للوصول إليها الأسباب
وعدة التهيؤ. ولكن اتخذ الأسباب (القطار) والتهيؤ للرحلة، قد لا يخلص من وطاء الإحساس
برثابة الزمن وبلائته. ووحشة الوقت (التي تكرسها حركة القطار الرثابة لليلة). لذلك لا مفر

من الاستغراق في تأمل الطواء والأجساد، ويُعدّ الفكرة، ومحاولة تجاوز الإحساس بالتثبات (في مستوى النفس)، على رغم حركة «القطار» - الرحلة بالهواء - إلى الميت والكهو الفارع من المعنى مع نساء وحيوانات عابرات.

ويتأكد منحنى السفر والترحل ويتخذ بعده الروحي متسماً يلمح النضال والشفقة والمكابد في نص «الأقسام بين المدينة والشاطئ»¹¹¹. فهناك حديث عن «المسافة» وبعدها الزمني والمكاني وهناك حديث عن ثمن الترحل القابع الذي يتضح في فقدان مسرات الحب والدفء ودمعة الاستنقار، ثم هناك انشغال مفروض بمهام الكفاح الذي يكسب الرحلة قداستها وبعدها الروحي حين «يتمتع المرحّل حين الثراء» وحين يستكمل الاستعداد للتجاوز أنها على «سهولة البرق». أما الغاية فهي «الشام» بما فيها من ثقل تاريخي وثقافي وعنارات إنسانية ونفسانية تتمثل بأبعاد الأموريين. وهي غاية تستحق أن يجمع الشاعر وجهه تجاهها وينطلق من أجلها للمسافة، ويا لها من غاية تقري بالمكاسب والمغانم.

ويتخذ حتم الترحال طابعة شعرية غنية حين يأتي وديقا للطيران، ومشروعاً للخروج من جاذبية الأرض و«ضيق الرمل» و«ربقة عبوديته». فهي نص «ما شأه الفهم لعباس بن هرناس» لشارت دالة على هاجس الطموح والأرياء واكتشاف أفق بكر بالطيران نحو «علم يقيق على صبح وارث بالشمس» وعلى رغم وجود التحذيرات والموائق والنار الذي «تطيق الصحراء شعلته» والتمرس بالمخاطر والطارئين عند النهاية الأرضية وجاذبية الثبات والركون. فإن إغراء الرياح والفهم والرغبة في التخلص من «أروى الأرض» يتسلط. ويدهش الشاعر لتبعث عن التفتاء المطلق والتعطف:

فروا كي أسبون
ورائي حائل مني
وثر نهر الصحراء شعلته
وأي للرياح
بما دلى من عظامي
كي يصير الفهم أغنية
وطني الرب
ينسجني شيا¹¹²

ومن الفهم يرابط المحلق عائله الذي تجاوزه بالجنح ولم يتجاوزه بالرؤية، إذ ظلت صور عائله الأرضي تستفز الذكري وتلاشه نحو غيمه، تتثبت به وتعلق بريشاته «د بهير نحوهم» وجهه التذمّم الطلق، مدرسته، بيته، أمه، جدته، وإن كان عباس بن هرناس¹¹³ في النهاية يسطط بعد أن ذاب شمع جناحيه إلى الأرض مرة أخرى، ولم يبق له غير مجد المحاولة. كذلك

يتجسّن الشاعر استحضالة «الهجرة» عن ذكرياته ومنطلقاته، عائلته وقبوره الحميلة والكريمة، فيأخذها معه محاولاً تعليمها فضيلة الطيران وروعة الضم.

ويطلق الانطلاق والعودة أو الإقدام والإحجام قطبين واضحين في شعر إبراهيم الخليلي. الانطلاق بذنبه التوق ورفض الواقع المظلم مكاناً وزماناً، والعودة تحسره نحوها حبيبات الأمل والعشرات منكراها. هذا الإحساس بالندوب والشرخ بين طرفين يبدو جلياً في اختيار الشاعر «عبد من» حيث جاءه عنواناً لدهوانه الثاني. وقد وعت هذه العبارة في مطلع نص «الغنى الهاشمي» الذي تصور التجربة الشعرية فيه حول حبة أمل «الغنى الهاشمي» وعودته خلوي الوفاة بعد تاريخ فضائي، حامل بالوفاة والأمجاد:

عاز من حيث جاء

الغنى الهاشمي التي الرداء

كان في مصر والشام والتهوران

وكان إلهما بنصر الخليفة حيناً

وسجن الخليفة حيناً

وفي معصية بلاء يورس حين

وفي قلعة حين لكرب البلاء

جار في الأرض

حتى لقط من سيرة الهاشمي

وإرضى غيبة لا تحون هزلها

وطنا في السجون الحرة¹⁷



و«الغنى الهاشمي» مسمم يختاره الشاعر ليدل على شخصية تراثية ما - وعدم تحديد هذا السمس يعطيه سمة الاتساع والشمول؛ لينظم كل أولئك الناصقين في التاريخ من أصحاب المواقف الثلاثة للظفر، الذين يشهرون إعجاب الشاعر بتعلمهم وورعهم في تغيير وإفهم المبادئ. وقد بدت صورة «الغنى الهاشمي» من خلال عين الشاعر حاضرة لما يحبه هي الشخصية المثيرة المشاكلة فوق الترويح والاستقرار. فهو في النظم الأول ممن يتحدون ثبات المكان وحيثه بالترحل والتجوال. فقد كان في مصر والشام والتهوران. وهو أيضاً ممن يعاجلون ويخاسمون ويشهرون الزواجر. إذ كان إلهماً «بنصر الخليفة حيناً، وسجن الخليفة حيناً». وهو ثالثاً ممن يداهمون عن مبادئ قوة الوقت والصفى. ولكن كل هذا التوقف والتجموع ينتهي بالغنى الهاشمي إلى الترويح إلى البقاء وشرائع الطوق في نهاية المطاف. فقد «جاء من حيث جاء». والشاعر إذ يتوحد مع الغنى الهاشمي، الذي يحلمه من التضاؤل والألم والمناخية، يرى في نفسه شيئاً به أيضاً في عودته إلى الوحدة والفردية ووحدة الروح بعد انقضاء الرحلة.

جاء من حيث جاء

القبي الهندي النقي الرضاء

ولما منه

- إن شئت صدق الحديث -

لنا بعده

أعظم الدرس عن ظهر قلب

أسكن العرب بين الملوك

أصطفى من أبناء وما لشعبي

لي من الأرض وما خوي

وفي الشاعرات

شيع غلول في

وفي البلاط، وكما عرفت، وساد البلاط

وما عرفت، هي، لم تعثر

وجدت وحيداً إلى الصلبي

بارد دمعه، تسكت، رب حزن فدا

فيه من شفرة البرد ما لا يخطر بباله

٢- الاستعداد والفنون التراثية

إن الاستعداد بالفنون التراثية في شعر إبراهيم الخالدي يأتي بعد فهم مسورة وحته المطلقة إلى الأمام. فالرموز التراثية المختارة من الأعلام هي شعرة هي تلك التعدية لتقاليد عصرها، والمتبادلة مع الثابت من القيم والممارسات والموسومة بالاختلاف والخروج عن القوالب والمعاد، وموز لها بعد المحاولة أو الرفض أو التمرد. وقد سبق الحديث في سياق النصوع عن شخصية عباس بن فرناس والقبي الهندي، وعن أماكن ومواقع لها ثقلها التاريخي والتراثي مثل طنجة، الشام، المدينة، مصر، النهران، وهي أماكن تبيات فيها الأسباب لتكون مسرحاً للأحداث والتغيرات، وموطناً لصناع التاريخ.

من بين الرموز التراثية ذات الارتباط النفسي العميق بقلب إبراهيم الخالدي، يأتي طريقة بن العبد الشاعر الجاهلي صاحب اللقطة الشهيرة^{١٣}. فقد أعاد الشاعر ديوانه، عاد من حيث جاء، يختلف إلى ذلك ما عرفت عنه من تسمية عموده الصحافي في إحدى المصنف المحلية بـ «برقة شهيد». وطرفة بن العبد يبدو من خلال تقدير الشاعر شامخاً ومتجسداً واليقا، فهو مثير الأسئلة الوجودية الكبرى، الرافض في اكتشاف عالمه بعيداً عن تصورات وثيم جاعز، المتغرب عن الناس لا يرون ما يرى ولا يعتقدون ما يعتقد، وهو أيضاً الباحث

أسفار التراث والتجديد والتجديد

عن معنى الحياة في لب الحياة ومعناها المذهب بالرفقة ولذا التجديد، المتاح في ذاته الحاضرة الشاحصة في زمنها المتاح لها، لتتطرق وتتحلل فيه، من دون التفتت بالفتب والمكن، لقد حوت فلسفة طريقة الوجودية الانكسار أمام جبروت الزمن وحقبة المصيرورة وانقرض الإنسان أمام مأساوية مصيره إلى طاقة ديناميكية تستكشف الذات وتثبت في سبيل صقل مبدعها للتوحيق والتشح، إن الخوف الرائد من القضاء والموت يتحول عند طريقة إلى مشروع بهجة واحتفال بالحياة واحتفاء بنميتها ومبايعتها، واقتزة فوق الجهادة والركون والاستسلام، إنه يرى الجانب الآخر القاهر من سفح الحياة وينطلق نحوه وحيدا متفردا إلا من اختلافه وجلوحيته⁽¹⁾.

وإن يرى إبراهيم الخالدي هذا الكون الطامع بالتجديد والتمرد لدى طريقة بن العبد فإنه لا يتوانى عن إلقاء عصا زجاجه في «برقة تهمد» موقل الحب والحنين وسكن القلب الضنى والروح الثائرة المرتحلة في سفارة الحياة، إن «برقة تهمد» التي طبعها طريقة هي مشجعتة الطفلية، التحول لدى الخالدي من مكان محدد بزمنه ومفرداته ومعتقداته المكانية إلى رمز متجسر بالإحياءات، لقد غدت «برقة تهمد» رمزا للطمأنينة المتناهية، متخذة صورة «ديوتيا» ذات بعد وجداني ونفسي يلجأ إليها الفاعل من الوحشة والقرية، رمزا يتضمن معنى القبول والاحتفاء والانتفاء إلى مصدر الأتواء والحب والظل، وكلها معاني متضادة، لأنها منتهية ومتلاشية «الآن» في مستواها الوجودي، متواجدة في مستواها النفسي التخييلي، والإحساس الضمني بالقدرة والتلاشي، أصبح رمزا للفتب والتفتب، ويحتجب القوعة وقصة الانتحاب (وهذه الطفلة).

وكون الشاعر مسكونا بروح طريقة بن العبد واحتفال حولة، لا يلغي بأي حال رفيعته في الانتماء من أسر الماضي، ووجود التقليد، فما كان طريقة بالنسبة إليه إلا فكرة لطوي على الشروع بالانطلاق نحو التجديد ومخالفة الثوابت والمسلمات، ويتخذ إعلان الثبوت من دراسة الموروث تاريخيا ومنهج حياة، صورته الواضحة في نص، بالخطوط الرئيسية لكتابة التاريخ العربي، ذات التاريخ والموروث في نظري الشاعر جهد متجيز ومنته، وأمجاده من حل صليبيه، والإنسان المعاصر لا يمتلك هذا التاريخ ولم يسلم فيه، وإنما يكتب باستلهامه واستشراقه والاستهداء بمروره الضمنية في رحلة البحث عن ذاته الممتدة، التي لا بد من أن تسبح لنفسها إنجازا بطبعها وتاريخا آخر يجعل بصمتها وملامح نصيرها، وتحطيقا لهذا الهدأ يعن الشاعر في نفسه رغبته في الانتماء من أسر الماضي وثقله، مبدعيا بالترجل عن صورة القصيدة التقليدية بميراثها التثليل والتفاديعا العرفية، متمثلة في المطلقات:

«ماكل، ماكل، ماكل

أن للشعر أن يترجل عن صورة السطر شيئا

فتبين، ويهدي الحروف إلى صوغها

علمها

أنتج الآن كل القوافل مستوحاة من دمي

قطرة نظرة

شر أستودع الرمل أحسبني

أحسبني قرب أسلاني الغالرين نيد الباع

ذاك طرفه يبنى لمرة لئلا لها، وأسر كفة

بشهي طيلة نند عابن يهدي بها، قال

للأمر يوم سيأتي والمطر سيف يحد

ملا تشغلوني بما كان قبل وما هو أت

فأعلن. فأعلن. وأعلن. ٣٣

وبذلك ينضو الخالدي عن شاعريته وثابة العروض في شكله التقليدي وتأثير تجارب طرفة وارثن القيس في حدودها الكنائية والزمانية، ثم يتطرق مستشفةً بأبجاز مركز التاريخ العربي الإسلامي في فتراته الحاسمة: بناء الكعبة، الفتح الجديد، الفتوح الإسلامية، الخيانات والصراعات السياسية، فتنة صفين، وموقعة الجمل، فساد العصر العباسي، وبين كل مرحلة وأخرى من صرخته لهذا التاريخ يهتف بالشاعر صبيحته المحتجة على التشبث والخنوع الاستعراضي لقيوده ومقاييسه الكافرة: فاقطن. فاقطن. فاقطن.

إن الخالدي إذ يفعل ويستوجب كامل التاريخ العربي الإسلامي بكل أحداثه، ويتشرب هذا التراث بكل زعمه، ثم لديه العزيمة على «التراجع» عن صهوة هذا التاريخ، الذي لم يعد يمتلكه أو يعيشه بحكم دورة الزمن وتبدل الأحوال. بل إن الأمر الذي يدعو إلى التلق هو أن محاولة «امتطاء» صهوة التاريخ، غدت محاولة موزلة وجارحة، لأنها تهبط الإنسان العربي المعاصر حياته وذلك الفاعلة، وتقوده إلى الوهم والاضلال:

«إن الشعر أن يترجك عن صهوة السطر شيئاً

فتبينه ويخرق (ردية الحلقاء المفلوكة) ويخبر عن

غلاهم والجوارح الحسن الزواني ينامن أصناماً

نند لك سنة.

أن المخرج أن يسرج

وهصر المخرج

عالي غيا

كما السوسة

علينا وعلى عجل
أخلق الآن كل المظهر مسترعا من دمي
ظرا ظرا
أن المخرج أن يشرح
ويصور المخرج
على وضع يغلي
ويظهر على فحة دائرية
وأي أرى في للدي
طائرا السرجا
طائرا السرجا

وإذا ينبغي التمس بإعلان أن استعادة التاريخ غير ممكنة وتظهر بالويل فإنه أيضا يعبر عن
يقين الشاعر بأن الإنسان يحقق ذاته وتميزه بالتحالف مع التاريخ نحو الأثني. وليس بالارتداد
إلى التواء وركونه إلى أمجاد القديسين.

ثالثاً: مفهوم الزمن عند الفيلسوف الألماني

هذه المحاولة في الارتباطات بين الفيلسوف وإبراهيم الخالدي
الشعرية. يقوم التعامل إلى رؤية مبدئية ما يشككه «عنصر الزمن» من
الجمية وحضور الفاعل في صياغة تلك المفاهيم والرؤى حول مسألة
«التحول والهجرة» لدى الشاعرين. بل إن اندماجات التحول والسفر والتأقلم لا يمكن لها أن
تكتسب أبعادها بمعزل عن تصور واضح لعنصر الزمن. وتعامل واضح مع معطياته. ولعل فهم آلية
الزمن وأسلوب التعامل معها هي الموضوع المطروح في ورقة البحث يعين على تكوين محصلة
نهائية تستشرف رؤى الشاعرين ومواقفهما الشعرية.

يتعامل كل من سليمان الفيلسوف وإبراهيم الخالدي مع «عنصر الزمن» على ثلاثة مستويات.
أولها: الزمن الحضاري، الذي يرمز بالتسمية إلى الفيلسوف زعنا فلسفياً معادياً. يستحق الإنسان
ويبحثه كرامته وعضوانه. وهذه المسودة تتجلى لديه في هجوم المدينة ووجوهها البارزانية
الطبيعية، وخفوت ملامح الإنسان في مظاهرها. وتتجلى الخيبة أيضاً - من جهة أخرى - في
اندثار الصعراء ونلاشي التواء ونشأة البداوة. وهو أيضاً زمن غير منصف يرفض البعض
ويرفض آخرين. زمن مرعب تحكمه صور التلوث وكوابيس الوحشة والقرية.

وإذاً هذا الحضور الطاقم لزمن يسميه الشاعر «الزمن الصعب» و«الزمن الرديء» لتعدد
وجوه التعامل معه. فهناك وجه ينعكس فيه الألم والانتكاس. وآخر يشي بالمسخرية والتحكم.
وثالث ينجح إلى تحدي الجهامة والقسوة ومناعزتهما.

وتكاد رؤية الخالدي «الزمن الحاضر» تشابه رؤية الفيلسوف في بعض وجوهرها، فهو أيضا يراء زمانا متغيرا، رغوا، محايلا لا يثير المشقة. وعياده يدعو أحيانا إلى البساطة والركون والخبور، وأحيانا يدفع إلى تحدي وقايتة بالخروج عن نمطية وموتاه. ويشترك الشاعران في الجنوح - في نهاية المطاف - إلى هجر «الزمن الحاضر» والخروج عن مفاهيمه وحضارته بالسفر والترحال نحو الغد والآتي، وهذا الخروج النافر يتخذ في البدء سمة التفتد والرفض القنين يقودان إلى الرغبة في التفكك من أسر «الزمن الحاضر» والانطلاق وراء حلم الرحلة والهجرة إلى أزمانه أخرى.

أما ثانيها، (زمن الماضي)، فيلتسم في تصور الشاعرين إلى، أولا، زمن مُتَنه ومنجز، وهذا الزمن يستدعي التمرد عليه والتخلص منه والتخفيف من قلته، وإصرار الإنسان على معابضه بقود إلى العسر والشقاء، ثانيا، زمن ضائع، وهو الذي تملكه الفترات التراثية الضيعة متعلقة في الأشخاص أو المدن أو الطواهر الإنسانية. وهذه الفترات التراثية لم تكتسب حل البقاء ومشروعية الاستهداء بها إلا لكونها تمللا خارج زمن مفروض بأعرافه وتقاليده وقبته، (التي قد لا تكون مشبعة كما هي حالة الصماليات، أو لا تكون مستدامة كما هي حالة طرفة بن العبد أو تقتلر إلى الجحوج والخائف كما هي حالة عباس بن فرناس والفني الهاشمي). هذا الزمن الماعل يملكه الشاعران ويشخصان نحو زخمه وضفوفه، لأنه حركة القذائف خارج دائرة الثبات والركون، حركة مدعوية بالرفض والرفضية في التجاوز. ولذلك يحبط الشاعران رجاءهما في رجاء «الزمن الماعل الماعل»، الموسوم بالمتطلع وحركة التفجير، يستهديانه في لحظة «زمنهما الحاضر» ليحرك ركوده أو يخفي على وجوهه العلوية بعض الألق. إلى الرجعية التراثية كمبررات إنساني تبدو، هي هذا الموقف، ضرورة وجدانية وفكرية تغذي طموح الإنسان المعاصر، وتربطه بجذور وأمنه يستمد منها الأمن والثبات والهوية، وكلها ممان يفتاح إليها وقودا لاتطلاقته نحو تحقيق ذات مميزة تحسن التعامل مع تحديات عصرها ومواقية إشكالاته ومستجداته.

هذه الأطلاقة حرة بأن تثلل الشاعرين نحو التعامل مع «الزمن الآتي»، (ثالثا) الذي يثير في نفسيهما رغبة السفر والترحال وهجرة واقعهما الزماني والكانني، وهذا التعامل مع «الزمن الآتي» يتخذ شكل الاستشراف والرؤية الموسومين بالمتطلع والأرياء، والكشف عن أفاق وروى يلتدنها الحاضر المتغير.

تأليف: معاصرة البناء وبناء المعاصرة

معاصرة البناء من الواجهة المعاصرة

د. سمير شريف استيتية (*)

ملخص

لنصرّ الذين المناصوة طريق في الشعر لا يكاد يوجد منها؛ فقد التزموا أكثر من ثلاثين سنة، بطق منها الأخير الوضاعة، وجمعها إظهار جميل أعماله. إنه في الأعمّ الأعمّ يحسّر وجوه الشعب الفلسطيني، وجه الأبداء وجه الملائكة.

أما الوجه الأول وجه الآباء، فقد سميت في هذه التراسة «عسان الزيتون» وهو العسان الذي شاركه طروسة مدة من الزمن، ثم عاد إليه، على الرغم من التشرد والضياع... إنه العسان الذي من أرض الزيتون منته... الزيتون الذي يشير إلى العيمومة، الدوام طفرته. الزيتون الذي يمثل الثبات في الأرض، والعيمومة عليها... الزيتون الذي يمثل العطاء من دون أن تكون له شيوخة تحسبه. بل إنه كلما كبر زاد عطائه... الزيتون الذي يخفي قصة الانتفاء إلى الأرض، ماضية وحاضرا ومستقبلا، منذ كنعان الجد، إلى كنعان الحفيد، هو فيها ماض وحاضر ومستقبل.

أما الوجه الثاني فهو الذي سميت «عسان السراب» السراب الذي كان بعد الخروج من الأرض فحرق بعض الناس خلفه، فطردوا بابا للخروج من «البحر الهبة» فساروا وراءه يطلبونه، كلما دنا منه نأى عنهم وانتأى، وإذا ارتدوا عنه وعلود وراءهم ظهريا، واحيد مرة أخرى، فلا هم نجوا من ضلال إذا يعموا وجوههم شطره، ولا هو تركهم إذا جعلوه خلفهم ظهريا... «عسان الزيتون» وحده لم يضل الشعب الفلسطيني؛ لأنه كان لهم الوجه: ولأنه كان لا يخبو إذا جعلته الأبداء والأعطاه يكيو.

(*) د. سمير شريف استيتية - جامعة بيرزات - المنطقة الأردنية الشمالية.

تأليف: د. محمد عبد الله، د. محمد عبد الله، د. محمد عبد الله

لقد مثل شعر عز الدين المناصرة هذين الوجهين في حياة الكفاح الفلسطيني تمثيلاً جليلاً؛ لأن الشاعر عاشروا أحداً لهما - وشرب من الكأس التي شربها لهذا الشعب أن يشربها حتى الشفالة. ولقد عرفته أيام الطلب والدراسة فكان هو التلميذ الفلسطيني الذي تجرد على لسان كل من يحب الشعر الفلسطيني. عرفته في أواسط الستينيات من القرن العشرين، وما زال، كما عرفته، كالزيتون مطاء وخضراء وكعنب الخليل نصارة وحلاوة.

يهدف هذا البحث إلى رسم معالم هذين الوجهين في شعر المناصرة وكيف جعل الشاعر من كل منهما فناً، في بناء هني من اللغة والتمثيل. وقد جاء عنوان البحث دالاً على مضمون هذه الدراسة لتحليل مضامين البناء، وبناء المضامين في شعر عز الدين المناصرة.

البحث الأول: مضامين البناء

يصور شعر عز الدين المناصرة في محورين كبيرين هما: الوجود الفلسطيني، ورحلة المسافر. التي كان سببها المذاب والمغش في الشدائد، وقد جعلت كل محور من المحورين في مطلب، سميت أولهما: حصان الزيتون، وسميت الثاني: رحلة المسافر. وهي ما يأتي بيان ذلك مفصلاً.

البحث الأول: حصان الزيتون

وصفت الحصان الفلسطيني بأنه (جسم الزيتون) كشفاً لروح الزيتون في شعر المناصرة، ومن ذلك قوله:

إن جسمي أحد عبر الزيتون
شجر كنعان لمي بحبيبي
من طهر الأيام الصعبة
أضطر لحضر
كل شجاعة حبلًا كالزيتون

إن القوس في اتصال المناصرة بين من وجود عوامل في الوجود الفلسطيني، تجعله غير قابل للثبات، على الرغم مما بذله الصهاينة، وقوى الاستكبار العالمي، لتفريغ الأرض من أهلها، وتفريغ القصر الفلسطيني من تماسك حروفه الفلسطينية، وتفريغ أجنية الوجود من الشعب الفلسطيني بأسره.

عز الدين المناصرة لا يذكر عوامل بناء الشعب الفلسطيني فقط، ولكنه - بالإضافة إلى ذلك - يجعلها فناً دائماً بذاته، يعبر عنه شعراً: أي أنه يعبر عن الفن بالفن. هذه العوامل هي: التشبث بالبقاء، والأمل، وبنظرة الوعي، والرفض، والتحدى، والقواجهة. وهذا بيان ذلك، مفصلاً:

١- في القلوب واليد

التشبيث باليداء شيء، وعن التشبيث به شيء آخر - المتألمة حروص على أن يصنف التشبيث التشبيثي باليداء - وكانت يمارس هذا من القنون - وهو يتمصك بيدائه - وتشبيث بوجوده - إنه لا يمارس التشبيث بوجوده مجرد ممارسة - كما يفعل سائر الناس - عندما يصدق بهم خطر معتق - إنه يثق في ذلك - انظر في قول الشاعر:

تحتلظ الظلمة باليد
في هذا الوطن المصور
مع هذا يا حبة عيني
قلبك مسجون في السور

فالتصمك بالهوية (وهي التي عبر عنها الشاعر بقوله: قلبك) الكبر حتى من المحيط الذي يحيط بالناس - والواقع الذي يعيشونه - كيف يكون التصمك بالهوية؟ ليس عندما يحل الظلام - ولكن عندما تحتلظ الظلمة باليد - فلا يعود الناس يفرقون بين خطأ وصواب - ولا بين حق وباطل - ولا بين عدل وظلم - ولا بين مقبول ومرفوض - إنها الحالة التي لا يكون فيها التشبيث بالهوية مطلباً عند الآخرين - إنها الحالة التي يكون مطلب الإنسان فيها - عادة - أن يخلص برأيه - عندما يتمصك الإنسان بالهوية - وتشبيث بها - ويحال من حوله على نحو ما وصفناه - يكون التصمك بالهوية وتشبيث بها فنا صغرياً - لا يستطيع الآخرون أن يزدوا -

ويكون التصمك بالهوية هنا كذلك - عندما يحرك الإنسان من أجل الهوية - في الوقت الذي يكون الناس فيه محصورين - في مثل هذا السور - تشبيث التشبيثي بهويته وبوجوده -

يشير الشاعر بعد ذلك أن قلب الأرض محصور في السور - هذا التعبير فيه ما يشبه قلباً لبعض التصورات الأولية - فالأرض هي التي تكون في القلب - وليس قلبها هو الذي يكون محصوراً في السور - وما ذهب الشاعر إلى ذلك - إلا لأن ذلك يعطين المعاني الأتية:

أولاً: إن السور فاصل - ولكنه في الوقت نفسه مانع عن العبور - ولذا قرر الشاعر أن قلب الأرض محصور في السور - كان معنى ذلك بالضرورة - أنها هي الفاصل بين الوجود وعدم الوجود - بين البقاء وعدمه - وهي في الوقت نفسه الوافي والحافظ لهذا الوجود -

ثانياً: إن الناس يرون هذا الاسم محصوراً كما مرأ بالسور أو راو - وهذا يعني أن ضيق الأرض لم يضحج الانتفاء إنما والاعتزاز بها -

ثالثاً: إن حفر اسم الأرض على السور يعني بقاء السور - فلا تغيره الأيام - ولا نزله -

وأخيراً: إن السور يشير إلى التاريخ - فقد كانت كل مدينة تحيط نفسها بأسوارها في التاريخ - وما زال التاريخ ناطقاً على أسوار القدس - شاهداً على بشائها - على الرقيم من حقائق الزمان وعمايات الدهر - وكان الشاعر يريد أن يشير أن هذه الهوية قضية التاريخ طويل - لا يزول باحتلال المحتل -

أولاً: عناصر البيت، وبنو البيت، الشاعر من البيت الشعري

إنّ، فالمسألة ليست مسألة بناء فقط، ولكنها صوب من التشاؤم في التشييد بهذا البناء. وهي ليست مسألة انشاء فقط، ولكنها صوب من التشاؤم في الحفاظ على ذلك الانشاء.

والبناء والانشاء أمران واضحان في معظم أعمال العراقيين المعاصرين، ومن ذلك قوله:

ما زال - ما اتفق - ما برج

ما زال كنعان في القلعة القديمة تحت أنقاض البيوت

بلعبته البيضاء

سبعة الرائي عائد من البيع بعد غروب الشمس

سبعة ينصر العلوذ في حقل الدمر

سبعة في حق الرائي، يعني لشجرة البوملي

كل حبة - مشرب إلى الأعلى

رأيه الرائي من سحرها الدور المسرفة

يتشكج كالبطريق مستنداً على حفرع شمر

رأيه بلر من ضربه المثل في التري

فرسه حياية الزمن وسرته زرقاء

لكن يستهفئ المرح من بومه في سخرة الضياء

يعرض الشاعر هنا حيلة من التقنيات التي يجب عليها في صوب واحد، هو التشييد بالبناء. لقد

استعمل الشاعر العنقا على طر البناء، ما زال - ما اتفق - ما برج. وقد أي فعل منها يعني الدلالة

على الإشارة إلى التشييد بالبناء. ولكن الشاعر قدم هذه الأفعال الثلاثة ليشير إلى تصور كل وسائل

التشييد بالبناء والدلالة عليها. والأفعال الثلاثة هذه تشير إلى ما هو أكثر منها، فلما كان الفعل الواحد

متنا كالأفعال الثلاثة على التمسك بالهوية، ولما لم يكتب الشاعر بفعل واحد، كان ذلك إشارة إلى التنازع

التيح باب تصوره على كل ما يدل على التشييد بالأرض، فيجعله أولاً لتتصير عنه.

ثم جعل الشاعر كنعان في القلعة التي هي رمز الحفظ والعموم والشموع، فهو باق في هذه

القلعة محفوظاً مصوناً مشموعاً قلعة. وأما أن القلعة القديمة كما جاء في وصف الشاعر، فتلك

إشارة إلى بناء التاريخ شامخاً في الأضواء، على الرغم من التنازع الحضارات، وزوال الدول والأمم.

ذلك الزوال الذي أشار إليه الشاعر بـ تحت أنقاض البيوت، نظراً مرة أخرى في قول الشاعر

ما زال كنعان في القلعة القديمة تحت أنقاض البيوت، بلعبته البيضاء، فتعد كنعان ذا الهوية

البيضاء قلعة، على الرغم من كل دمار، وعلى الرغم من بعد الزمان والتضائل، ولعبته البيضاء

تشير إلى الصفاء والنقاء يعطون ما تشير إلى العمر.

النساء العائدات بالجرار على رؤوسهن، وقد ملأها بالكاء من التبع، سمعن كنعان ورأيه. أما

التبع الذي ملأ من الجرار، فهو إشارة إلى الأصل والهوية والانشاء. وأما رجوعهن بعد الغروب،

هناك إشارة إلى المعاصاة على الهوية في وقت حاول نظام همدان الهوية، الذي كان من الممكن أن ينفذ الناس هويتهم، لا أحد كيف جعل الشاعر كل حية يوملي وكأنها ... مشروب إلى الأعالي.

.. يعني لشجرة الرملي
كل حية .. مشرب إلى الأعالي

يشير الشاعر بذلك إلى التساق إلى الأعالي. على الرغم من كل دواعي السقوط والسبابه. لقد كان كنعان «متعشكج» (لاحظ هذا الفعل العاصي الذي يدل على التبحر والعمرة والألفة وعدم اليأس). كان كنعان يعيش على حذاء ناعف لا يصلح لأن يعيش عليه في القهلم. لأنه قابل للالتكسار. إذن، قهلم كنعان ذاتي ولا يعني أن نلكر في أن قهلمه كان سبب الضلعه على هذا البدرج. لأنه حذاء ناعف ولا يصلح للاعتماد عليه. وهذا يعني أن التثبث بهويته. القوي بالتمسكه. بطل أقوى من كل ما يمكن أن يثبت عليه في قهلمه.

لقد خرج كنعان بالهوية من القبور والدفن، فطاعت إلى القرى والمدن هويتها. ثم قال الشاعر «فرصة خماسية اللون». لم يصف الشاعر فرصة بأنها بيضاء. بل قال: خماسية اللون. وهذا يعني أنه أراد أن يتجاوز اللون الأبيض الذي يرمز إلى السلام والبرادة. يشير إلى أشباه أخرى، ومنها الحب والتفاني. لأن الحماة يرمز إليهما ذلك تكون فرصة ذات طابع وحداثي. وعلى أساس التوحدان تقوم العلاقة بينهما.

وتظهر فرصة الشاعر على حبل التثبث بالهوية هنا في قوله:
رحل الأحباب - بقيت على رحلي
مثل الزينون بينما في الصحراء

لم يتحدث الشاعر عن رحيل الناس. بل تحدث عن رحيل الأحباب. لأنه الرحيل الذي تقابل فيه لغرب الناس إلى أمتنا... إنهم أحيانا، رحيل الأحباب إما مؤلح، وإما شريفي، والنتيجة واحد، وهي طرد الأرض من أهلها. وهذا وحده كاف لإلغاء الهوية. ولكن الشاعر يقول: بقيت هنا وحدي، كدلالة على الصمود. على الرغم من وجود ما يدعو إلى صده. وهو رحيل الأحباب. الصمود سيكون قاسيا ساعته. ولكنه حيا التثبث بالبقاء. فلا مصر من العمل به واختاره دائما. وهذا يدل - في التحليل الأخير - على أن رحيل الأحباب لم يعد سببا للتخلي عن الهوية. على الرغم من أنه كذلك في العادة. ثم يصف الشاعر بقاءه وصموده مثل الزينون بينما في الصحراء. وهو بذلك يعني أن العمل هنا يوفق التصوير المعتاد «مثل الزينون الذي يتحمل ظلم الظروف الحوية والدينية القاسية». وقد أشار الشاعر إلى هذه الظروف بأنها الصحراء مثل الزينون بينما في الصحراء. وهكذا حال الشاعر الذي يعمل حال الشعب الذي ينتهي إليه. فإنه يتحمل ما لا يتحملة غيره. ويبقى مع ذلك متشبثا بهويته. وللتصوير عن الزينون بينما في الصحراء وجه دالكي آخر: فكما أنه من الغريب أن نجد زينونة في الصحراء. كذلك فإن تثبث الشاعر والشعب الفلسطيني بأرضه وهويته غريب في زمن السقوط والانحدار.

رؤية صاحب الفناء: سؤال المصاحبة مع ضمير من أجل المعاشية

لقد قابل الشاعر بين المصاحبة (رجل) و«بقية» للإشارة إلى أن معاداة الوجود والبقاء، لا تكون برحيل أناس كثيرين، وبقاء فئة قليلة، ولكن المعاداة تكون بمقتضى الصراع الذي يكون بين مطلق الرحيل والمعاداة، فإذا قلب مطلق البقاء على مطلق الرحيل، بقي صاحب مطلق البقاء وحيداً منفرداً.

وقابل الشاعر بينه وبين الأحباب (رجل الأحباب... بقية هنا وحدي) للإشارة إلى أن التزاوج هو نسب من يرحلون، وليس نسب من يتشبثون بالبقاء، والشاعر عندما يتحدث عن نفسه بصورة المتكلم، فإنه لا يتزعج من غرض الذات المفردة، بل الذات الجماعية المستكسفة هي الفرد.

2- سؤال

الأمل مفهوم يجمع بين الرجاء والرغبة والعاشقة. وعلى ذلك يمكن تعريفه بأنه رجاء تحقيق رغبة أو حاجة، فإذا كانت الحاجة ملحة، أو كان الرجاء قويا، هي تحقيق الرغبة أو الحاجة أصبح الأمل أمية. والأمل عند أكثر الناس سلوك عادي لا تفن فيه ولا إبداع.

عز الدين القاصصة لا يرسم الأمل على أنه مجرد رجاء، هي تحقق رغبة أو حاجة، ولكنه يصوره باعتباره، مما يأتي به المستقبل بصورة مؤكدة من غير أن يستعمل أي أداة من أدوات التوكيد أو التحقير، يقول الشاعر

عند باب القدس سأنت حذني

وهي تحكي لشجرة أن أمي

عن زمان سوف يأتي

وعلى حنية شامات الغضب

عندما ذات صياح سمرقون على

عطر فيوز الراجلين

لقد تواجدت المعاني في هذه الأبيات، ومن ذلك أن الجدة توفت، والجدة إشارة إلى عهد ماضٍ، عهد الصمت والظلم، وموتها إشارة إلى انقضاء ذلك العهد، وهذه أول خطوة على درب الأمل، ثم إن الجدة هي التي توفت، لا الجد ولا غيره، لأن الجدة وإن ماتت، لا تنسى بسبب لحظ أحضانها لها - فهم دائسة إليها أمل لا يموت - وهذا يعني أن البقاء والخلود سيظلان درب الأجيال بسلة الحياة فيهم. وهذه خطوة ثانية في رسم درب الأمل، وابن كان الموتى عند باب القدس، للإبقاء بأن الأحبال ضمتها وقوبها لتعاقب الحياة على باب القدس، القدس التي لا تموت ولا تزول، وإن مات الناس على أبنائها، هذه خطوة ثالثة في رسم طريق الأمل. وكيف ماتت الجدة ماتت وهي متعلقة بالأرض، ماتت وهي تحكي لشجرة أن أمي عن زمان ينحصر فيه الشعب المظلوم على أسره، هذه خطوة رابعة على طريق الأمل الذي لا يموت يموت الأشخاص، ثم إن موت إنسان وهو يحاطب الأرض، أو يحاطب الشجرة التي هي رمز للحياة

الأرض، دليل على أن الأمل الطويل من أن يسهو. هذه خطوة خامسة من الأمل على الطريق الطويل، ثم إن الحدة ماتت وهي تحكي لشجيرات العنب: أي أنها استمرت في بث رسالة أملها على الرمح الأخير. فالحوت إذن ليس نهاية، ولكنه انطواء مرحلة ليس إلا. تلك خطوة سادسة على درب الأمل، إن موت العجل الضعيف الذي ينتحبى يعني أن براعم جديدة سوف تثبت في حلقوته. ولذلك جعل الشاعر الجدة لحايط الشجيرات «شجيرات العنب إشارة إلى تلك البراعم الجديدة. هذه خطوة سابعة على هذا الدرب. ثم إن الموت صوت فرد في مقابل حياة الجماعة. وكيف يكون هذا الشاويل على هذا النحو؟ إن شجيرة العنب الواحدة تحتاج إلى يد واحدة ثمرهاها. أما الشجيرات التي تنسج أشجارها فلهاها تحتاج إلى اليد كثيره. هي التي لها ونعيمها بها الأرض. تلكم خطوة ثامنة على درب الأمل، ثم إن حياة الإنسان تنتهي بموته. ولكن وجوده باعتباره وعيه المثبت في الحفاه، يظل قائما بعده. ولذلك فالتة الجدة مخيرة من زمان سوف يلقي بالنصر.

هكذا ذات صباح سمعون على بعض قبر الراحلين

سمعون على قبرها، تبخروها بالنصر فتفزع كما يفزعون. تلك خطوة تسعة على طريق الأمل. وهم سمعون على بعض قبر الواسين: أي أنها بقاء الحياة قائما لا يصيرها أن ترى الموت للكل في القبر. وهذا هو الأمل الذي ما بعده أمل.

وإذا شئت أن تعرف كيف يسبح الأمل في شهر المنصور فاقرا السطور الشعرية الآتية:

فدج يذك
فأه المنصور المنصور من روح الصب
إني دة الطفلة وريز السب
ساقهكر شر المطر وشر الكليان
فدج يذك - اصبح يذك - إني عطشان
وعظ اليه تسألني في جلسده كيف
اليه عجوا كالكريان
السيدة الرضة العصابة
في ودعت النصر سند كربي
لكن الأمل معي
والأنار معي
حتى المحر المبرن
يذبح لي قبا لم يذبح في أي زمان ومكان
حينئذ فليت بحر المع

أطلقت النار على قطعتين الليل
والأشجار معي
والأنهار معي
وحسني المسر السران

إن الشاعر هنا يرمس الأمل رسماً حتى يصبح هذا، هو عنصر ظاهرة نفسية أو حالة شعورية.
فالشاعر عندما يحارب اللقيت بقوله، أفتح قلبك فإنيما يريد أن يذهب عنه اليأس. لأن الدعوة
إلى فتح الباب دعوة إلى عدم الانغلاق على النفس، والانكفاء على نفسها، والانغلاق على النفس
أول خطوة في اليأس.

وأفتح الباب ما يسوقه فإن الأحلام هي طريقها إلى التحقق للمسيح وإنما. ليس هذا هو الذي
يستوفيني هنا. إن الذي يستوفيني أن الشاعر مزج بين الأحلام والأوجاع عندما قال: فإنيما العلم
القديم من أوجاع الصبيح. إن الأحلام التي تأخذ طريقها إلى التحقق إنما هي مخاض الآلام
والأوجاع. هذا هو الأمل الحقيقي. وهذا هو الأمل الصريح.

أما لماذا وصف الشاعر الأوجاع بأنها أوجاع المسيح، فلأن المسيح كان شاعداً على كثير من
الويلات التي حلت بالشعب الفلسطيني، فعليه طروحا من ديارهم ستة شبان وأربعين، ثم سويح
وستين، وغير ذلك من الويلات التي حلت بهم.

لقد جعل الشاعر المظلمة نقطة انطلاق، وحمل كمشهداً بريقاً مثل بريق الذهب والفضة.
وطلب الشاعر من القارئ أن يفتح قلبه ويذهب. وهذه لوحة مختلفة عن توجهه في مطلع
هذه الأبيات، ففي مطلع قال: أفتح بابك. وقال هنا: أفتح قلبك... أفتح بابك. أما البدء
بفتح الباب فلأنه أيسر، خاصة قبل ذكر مصوغات هذا المنتج. وأما بعد ذكر مصوغات
المنتج التي ذكرناها، فإن المطلوب هو فتح القلب، ويكون المطلب الثاني. وهو فتح الباب
مطلباً ثانوياً ساهمت.

وفي الشطر الذي أوردناه مطلعاً على الشطر في الأمل، غير الذي ذكرناه، منها أن الشاعر
جعل الأشجار والنهار والحجر الصوان معه. وهو يعني الشعب الفلسطيني طبعاً. ومنها أنه
عبر عن تجاوز الجراح بقوله: حيثما نلت جراحاً. وهذا يعني فيها يعني أنه استطاع
التغلب على الجراح. والتغلب على الجراح باب. مطلب من أبواب كبح جماح الحزن واليأس
والأسى. هذه نتيجة. ثم إن الشاعر بعد أن تغلب على الجراح استطاع أن يتجاوزها إلى ما هو
أهم من ذلك، وهو التغلب على الليل بكل ما يشهر إليه من المعاني غير المستحبة. هذه نتيجة
ثانية. يقول الشاعر: أطلقت النار على قطعتين الليل. فالليل إن قطعتين واحدة من الظلم
والظلام، ولكنه أطلق عليها النار. وكانت الأرض بأشجارها وأنهارها وحجارها معه. هذه
نتيجة ثالثة.

هذه النتائج الثلاث تصبح الأمل، ليكون أشبه ما يكون بلوحة من العاني العمية.

٢- في البنية والبرقي

عندما يرسم الشاعر البنية بصورياتها التطبيقية، لا يكون قد عبر عنها فقط، ولكنه يكون بالإضافة إلى ذلك، قد جعلها قضا يعبر عنه بالقرن. يقول المنصور:

أن يا منزلا عند باب الخليل
أن قول الذي لا يقال الذي لا قول
أن تعب البراءة فيها وتعسر
يطلع رون الخنور وعصف الشمول
هي هذه المسطور المطروحات كثيرة منها:

الأمثلة الأولى، أن الذي لا يقال ليس عبدا هي ذاته، ولكنه عبء لأنه لا نقوله. ولذلك عسر الشاعر «الذي لا يقال» بأنه «الذي لا نقوله».

الأمثلة الثانية، أن من حق هذا الذي لا يقال أن يقال أصلا. ولكنه عبء عن الوعي عبدا من البعر. ثم جاءت الوعي بالكره. ولذا كان الأمر كذلك. فقد عاد لصاحب الحبل وهو الذي لا يقال، حله. ومن أجل ذلك فمن حله أن يقال الآن.

الأمثلة الثالثة، أن ثمة أسدا يدعو إلى الإحجام عن قول الذي لا يقال. فهل هو الخطوبة وبعاء يكون الأمر كذلك. أو هل هو عدم الوعي؟ إنما قال هو عدم الكمال، فكلما أقر مستطيل. وهل هذه الأمور متشعبة هي التي جعلت الذي لا يقال؟ الاختلاف فيها.

الأمثلة الرابعة، فهذا كانت الأسباب التي جعلت الذي من حله أن يقال غير قادر على القدر إلى القوة القول، فإنه لم يعد لهذه الأسباب، ولا لأي منها، أي صمغ. ولذلك فقد أن الأوان الوضع الأمور هي لصاحبها الصحيح. ونجاء هذه الأسباب.

الأمثلة الخامسة، فقد عبر الشاعر عن البنية وعمود الوعي إلى أنه قوله: أن تعب عبدا البراءة وتعسر.

قد يسمى الر - الأربعة - أن البراءة تعسر الوعي والخطبة هذا السبق لكل الأمر سيكون على خلاف ذلك، فمما توفى أن البراءة تعسر الوعي تعسر الوعي والخطبة والخطبة تعسر الوعي هي عبء الوعي إلى أن البراءة تعسر.

الأمثلة السادسة، أن البراءة المطلوبة ليست مجرد عبء فقط. ولكنها، بالإضافة إلى ذلك،

تتوس وتتم وتورق وتتم. ولذلك قال الشاعر:

هأن تعب البراءة فيها وتعسر...

ويصور الشاعر البنية والوعي تصويرا جيدا عندما يقول:

أن يا منزلا عند باب الخليل
أن رومي حبرا في عين العربة
وترد الخليل الخليفة الصبراء

تأنيده الشاعر الأندلسي: يوسف بن تاشفين في شعره من أدب المصنوع

فالمقصود برمي الحجر في عين القبرة أن تلقأ عينها حتى لا تعود ترائنا. وهذا لا يكون إلا إذا كان مسبوقا برمي. وقد جاء التعبير عن حصول الوهي والبهطة بقوله: أن... أن نومي حبرا... إلخ.

ويقول الشاعر:

يا نساء القبائل ودعي كنعان قلن لأطفالهن
يا نساء القبيلة أرضن المالكين حبيب النشيد

لقد وجه الشاعر الخطاب إلى نساء القبيلة من أجل أن يورعن الوهي في الأطفال. ويثيرنا أن الجليل قد تراكم حول مصاب النخبة. وهذه خطوة أساسية في تكوين الوهي. وإنما وجه الشاعر إلى النساء دون غيرهن: لأنهن أقدر على زرع ما يورنه في الأطفال. ومن أقدر على إيصال مفاهيم الوهي والبهطة إليهم. وتوابع الجليل إشارة إلى تعبر الأوصاف. وأنها ستكشف عما هو باق تماما كما يذوب الجليل فتكشف الأرض تحتها. ويظهر وجهها الذي كان مغطيا. وأما إرضاع الأطفال حليب النشيد. فالمقصود به توعية الأطفال بالنشيد الوهي والاعتناء والبقاء. إنه نشيد النصر الذي ينبغي أن ينعوه نصب أعينهم.

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى:

شعر التجاعيد يخرج من كروب الرومان

من قروح بني كنعان الأتية

غضب الأشجار لا يوصف في كتب البلاغة

وقد يحيي زمن - دحا حردا -

تتزع الأرض فشرعا

شرا لا تكفي هذا

تتضمن هذه المصطلح الشعرية إشارات دالة على البهطة. فقد تحدث الشاعر عن كنعان الذي مات. وفي من آثار النقوش الخالدة الأبدية. والشاعر يشير إلى بحث كنعان الجليل ويقتنه من رقابه. وكيف لا يكون الأمر كذلك. والنقوش الدالة على علمه وحضارته وفكره وإغنية خالدة! لقد كان هذا البحث بهطة من الرقود. حتى أن بهطته بعثت الحمية في الأشجار. وبعد إشارة إلى الأرض فهي المقصودة بذلك لا الأشجار فقط. وكانت هذه الحمية تبلغ من كل وصف يبلغ عرفته كتب البلاغة. ويشير الشاعر إلى أن البهطة مستعم الأرض التي مستزع عنها ثوب الحصول والسكون الذي تراكم عليها عبر سنوات الهزيمة والخذلان. وقد عبر الشاعر عن بلاغة الحمية والوهي والبهطة بقوله: غضب الأشجار لا يوصف في كتب البلاغة. وعبر عن رؤيته لذلك الغضب برؤيته البواردة إذ قال موحا هو ذا: أي أنه بدت مائلة كنعان مواردة.

1- في البيت

الرفض هو نتيجة متوقعة لثباتين بين موقفين، أو هو شعنة التطور بين موقفين متناقضين، ويكون الرفض مقبولا عندما يكون منطقيا عقلانيا، ويكون مرفوضا عندما لا يكون مبرورا بمسوغاته المنطقية. وحتى تثبت أبعاد الرفض، وإمكاناته، انظر في قول الناصري:

عرجت حروب طائفي الزمر الكسبية استعيت

الكل انفسه أن ينام

قد مر على طاهر وشك لا ينام

حجر هو للنبي وعمران وشوقي من رطام

لدينا في هذه السطور مواقف متباينة تبينها فيما يأتي،

أولا، مظلوم يرفض ما حل به من الظلم، وظالم معنوب، فللوقوف متناقضان تناقض رفض، ويكون الرفض هنا من قبل المظلوم.

ثانيا، موقف الظالم طالبا للتصديق وموقف من يترفع منه أن ينعصره من إخوانه. ولكن أصحاب الموقف الثاني يمزجون بين نصرة أخيه، ويضمنون أن يناموا.

هذا الموقف مرفوض - أول ما يكون الرفض- من قبل المثقف، وعلى هذا أن الشاعر أراد أن يجعل هذه رسالة موجهة إلى القارئ، من أجل أن يصل إلى هذه النتيجة، لكن هل يكون موقف هؤلاء الذين عزفوا عن نصرة أخيه مرفوضا من قبل المجتمع الذي جاء، يستقيت بهما خبرتنا الشاعر برفض هذا الظالم تطلي لإفراقة هذا: لكنه لم يرافقتهم هم أنفسهم، بل رفضي نومهم وتناقصهم. قال الشاعر قد مر على قدم، ومثلك لا ينام، وكلي الرائي (الظالم) لا يقبل نفسه التناقص، وإن قيل ذلك الآخرون لأنفسهم.

وقد أخبرنا الشاعر أن «الكل» قد انقسموا على أن يناموا وألا ينعصروا. نعم انقسموا حتى يعرفوا أن عدم نصرته لم لم يكن مجرد غفلة، بل كان عن قصد وسبق إصرار، وهو ليس قسم شخص واحد، بل الجميع انقسموا. مما يدل على أنه يشير إلى أن ذلك هو توجه الجميع، ومصدر إلهامهم في صنعة السياسة.

والقسم في هذا السياق له وجه داللي آخر، ففي القسم تصعيد للموقف. وهذا يعني أن عدم التصديق قد بلغ غايته، وحتى يكون رفض الطرف الآخر مبرورا له في القوم وإن كان معاكسا في الاتجاه فقد سعد الشاعر رفض السياسات لوقف التنازل. وكان ذلك بأن نسي أنه، بل حين كان مثله، صفة التنازل والتناقص، فهي ليست من صفاته ولا أخلاقه، ومثلك لا ينام. وحتى يصعد الشاعر رفض الرائي للتناقص والتنازل، جعل هذا الرائي الظالم أشد من الحجر بين الصوان صلابة. هذه ترجمة أخرى من التصعيد لجعل الرائي لا ينام بسبب إجماع الكل عن نصرته. إنها ترجمة في التصعيد أقوى من ترجمة التحاليل من انقسموا أن يناموا عن إضافة الحق إلى أصحاله. وألم يكذب الشاعر بهذه الترجمة من التصعيد:

تأثير الشاعر على النص الشعري: الشاعر مع النص من جهة الشاعر

هل جعل الشاعري من أوضاعه وميوله شوكاً - إنه شوكاً في خلق أفعاله، لكنه ليس مجرد شوكاً، إنها شوكاً من رحابهم من أجل أن تكون أشد إيماناً، لكنها بذلك تترك بعض الأثر الذي ترك بهذا الشاعري.

ووصور الشاعر الرقص تصويراً جيداً في قوله -

فلما إذا الرقة منك أنحس

بيع البعوض لفرس وروماً

فلما إذا الرقة منك شاطئ كالأورد من فة ضامة

فلما إذا جاز هذا الزمان عليك وصارت زوايا مغلقة

تؤذن في المومنين ولوحيها في الرمال، وأيضاً كالتلوي معرفة

والأنا بانتظار الذي سيحدث التواضع عند المساء

تؤذن في حرة الخوف نزع أطفالنا من جود الجبال

وبريق الشئ المارقة؟

إن الرواي يؤكد رفضه عن طريق الاستفهام الإنكاري - الذي هو - في نظري - من أشد أساليب التوكيد توكيده، وإن لم يقل بذلك أحد من قبل، بحيث الرمزي - وهو صيغ الشاعر كذلك - إلا تزيق ماء وجوهنا الشوق والغربة، إذا تركت بنا دائرة نصي رؤسا، وصرفت الأمرين أهم يهزون وراء أصداء الأمة في الشوق والغربة، وهم يخلصون أنهم يهزون أن يكتسبهم قنصل، ونتيجة التباين بين هذين الموقفين كان الرقص على النحو الذي وضعته، وقد نص الرواي عن الذي يقول في جبال ذلك بأنه بيع البعوض لفرس والروم - وهذا من شأنه أن يفسد دقة الرقص، فبدلاً من التأكيد على ذلك، هذه البعوض عن الغل.

وقد بين الشاعر بعد ذلك عمداً من المواقف التي تعالج موقفه، وهي تبعاً لذلك مرفوعة حيلة وتصعيلا، من هذه المواقف المرفوعة ذلك القصص المتك الذي يكون بين الإنسان ونفسه؛ ذلك أننا إذا جاز الزمان علينا نطبع أصحاب القضية كلاماً وحطياً، نمدح فيها كأننا نجلد، ولكننا في الوقت نفسه نعدن رؤسا في الرمال عن مواجهة الحقيقة، ونبكي كما نبكي السماء، عبر الشاعر عن ذلك قائلاً:

فلما إذا جاز هذا الزمان علينا

وصارت زوايا مغلقة

تؤذن في المومنين ولوحيها في الرمال، وأيضاً كالتلوي معرفة؟

ومن المواقف المرفوعة كذلك الخوف الذي يجعلنا نحصر كلامنا، ونضيق دائرة اشتداه، حتى يمتد كانه محصور في جرة، ولكن الشاعر لم يجعل الكلام على القضية محصور كلام في جرة من الخوف، لقد جعله ذاتاً، ولكنه إذاً لا يقدر محيط الصورة - وقد جعل الشاعر ذلك من أجل تسهيل درجة التناقض بيننا وبين أنفسنا؛ فمن نتكلم ونرفع أصواتنا، ولكننا نجعل ذلك في دائرة ضيقة، كالذي يؤذن في جرة - فأننا لذلك الآن أن يسمح هذه درجة عالية في تسهيل التناقض، من أجل أن تكون الصورة التي تتألفها من الرقص عالية.

ولمعة موهبة آخر موهوبين. وهو أننا كلما نزلت بنا نازلة هربنا وبمنا أمضاتنا، وتركنا الدار والأرض. من أجل أن نتمتع ونهجو أمضاتنا. عبر الشاعر عن ذلك بقوله: نرتجع أمضاتنا من هجره الجبال. ولمعة موهبة آخر موهوبين كذلك، وهو أنه كلما اعتدى علينا أعدائنا، أو نزلت بنا نازلة من الرومان، انتظرتنا السفن العابرة من أجل أن نغير بها البحر، خارجين من ديارنا وأرضنا. في هذا القطع من القصيدة مطابقة الراء الشاعر أن يضمنها واضعة أمام أعيننا. ذلك أنه يرضى أموراً سيئة واقعة، ويرفض أن تكون مضحكات أو أسبانياً لأشياء أخرى. من ذلك مثلاً: أن انعداء الوجه سبب ويلات الرومان ليس مضحكة صحيحة، ولا سبباً مقبولاً للتوجه إلى الفرس والروم. وهذا يعني أن الموضوع الرئيسية للزمان يمكن أن يسلم به ولو جديلاً. ولكن لا يمكن التسليم بالتوجه إلى الفرس والروم؛ لأنهم أعداء حقيقيون. هذه واحدة، ويمكن أن نسلم ولو عكروهم معور الزمان، ولكننا لا يمكن أن نسلم بالفرس أو الفرس، أو دهرنا رؤوسنا في الزمان. هرباً من مواجهة الحقيقة، هذه ثانية. ويمكن أن نسلم ولو عكروهم بأننا هربنا، ولكننا لا نقبل أن نستسلم للهزيمة هرباً من ديارنا وأرضنا، وسطل رهينة السفن التي تنقلنا إلى القاصي في الأفاق.

في القطع الآتي صورة ذكية من صور الفرس. يقول الشاعر:

يا حقل الفيروز

يا حطر النوروز

هل أنت ترهين

أن تبني في الصين

نحن المصرون؟

الصين هي الثقافة العربية رمز لبعد المكاني. كما جاء في الخبر: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، وأما البحر فهو رمز للبعد الزمني، لأن البحر في نموز. وهو الشهر السابع من السنة بعد شهر مائوف في الذاكرة العربية، ونموز أصلاً هو إله الخصب عند البابليين والحثيين. أما الفيروز فقد جمعه الشاعر هي حقل. للإشارة إلى كثرة المعطاء والخير. ومعنى ذلك أن الشاعر يحاطب قلوب الزمان والمعطاء، ويستلهم عليها أن يطل المسلمين ومن النبي في القاصي الدنيا: إلا لا يحفل أن يبلغ معطاء الزمان لعبودنا غايته. وأن يبلغ في النبي والتشريد غايتهما.

٥- في المثلث

يظهر الحمدي في صور شئ في شعره عز الدين القاسم. من ذلك قوله:

معروف بي في كل مكان إلا في دائرة الموت

ذلك لي أرحمهم من طلبة حسني

حسني يظلمهم وأنا أركض معهم كالفش الموتر

دائرة معارف الفلك، ودائرة المعارف في علم من أعلام المعارف

يقول الشاعر في هذه المظلة على لسان الراوي الضميرين هما سبب التحدّي. أولى هاتين الضميرين أن الراوي يقول أن الناس يترقبون به ما دام صامتا لا يتكلم. وهذا اعتراف لا يسمن ولا يفتي من عرج لأنه لا يبعد هنا معنصا إلى استعجابه. وثانية هاتين الضميرين تتمثل هي ما يتردد الراوي من أن شدة صمته تقتل الآخرين. لشدة شكهم وخوفهم من صمته. فهم يتصورون أنه بهذا الصمت سيقتلهم.

وفي هذا السياق ترد ضميرتان أخريان هما :

القضية الأولى: لما قال الشاعر على لسان الراوي معترف في هي كل مكان إلا في دائرة الصوت، فإن ذلك يعني - أول ما يعنيه - أنه معترف به في دائرة الصمت والصكوت. وغير معترف به عندما يتكلم. لكنه يقول بعد ذلك -ذلك أتني الجرحهم من شدة صمته-. فكيف يمكن الجمع بين هاتين الومضتين وإزالة التناقض بينهما قلت: للشعور من مباشرة الصوت التي لا يعترف به فيها هي الدائرة التي يصرح فيها بوجده. أو يطلب فيها استرجاع صوته. دائرة الصوت هذه مرفوضة عند الأعداء. ومن سار على دريهم. وإن دائرة الصمت التي لا يكون فيها هذا أو شيء منه دائرة مقبولة عندهم. أما الصمت الذي يصرح أولئك القوم فهو الصمت الذي يكون فيه تفكير باسترجاع الحق واسترجاع العدل. وعلى ذلك يكون صمنا صمنا صمنا في الصمت ويصنع له. وهذا مطلب الأعداء. والآخر يفكر فيه صاحبه في رفع الظلم. وهذا صمت صمته رغبة به علاج بالجمع.

القضية الثانية: لقد جعل الشاعر صاحبه هيمومة منزهة عن كل النش القوي. هذه الصورة لها وجهان. أحدهما يعطي الحركة للنش الحياتي غير المتعطل. والآخر يعطي عدم الانشغال بحركته الهيمومة. ويظهر التحدّي بصورة جميلة هي قوله:

يا سيدي وأرى المداش في سيات

والدمر العالي التبدل

وأرى الهباب نوحا عرج السور

وأرى الصفاير المباح

أرى المراكين التي ثرت لخطر الحنول

وأرى زوايا لخطر التسمات

يوشك أن يقول

إن لمرشد الخليل ساحت

لحدا الأرض القبول

إن لمرصعها وشعلها لها

للساخرة

لغيرت العزل

إن لم تألف في وجهه

سبحو ذلك يوم توفى سراد الطول

يا سيدي إلى أرى ما لا يرى

والشعر راحة

أرى سدا شها قدومه لفتنا هو في طعناك

وأرى الخليل حبيبي بما لفتنا لذلك

والشعر راحة

فجاءت أهر حراء تطير في التصول

أعشى إذا طلع النهار يصير يروى الخليل

قد يظن أن عبارة هذه بيتريسون، قصد بها التحذير فقط، وهي هنا تستعمل للتحذير، ولكن العبارة نفسها تطوي على إشغال فتيل التحدي لأن التنبيه إلى التريخ في هذا السياق يرد به التحدي، بمفهوم ما يرد به التحذير.

إن الخطاب في هذه الأبيات موجه إلى السيد - العربي الذي بعثه أن يقرأ من أمته. وهذا الخطاب وإن كان يظهر في صورة من اللذات، فإن فيه تعريضا، لأنه يستعمل على أمرين هما: الاستغناء، وإظهار الخطاب (يفتح الطاء) بضم البصرية.

وليس التعريض هو كل ما من هذه الأبيات، فإن التعريض على سياسة السيد - واضح في قول الشاعر:

يا سيدي وأرى اللذات في بيت

فهذا التعريض صريح على سياسة السيدات في (اللذات) العربية، وتذكر في هذه الأبيات كذلك معارضة واضحة في قول الشاعر

إن لم تألف في وجهه

سبحو ذلك يوم توفى سراد الطول

وبذلك تتكامل وجوه التحدي الثلاثة وهي: التعريض، والاعتراض، والمعارضة.

والتحدي بمفهومه المذكور أعلاه، مبني على الاستعلاء، وليس مجرد تحد من أجل التحدي، فالراوي يقول من نفسه إنه يرى ما لا يرى، وأنه يعلم راحة، ويرى سدا شها قدومه لفتنا. وهذه كلها إشارات إلى تعصير الأمور.

إن تعصير حقائق الأمور هو الذي يدعو إلى كشفها. وهذا يدعو إلى التحدي من دون شك. فالراوي يرى الخطاب قبل أن تعصها السيول الهوج، براها كان ذلك قد وقع.

والراوي يكشف الخطاب من جوع المصاهير. وهذه إشارة إلى الجوع الشديد، لأن العهد بالمصاهير لها لا تنوع، لأن الأرض كلها مائدة لها. فإذا كانت المصاهير مائدة فمعنى ذلك أنه ليس في الديار إلا الجوع.

ويصف الشاعر كثف الحقائق عندما قال:

وأرى زماناً أحضر التماسات

يوشك أن يقول

إن امرئ تشد الحبل ساعد

لحنا الأرض البقول

إن امرئ تفرحها وتشتعلها لهيما

لكسا الزرقا

تصمرت العزول

يظهر هذا التصعيد في أن الشاعر جعل الأرض تموج، إن لم تعد تلامس هذته، وكيف تموج

الأرض؟ هذا أمر فهمه منوك للمحاطبة وهو السيد.

٦- في النواحي

شعة فرق كبير بين مفهوم النواحيية ومن النواحيية. فالمفهوم الأول لا يقتضي كبير وعي، ولا عظيم تقدير، ولا دقيق حساب. أما من النواحيية فيقتضي ذلك كله. وحتى يظهر المفهوم الثاني واضحا

لطف عدد قول الشاعر

في زمان التلى والساح

كنت أكثرهم في السباح

وما وضعت حصانا جريحا

على صخرة في الظلام

فجاء طوفاني سكا كبيره والساح

وصرت دائما على طارلات الشاعر

هل أبسط الشاعر

عن أكثرهم هل أبسط الشاعر؟

يا زمان التلى والساح

لقد انتهى الشاعر بما ابتدأ به. ابتداء بالحديث عن الزمان، زمان التلى والساح، وانتهى بمحاطبة هذا الزمان. إن ما بين البداية والنهاية حديث من مواحيية. وقع فيها الراوي كما يقع الحصان جريحا، فتخلله قوته، ويكون بذلك محتاجا إلى من يأخذ بيده، فيقبل عشوته، ويعيد إليه قوته. إنها المواحيية التي تسدعي ألا يترك صاحب الحق وحده. ولكنه ترك وحيدا، غير قادر على أن يلمم حراجه، ويستعيد قوته.

لقد جعل الشاعر وقوع الحصان جريحا، وحيدا، على صخرة كسوته، في طقس دامس، لا يعرف أين وقع، ولا كيف ينهش، ولا إلى أين يتجه.

هذه إن الشاعر قد بدأ بالحدث عن زمان الندى والسماح، وانتهى بمخاطبته. وهما في الواقع ليسا شيئاً واحداً، بل هما زمانان مختلفان. أما الزمان الذي ابتداء به ظهور زمان النظم المعاصر والبدل والتجديد والعتاء، دل على ذلك أن الراوي يتأقلم بين عتاءه وعتاء غيره. في زمان كل البدل والنظم فيه شيئاً مأكولاً، ولكن الراوي يصمم نفسه بأنه كان أكثرهم عتاءاً أي أنه كان فوق المأكول.

أما الزمان الذي انتهى به، ومخاطبته بقوله «يا زمان الندى والسماح»، فهو الزمن الذي يعود فيه هجر أصحاب الأرض بالأرض، ويخطونها أو يبيعونها للأعداء، ثم يدعون أنهم دافعوا عن البلاد والعباد، مما وضع الراوي في مواجعة معهم: ليكشف أكتافهم. وفي هذا ما فيه من تصعيد للواجهة، ورفع درجة تولدها.

ويبرز الواجهة باعتبارها ضرباً من التصوير الدال في الأبيات الآتية:

يا هذه المدن السخية تتدلى الخمر البقير

أنت التي خلقتي فمرا طويلاً دون بيت

إن الذين أنتهم صغرا الزهر

ونظروا بالمت في ذاك الليل

ولما أريد بي أمد

فلما أريد واستسلموا

يا هذه المدن السخية، يا حنونا ما جاح

أستبني لما أجاد

يبي ويملك خط خاطعه - خطعه

القطعه

أول ما في هذه الواجهة إمطاة القام عن صيغوا وجوعهم، ولقموا بالصمت فلم يصغروا مطروعا، وقد هجر الشاعر عن التثنية بعبارة «خلقتي فمرا طويلاً دون بيت»، لإحداث معارضة بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، فما هو كائن أن القمر صار طويلاً من غير بيت، وما ينبغي أن يكون هو أن يظل القمر مطلقاً على كل بيت، وفوق كل بيت، أما أن يكون غير ذلك فتلك معارضة، وأما أن يكون مطروعا مع كونه طويلاً، فذلك تصعيد لتلك المعارضة.

ويجني الراوي كيف أن المدن السخية فتكت أبا الشاعر، هي إشارة إلى حكاية هائل تلك كند، والد الشاعر امرئ القيس، ثم استأسد القوم عليه واستسلموه، وسقوه الملح الأجاج، وذلك إشارة إلى ما نزل بالشعب الفلوب على أمره، من مر العيش، وطلم الحياة.

ويختم الشاعر هذا المقطع بدرجة فيها تصعيد في الواجهة، عندما يطلب من تلك المدن، أن تلتقط خط الود الذي بينه وبينهم.

ثلاثة مقامات أدبية، وثلاث المقامات في شعر من أدب الشاعر

ويكرر الشاعر كلمة (المضحية) ثلاث مرات، ليس من أجل التوكيد كما قد يظن، ولكن لإحداث تصعيد في هذا الموقف.

ولكن الواجبة وتصميمها يبرزان واضحين هي الأبيات التالية.

ويا شعر العنقوان الفريد

زرعتا زرعتا زرعتا

ومر دائما يخطرون النبذ

مطر حاض في بستان القلب

مطر حاض في السور

مطر حاض في القلوب

مطر حاض سوف تشرب منه الرعول

مطر حاض في السمور

مطر حاض في صهيل الخيول

مطر حاض في السور

مطر حاض في العيون

مطر حاض في نزة الخيل

حد ذلك دلي الأبيات الأربعة السابقة

في هذه الأبيات ثلاث درجات من الواجبة هي: النبذ، بالفتحة، وتصعيد الواجبة، وشمولها. أما التثنية بالعنقوان، فقد صر هذا الشاعر بقوله: «ويا شعر العنقوان الفريد». وتتمثل حقيقة التثنية بالعنقوان سيكولوجية، في هذا السياق طبعاً، بمضار ما يرفع من ألم العرومان والتشرد. طابعاً افتراضياً أن الألم الناجم عنهما قد بلغ عشر درجات مثلاً⁽¹⁾، فإن رفع أي درجة من هذه الدرجات المشر، يستحق منه درجة أو أكثر تقابلها من الفداء. وعلى ذلك، فالتثنية هنا بمثابة تعاضاً عن الفداء المادية. إنها الفداء الناجمة عن تقليل بين الألم ورفعه. وتكون الفداء أقوى عندما يقوم من وقع عليه الألم. يرفع هذا الألم عن نفسه بنفسه، فهو بذلك يثقل له وجهان من الفداء أحدهما بسبب رفع الألم وحصول الفداء، والآخر بسبب أن جهوده لم تضع سدى.

وقد عمل الشاعر على تصعيد الواجبة درجة فدرجة، فقد بين حصول فعل الإعصار الذي أشار إليه بالفعل (بنينا) وكثرة مرتين أخريين، لا مجرد التأكيد كما قد يظن، بل لأن الإعصار نفسه تكرر. وعلى ذلك، فالتكرار هنا للتعبير عن تكرار الحدث نفسه، وليس لتوكيد فقط. وقد شطط الأخرى لشار الإعصار دوماً دائماً يخطرون النبذ..

(1) أي مقاييس سيكولوجية خاص في قياس الفداء والألم، وهو في طور الدراسة، وسأستعرض فيه تفصيلاً إلى شاء الله تعالى قريباً. والدرجات العشر المذكورة هنا أي أبعاد خاصية، وما يتفادها له أبعاد خاصة خاصة.

وهذا حدث من شأنه أن يدفع إلى الواجبة، لقد جاء ذكر الطير الحامض سبع مرات في هذا المقطع، وهذا التكرار من شأنه أن يصدد الواجبة وما يدعو إليها، والتكرار هنا يخدم التوتر، وأما شعول الواجبة فتأجج عما أسطر به الأعداء والأصدقاء، الشعب المظلوم على أمره في كل شيء، فمطر حامض في السهول يحرق أخضرها ويابسها، ومطر حامض في الغلوط يقتلها، ومطر حامض كالسيول الجارية، ومطر حامض من الدموع المتحجرة، ومطر حامض في الجيون المحترقة.

ولكن شعول هذا الطير يقتضي أن يشرب منه بعض من عملوا على إنزاله بالمظلومين «مطر حامض سوف تشرب منه الوعول»، بل إن الحمر قد تشرب المطر الحامض، وسيطلق ويتججر في وجوههم، ساعدت اكتشاف الواجبة من نصير يتمثل في قوله «بعد ذلك تأتي الأناسيد والثريرة الصالحات»، وتظهر الواجبة في قول الشاعر:

زهد أن نسحق البهار
سما حين دفوا رؤوس الأطفال بالمحارة
شرا لا تكفي يا همد الرمز بهذا
لشرا لا تكفي يا أربب التصيد بهذا
شرا لا تكفي يا كدمات الدمع بهذا
شرا لا تكفي بهذا
لشرا لا تكفي بهذا
شرا لا تكفي بهذا

ARCHIVE

إن البهار ليس سما، ولكن الشاعر يخطئه سما، تلك إشارة إلى جعل كل شيء سما حتى البهار، وقد تكون إشارة إلى جعل السم بهاراً للأعداء الذين دفوا رؤوس الأطفال بالمحارة، إن ثمة تشابهاً بين دق الأعداء رؤوس الأطفال، ودق البهار إلى درجة السحق، وهذه درجة من درجات التصعيد، وعز الدين الشاعر موقل في الرمز والخوض، ولكنه هنا كشف نفسه، فأصبحت عباراته كلها من دون إبهامات، ناداً فعلاً لذلك لأن دق رؤوس الأطفال بالمحارة لا يحتاج إلى رمز ولا إبهام، أسلم الشاعر نفسه للوقوف أشد ثقله، فالتكشفت عباراته كلها بعد ذلك، وهذه طريقة في التميز، وليست خروجاً عن المنهج الذي اعتنقه الشاعر لنفسه، كأي الوقف عندما يكون هناك غطياً، يكون التعبير عنه بالرمز إحتياجاً لهولاه وخطائعه، وهذا مزلزل خطير، ما أراد الشاعر أن يوضح نفسه فيه، وقد أحسن أنه لم يفعل.

وردت عبارة «لم لا تكفي بهذا» سبع مرات في المقطع الذي نتحدث عنه: «لا لأنه أراد أن يؤكد عدم الاكتفاء، بل لأنه أراد أن يجعل مساحة عدم الاكتفاء أوسع» بحيث تتجاوز الرمز: «لم لا تكفي يا همد الرمز بهذا»، وتتجاوز الظروف والشعر الظروف، «لم لا تكفي يا أربب التصيد بهذا»، وتتجاوز الدموع والأحزان: «لم لا تكفي يا كدمات الدمع بهذا»، وتتجاوز

العمود التي تضيق دائرة الاكتفاء. ولذلك فقد جعل عبارة شمس لا تكفي بهذا، مقتبوعة في المظهر الثلاثة الأخيرة.

وتعتمد حديثاً عن المواجهة بقول المواجهة:

سأقول الذي لا يقال

بعد أن ورعنا طيور الحريد

وحرمتنا السوال

عن الورود والقنود والقنود والقنود للقنود

إن القضية ليست هي أن يقال أو لا يقال الذي لا يقال. إن القضية هي أن هذا الذي سبقوله الشاعر أكبر من كل ما حرم السؤال عنه. وهذا يعني أن المواجهة واقعة لا محالة، ولكنه هو المواجه بها هذه المرة. وهو الذي يستعدها، لأنه يقول الذي لا يقال.

المطلب الثاني: حصة العراب

هذا هو الوجه الثاني من القضية، وهو الوجه الذي يجعل بعض الضراء يقولون أن عز الدين للمواجهة يوشح أصمالة الشعرية يوشاح أسود متقطع من التشاؤم واليأس، وليس الأمر كذلك، فالشاعر كان يجعل كل ما يجري لهذا الضمب من حرمان وشريد وسياج ومأسى وعذاب حيثما حل والرتحل، ثم إنه لم يتنصر عليه كما وضعنا في المبحث الأول.

استندت رحلة العذاب جديلاً حميداً يتألف من القرن العشرين، أو المواجهة القوية تعمل على اقتلاع الشعب من أرضه، لإحلال اليهود في فلسطين، وإقامة دولة صهيونية لهم في الأرض المقدسة. وكفى الشافس على أشده بين الحلفاء لتفكيك الحكم المملوكي، وحتى في فترة الحرب الباردة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي. كان اختلاف بين المعسكرين على كيفية التفكيك، لا على جوهره وأساسه. وكان هذا الشعب اللطوب على أموره، يسير على طريق من الأشواقه يقول للمواجهة:

العربة أنشأت

العربة أنشأت وزجاج مكسور

فشي القتل عليه

الغرب الأصغر يا مولائي حفر وحسور

تعتز في جنبه

وأنا بهذا عصفور مفرور.

فالطريق لشواحه وزجاج مكسور، يشير بذلك إلى أن الرحلة داعية هي طريق داعية. وهي كذلك، مطبوعة بالحضر، يشير بذلك إلى التهلكة هي هذه الرحلة. وأما العصفور فهي تشير إلى البلدان والتلك التي من العصفور تجاوزها واخترق حنودها، طريق هذا شأنها، لا يكون تجاوزها أمراً ميسوراً. وأما أن الرجل قد أصبح عصفوراً مفروراً، فإنما هي إشارة بعيدة إلى أن الجو نفسه لا

يمكن تجاوزه من البورد الذي يجعل المعمور مقسوماً غير قادر على الطيران. ومعنى ذلك أن الأرض مختلفة أمام هذه الرحلة، وأن الجو معلق كذلك. ويحصل ذلك بين طياته أن الطريق كلها مختلفة براً وجواً، وليس هذا بأساً ولا محاولة للتسوية اليأس إلى القارئ. ولكنه الواقع كما يراه الشاعر، وإنه واقع.

في الأمانة من الناس سليمة، تسببها الانطباعات السالكة على الأمانة دفقة الأنهر السليمة. ولم يكن هؤلاء أهل خطراً على القضية من الأعداء أنفسهم. لقد كان هؤلاء يعتقدون أن إقامة الكيان الصهيوني أمر محتوم، وقضاء لا مرد له، وقد ليس له واقع. إنهم يسمون من مواجهة العدو. لم يكن هؤلاء يملكون شيئاً للقضية، ينصرونها به أكثر من الكلام، كانوا كثيري الكلام، قليلي الفعل. يقول الشاعر:

لأنني أعرب من غير أنخرج لا يموت
لأن البلاء إذا مر رابت عيون للذات تحت البلاء
لأنني كنت كثير الكلام كثير السكوت
لأنني سطلت هنا في النازح تحت البحار التي لا تعيش
حمر وقوت هذا قبل يوم الخروح وليل قنوم الجورش

إن هؤلاء يسمون من الوهم الذي ينصرونه قنوماً. ولقد عجز الشاعر عن هذا الوهم بأنه قد أصرح، وأنه لا يموت، أما أنه أصرح، فأنه وهم لا يقوم على ما يريد قنومه، ويكون سبياً منطقياً له. وأما أنه لا يموت، فلأنه أصرح، إما لأن الذات (التي هي الذات) تنصرون كقولها التي أنه تنصرون، أو مجموعة وقنوم غير قليلين الصوت والقتاد أو القنوم (أو لأن الوهم لا يموت) حتى يظل سليمة.

هذا هو البلاء، وقد عجز. وأصبحت الذات (الذات) عارفة في عدم تصدر الواقع على حقيقة. فكله خوفات في انعدام الرؤية. وقد جعل الشاعر عيون الذات مختلفة وهي هي الحياة، من أجل أن تظل مختلفة، فإنها تظل وأصبحت في فناء البحر، فأنس لها أن تنصرون وأهل من يفت عند قول الشاعر، أنك كنت كثير الكلام كثير السكوت، يظن أن فيه شيئاً من التناقض. وليس الأمر كذلك، فإن المقصود بقوله: كثير الكلام، الكلام الذي لا يكون معه فعل، ولا يؤدي إلى فعل، وأما «كثير السكوت» فالمراد به هنا من لا يفعل شيئاً. وقد جعله الشاعر كثير السكوت، لا لعدم الدلالة على عدم فعل شيء فقط، بل لإقراره العظيم: فإن السكوت علامة الرضا. وهو في هذا السياق هو الرضا. لقد تجرع الشعب الفلسطيني في عرينه ورحلته المساوية مواراة التنبؤ. وأصبح قلباً للعالم.

وانصرفت الأمة من معاناة الأخطار المتدفقة بها، يقول الشاعر:

أمر على القروب فترزوني
وطلاني المتوالت للساكن
والتي حين لأذكر لعل بني
قد تركوا الخيل مع السراير

قوله: مناصبه الدنيا، وقت: المناصب، ثم ضم من الدنيا المناصب

إنها مصورة من صور منصب الأمة بأسرها، كيف لا وهي التي توكلت الشيعول شريع مع البهائم السابقة، بدلا من أن تعمرها للحربة

وقد قلت الرحلة الدوائية أهلها، وقدتهم إلى النفاق ذو الحمار، وقدتهم إلى شرد ذو آخر، يقول الشاعر:

عذوت رجاءا بأمرذر في النهر

أو محررا

وفي كل خطر لنا منيرة

وأحذر كل ثأف الحنود

لأنصر على رحلة أو شهيد

فهمر على وطن في الهواء

حزرت بأكرني عاصمة

وبقلت الهزائم متلاحقة، وظل هذا الشعب مناعها للتشرد إثر كل هزيمة وتكية، يقول المناصرة:

رجعت من المنفى

في كفي خف حمار

حين وصلت إلى المنفى الثاني

سرفوا مني المقيمون

وقد صور ذلك في مطلع امر، بينما يمدد القدمي الواسطهني مرثيا اقوال الشاعر والتجويد:

كلما وضعت فاعلة النروج أيارها، استطقت فاعلة امرأ جديته يقول المناصرة:

ألا لا أقول الذي

يجعل الريح تنكبي، تنهك شرفه

ألا لا أقول انتهت فما زالت في غربي

مرجعا للوقول، ما زالت باب طوره

ولم تكن حالات النروج رحلات نزهة، بل كان الضوم يحدون المعاناة في كل مستنق، وما هو

بمستقر، يقول الشاعر:

أصطلي بالوهر دما بانتظار السحرة

بنتنكر من ساحل القوت ومن قلب الأناني

ولأ أخرى وأخرى، لزرج الحب وهر

بظنون الشرة

بحسبون الكلب ظل الشجرة

لقد كان الوهم عظما كبيرا من معالم رحلة السراب، ومن الطبيعي أن يكتوي الواعمون بنار الوهم، حتى أنهم سيجرحون من الوهم الماكوف، ليصيروا إلى الوهم غير الماكوف، كان يتوقع

لحدهم أمرا خارقا من صياحه، لقد تغلب الشاعر إلى أن أولئك الواقعيون ينتظرون سحر السحرة، مما ليس له صلة بفعل أو متقبل. وهذا ضروب من تصعيد الوهم، تصعيد يكشف عن مفارقة هائلة هي انتقال الواقع من وهم إلى وهم أسوأ منه.

يحدث الشاعر في الآيات السابقة، عن صورة من صور هذاب التشرد؛ فتد طلق الشعب بجري وبجري، متكرار الفعل المضارع (يجري)، تكرر هذا الفعل قد يفصل الدلالة واحدا. وبذلك يكون المعنى أن الجري لم يتوقف، وقد بدل التكرار على اختلاف مطعون الكلمة الأولى عن الثانية. وبذلك يكون المعنى أنه ظل يجري، ويكده.

وصفت الشاعر الشعب الفلسطيني بأن الأعداء لم يجهلوا له إلا خيار الأسوأ دائما، يقول الشاعر

هل أزيح قسي؟

أمر أزيح قسي؟

أمر أزيحها؟

خيارات ثلاثة هي في حقيقتها خيار واحد. وهو الموت المتعارف.

لقد ظل الفلسطيني وحده. وقد عرض الشاعر ذلك بصورة جيدة فقال:

تدبح عيني وحدي

أشكو وحدي

أشفي في الشارع وحدي
أزيع شمر الحب وحدي

وهي رحلة السراب وفق الثاني أسرى التصرف والتدريج بينهم وبين إخوانهم. لقد كان الأعداء

مربصين على أن يقطعوا في كل صعيد، حتى تصبح حربا داعية، يقول الشاعر:

كلمات تال متكرر شر فروع

والهني ينأ

حبة كثرها حمارت فروع

مرة يحدث الأربعة

إنما دما ليس ماء

دما ليس ماء

في خضم الرحلة السراب ظل الكبراء يسيغون الكلام على الناس، وينصمون على المصروعين بالوعود والخطب الرنانة، حتى تحول الأمر إلى ما يشبه الهاس، وعجزت الأمة عن معالجة أفعالها. وقد قال الشاعر عن أصحاب تلك الخطب الرنانة:

لن تعطي لحم رأس اللذة

قبل أن قطع عذبي الألسنة

تأليف الشاعر البطل جمال المشاعر مع شعر من أدب المشاعر

وكان من بين مشاهير رحلة السراب أن كثيرين كانوا يلهثون وراء انتصارات عشاقية وافقت لأنهم كانوا يمشون أنها سبيل الخلاص الوحيد لهم والشعيرهم. وكان هؤلاء يكونون تلك العقائد والبيدات، هي الوقت الذي كان العدو يفتك فيه بأفراد الشعب بقول الشاعر:

كانت خطوات الموتى في الليل تن

حول كؤوس البيرة والحن

كما نذكر غللاً في حمل التوتون

ومضغاً بين الفكين الأعلى والأسفل، لين

كمر أكره غسراً كمر أكره غسراً

والألسع خطوات الموتى في الليل تن

حول كؤوس البيرة والحن

إن نظرت في قول الشاعر بمضغاً بين الفكين (الأعلى والأسفل) لين- فستجد التكثيف المتروكين (الأعلى والأسفل) قد جاء لتؤيداً وطيفة في هذا الموضع. فالمعروف أن كلمة (الفكين) تعني الفك الأعلى والفك الأسفل. فالتوضيح إذن لحصول حاصل لا قيمة له. تماماً كما أن تولد مبادئ لين لا قيمة له. وهذا أبلغ بكثير من أن يوصف التقطع والتعديل بقول مبادئ لين بأنه لا قيمة له. وعلى ذلك. فإن هاتين الكلمتين (الأعلى والأسفل) وإن كانتا لحصول حاصل. من حيث كونهما مقطوعة من المقدمات لهذا كذلك من حيث أنهما مبادئ في بصورة غير مباشرة. وقد عبّر الشاعر عن هذه المقدمات التي تجري داخل النفس الإنسانية، بحيث إن الواحد يعتقد نفسه. وهو يخلص مع أولئك الذين يكونون مبادئ لين، هي الوقت الذي أصبح فيه أكثر الناس كالأموال.

كمر أكره غسراً كمر أكره غسراً

والألسع خطوات الموتى في الليل تن

حول كؤوس البيرة والحن

من الصور التي عرضها الشاعر في رحلة السراب ما يظهر في قوله:

بمرفق فلي لصهل الزورم

وراء الزورم الزورم- الزورم

فلاي الطعاب نوحه وجهاً باحزورم؟

وبالي المساحات الحورم؟

لقد جعل الشاعر لصهل الزورم لا لخبولهم حتى يكونوا من شدة حلقهم وغضبهم كالخيل تميل في الحرب. لم إنه جعل الزورم صنفين: فصنف هم الزورم المحيطيون، سماهم الشاعر «الزورم الزورم». وصنف آخرهم الزورم الأتباع والعلاء الذين ياتهمون بأحزورم.

في ضوء ذلك كله، أصبحت الدراسات لإكتشاف الأرض والشعب من دون جمودها فلهذه حضارة الأصوات سدى،

كنا لم نجرع عطشاً والأرض تشبعنا

فلا نخفي لها

الأرض تشبعنا فلا نخفي لها

لا تشبعي مرور

إن الليل في هذا السرور يطول- يصبح كتردي

لا تشبعي فالكذب في كل المروب

والأوانت يصبح في الدنيا سدى

لا تشبعي- ما في حذا

عبر السواحل قد تنحوا عن موانعهم

واتشر طيوت

لقد كان من أسوأ مظاهر رحلة السراب في الصحابة المصرية الخوف، وعدم الثقة، واتكفاء

الإنسان على نفسه، ومن هنا أصبح في قول الماصرون

في ظلي أذل الأشياء

لا أحميها إلا للحيوان المصا-

أرحم أن أحميها للفرار

ذلك أن لساننا بأخبار مشغول

هكذا يفعل الطوفان وعدم الثقة لا أحميها إلا للحيوان المصا، إلى درجة أن الواحد ينصو

الأخر لولا سبائكه. وإلى درجة أن يكتفى الإنسان على نفسه عندما يشل لسانه.

البحث الثاني: بناء الحضارة

لما الذين الماصرون طريقته الطامعة في بناء حضارتهم فصائده،

وسبغت في هذا البحث المطالب الآلة- الرمز، والاستعمار التاريخي،

والإفخاخ المراسي-

المطلب الأول: الرمز

من المؤلف أن يستعمل الشاعر أصرا ما رمزاً للضحية معينة، أو شخص معين، ومن ذلك أن

يرمز أحد الشعراء بالمصدايد إلى من لا يحث رجاله بمكان لكثرة النوححال-، ومنه أن يرمز

شاعر ما بـ «سيزيف» في الأسطورة اليونانية الذي ظل يوزج تحت الصخرة، إلى من كان

شأنه كذلك من الأفراد أو الجماعات أو الشعوب. ومنه كذلك أن يرمز شاعر آخر بشهرزاد

أو المرأة التي لم تكف عن معاداة الملك شهریار، وبسببته بالكف أهلة وليلة، إلى من كان شأنه

تأليف معاصره الباء، ومعاصره المعاصره في شعر من الباء المعاصره

كذلك، وبشهرية إلى من كان فيه بعض سماته. قلت هذا كله امر مألوف. والدليل على ذلك أن هذه الأسماء لتتكرر كثيرا عند الشعراء المشهورين كالسياب، ونزار قباني، ومحمود درويش، وغيرهم من المعاصرين.

والأخمين في استعمال الرمز أن يضمن الشاعر في قصيدته مصحوب قصبة الاسم الذي استخدمه رمزا، بدلا من أن يذكر الاسم فقط. وحتى أبعث ذلك أقول من الأفضل أنها، أن يجعل الشاعر حياته رحلة لا تنتهي، وأن يقص علينا أطرافها بضمها أو بضمها من رحلته، بدلا من أن يصف نفسه مجرد وصف بأنه المتعب.

يشرح من الذين المعاصره الرمز بطرائق متعددة نجعلها فيما يأتي:

الباء المعاصره

يستعمل المعاصره الرمز للتكثف في كثير من أعماله. والقصود بالرمز للتكثف ذلك الرمز الذي يحمل بين خفيه دلالات كثيرة، ويحمل بها لذلك تأويلات كثيرة، كلها صريح باعتبار وجهته في التأويل. وليس مطلوباً من الشاعر أن يتم تأويلات الناقد كلها، ولا أن يكون أرادها كلها حقاً. هذه ليست وظيفة بل وظيفة الناقد والمتأمل.

يكثر الحديث عن (كتمان) في شعر المعاصره، وكذلك هو الأصل. ولكنه يرد باعتبار فرعاً، ويرد في شعره كذلك باعتبار صفاته. وكذلك باعتبار ذلك وببساطة. إن فاجتماع (الأصل) و(الفرع) و(الصفات) و(البقاء) من شأنه التكثف الذي يتلوه من الباء المعاصره. ويحدد الإفصاح عنه.

أما كتمان الأصل، كتمان التاريخ، الذي يردد في المعاصره المعاصره، فاعلموا إليه في قول الشاعر. في قصيدة بعنوان «بأنه كتمان»:

وهي الباء كالتعبير

توهج كتمان بين حنول الشعر

توهج كتمان ورداً وطرباً وخبراً وشاباً

على لغة قرب برقعة المعاصر

إن الشاعر هنا لا يكثف بأن يكون كتمان تاريخاً، ولا أصلاً فقط، فهو على خلاف التاريخ كله ما زال يتوهج. ولذلك جاء عنوان القصيدة على هذا التقدير. وبهذا التقدير «بأنه كتمان». إنه على خلاف التاريخ كله يتوهج في الحضران. يتوهج في الليل فيجعله قدراً على الأعداء. يتوهج في حنول الشعر فيجعلها كتماناً، يتوهج في الورد فيعطي شذاه فيه. ويتوهج على في الخوف، وهي المأكل وهي المشروب. إنه التاريخ البسيط، لا التاريخ القائم. هذه المعاني مكثفة بطريقة تدل على مهارة خاصة. وقدرة على التكثف. يخاطب الشاعر كتمان في قصيدة له بعنوان «تقبل الشمازي في أي منفس» فيقول:

وأولئك - كنعان - قد عرضوا للشراء

إنه يكلف هذا قيم التاريخ، لا يستشيرهم من يحملون هذه النظم فقط بل يستشير منهم كذلك، ويبرزون الفارقة بين كنعان الذي بقي ولهم ما معنى أن يعرض أهله للبيع والشراء، ومن يزعمون أنهم يحملون قيم التاريخ، ولا يفهمون ما معنى أن يعرض أهل كنعان لمصفحات البيع والشراء. إن هذه اللغتي مكتبة كلها في هذا الخطاب الذي يتوجه به صاحبه إلى كنعان الأصل والتاريخ والمراعاة. إلى الشاعر بلع في كثير من أمثاله على أن يظل كنعان التاريخ والأصل، من بين أحضان الجغرافيا ليحفل ملكته للأرض كالجغرافيا التي لا تقبل التحول، يقول الشاعر:

كنعان يخرج فخرًا

كمر حصة في حجر

ويقول:

و كنعان يحل وحرر وسط الأرض

وأكثر من ذلك، فإن ديوانين من ديوانين الشاعر يحملان اسم كنعان هما: كنعانيات، وروحيات كنعانية.

أما كنعان (الشعر) فقد ورد في كثير من قصائد الشاعر. يقول في قصيدة له بعنوان «مروج الكنعانيات»:

الكنعانيات يحسن

يصلون على الحبل المرسى بجمع

المروج بسيف الأعداء

المبتل بسيف الأعداء

إلى أن يقول:

ويكون وأطش زغاريد الزبون

الزبون يعني الزبون

سحر الحرف في عينه

قالت إحدى الكنعانيات، هذا دمه

واشتقت قرات الطبل

أبا دمه الذهب على حيطانك يا بيروت

ولما (كنعان) قصائد طاهر في قول الشاعر:

حينئذ كنعان ملتحيا بالفرج

يظهر البصر على كعبه

على قوس الشهب ليلة الانبعاث

ARCHIVE

وسمحت صناديق طحني.. وجبهة من حرير

يعيش كنعان

كشيرة من زجاج وعبداء عاصيات

في هذه السطور الشعرية بعض سمات كنعان، فهو يجرى مائتعا بالظوح، لا يقصد بذلك عباس القبية قطعا، فلبنة عمان أخرى مكتبة في هذا الوصف: فببعض التلحيز هو الظل، والصفاء، وببعض التلحيز هو الذي يغمر الأرض، فيلشر عليها من صفاته، حتى لا يورى من الأرض إلا صفاء البهائم ونقلاؤه، ذلك الصفاء الذي لم تخالطه الألوان فتعبر من طبيعته. هذا هو شأن بعض التلحيز، وهذا هو سميت كنعان، (وكنعان) يظهر الهمام على كنفه، لأن وداعته مثل وداعة الأرض نفسها التي يحيط عليها الهمام، ومثل وداعة الأشجار التي يظهر إليها الهمام، إنه - باختصار - الحالة التي تلحظ فيها سمات الإنسان بصفاة الأرض التي هي له، وهو منها في الوقت نفسه، هذا، والرمز التلحظ في شعر القصيدة أصناف شتى، وفيما يأتي شرح موجز لأهمها وأكثرها دورا في شعره:

١- التلحيز الرمزي (١٠)

القصيدة بالتلحيز الرمزي، التلحيز أن الشاعر يستعمل رمزا معينا، ثم يشرحه في الحاشية شعرا، بطول القصيدة، أو في أول من وحيته الهامش في ذيل القصيدة^(١٠)، ليس المهم في هذا السياق أن يشرح الشاعر تلك الرموز في الحاشية، بل المهم في هذا هو المنصود من التلحيز الرمزي، التلحيز، يكون التلحيز الرمزي مديلا للذات، شرح شعرا في الحاشية يرمز لغيره، في قصيدة موسيكا قبل الطور - بعد الطور - ستة رموز مكتبة، شرحها في الحاشية، هذا واحد منها:

قال الشاعر:

ويزني عند طرخ السلام

أما طرخ السلام فقد جئت الشاعر رمزا ليل الوابي إلى السلام والحب والمودة. وقد شرح هذا

الرمز التلحيز بالتذييل الآتي:

لأنك تشهد لنا من الآخرين

تدله نية شرا باني القصود

يظنون أنواعم من القصود

وأنا أترك اليت في القصود

أخبر له كبراء الرحيل

وحيز الطول

(١٠) مصطلح وحيته لدراسة أحد النماذج الرمزي

(١١) عن القصيدة القصيدة: الأفعال الشعرية، ص ١٠١

والنمل من حرقتي نكتة

والتيه لها حرفة الطيبين

هذه السطور تشرح سبب ابتزاز العدو للرواي السليم التوبخ: فهو يبتز ويصرف أرضه - لأن هذا العدو:

1- لا يملك الأرض ولا زيتها: ولذلك فهو يشهد الزيت من الآخرين تكليفاً ضخماً. أما الرواي فهو يشرب الزيت من المصبرة لأنه يملك الأرض ويؤتيها.

2- ليس عليه من الزيت ما يضيء في ظلام الليل: أي أنه كئيب يمشي في ظلام دامس دون وصيد حضاري. أما هو فطارق في الزيت الذي كان يضيء به في الظلام. وهذه إشارة إلى الإرتعاض الحضاري للرواي. وعدم وجود إرث حضاري للمغتصب.

3- المغتصب يريد أن يصادر كل شيء، حتى النصوص فإنيها لا تسلم من المصادرة والتصرف. عندما يصرها لمصلحته ويفسرها كما يريد، وهو يتعمد مثلكه تزوير الحقائق التاريخية. وقد وردت كلمة (أعدواهم) سخرية واستخفافاً. ومع ذلك، فإن هذا الرصيد الذي يملكه الرواي من الأرض والحضارة لم ينجح كهرباء الرحيل والتشريد من أن تستغله: اليميش في حرفة هو والآخرين من المستضعفين من أمثاله.

4- التكيف البشري الخلق

المقصود بهذا التنوع من التكيف أن يكون التوصل منطقياً منطقياً أو تاريخياً، أو آراء سائفة. وذلك كما هي قول المصبرة:

ARCHIVE

جندني كعدائي جندل دوي

بوزع الحروف الجديدة والفئات غير الدارجة

قبل جاء على فارس من عصر

وعلى مركب أبيس من كريت

قبل، سر من اليمن في سفينة أجنبية

يعرض الشاعر هنا مسألة الأصل الكنعاني للفلسطينيين، فيجعل ذلك رمزاً مثلاً يلقبه بأراء وحقائق تاريخية: فحصله بمروءة منجولا، وعبر عن هذا التحول بأن وصفه بأنه «بحار دوي»، أي خرج به من التحول في الصحراء الذي قد يكون ضياعاً. وقد جعله شعاراً: لأن الإنجاز من وعلم ووصيد حضارة. وجعل الشاعر كنعاني بوزع الحروف: إشارة إلى ابتكارها، واللغات غير الدارجة: إشارة إلى أن الكنعانية كانت أصلاً لعدد من اللهجات العربية عبر الدارجة «البالدنة» ثم يشير إلى بعض الآراء في ميث كنعاني: إذ قيل إن أصله من طب الجزيرة العربية. وقيل إن أصله من اليمن، أما القول الذي ذكره الشاعر، وهو أن أصل الفلسطينيين من جزيرة كريت، فقول لا يستند إلى حقائق علمية ثابتة. ولكنه رأي يأخذ به بعض المؤرخين.

(*) مصطلح يستخدمه لدراسة أحد أنواع النصوص.

أدلة شعيرة النجوم، وصف الشعيرة ٢٠٠ شعر من أدلة الشعيرة

وعلى كل حال، فإن التكليف الرمزي للشمع يخلق حيناً كبيراً من شعر الشعيرة. ويكفي هذا المثال الذي ذكرناه.

١- التكليف الجبري الشعيرة

يقصد بهذا النوع من الرموز ما كان منه مكلفاً ومنفصلاً في أن يبدأ، وذلك مثل قول الشعيرة:

بالأخضر كذا

بالأخضر كذا

بالأخضر كذا

بالأسود كذا

يقصد الشاعر أن الشهود قد كمن بالحياة الفلسطينية كلها: بالزيتون الأخضر، ودم الشهادة الأحمر، والصماء والنفاء الأبيض، والحزن الأسود.

وهذا النوع من الرموز المكلف شائع جداً في شعر الشعيرة. وهذا المثال يكفي لبيان والدلالة عليه.

٢- الشعر الحكائي

من خصائص شعر الشعيرة أنه يحمل الحكاية رمزاً لغزياً من الحياتي. وكثيراً ما نجد الشاعر قد ألف حكاية، يرمز بها إلى المص الذي يريد، من تلقاء عقله فوله:

الأخضر أوعديني، والأخضر حين يقول:

يقول ما قاله حينه المحزون

والأخضر حفر للأرض

حقيق الشمس المحزون

الأخضر صوت المحزون الذي

وصوت الإنكر

الأخضر مرسل النار إلى النار

والأخضر يولد حين يموت

فالأخضر هنا هو الزيتون. هذا الزيتون الأخضر بعد، ومن خصائصه أنه إذا وعد، صديق وعده، وكان وعده مثل وعد الحبشية الخضراء. وهي الأرض الفلسطينية الخصبة. كل شيء في فلسطين أخضر، بأشجارها، والحجارة البركانية السوداء، وشمسها، فالخضرة والخضرة والغطاء هي التي تبعث الحماسة والقوة في أبنائها المتوقدين حماسة وحرارة وإيمان. هذه الخضرة هي الحماسة التي تظل مستمرة في وجه الحماسة هو الأخضر يولد حين يموت. فهو مستمر في حياته، دائم في وجوده، ولا يستطيع الموت أن يمسحوه.

(*) صليح وشعة لبيت أحد أنواع النجوم.

٦- مضامين الرموز

من المفردات جدا أن نجد الرمز في شعر المقاومة مصدرا لمفردة من رموز لتواليده منه، وقد سميت هذا النوع من الترميز بمفردة الرموز، أو الرموز التوالدية *generative symbols*، وحتى نوضح هذه القضية بمثال من شعر المقاومة ننظر في قصيدته «يا غيب الخليل» التي جعلها أما لأحد فوائده وظوايا لذلك الديوان:

لقد جعل الشاعر غيب الخليل مثالا للحرية والإباء ورمزا لهما فقال:

سبعين عمر ليل الصيف أفتة خيلية

تقول، تقول، يا غيب الخليل الحر.. لا تشر

وإن أثمرت كن ساء على الأعداء لا تشر

هو رمز الخليل، بل الفلسطيني الحر، ولهذا وصفه الشاعر بأنه حر، ولما كان الأمر كذلك فهو مطالب ألا يشر، وإذا أشر فليكن صما على الأعداء. هذا رمز لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الفلسطيني كما قلنا، ولكن الشاعر جعل غيب الخليل ورمزا لهذا المعنى.

بعد ذلك ولد الشاعر من غيب الخليل مجموعة من الرموز، فقد جعل نداء البهاجين عليه هي الزناد، ورمزا لمن يبعوا الديار بمن يفسد، كالفن الذي يستلجح أي إنسان أن يفسده لما أراد شواءه من الغيب الخليلي. وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

غيب خلداني وإباده دأبني في الزناد وثاني عروني

لأن الغيب

يرثني من نور الغيب

لقد جعل الشاعر بحر الغيب رمزا لمفردة البهيج، أما كيف كان ذلك فهذا بيانه. إن البهاجين ينادون فباكين «يا غيب... يا غيب أي يوزن، فاعلمن- فاعلمن، وهذه التضمينية هي لفحولة بحر الغيب، وهذه المفردة التي رمز إليها بالغيب هي التي أجبرت على البهاجين أنهارا من الغيب.

ثم ولد الشاعر من غيب الخليل رمزا للحرا فقد جعله رمزا إلى عمل الانتقام في الأرض، فجعل الغيب الخليلي ضاربا في أعماق التاريخ، فقد كانت كروم غيب الخليل للكتاتيين:

من دبح كروم الكتاتيين

ثم أخذ يصف، شرح خليلي من بني حليم لسلالات الغيب، وكيف تمتد سلالات الكرامة كما تمتد التاريخ، يشير بذلك إلى قدم القدماء الإنسان الفلسطيني الذي غرس كرامة الغيب في أرضه وبهذه:

كأن حبي يهر بعله في أول حيط الحجر

يلوح لي عن سلسلة من نسب لسلالة أجداد الكرامة

بثغر بالزمن والطول والطهر والأساء

ARCHIVE

أشعار حسان بن ثابت، وديان الحارثية في ضوء من أدب الحاضرة

والختار الخليلي الذي ينسب إلى بني نعيم اختيار موهب: لأن أولئك من قبيلة عربية قديمة هي الجزيرة العربية. ثم إن التفرق باللون، وبالطول، وبالعمق، وبالأسماء، إشارة إلى حسان الإسماعيلي الفلسطيني وسكانه وقسماته.

وولد الشاعر رمزاً آخر من غيب الخليل: فجعله رمزاً لبعض علاقاته الإنسانية بأرضه: فهي التي تأكل من شهراتها، وجعله كذلك رمزاً لبعض استغلال أهل الأرض لأرضهم فقال:

الخليل نضله في الصباح زيباً وديماً إذا كان
مليته صانها كينيات الشاعر
لكم لا تعار من الورق من حبرة الوجدتين
ولبن القوام

أما الآخرون فلا يحسون استغلال الأرض: ولا يعرفون كيف يستثمرون الأرض الفلسطينية. يقول الشاعر

وحسن الأعالي ب تمشيتا كرمه تتحلى خلاصتها في الزمان
فرورها في الصواني
إذا حل هذا الصبح على الكائنات
وتغلطها في دوسر
في عيد عيسى عليه السلام هذه الأبيات

وهذا رمز لما يعلقه رواد الحاضرات في حفلات عيد الميلاد الجديد، في الوقت الذي يفشلون فيه مما يخطط لهم أعداؤهم.

هذا الأسلوب من توليد الرموز، بعضها من بعض، يتجلى في كثير من القصائد من العصر المين الحاضرة.

٧- الأبيات المتشابهة

يكون الرمز التشبيهي عندما يستخدم الشاعر عبارة مأثورة أو نصاً من القرآن الكريم، أو الحكم، أو العبارات المحفوظة، وهذا الرمز يرد كثيراً عند الحاضرة من ذلك فسنسوله في قصيدة الصبر:

وما ربيت إذ ربيت ولكن الله رمي

فقد جعل الشاعر الآية الكريمة «وما ربيت إذ ربيت» ولكن الله رمي» رمزاً لأمور عدة منها:

أولاً: إن الرمية كانت مستعدة لأن الرامي هو الله عز وجل.

وثانياً: إن الصبر الإسرائيلي الذي خرج في السلاح هو الصبر، والرامي هو الفؤاد.

ومن هذا القبيل قوله في قصيدة «أضاعوني»:

تأليف: مناجاة النجار - د. عبد الحميد بن عبد الله النجار

لقد انشط الشاعر كلمة «امر» من قول امرئ القيس: «وشما امر» لأنه لا يريد أن يورد على لسان من يفهم، وهذا بآي أمر مهما كان. كأنهم في نظره ليسوا من أهل ذلك، وما ينبغي لهم. وفي القصيدة نفسها تضمين آخر من قول المتنبي:

لا يسلم الشرف الرقيق من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
فقد قال الماصد:

وسمعت والياً يقول: وغيره
فيها الفتى

لا يسلم الشرف الرقيق من الأذى
حتى تراق على سانه الخطب

هذا رمز شيعي يحمل بين طياته ترميزاً واضحاً. بمن الشعراء الأمة من خطبهم الرنانة. وعلى ذلك ما قاله الشاعر في حديثه عن كافور:

بكي للمتنبي ولهاو
حديثاً عن خلة كافور

قال: يحب طريح الشعراء ويكرههم

هذا، إن عبارة «يحب مديح الشعراء ويكرههم» ليست عبارة معشوشة بنسبها، ولكنها معروفة بعموميتها. فهي في حكم الترميز المعشوش. أو هكذا أفرجه المصاحف. فقد كان كافور يحب مديح الشعراء ويكرههم. وعلى ذلك يجري هذا مجرى عبارة «يكرههم» وقد استعملها الشاعر لتكون رمزاً، لأن المقصود هو التكبراء الذين يحبون المديح، ويكرهون الشعراء.

الخطب الثاني: الإسقاط التاريخي

أعني بالإسقاط التاريخي أن يستحضر الشاعر شخصية معينة من التاريخ، ليستقط عليها بعض ما يجري من الأحداث المعاصرة. ولشعر عز الدين القصاصه فيه كثير من الإسقاطات التاريخية. فقد اقتبس هذا من الأسماء التاريخية، وما جرى معها، وصرف ذلك كله إلى الشخصية التي كرس شعره كله لشخصها.

والإسقاط التاريخي متصل بالرمز التضميني. لكننا سنركز في دراسة الإسقاط التاريخي على سمات الشخصية، والأحداث التي جرت معها. أكثر من تركيزنا على دراسة ما بهنم بدراسة الرمز التضميني.

استحضر الشاعر شخصية امرئ القيس، ابن ملك كند. وما جرى له بعد مقتل أبيه، وضياع ملكه: إذ توجه إلى ملك القسطنطينية، ليستعين به في الثأر ممن قتلوا أباه وألوا دولته. لقد ذكر الماصد امرأ القيس، وقصة انصرافه في البلاد، ساعياً إلى ملك الروم، في أصداء متعددة. فهي قصيدة له بعنوان «هنا بك» (وهناك أول كلمتين في معانيه امرئ القيس). يجعل الماصد هاتين

الكامنتين مبرراتنا لتفاهيس بكاء بيكاد^{١٩}، وشفتان ما بينهما . فاصول الشمس بيكي ولا بكفت عن المطالبات
بالثقل قدم أوبه . وإنما مكافئنا نحن على ما أضعنا فالأمر مختلف جداً؛ ذلك أنه:

ستريح لعلها من شمول الرخاء
ما طوي مع الكليل لو يسع الرمل وقع خطي النداء
فحور السماء تراقبنا في السماء

هناك سعي، وهنا تعاقب حاملات . ويكفي أن تكون (المالب) للدلالة على ما أوداه الشاعر، فكيف
إذا كانت تعاقب حاملات^{٢٠} من ذا الذي سيقلب بالثقل ساعته؟

واستحضر الشاعر شخصية امرئ القيس في قصيدة أخرى عنوانها «امرئ القيس يصل فجة»
إلى ضلالت الجليل، ومما قاله فيها:

صرخت: ولمر يستجب لي أحد
ليس وحيد غير اضطري
صرخت: ولمر يستجب لي أحد
ثم قال:

لهم فتلوا والذي ولا شارد في حديثنا اللغات

من المعلوم أن لامرئ القيس حبيبة اسمها فاطمة، ورد ذكرها في اللغات،
نحدث من الذين المعاصرة من فاطمة أنه فقال
أخطر مهلاً بعض هذا الضلال

وإن كنت قد فرغت عرس بالليل
كان عرس هذا الحليل واطمة الآن
تفتح باب الطلوع:

حذوها وخلاخيلها والخطور

وتسر ألا تكون زور الضحى

وإنما صرخت أنها فاطمة امرئ القيس لا غيرها - لأنها هي الموصوفة بأنها زور الضحى - هي
مطلقة امرئ القيس: «... زور الضحى لم تنطق عن العمل».

وقد جعلها المعاصرة تقسم بأنها إن تكون زور الضحى - إشارة إلى اللفظة التي
استخدمتها موهباتها.

واستحضر الشاعر زهاء الهمامة الفتاة العربية المشهورة التي كانت تبصر الأشياء من أمثال
كثيرة. استحضر الشاعر شخصيتها، وجعلها رمزاً لمن كان يرى الوقائع المظلمة، والويلات الكثيرة.

(١٩) «سجلت ليلة امرئ القيس» هذا بيت - (أبج ليس بكاء - على حذائك أوبه - في السلك - على الأختال - ومع ذلك عند نقل الشاعر
هذين التكرارين، واستخدمهما القوم الذي أرادوا استحضاراً وإعلاء.

تأليه مقامات البيت، وروا، المتأخر مع شعر من البيت المتأخر

قبل ان تحمل بالآلة، فيضربهم بها لئلا تحبوا حذرهم حتى لا يلعنهم الأعداء على حين غرة. وقد سمعنا الشاعر جفرا الكتعابة.

فقال في قصيدة عنوانها "روفا التعمية":

لكن يا جفرا الكتعابة

قلت لنا إن الأشجار تسير

على الطرقات

كجيش يحشد تحت الأتار

أقرأ سطرًا سطرًا رقت الثوب

لكن يا رفاة العبدن يا هبة عنتنا الحمراء

كنا نلث في صحراء التيه

كيدلي منكسر على مائدة الأعمار

والهذا ما حدثك سواي، لهذا كنت الناجي

واستعصر شطمية الألفه الأودي الشاعر المعالي المروفا، صاحب القول المشهور:

ذهب الذين أجمع وبيت مثل السيف فردا

استعمر القاصرة الشطر الأول من هذا البيت، وجملة عنوانه إحدى قصائده التي يشكر فيها

شجاع الوطني.

وطني يصيح ولا أفرأ

أه من الليل الطويل

ذهب الذين أجمع

وبيت مثل السيف فردا

واستعصر شطمية صداقه المرجي الذي قال:

"أنا هو، ولي حتى أضعوا اليوم كربة وسدات نحر"

وجعل عبارة "أنا هو"، عنوان إحدى قصائده

واستعصر شخصية أبي معمر التقي، وجملة رمزا للمحروم من أرضه، المنزوعة منه وسائل

الدفاع عن أرضه ووطنه.

لقد كان القاصرة شغفا باستحضار الشخصيات من التاريخ العربي، يني عليها رموزا، ويقيم عليها قصائده، بدلا من أن يلجأ إلى الشخصيات الأسطورية في انتقاداته الأخرى. كما فعل آخرون من الشعراء. لقد شق القاصرة طريقه إلى تمثل الثقافة العربية في شعره، في مرحلة مبكرة من حياته الشعرية. ولقد علم على كثير ممن عاصروه في هذا الحال. وربما كانت ثقافته التي تحصل شيئا كثيرا منها من دراسته في دار العلوم، قد فتحت له هذا الباب؛ ليدخل منه بشخصية

مستقلة، وليس مميز. ولا شك في أن اطلاعنا على المجموعات الشعرية العربية، ومنها ديوان الحماسة وغيره، قد أسهم في بناء توجهه هذا.

الخطبة الثاني: الإيقاع الدرامي

تكثر الإيضاحات الدرامية في شعر المقاصد إلى درجة يوشك فيها ذلك أن يكون هي عامة شعراء سمة مميزة. وسنأتي إليها. وسوف أوضح كيف يكون القصيدة الواحدة بلقوان شتى من الإيضاحات الدرامية المتفاوتة في تدويرها وإثرائها. فكل قصيدة عنوانها «منجبة تدور حول نفسها».

إن الدوران حول النفس صورة درامية تظهر الإنسان، كإنه مركز الدائرة في هذا الضيق. ذلك أنه أصبح يحيط به من كل الجهات. فإذا طبقنا ذلك على المدينة. وهذا هو الذي يبرهه الشاعر: «كانت المدينة غارقة في عدم معرفة ما تريد، وما يراء لها، يقول الشاعر في هذه القصيدة:

قريباً من المجلس البقي

حيداً عن المجلس البقي

لنكأن على حائط بارد

مثل خيرة السج

كنت وحيداً وبخبري اليأس والوجع والأحزان

في هذه السطور صمدان كبيران: أحدهما الإيقاع الدرامي والآخر: الإحاطة بظهور في القريب والبعيد. أو الأني والاقصى. فلا القريب من الهيئة المتكاملة التي يعقها المجلس البقي. ولا البعد عنها. منه من أن يهاجر، فيكأن على حائط بارد. لا يقيه من البرد. وظل الراوي - باعتباره ممثلاً لكل من في المدينة - عذالما. وظلت المدينة تدور حول نفسها. فاستوى القريب والبعيد عن المجلس البقي. في عدم القدرة على إنقاذ المدينة. من أن تدور حول نفسها. هذا ضرب من التشكيك يجعل الضمير هو الفرد الذي تدور المدينة فيه حول نفسها. وتكون النتيجة أنها لا المقربون فقادرون على أن يفعلوا شيئاً. ولا البعيدون عن المجلس فقادرون على ذلك. فهو صياح من هذا، صياح من هناك. صياح من كل اتجاه. هذه إحاطة واضحة ذات إيقاع درامي.

هذا كله لا يخلو من الإيهام: إيهام بأن المدينة والتناقض الكوحدية هي المدينة لم يتبداه. ولا انقطاً أهلها. من الدوران حول النفس. وإيهام بأن أهل المدينة يدورون يدورون الزمان. حتى أصبح الواحد منهم قريباً من السقوط. ومن أجل الإنقاذ من هذا السقوط جاء الفعل «الكلمات» ليكون صمنا على البناء والاستمرار. مهما كان البرد فيها صعباً.

وشمة قدر من المفارقة يظهر في ذلك: فكلما ضعفت عن الوقوف أو القيام فإنه يستند إلى جدار قوي. ولكن الجدار الذي استند إليه الراوي منكلاً عليه بارد. يعني أنه ليس فيه قدر من

حرارة القبور، يتفاعل به من يتكلم عليه، ويستند إليه، وهو هنا يشير إلى الحائط الذي ارتكأ عليه الفلسطينيون، فما وجدوا فيه غير البرودة التي هي هنا انقطاع الماططة.

وهي الأبيات تصمد، يتمثل في تشبيه الجدار البارد بمقبرة السطح، وهو تصمد سلبياً، لأنه يصمد الظاهرة السلبية - وهي برودة الحائط من حيث إنه لا حرارة فيه - هي المقبرة التي لا حياة فيها، فبدلاً بالجدار الذي لا حرارة فيه، لينتهي إلى المقبرة التي لا حياة فيها، بل هي رمز الموت والعدم، وما كانت المقبرة هي منيح العمل إلا من أجل أن يجعلها الشاعر محطة طاعنة.

ويظهر التصمد في قوله: كنت وحيداً وحيداً، فليس التصمد بتكرار الكلمة تأكيداً بأنه كان وحيداً، ولكن في ذلك دلالة على التصمد بدرجة التوحداية وتصمد استمراريتها.

وهي الأبيات تعدد الوصف الذي يظهر في قوله: وينظرني الهم والهم والانتظار، أي أن مشاعر المعاناة كانت تدور في ثلاثة أطر: أولها: الهم مما كان قد وقع فيه - وهو هنا يشير إلى الهموم التي توالى على الشعب الفلسطيني، وأما الهمم فيتمثل الحاضر الواقع، من حيث إن أبواب الحياة الكريمة قد أصبح مغلقاً، فليس هناك أمل، وأما الانتظار فهو باب أمل من العذاب، ولكنه يمثل المستقبل - ولذلك يكون الشاعر قد حمل المذابح موزعاً بين ماضٍ (همم) وحاضر (وهم) ومستقبل (انتظار).

ويقول الشاعر:

الفرق بين الخليل وبين الخليل
جسور ترقى جزراً من جهة
ونجسها حول مائدة الملاح والانتظار
خرت نرجس في لحظة
أن حراً
وراء المدينة حتماً سباني
رليت الحصر قرائب ألقا
من الزهر والكبرياء
وقال حنيني
الذي يحسب الاحتلالات
زار بخنصره بعد زلزل

استعمل الشاعر في هذه السطور أسلوب الكسف والتغطية لإيصال فكرته، أما الكسف، فيتمثل في المقارنة بين الخليل ومدينة عربية تشبه الخليل، فكانت كل واحدة منهما الخليل، من حيث تاريخها وديموم أبنائها، فليس بين الخليل والدة المدينة سوى جسور الوحدة، أما التغطية فواضحة، هي كون جسور الوحدة هذه غير ماضية، فبدلاً من أن تكون جسور وحدة أصبحت فاصلة بين دولة

والأخرى، وبين سيطرة وسماحة فكانت جسور قطيعة وجفاء. إن جعل الشاعر جسور الوحدة جسور
فرقة صوب من الإيحاء الدرامي. وقد كان من نتائج هذه الفرقة أنهم جميعاً يجتمعون على مآكل
واحد، في مائدة واحدة هي الفخ، وعازال الجميع ينتظرون مائدة ذكيتهم من السماء.

أراد الشاعر أن يستعمل أسلوب «الكشف» مرة أخرى فقال: نظرت والنظر وسيلة البصر وطريق
للإدراك، ثم عاد ليخطي ذلك فقال «توهيت» فكأنه لم يجعل للتبصر شريحة إيجابية، تتفق مع
توجيهه في درامية الحدث. واستعمل «الكشف» مرة أخرى، عندما جعل الجماهير - وهو هنا يعني
الجماهير العربية - تتربص فتصا بعدها، أو تغييراً إيجابياً، لما عطي الشاعر ما يمكن أن يؤدي إليه
البصر من إدراك حقيقي حين قال: نظرت. توهيت، يتخل مع توجيهه في جعل الحدث درامياً.

واستعمل الشاعر الأسلوب نفسه من التكلف حين قال:

رأيت صغرة ترتب لها

من الزهر والكبرياء

ثم عاد ليخطي ذلك فخطيه. حين نسب إلى صديقه قوله.

وقال صديقي: الذي يحسب الاحتمالات

زائر بشاره من بعد زلزل

فهو لم ينسب الحكم إلى نفسه، بل جعله يجري على لسان صديقه: لا لأنه هو نفسه يتروى في
إصدار الحكم، ولكن لأنه يريد أن يجعل في هذا الإيحاء حركة تزامنية يشترك فيها هو وغيره،
حركته هو. بالمعياره ناظرًا هي الحركة السلبية للجماهير التي تتكلم بالترقب والانتظار، وحركة
صديقه ذات الإيحاء الصامتة والتي جاءت على شكل حكمة لتقتصر الحدث، ولتؤدي إلى قانون
كوني احتمالي. هو أن جعل التعبير مجرد احتمال قابل للتفوق وعدم التفوق، إنما هو تعبير عن
تقدير الجماهير. مجرد تقدير ليس إلا.

ويقول الشاعر في القصيدة نفسها:

ظرت إلى حبل الوحش

كبت البليات فربما جلت

ولكن - وقامت جموعي العرا

ولكنه صابا ظل، ثم انظر إلى صغرة

كفي أخاها أوطا

ثم أحصها ثابا

وأفها ثابا رابا. حسا

وأفها سابا

وأفها سابا

ولقد أنشأها شمس
شر أرواسها ناسخا
شر أعدي دمي لعصافيرها عاشر
لمحبك لينة كالصمينة بين يديك
ضفر كها بالراحين والمين والبرغال الحزين
وهرا شعرا مصغرها أو المسور
ضطت: انكثت على القلب أعصره كالمسور
أناضت وقالت: أما زلت عني
بأن التراب يدور

إنك لتتسم بالإيقاع الدرامي بينما في صروق كلمات هذه الصطور! فالوحش جبل «تطورت إلى جبل الوحش»، والتباينات فروعها جشار، ولكن هذه التباينات الجميلة مجرد بلاغات، ليس فيها من يحس، وليس فيها من يحبيب، ولذلك أهدت المؤلف على الشاعر «وقاضت دعوي الغزل».. حدث هذا وصاحبه صامت ينشر إليه: كذا الإيقاع الدرامي إنما يكون بالبناء، كما حدث مع الشاعر، وبفصحة الصمت: كما حدث مع صاميه الذي أشار إلى الصطرة (يرمز بها الشاعر إلى أهل الأرض)، والرمز بالصطرة يدل على الصلاة والقوة والتمتع، مثلما يدل على رسوخها في الأرض، ولذلك لا يكون من السهل اقتلاعها منها.

أنشأ الشاعر - باعتبار «أول» علاقة إسجدية متدرجة بنية وبين تلك الصطور - والشرح ينشئ إيقاعا متدرجا «الغزالة أولا من أجل إقامة جسر للعلاقة، ثم تكون الخطوة الثانية بعد ذلك وهي الاستعلاء التي إذا حدثت ضلها إلى صدره، وكل واحدة من الخطوتين الأولى ذات حركة واحدة، أما الخطوة الثالثة فهي ذات حركة متكررة، كل واحدة تكون الشد بمرارة من ساقها «والظلمة» رابعا، خامسا، وهذا في ذاته تصعيد لحركة الإيقاع الدرامي.

لا يطيب الفراق إذا ظل فراقا استثنائيا لا حركة فيه. ولذلك تبدأ حركة الد والحزن في فراق الشاعر الروي، فراعاشها سائسا، وأصالحها سائما، والمصالحة التي تلعب المعادة تجعل الحب أكثر فاعلية وحركته أشد إيقاعا.

يستمر الإيقاع في التطور، حتى تصبح الصطرة ذات كيان إنساني، فيصبح لها أضلاع تصمد بحبال الحب، وهذا كله، وإن كان كثيرا، غير كاف، إذ لا بد من أن يؤخذ هذا الحب بالتزامياته، وضوابط ميزاته، فيستشهد الإنسان في سبيل هذه الأرض.

ويستمر الإيقاع الدرامي في النمو على هذا النحو، فيتحوّل الدم ذو الصنوان إلى فاكهة تاكلها المصافير، ثم يتحوّل الروي المسكون بأحلامه وحيه، وإذا الحب كأنه ضروب من الهديان، من شدة صفوانه، أناضت، وقالت: أما زلت تهدي بأن التراب يدور».

يظهر الإيقاع الدرامي منوهاً في قصيدة «يتوهج كنعان». إن العنوان نفسه يدل على إيقاع درامي، فهو يحمل بين جنباته التاريخ الذائب في النسيان. وهو هنا (كنعان) والظنود مرسى في وهج اليهك من الموت والرفود. هذا كله يجعل إيتاعلت دراسة مثبتة على التماثل بين سكون الموت وحركة الحدث.

يقول الشاعر في هذه القصيدة:
أحلول، دار وحاكورة ومساء
سمعت الجند يتولون
أين الذي قد من جبل
واستعذت من غربة ورغبت وركنا
ورائي حنازير مية
شر رائت تراك مثل النيا
وكنعان نخل وحور، وسط إنز
سوف تلج بحرا بهاجر رمل
وتلج موجا يذهب ملوحة هذا المفا
أحلول أن أصبح مولد أمدانا الطين
وكمر حلول البحر شحيل بزائه قد رمل الكلا
أحلول أن أصبح المحر عروحة
قد حلما الصدا

بدأ الشاعر هذا القطع بقوله «سمعت الجند يتولون» أي الذي قد من جبل» من أجل أن يجعل الحركة الدرامية تبلغ غايتها. فالجنود لم يسألوا إلا من أجل تمزيقه وقتله. بل من أجل التشجيع في ذلك، ولذا على ذلك أنهم لما سألوا عنه وصفوه بأنه قد من جبل، أي أنهم سيتمكنون به بمقدار مضاد لصلابته وقوته. وقد استعلا الرومي بزيوتها وأختمى بها: فالزيتونة رمز الخصوبة، رمز الثبوت في الأرض. ثم إنه لم يهرب، بل ركس: لأن الركس لا يدل على انهزام وإنما هو هنا حركة لاتخاذ موقع. وقد كان الجنود خلفه مثل الحنازير البرية. وإنما وصفها بالبرية: لأنها هوج غير مضبوطة. وهو بذلك يصعد إيقاع الحدث الدرامي ويرفعه.

فلت الحنازير البرية نظارده، ولكنه استطاع أن يختم ويتوارى عن الأنظار. يشير بذلك إلى أنه أقدر على الحركة منهم: من حيث أنهم قطران حنازير برية ليس لها أي ارتباط بالأرض. أما هو فيستطيع أن يختم عن الأنظار: لأن الأرض أمه، وهي التي تحلقه بين جوانحها. هذا هو إيقاع الحركة الدرامية في هذه المسطور الشعرية.

تأليف: حسان بن علي، دكتور في اللغة العربية

يقول الشاعر بعد ذلك: «وعلقت ثولدي على الدنيا» لأنه جعل سرعة ولادة النار الشمسطية بسرعة انتشار الدنيا. وهذه السرعة في الولادة ليس شدة ما يشهونها، لأنها - وإن كانت سريعة - فإن الأصول معتمدة من التاريخ. وكل ما على الأرض ما زال يشهر إلى كنعان وأحفاده. ومثابة الأرض له ولهم موطنان نخل وحور وسند إزني، أي أن الأرض كنعانية. وكل ما عليها كنعاني. والتركيز على الانتماء الكنعاني ظاهرة بارزة في شعر الناصرة. وهو بذلك يشير إلى بعدين الأول: أن الصراع بين كنعان وأعدائه اليهود قديم. والثاني: أن التثبيت بالأصل الكنعاني إشارة إلى التثبيت بالأرض.

حتى الآن - التي لها بعد استثنائي - ذات عمل درامي عند الناصرة. عمل درامي يصاحبه إيقاع درامي خالص. من ذلك قوله في قصيدة «دموع الكنعانيات»:

الزيتون، يحنى الزيتون

سهم القوس في حينه

الزيتون الأخضر أحمر

بل دمه أحمر

بل أسود بل أسود

أصفر مثل الكركم

قلت لحدو الكنعانيات: هذا دمه

واشتمت قرات الطبل

لأنا دمه الذهب على حيطان بيروت

إن عنوان القصيدة «دموع الكنعانيات» ذو طابع درامي، لأنه يعتمد الرمان والكنان، فويضي بكاء الكنعانيات على الجاني التي أوتكت. في أماكن ولادة متعمدة. وأما أن الزيتون أحمر، كما جاء في وصف الشاعر له، فإنه يرمز إلى أن الأرض الخضراء قد أوتيت من دماء الشهداء. فترتوي الزيتون منها حتى أصبح لونه أحمر. وأما أن دم الشهيد أحمر، فدليل على أن هذا الدم قد تشرب خضرة الزيتون. وخضرة الأرض. وهكذا تصبح وحدة الوجود - بين الأرض وصاحبيها - وحدة نباتية. يجري في أحدها وورويها، ما يجري في الآخر وورويها. واستخدام الألوان في هذا المجال، يخدم هدف الشاعر في تلوين وحدة الوجود. هذه، فالألوان تحدث وإشراج بعضها بعض. ولباقات مواقع وجودها بشكل درامي مؤثر. أما أن دمه (الأسود بل الأصفر) - فلأن دم الشهيد خزين على ما حل بالأرض وأهلها، من سلب وشريد وسلف دم. فالأسود يشير إلى هذا الحزن. وأما أن دمه أصفر - فلأن الصفرة إشارة إلى الضبط. وأي ضبط هو الضبوط؟ إنه ضعف الحزن الذي أشير إليه بالمواد.

بعد تناول الألوان الذي يشير إلى ما ذكرناه، نلاحظ شدة الإيقاع الدرامي، معطاة في شدة التكرار على الطبل. واشتمت قرات الطبل - ليكون هذا الإيقاع تأهيباً لبيروت التي تطلعت جدرانها بالدم المسفوح. بكل الألوان التي ورد ذكرها في هذا القطع.

يظهر الإتيان الدرامي بالانقراض، وانحسار هي قوله:

بالأحمر كغداة

بالأحمر كغداة

بالأبيض كغداة

بالأسود كغداة

فالكلمة يظهر أربع مرات للشهود الواحد كل مرة بلوناً فكل كلمة بمجموعة الترتيب الدائمة. وكلمة بدعة. وكلمة بمسألة الأبيض. وكلمة بالحرز الأسود.

يبرز الإتيان الدرامي عند المتجذرة. هي الحكاية والقصص. والإطالة والإسهاب هي أكثر قصائده. متشابهان من قبل أن الشاعر يدخل من باب الحكاية والقصص. فبما هي ذكر تصحيحات كثيرة. ويسلم نفسه لذلك: "فيذكر تصحيحات ربما كان ذكرها مما لا يحتاج إليه. ولكن بما أنه أحدث إشباعاً متناقضاً في القصص. جاء ذكر هذه التصحيحات نتيجة لتناقض الإتيان. ملكها هو من تفلح الحكاية والقصص. وفي الحانين. قد يطغى الإتيان الدرامي على الحديث للقصص. ومن أجل توضيح هذه الفكرة أقدم مثلاً لها مما جاء في قصيدة "معاريف الباب العالي". فعنوان القصيدة نصه يوحى بإطالة لأنها (معاريف) ملكها يوحى بأن أحداثاً وإشاعات درامية ستأخذ موطئها في القصيدة. وكيف لا يكون الأمر كذلك. والتجارب مع الباب العالي الذي قد لا يقلل من الفعالية أصلاً. جعل الشاعر يضع لهذه القصيدة مقدمة صعب فيها التعمير أو طلال

كذلك شأني عن بلاد حبيذا

وعن شاعر ملك في الجاهلية

وعن شاعر - لا أقول اسمه الآن -

عاش قديماً وما زال يكتب شعراً

ويشرب لونه في القفا

كذلك عن شاعر في القفا بحور

وعن شاعر عشقه البحر

ثم ختم هذه المقدمة بقوله:

وعن صوت فيروز أن كان يكتب لصدا البحر

الحديث من الشعراء في هذه المقدمة لا يخلو من درامية: قلعة شاعر - والقصود شعراء - لا شاعر واحد - ملك في الجاهلية. والجاهلية هنا هي زمن ضياع البلاد. وإقامة دولة الكيان الصهيوني. فبذلك الشعراء لم يضلوا شيئاً سوى أنهم بكوا على الأطلال. وغزلاً. لا يؤبه لهم ولا لشعرهم لأن الفرق عظيم بين أن تفعل شيئاً، وألا تفعل شيئاً سوى أن تقول الشعر. ولا يفهم

تأليف الشاعر عبد الوهاب المشعراوي مع شاعر من أدبيات الشعراء

الشاعر أن هؤلاء الشعراء قد ماتوا بالضرورة حين قال مومن شاعر مات في الجاهلية، ولكنه بقصد أنهم ماتوا في ذلك العهد: فلا يستحقون أن يذكروا بعد ذلك.

وثمة شاعر لم يفعل له الشعر سوى أنه أضاء فتيهرا. وهو هنا بقصد نفسه: لأنه قال «لا أطول اسمه الآن». ومثل هذا الشاعر ليس متكسبا بالشعر، ولذلك سيظل فتيهرا. وهذا الشاعر يشرب قهوته في القضاء، وهو يعني القضاء المجهول المفلوج أبوابه لهجرة إثر هجرة، ونشرد إثر آخر. ولا يطول الزمن بين الهجرة وأختها، إلا بعدد ما يشرب به فنجان القهوة. هذا الشاعر ما زال يكتب الشعر: لأن وظيفة الشعر عند مختلفة عما هي عليه عند «شاعر مات في الجاهلية». ولذلك سيظل هذا الشاعر يكتب الشعر على الرغم من مواعده: لأن استعمال «ما زال» يعني أنه يفعل على الرغم من مواعيد فواته من قهر ونشرد. ولكونه يتحدث الموانع التي يمكن أن يظن أنها مواعيد لقول الشعر: طين ذلك يوحى بأنه سيظل على ذلك الصدى. ولو طال عمر الفخر.

وثمة شاعر آخر التفت حوله لعدم الطرب والقفا. هذا الشاعر أن يعرف من القضية الوطنية أكثر من أن يكتب شعره ليقبضه التحريم. وقد عرف هذا الشاعر بهذا الصنف من الشعراء فقال مومن صوت فيروز إن كان يلقى لصدا المحبوب.

تصنيف الشعراء على هذا النحو في هذه التصنيفات يوحى بأن الشاعر يريد أن يجعل الإبداع الدرامي الذي يمكن أن يكون أكثر من الأدبي نفسه. جعل الشاعر في التصنيفات، ثم جعل نفسه بين يدي الباب العالي، شعاعه بهذا الحد، يؤهل له فقيه.

جئت من أقصى جبل في الشام

لا أشك إلا ما يملكه أشلي

فراء ونخيل مزهوا وكروم

شر حبات فوق السطح حور

لكني لما جئت كنت طري العود

أرجف كأنك أسقف حبة شعبي

أشعل كالخمر الأصفر، كأنك النمرود

أما أنه جاء من أقصى جبل في الشام (جبل النخيل في جنوب بلاد الشام) فمعناه أنه جعل الباب العالي غاية. هي رحلة طويلة شاقة متعبة. وهذا قد يدعو الباب العالي نفسه إلى أن ينظر إليه بنظر من التوقير والتشفقة. قد يقال إن هذا ليس حقا دراميا. قلت: بل هو كذلك: لأن الذي يأمل أن يجعل قلب الباب العالي بالتوقير والتشفقة، كمن يزعم أنه قادر على تحويل الباب العالي إلى تقيض ما عليه صفاته. وهذا سبيل الوفاق بين بديه صفاته الرئيسية فيه، وهي عدم الإحساس. وهذا نزاع يستدعي وجود قدر كبير من الدرامية التي تتطلب إيقاعا عاليا.

يستعمل الشاعر الباب العالي منزله، إنه لا يملك إلا ما يملكه الناس جميعاً وهو ضوء القمر والنخل (وهو إشارة إلى العروبة الزهراء) وكروم العنب كأنه بذلك يريد أن يستثير فيه الهمّة، فطد جاءه من البلاد التي ذكر الخبرات، وهي إلى جانب ذلك طعمه بصوتها، ويملك الشاعر مصاصيات فوق السطح تحوم، يشير بذلك إلى أنه سيملك هذا الإنسان يملك كل هذا، ولكنه يصف نفسه بأنه لا يملك إلا ما يملك أمثاله، يستمر الشاعر في الضرب على وتر الإيقاع الدرامي؛ فيشبه الشعب الطرود من أرضه بالملكة التي تضطرب حبة الذبح خطفاً من الأرض. وبيت القوم في كل بقاع الأرض، يملأون من ملوئ لهم، وعن لغة العيال، ولكن هؤلاء كالقطب الصرود التي إذا حاصرتها تحول إلى أسد.

بعد الإيقاع الدرامي في هذه القصيدة، حتى يملأ ثلاث دوا هي:

الدوة الأولى: حين يبرز شاعرة الباب العالي، وهو يستعمل للشاعر، ثم يندبر به ويلقي على رأسه حجاراً

صحكت طغالي ركبت بطوشاً

شر جلست أحدث قسي

عن طيرك العلياء كالحمار

لكن يا سراني

أفقت المحر على رأسي وأنا شر

ثم جعله نرجسها سادياً. يلك يذاب الأعين طغالي

طرفت إلي فتدبر الصبابة وقال:

الرجس يفراد

وشحكت على قسي لما شئت نسي في أنبي

كمر تحشش شعري

ورغب لقتني والأخطل والشعر العذري

العرجي والملك الضليل

وإن شئت أن تعجب من مزججة النرجسية لدى الباب العالي، فتعجب لها أن الأطفال -حتى الأطفال- يعرفونها. لشدة وضوحها وقبها، صاحتها. ويسحب الشاعر مقومات الفهم والفكر من حصرة الباب، عندما يقرر أنه ضحكك على نفسه من سماح الباب العالي، وهو يقول إنه يحب الشعر والشعراء.

الدوة الثانية: عندما يمس الشاعر أمره على الباب العالي، فهذا كأنه متآكل بما جرى لهؤلاء

التكويين - يقول الشاعر:

انفطرت قننه أظاً سحارته في طرح القنوة

لعي الماكزي والساحة والأسطر

وبكى مثلي، ثم صغر في بلبسه لم يبق إلا بالصمت
فلله علامات الصوفية والقانة والوراء

إن ظنوا فظنوا

أو صمتوا فظنوا

أو حنوا المكس المشعورا

لقد أظنا الشاعر باقتدار، شحنة ابتاع المحدث، عندما قال: لم يبق إلا بالصمت.

ولكنه عاد فجعل هذا الصمت بابا لشر مستظرا فكان الإطراء نفسه أصبح طريقا للدلالة على

صمت أسوأ من القول والفعل، إنه صمت الفكر والحيلة والدهاء والتدبير، من أجل التدمير إلى

الظنوا فظنوا، أو صمتوا فظنوا.

الذروة الثالثة، وهي ذروة ما بعد الصمت، ولكن هذه الذروة سبقتها الشاعر نفسه هذه الذروة

إنها إذن بعبارة مرحلة جديدة:

أتيتك وأخلى بة الرحيل

سأنتيك قبل الرحيل وبعد الرحيل

فأما كما ترحق الحجر قبل عويل الشجر

سأنتيك في الشعر المحزون

سأنتيك تكبروس وجه، يذوق العسل

أما أنه سيأتيه قبل الرحيل، فبأنه يريد أن يذوق له ما يذوقه العسل. وأما مجيئه بعد الرحيل،

فهذا هو إسدال الستار على نهاية المسرحية، ويكون ذلك كما نرحل نحن، فينتشر عويل الشجر

الذي سيحرق الأخضر واليابس.